لبنان والبلدان المجاورة

جواد بولس

رئيس الاكديمية اللبنانية

طبعة ثانية منقحة ومصححة من المؤلف

رئيس التحرير : سيمون عواد

مؤسسة أ. بدران وشركاه
للطباعة والنشر
بناية العسيلي – شارع السور
ص.ب ٢٦٧٦ – تلفون ٢٢٩٥٢٠
بيروت – لبنان

DU MEME AUTEUR, chez Mouton & Cie, Editeurs,
La Haye, Paris, Londres.

LES PEUPLES ET LES CIVILISATIONS DU PROCHE-ORIENT

**ESSAI d'une histoire comparée,
des origines à nos jours.**

5 volumes, 2.110 pages, 1961-1968.

T. I. *Des origines à 1600 avant J.-C.* — 1 vol., 430 p., 1961.

T. II. *De la ruine de l'Empire Hyksôs à la conquête romaine* (1600-64 *av. J.C.*) — 1 vol., 430 p., 1962

T. III. *De la conquête romaine à l'expansion arabo-islamique* (64 *av. J.C.* - 640 *ap. J.C.*) — 1 vol., 400 p., 1964

T. IV. *De l'expansion arabo-islamique à la conquête turco-ottomane* (640-1517) — 1 vol., 550 p., 1964.

T. V. *Le Proche-Orient ottoman* (1517-1918) et *postottoman* (1918-1930) — 1 vol., 300 p., 1968.

المحتويات

الفصل العاشر ١٩٩

فينيقيا في عهد الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية (٦٤ ق . م . — ٦٤٠ م .)

القسم الثاني ٢٢٧

الحقبة القارية أو الاسلامية

من الفتح العربي حتى يومنا الحاضر (٦٤٠ – ١٩٤٦)

مقدمة

عندما أفكر بالأبعاد الكونيّة التي تقاس بملايين السنوات الضوئية ، وعندما أسمع من الذين يدّعون المعرفة أنّ عمر الأرض ألفا مليون سنة ، وعمر الانسان عليها ما بين مليون وثلاثة ملايين من السنين – عندئذ تتضاءل في نظري قيمة كلّ تاريخ لا يعود بالانسان الى الوراء إلاّ بضعة آلاف من السنين .

إلاّ أننا ، اذا لم يكن لنا البصر الذي يمتدّ الى الأزل وإلى الأبد ، فنحن مكرهون أن نروي لبعضنا البعض ما كان من أمرنا مع الطبيعة ومع بعضنا البعض في المدى الضيق من الزمان والمكان الذي يتناوله وعينا وتسجّله ذاكرتنا ، والذي نرويه هو ما درجنا على تسميته « التاريخ » .

وجواد بولس ، صاحب هذا الكتاب ، هو من أساطين التاريخ في شرقنا العربيّ ، وله فيه جولات واسعة وجريئة ليس هذا الكتاب إلاّ واحدة منها . فالتاريخ عنده هو أكثر بكثير من سرد أحداث وقعت هنا وهنالك . إنه علم يجري على سنن قلّما تتبدّل على كرّ السنين . فلكل شعب من شعوب الأرض ميزاته الخاصّة التي ترتبط أوثق الإرتباط بوضعه الجغرافي . وهذا الوضع هو الذي يحدّد شخصيته الماديّة والمعنويّة ، والذي يجعله عرضة دائمة لشتّى التيارات البشرية التي تأتيه من الشرق والغرب ، أو من الشمال والجنوب .

ولبنان بجباله القائمة بين الصحراء والبحر ، وبروعة تكوينه واعتدال مناخه ما شذّ يوماً عن القاعدة . ولأنّه مميّز بوجهه الطبيعي من وجوه جاراته فشعبه كذلك مميز بتّركيبه الروحيّ والإجتماعي من الشعوب المجاورة له . وتاريخه من وجوه كثيرة هو غير تاريخها .

لقد أسدى جواد بولس بكتابه هذا خدمة جلّى ليس للبنان وحده بل للتاريخ كذلك .

ميخائيل نعيمه

توطئة

« من أعلى سلسلة الكائنات الى ادناها ، الكل يتحرك ، الكل يتسامى فينتظم في اتجاه واحد ، هو اتجاه الضمير الاكبر » .

تيار دو شاردان

١ – مفهوم التاريخ

ان الغاية من هذا الكتاب هي المساعدة على فهم افضل للبناننا المعاصر ، بما له من مشاكل معقدة وشخصية اصيلة ورسالة خاصة ودور وساطة بين العالم القاري او الشرقي وعالم البحر المتوسطي او الغربي ؛ وذلك بنظرة استشراف إلى مسيرة تطور هذا البلد منذ أقدم العصور .

واننا ، اذ نستعرض الماضي ونتفحص التاريخ ، فلإنارة الحاضر و « اعطاء المستقبل وسائل الاستشراف والفهم » .

ان البعض يعتقد ان التاريخ لا مفهوم له على الاطلاق . وهذا البعض يقول ان التاريخ لا وضوح فيه ، وهو « لا يجزم في شيء ، لأنه يحتوي كل شيء ويعطي امثلة عن كل شيء » .

وهذه الانتقادات الصائبة في ظاهرها ، تنطبق ، نوعاً ما ، على التاريخ التقليدي ، سواء أكان إخبارياً أم وصفياً أم تحليلياً ، اذ لا يعدو هذا ان يكون مجموعة معقدة من الوقائع « واختلاطاً مبلبلا من العنف » .

الا ان الامر يختلف بالنسبة للتاريخ التأليفي او العلمي ، فهو « بتأمله الاحداث

بنظرة شمولية وتسلسل منطقي ، يكتشف لها آفاقاً منسقة ويبحث عن السنن التي تسير مجراها » .

و « التاريخ وبمنظار العلم ، هو البحث عن الاسباب التي ، منذ اقدم العصور وخلال الازمات العديدة ، انتجت الحضارة ودفعتها إلى الامام » [1] .

ففي التطور التاريخي للمجتمعات الانسانية ، كانت الاحداث المتتالية هي الاسباب والنتائج معاً . وهذه الاسباب ، منها ما هو عميق وبعيد وعام ، ومنها ما هو مباشر وملازم وخاص . فالاسباب العميقة او العامة هي التي تسبب الاحداث او تجعلها ممكنة ، بينما الاسباب المباشرة هي التي تثيرها وتفجرها .

فالتاريخ العلمي ، اذن ، ليس مسلسلا من الاحداث ، بل هو حصيلة تأليف منها . وليست التفاصيل والوقائع الصغيرة هي الجانب العلمي في التاريخ ، اذ غالباً ما تكون موضع شك ونقصان ، وانما الجانب العلمي هو الاحداث الكبرى والظواهر العامة التي لا تتناقض مطلقاً في إطارها العام .

وهكذا ، فالتاريخ العلمي ينحو إلى ارساء حقائق عامة تستخلص من تنوع الاحداث الخاصة وإلى اكتشاف الاسباب العامة ، أي السنن او « الثوابت » او « الروابط المنتظمة والدائمة ، التي يمكن من خلالها شرح تسلسل الاحداث المعروفة » .

« فالبحث عن الاسباب العامة التي تؤثر على التطور المجتمعي للانسان ، كما على تطوره الفردي ، يقودنا لأن نلحظ في التاريخ ، من جهة « سنن التعايش الاجتماعي » ومن جهة أخرى « سنن التتابع » التي تحدد التطور التاريخي للمجتمع عبر العصور » (Mortet) .

وفي تتابع احداث الماضي كلية ، كما في تسلسلها المنطقي المتتالي ، لا ينبغي التوقف الا عند الوقائع المألوفة او المنتظمة التي تجري بصورة « ثابتة » او « دورية ». وينبغي ايضاً النظر إلى التاريخ من بُعد شاهق للاحاطة بأكبر زمن

---

١) H. Berr, **La synthèse en histoire**, «Avant-propos», p. VII

وأكبر مدى ممكن ، لأن « وقائع التاريخ الكبرى لا ترتسم الا عندما ترى من فوق ، بل تمحى خطوط هذه الاحداث اذا ما نظر اليها المرء من قرب » (Grousset) .

وبهذا المفهوم يغدو التاريخ « علماً » حقيقياً ، له سننه ، وبتعبير أدق علم تخميني كما يقول عنه بعض المفكرين الذين يميلون إلى التشكك . لكن العلوم الاختبارية هي أيضاً في غالبيتها ترجيحية . « هناك في البيولوجيا وفي علم النفس تخمينات كثيرة ، ومع ذلك فهما علمان » (Maritain) .

اذن ، فللتاريخ مفهوم ، وهو قابل للتحديد ، شرط أن نحسن تفسيره .

٢ ـ الجغرافيا عامل جوهري في التاريخ

ان الاسباب العامة التي تؤثر على تطور المجتمعات الانسانية تتلخص بما يلي : البيئة الطبيعية ، الطبائع الإثنية ، ومقتضيات الصراع مِن اجل الوجود . لكن بما ان الطبائع الاثنية هي ونوعاً ما ، من صنع البيئة الطبيعية وبما ان مقتضيات الصراع من اجل الوجود مسيرة بالطبائع الإثنية ، فان ما ينتج عن ذلك هو ان البيئة الطبيعية الناشئة من عوامل المناخ وطبيعة التربة والموقع الجغرافي معاً ، عامل جوهري في التاريخ ، لأن « التاريخ الانساني يغوص بجذوره كلها ... في الواقع المادي للارض . وعلى خريطة العالم نجد بقعاً انسانية حية تلتصق لزمن طويل بالاماكن نفسها » [1] .

ان « الدور المفترض ان تلعبه البيئة الطبيعية لم يعد بحاجة إلى تأكيد ، فهو لاينقصه سوى التحديد ... فالمناخ والتربة والغذاء تمارس كلها تأثيراً فيزيائياً نفسياً مباشراً . ولعل طبيعة الارض واسلوب العيش الذي تفرضه البيئة ينعكس على تكوين الطبائع ... فالبيئة تؤثر تاريخياً ، لأن الوضع الجغرافي يحث المجموعات

---

١) J. Brunhes, **La Géographie Humaine**, Ed. Abrégée, p. 24, 26

الانسانية على التحرك او بالعكس يحد من مجالاتها الحيوية ... فالبيئة اذن محرك تاريخي قوي » (١) .

وعلى الأخص نرى ان « المناخ هو الذي يضفي طابع الوحدة والتشابه على منطقة فيها تباين جغرافي » (٢) . وهناك مناطق متجاورة ومتشابهة جغرافياً ، الا انها تختلف من حيث المناخ والتربة . ولذلك تسم سكانها بطبائع متباينة نوعاً ما .

« تحت تأثير البيئة الطبيعية والثقافة العقلية ومقتضيات الصراع من اجل الوجود ، يتميز كل من المجتمعات الكبيرة او الأجناس البشرية من غيره بعدد من الطبائع التي تنقلها الوراثة بصورة شبه ملحوظة إلى افراد المجموعة الواحدة كافة ، الذين يؤلفون النموذج الخاص بذلك الجنس . وبعض هذه الخصائص طبيعي ، كلون البشرة او شكل الجمجمة ، لكن الاغلب والأهم فيها هو نفسي ، له علاقة بالذكاء وبالطبع » (٣) .

والخصائص النفسية — وهي عناصر فطرية او غريزية ، وراثية وثابتة نسبياً — وقد صاغتها واثبتتها عوامل البيئة الطبيعية ، تميز الشعوب واحدها من الآخر وتشكل « المحركات » الرئيسية في نشاطاتها .

ويختلف الأمر بالنسبة للطبائع المكتسبة (العادات والتقاليد الاجتماعية وطرق المعيشة واللغة والدين والشرائع الخ ...) فهي بحكم خضوعها للتربية والواقع الاجتماعي تكون عناصر خارجية ، لا تنقل بالوراثة ، وهي قابلة لان تتغير . اما بالنسبة للدين ، بشكل خاص ، فمما لا شك فيه ان « تحول شعب او فرد إلى ديانة جديدة لا يغير من طبيعته ... ففي الانسان تراكم المعتقدات ، الواحد فوق الآخر ، كطبقات من دهان ، لا تختلط ولا تزول » .

وخلاصة القول هي ان البيئة الجغرافية ، حيث يعيش شعب ما ، هي عامل

(١ H. Berr, **op. cit.**, p. 88-90

(٢ J. Besançon, **L'Homme et le Nil**, p. 16

(٣ Mortet, **Histoire**, La Gr., Encycl. 20, p. 145

جوهري و « دعامة » تاريخ لذلك الشعب . والأمر الاساسي ايضاً بالنسبة للبشر ، هو ان يعرفوا دوماً اي واقع جغرافي معين يجابهون .

« ان الردات الثأرية للقوى الطبيعية المكبوتة تزداد ضراوة بقدر ما يكون غزو الانسان لها عظيماً ومظفراً » (١) .

٣ — فائدة التاريخ

« ان التاريخ التأليفي هو علم خبُري — لا يمكنه ان يعطي اليقين الذي تعطيه العلوم الرياضية . لكنه يقدم للناس وللمجتمعات تنويعاً غنياً من الاختبارات الاجتماعية والركائز الدائمة الثابتة والحقائق الرئيسية ، مما يجعل تعاليمه العملية ذات قيمة عالية ، رغم ما يشوبها من نسبية وترجيحية . فالحياة هي استمرارية التاريخ ، لأنه لا يمكن ان ينفصل الماضي عن الحاضر . وهكذا فالانسان لا يفهم حاضره الا بماضيه ، وماضيه الا بحاضره ... ومهمة المؤرخ هي ان يحكم الربط بين الحاضر والماضي وبين المستقبل والحاضر » (٢) .

« ففائدة التاريخ الرئيسية هي ان يظهر نتائج النشاطات الاجتماعية وردات الفعل والاصداء المتعددة التي تلي تلك النشاطات ، بالاضافة إلى تأثير البيئة على الافراد ، وتأثير القوى الفردية على المجموعة بكاملها ... فالزعم بمعرفة الاحداث المفردة قبل وقوعها لا يعدو كونه وهماً . اما ما يمكن تحديده ، فهو « الميول » الطبيعية للتطور الاجتماعي و «الاتجاهات» العامة التي تتبعها المجتمعات الانسانية في وضعها الطبيعي ، وفق الظروف المحيطة بها . ويمكن ايضاً تعيين « الحدود » التي تتغير فيها تلك الميول العامة ، تحت تأثير الظروف الخاصة والارادات الفردية . وبهذه التحديدات فان سنن التاريخ يمكن ان تمد علم الاجتماع والسياسة بتوجيهات مفيدة » (٣) .

(١ Brunhes, **op. cit**, p. 301-303

(٢ H. Berr, **La synthèse en histoire**, p. 237

(٣ Mortet, **op. cit**, 139, 149

في التاريخ ، والسياسة ، كما في الحرب ، فان الطريقة المثلى للملاحظة هي الاستشراف فوق الاحداث والقضايا لاكتشاف احجامها وتسلسلها المنطقي والعناصر المختلفة التي تتداخل فيها ، واستخلاص الاسباب العميقة التي تحدوها والاسباب الظاهرة التي تفجرها .

ان التاريخ خزان كبير للتجارب المتراكمة ، ولانه كذلك فهو مدرسة سياسية حقيقية ، لأنه يشركنا في معرفة اختبارية للانسانية تكون اشمل واكثر تنوعاً من ملاحظاتنا الشخصية . ووحدها المعرفة التاريخية هي التي تقودنا لنكتشف في الاحداث الحالية ، الاكثر تميزاً وتعقيداً في ظاهرها ، سر تركيبها وتجاوبها معاً ، باستخلاص العلاقات او الاسباب التي تعينها . « ان تطبيقنا لثوابت التاريخ ومقاييسه على المشاكل السياسية يجعلنا نكتشف ، بفضل المعطيات الحقيقية ، الرابط ، واللحمة ، والحل » .

وهكذا ، فالقوانين التي يضعها البشر والاجراءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يتخذونها ، يجب — كي تنجح وتدوم — ان تتلاءم مع البيئة وأن تراعي الميول الطبيعية للمجتمع الذي تطبق فيه وحدود هذه الميول . أما « التغييرات الاجتماعية المتخذة بقرارات ، والتي غالباً ما تصدر عن ساسة متسلطين ، قصيري النظر ، فدائماً تنتهي بكوارث ... فالأمة — لا تتبدل بقوانين ، — لأن تقدمها ينتج عن تطور النفوس » (Lebon) .

لذلك فمن واجبنا ان نبحث في ماضي الشعوب كيف تصرفت تلك الشعوب في ظروف مماثلة ، وليس في ظروف الحياة الجارية . فعندما يهتز بعمق تاريخ شعب ، تظهر الطبائع الاثنية بما فيها من امكانات حقيقية في الفعل وردة الفعل . لكن ، لسوء الحظ ، وبالرغم من ان الحقيقة في السياسة ، كما في التاريخ « هي حقيقة واقعية وليست حقيقة عقلانية » فاننا كثيراً ما نرى الواقع يترك مكانه للوهم المولد للمذاهب والايديولوجيات والغيبيات المختلفة التي تتسبب بأضرار كبيرة للعالم لأنها تقوم على تجريدات أو أفكار عاطفية لا تمت بصلة إلى الواقع الايجابي .

ومما لا شك فيه ان التقدم العلمي والاختراعات التقنية قد غيرت وجه عالم عصرنا لكن الانسان نفسه ، الذي احدث هذه التغييرات ، لم يتغير في غرائزه الدفينة ، كما ان الوجه الانساني في المشاكل السياسية والاجتماعية لم يتغير منذ اقدم العصور ففعل سنن التاريخ والتي ما زالت تتحكم بحياة شعوب اليوم ونشاطها ، ما زال مسيطراً . فالتاريخ هو كالسياسة تماماً « علم نفس في مجرى العمل » . والطبائع النفسية للمجتمعات لم تتبدل قط منذ ما قبل التاريخ . « فالمعارف قلما تخترق الطبائع اذ هي تبقى وكأنها طافية» (Marion) . والتقدم ليس الا في شروط الوجود . « واذا ما كان العقل قد تقدم مع مرور الازمنة ، فالعواطف المسيطرة على الناس تبقى على حالها ... ولا تستطيع أية ثقافة أن تمحو الميول الموروثة عن الاسلاف » (Lebon) .

ان جهل هذه الحقائق الرئيسية يزجنا في حسابات خاطئة . فأحداث الماضي تظهر بوضوح ان خرق سنن التاريخ لا يبقى دون عقاب ، وان كل عمل انساني مخالف لهذه السنن لا بد وان ينقلب أو يتحطم عاجلا أم آجلا . لا شك ان الحرية تلعب دوراً هاماً في حياة الانسان ونشاطه ، لكن هذا النشاط لا ينجح ولا يدوم الا اذا تناغم مع سنن الحياة .

« ان العجز العام عن ادراك قوة سنن الطبيعة والحياة يعود ، بدون شك ، إلى ان هذه السنن لا تفعل فعلها الا بعد وقت طويل في أغلب المرات ... فالحالي المرئي يخبىء البعيد غير المرئي الذي لا بد ان يأتي » (Lebon) .

ومن جهة اخرى ، فان السنن التي تحرك العالم الطبيعي وعالم الحياة تدمر دون انذار من يحاول تجاوزها و « لا يستطيع احد ان يخرق سنن الحياة دون عقاب » .

مدخل لبنان الجغرافي :
العوامل الطبيعية والظواهر الانسانية

١ – لبنان ، أمة جغرافية وتاريخية

على ضوء المعطيات العلمية ، التي عرضناها في الصفحات السابقة ، نستطيع القول ان لبنان هو وكسائر المجتمعات القومية ، وليد الجغرافيا والتاريخ . فهو يؤلف «أمة جغرافية» أوبتعبير آخر شخصية جغرافية ، تعيش في داخلها ، منذ ازمان بعيدة ، مجموعة انسانية (شعب ، أمة) تكيفت وتثبّتت طابائعها الاساسية المميزة الجسمانية وبخاصة النفسية ، تحت تأثير العوامل الطبيعية الاقليمية والوراثية . وان مسائل الجنس واللغة والدين ، التي توحد بين افراد المجتمع البدائي هي ، كما أشرنا ، بالنسبة للمجتمعات المتحضرة المتطورة ، عناصر ثانوية ، كثيراً ما تتغير على مر العصور ، دون أن تغير في الطبائع الاساسية والقومية ، التي هي المحركات الحقيقية للنشاطات الانسانية . « فالعناصر الغريبة لا تلبث ان تمتزج عندما تعيش على التربة نفسها » (Schubart) .

ان النصوص المصرية ، والآشورية – البابلية ، والتوراتية ، واليونانية ، تثبت ان الخصائص الجسمانية والطبائع النفسية لمختلف شعوب الشرق الادنى ، في الماضي ، تشبه في معظمها خصائص الشعوب التي تعيش اليوم في هذه المنطقة . ففي اوروبا لا تزال خصائص الغوليين التي وصفها يوليوس قيصر وخصائص

الجرمان التي لاحظها تاسيت واضحة ، يسهل التعرف عليها ، بعد الفي سنة عند خلفائهم المعاصرين ، الفرنسيين والألمان .

وهكذا نرى ان العراقيين المعاصرين هم الحصيلة الحالية لتطور شعوب ما بين النهرين ، في مدى آلاف السنين ، هذه الشعوب التي سميت على التوالي : سومرية وآكادية وبابلية وآشورية وكلدانية وعراقية الخ ... كما ان سوريي اليوم هم ايضاً استمرار للسوريين القدامى من آموريين وآراميين الخ ... ممن تطوروا في الماضي دون ان يفقدوا طبائعهم العامة أو القومية .

ولبنان كمجموعة بشرية ، هو في جوهره وطن اقليمي ، « أمة جغرافية » ، وبتعبير أدق « بلد » أي « ارض تسكنها مجموعة بشرية ، فتؤلف بسكانها واقعاً جغرافياً ذا تسمية » . ان كلا المفهومين « البلد » و « الاقليم » يلتقيان في انهما «يعبران عن «فرديّات » أو ... مجموعات طبيعية ، يدخل فيها عنصر انساني » (V. de La Blache) .

فلبنان اذن هو « بلد » مؤلف من تجمع بشري ، هو خليط عرقي إثني مستقر في أرض معينة ، يسكنها هذا الخليط ، ذو الخصائص المتميزة والدائمة نسبياً ، اذا ما استثنينا مسائل الجنس واللغة والدين والاسم الخ ... التي تعتبر عناصر ثانوية ، عرضة أساساً للتبدل . وهكذا فتاريخ لبنان هو شخصية جغرافية جماعية حافظ دوماً ، تحت اسماء مختلفة ، (نيغا ، كنعان ، زاهي ، فينيقيا ، لبنان ، الخ ...) على طبائعه الأساسية المميزة ، منذ اقدم العصور حتى ايامنا هذه .

وسنعمد فيما يلي إلى وصف مقتضب لشخصية لبنان الجغرافية وللعوامل الطبيعية التي تميز مجتمعه ، وإلى وصف تأثير هذه العوامل على الثوابت النفسية والتاريخية المستخلصة من تطور هذا البلد الطويل المستمر خلال القرون والاجيال .

٢ ــ المجموعة الجغرافية : لبنان ــ سوريا ــ فلسطين

لا يمكننا ان ندرس تكوين بلد صغير كلبنان بمعزل عن وضع أرض البلدان

المجاورة له . فلبنان وسوريا وفلسطين ، المتلاصقة ، والواقعة على مفترق طرق عالمية ، عرفت غالباً من جراء الغزوات الاجنبية تاريخاً مشتركاً ، وكانت علاقاتها المتبادلة تتحدد من خلال موقعها .

ومن أجل فهم أفضل لجغرافية لبنان ، ولتأثير العوامل الطبيعية على تطوره التاريخي والسياسي ، لا بد من ان ننظر اليه في اطار القسم الغربي من الهلال الخصيب ، حيث يتجاور لبنان وسوريا وفلسطين . ان هذه المناطق الثلاث المتجاورة ، التي تشكل على متسع كبير شبه وحدة جغرافية ، اذا ما نظرنا اليها نظرة شاملة ، تبرز بالنظرة نفسها الاطار الطبيعي للبنان ، وتهيء السبل المؤدية إلى الجغرافية البشرية والتاريخية والسياسية لكل من هذه البلدان الثلاثة .

وعلى الخريطة ، تظهر المجموعة الجغرافية لبنان ــ سوريا ــ فلسطين ، لأول نظرة ، ككل متناسق متجانس ، وكمنطقة طبيعية متميزة ، ذات حدود معينة . انها مستطيل ، غير مكثف من الاراضي الصالحة للزراعة على موازاة المتوسط الشرقي ، ويؤلف مجموعها نوعاً من ممر او برزخ بين البحر غرباً ، وصحراء سوريا وارض الرافدين شرقاً ، وسفح طورس شمالا ، والصحراء العربية الفلسطينية جنوباً . وأن تعقيدات تكوين هذا المستطيل ، ومناخه وتناقضاته الطبيعية الداخلية حكمت عليه بالتجزؤ القومي والديني والسياسي .

في وسط المستطيل سور مزدوج من الجبال : جبال لبنان ، والسلسلة الشرقية التي تفصل ما بين البلد اللبناني وسوريا الداخلية (دمشق ومنطقتها) . وهكذا ترلد وسطان طبيعيان متميزان : الواحد إلى الغرب والثاني إلى الشرق ، وهما يختلفان في المناخ والتكوين . ففي حين ان لبنان المفتوح على البحر المتوسط ، والمنعزل عن الصحراء ، يؤلف منطقة متوسطة وجبلية محضة ، تؤلف سوريا الداخلية (الدمشقية) ، المفتوحة على الصحراء والمنعزلة عن المتوسط ، سهلا قارياً مرتفعاً، يغلب عليه المناخ الصحراوي . و « يصعب النفاذ إلى الداخل من الساحل ، لتوازي الشاطىء مع سلسلتي الجبال ، الا في معابر قليلة هي من صنع الطبيعة » (Weill) وفي الطرفين الشمالي والجنوبي من لبنان .

وتختلف الجهتان الشمالية والجنوبية من المستطيل الهندسي أي سوريا الشمـــالية وفلسطين عن لبنان ، رغم انفتاحهما مثله غرباً على البحر المتوسط ومن الوجهة الطبيعية . فهما ، على عكس لبنان المعزول عن صحاري الشرق بجبال عالية ، منفتحتان ، نوعاً ما ، من الشرق على الصحراء السورية التي تمتد حتى بلاد مابين النهرين والجزيرة العربية .

وفضلاً عن اختلاف العوامل الطبيعية التي تنعكس على التطور التاريخي لمختلف هذه البلدان ، فان جبال لبنان العالية تساعده على الدفاع عن نفسه بجهد قليل ضد الغزوات الاقليمية ، في حين يصعب ذلك على سوريا الشمالية وسوريا الداخلية وفلسطين المنفتحة شرقاً للغارات الاجنبية ، وبخاصة لنزوح القبائل البدوية من الصحراء الكبرى .

وفي النتيجة « رغم ظواهر الوحدة ، ... فان الارض السورية الفلسطينية تفتقر الى التجانس التام بسبب طولها وتجزئتها ... وهناك فروج عميقة في تكوينها تعزل الجبال لتجعل من كل منها موطناً لقوم اقوياء مستقلين ... وعلى مقربة من المتوسط ، لم تعد مناطق حلب ودمشق وحوران وشرقي الاردن تابعة للبحر ، اذ ان توزيع هذه المناطق ، على هذا الشكل ، يساعد على انعزال مجموعات إثنية ، وعلى تكاثر دويلات صغيرة يصعب معها ، بل يستحيل تأسيس مجتمع واحد أو متحد ، يستطيع الصمود في وجه جيران اقوياء وعديدين ، أو في وجه امبراطوريات بعيدة منظمة أصلاً للفتوحات . ان وجود هذا البلد بين المتوسط وبلاد ما بين النهرين ومصر ، يجعل منه ساحة صراع بين نفوذ مختلف الفرقاء»[1] .
وبحكم المركز الجغرافي الذي يتمتع به ، في الشرق المتوسطي ، الممر السوري — اللبناني — الفلسطيني ، فان موقعه الطبيعي هذا قد هيأه لأن يكون مركزاً سياسياً لدولة كبرى ، أو لأمبراطورية تضم تحت ادارتها جملة بلدان هذا الشرق .

الا أن تعقيد تكوينه الجغرافي ، مع الأسف ، وتناقضات عوامله الطبيعية ، التي تحكم عليه بالتجزئة السياسية والاقليمية ، حالت دون قيامه بالدور الامبراطوري.

---

(1) F. M. Abel, **Géographie de la Palestine**, I, p. 16, 17

وبالرغم من تلاصق بلدان لبنان وسوريا وفلسطين ، فقد تمكنت بفعل اختلاف ظروفها الطبيعية ، وعلى الاخص مناخاتها وتكوينها ، من أن تطور دومـــاً في داخلها شخصيات جماعية متميزة ، تختلف في طرق عيشها واقتصادها وطبائعها النفسية العامة ، وقوانينها وتطورها المتتابع .

وتأتينا الشهادة على دوام هذه الشخصيات الجغرافية والاثنية والتاريخية من تاريخ كل منها الطويل ، رغم ما طرأ من تغييرات على الاسم واللغة والـــدين والقوانين ، هذه التغييرات التي حدثت مرات عدة خلال العصور الماضية .

٣ – لبنان : بيئة طبيعية وثوابت تاريخية

لقد أسهم تكوين لبنان ومناخه وموقعه الجغرافي ، منذ أقدم العصور ، في تشكيل واستمرار شخصية سكانه الجماعية وطبائعهم المميزة . « فالبلد الذي تألفت فيه الأمة الفرنسية ، يقول سينيوبوس ، أثر عليها بطبيعته التي حددت نوع معيشة السكان ، وبموقعه الذي أقرّ علاقات شعب ذلك البلد مع شعوب العالم الأخرى » .

أ – البيئة الطبيعية

ومن الناحية الجغرافية ، فلبنان بلد متميز بخصائصه لأنه يقع بين سوريا الشمالية شمالاً ، وفلسطين جنوباً ، وحوض دمشق شرقاً ، والبحر الابيض المتوسط غرباً . وهو يؤلف مستطيلاً من الأراضي ، يمتد من الشمال الى الجنوب ، ويراوح طول هذا المستطيل ٢١٠ كيلومترات ، وعرضه بين ٢٥ و ٥٠ كيلومتراً من الجنوب الى الشمال . وان مساحة اراضيه المقدرة بـ ١٠٥٠٠ كلم^2 تقارب مساحة فينيقيا القديمة .

يعتبر جبل لبنان ، عمود البلد الفقري وحصنه ، ويمتد طولاً ١٧٠ كيلومتراً وعرضاً ٤٥ كيلومتراً ، ويراوح علو قممه عن سطح البحر بين الف وثلاثـة

آلاف متر . ويعتبر جبل لبنان أعلى جبل في الشرق المتوسطي ، وهو يحتل أكبر مساحة من أرض لبنان . « انه حاجز ... وهذا الحاجز لا ينفتح باتجاه بلاد ما بين النهرين والخليج القاري الا بممرين معترضين هما فرجة حمص من جهة ، والطريق التي تؤدي من عكا وحيفا وصور وصيدا الى دمشق والصحراء من جهة أخرى » . « ينتصب لبنان كالسور عازلاً الشاطىء عن الداخل تماماً ... فالشاطىء الفينيقي متوسطي وليس آسيويا ، بل انه بالحري جزيرة بين آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وجدت دورها التجاري بفضل موقعها كنقطة اتصال بين بلدان مختلفة » (Blanchard) .

وباختصار ، فلبنان جبل عال منفتح على المتوسط ، يقع عند نقطة التقاء الطرق القارية الكبرى في العالم القديم .

ب ـ تأثير البيئة الطبيعية

إن جبل لبنان ، شأنه شأن سائر الجبال ، يتعهد الحرية والاستقلال . فهو حصن يسهل الدفاع عن البلد ضد الاخطار الخارجية ، وكذلك ضد استبداد الحكم الوطني . ومن جهة أخرى ، نجد أن صغر رقعة اراضيه الصالحة للفلاحة وعدم كفاية موارده الزراعية ، قد حملت سكانه دوماً للاعتماد على النشاطات التجارية والملاحية ، ثم على الهجرة . اذ ان مجاورته للبحر ، طريق المواصلات الواسعة ، حثّت ابناءه على التنقل ، وسهلت لهم تبادل السلع والافكار معَ العالم الخارجي . « انه بلد صغير ، وطريق ساحلية . رقعة ارض سهلية قليلة العرض ، ممتدة بين البحر والجبل من الجنوب الى الشمال ، محاطة بشواطىء سوريا الشمالية ، شمالاً ، وبالمنحدر الساحلي الهابط من الاعالي الفلسطينية ، جنوباً . وخلف البلد، على المنحدر الآخر لذلك الحاجز المؤلف من سلسلة الجبال الساحلية ، تقع سوريا بمحاذاة انهرها الموازية للشاطىء . هذه هي جغرافياً فينيقيا القطاع المتوسط للمدرّج الكبير الذي تحده مصر وآسيا الصغرى ، والواجهة على البحر الغربي بمرافئها الشهيرة، صور وصيدا وجبيل وبيروت وارواد ، هذه المرافىء القديمة

التي عجزت اساطير الآلهة عن حفظ أولية نشوئها » .

« وكانت المدن الفينيقية دويلات صغيرة مستقلة سياسياً ، تشكل مجموعتها عالماً متجانساً تهيمن عليه طبائع نشاطها وروحها ، وهي طبائع مجتمع البحارة والتجار . ولقد نمت لدى هؤلاء ثقافة ... ذات ميول « انتفاعية » تشمل كل شيء ، وبخاصة الأمور الدينية ، وتتميز بنوع من حرية الفكر وبقابلية للتفسير المباشر لطبيعة الحياة والمعاناة الانسانية ، التي كانت جذورها في عقليتهم ، كرحالة الى الاماكن البعيدة ، حيث الفوا اشكالاً مختلفة واعتادوا استكشافها وفهمها . ولأنهم كانوا يفكرون ، كانوا يجيدون العمل ، إن في الدفاع أو في المخاطرة والحرب ، أو في التجارة . وكثيراً ما كانوا يتخاصمون ويتنافسون على الطرق البحرية . فقد كان الشعب الفينيقي فوق سفنه أو حول مدينته تنظيماً استقلالياً وذكاء وجرأة » .

« ولم تكن الخطوط البحرية الفينيقية باتجاه جميع الشواطىء الا عنصراً في شبكة التنقل ما بين أوروبا وافريقيا وآسيا على مر عصور التاريخ . وتقع فينيقيا في وسط الشبكة التي تحيط بها الطرق أو تخترقها ، مما يساعد على إكمال تحديد جغرافية هذا البلد بقولنا : انه مفترق يلتقي فيه الكثير من طرق المواصلات الكبرى بين القارات » .

« ان موقع الخطوط الكبرى التي تعبُر فينيقيا أو تحيط بها ، يتحكم بوضعها المادي بين شعوب الحوض البحري وآسيا الداخلية . وهذا الموقع هو الذي يثير احداث تاريخها ، منذ أقدم العصور ، أو على الاقل وقائع تاريخها السياسي ، لأن فينيقيا قليلة الاتساع وقليلة القدرة على مجابهة فاتحيها بالقوة . اللهم اذا ما استثنينا قدرتها الدفاعية البحرية الهائلة ... لقد استخدم فاتحوها طرقها وطالبوا بموانئها طوال القرون الخالية . وتجدر الاشارة الى ان التكوين الروحي للبلاد الفينيقية ـ السورية لم يتأثر كثيراً، طوال عهود اندماجها في التنظيمات الامبراطورية المختلفة . بل على العكس ، يلاحظ ان هؤلاء الآسيويين قد سيطروا على ثقافة فاتحيهم واغنوها ، كما ان أحفاد هؤلاء الآسيويين ، اي ساميي كنعان (فينيقيا)

والمناطق المجاورة (سوريا وفلسطين) ، لم ينفذ اليهم أي تأثير حقيقي من الخارج » (١) .

أما اسياد بلاد الرافدين ومصر ، بنوع خاص ، المتبارون دوماً لانشاء امبراطورية في الشرق المتوسطي ، فكانوا يتنافسون ، منذ فجر التاريخ ، على امتلاك المناطق التي تفصل بلادهم (سوريا ، لبنان ، فلسطين) أو للسيطرة عليها ، وبخاصة الشاطىء والمرافىء اللبنانية . « وكانت كل دولة على شواطىء الفرات ودجلة ، بحكم موقعها الجغرافي ، تطمع بتوسع امبراطوري وتسعى للوصول الى الشاطىء المتوسطي ... كما كانت الضرورة ذاتها تواجه دولة وادي النيل . فقد كان مقدراً للشاطىء الفينيقي والمناطق أو البلدان الممتدة وراءه (سوريا وفلسطين) ، بسبب موقعها ، ان تكون نقطة النزاع ما بين بلاد الرافدين ومصر . وظل الأمر كذلك حتى الفترة الاغريقية وعهد نابوليون الأول والى زمن حديث » (٢) .

وبكلمة مختصرة ، ان مناخ وتكوين وموقع لبنان الجغرافي هي في أساس رسالة هذا البلد ، التجارية والبحرية والثقافية ، طوال تطوره التاريخي العادي ، الا اذا استثنينا بعض الفترات الطويلة نوعاً ما ، حيث كانت ظروف غير عادية وعابرة نسبياً تفصل ما بينه وبين البحر ، فتحكم عليه بالانهيار الاقتصادي وبالتجزئة السياسية والاقطاعية الريفية .

٤ — موضوع هذا الكتاب وتصميمه وفكرته

اردنا في هذا المؤلف ان يكون الموضوع الرئيسي للتاريخ لبنان منذ العصور الفينيقية وما قبلها ، حتى أيامنا هذه . الا أنه لا يمكننا أن ننظر نظرة واضحة إلى تطور هذا البلد المتتابع ، خلال العصور ، الا اذا نظرنا اليه من زاوية ارتباطه

(١ R. Weill, La Phénicie et l'Asie Occidentale, p. 5-8

(٢ Rappoport, Histoire de la Palestine, p. 40

بالظروف التاريخية للعالم المحيط به . فقد بدا بالامكان الاستجابة الى ضرورة هذا الوضع الذي يجعل من هذا المؤلف تاريخاً لعلاقات لبنان مع الشرق المتوسطي ، وبخاصة مع سوريا وفلسطين ، البلدين المجاورين ، المرتبط تاريخهما ارتباطاً وثيقاً بتاريخ لبنان .

ولترتيب المراحل المختلفة في التطور التاريخي الطويل للبنان ترتيباً زمنياً ، اعتمدنا تقسيماً منبثقاً من التسلسل الطبيعي لعرضنا ، اي من النشاط شبه الدوري للمسببات العامة التي قلبت وبدّلت تكراراً الحياة السياسية والاجتماعية ، وكذلك الوسط القومي واللغوي والثقافي « في هذا الميدان السوري — المتوسطي ، حيث كانت فينيقيا فيه المركز الأكثر بروزاً » (Weill) .

وإذا ما نظرنا نظرة شاملة الى تطور لبنان التاريخي الطويل ، فاننا نستطيع أن نقسمه الى شطرين أو عهدين ، ينقسم كل منهما بدوره الى فترات عدة ، طويلة وقصيرة ، ولكنها جميعاً محددة بدقة . فالشطر الأول يشمل العهد البحري أو الفينيقي ، الذي يمتد من أبعد العصور الى الفتح العربي (٥٠٠٠ ق . م. الى ٦٤٠ ب. م.) . وقد كانت حياة البلد ونشاطه الاقتصادي يقومان على التجارة والملاحة والثقافة ، الا في بعض الفترات ، حيث كانت تقتصر الحياة الاقتصادية الى حين على النشاط الزراعي الريفي فقط . اما الشطر الثاني ، فيشمل العهد القاري ، أو الاسلامي ، الذي يمتد من الفتح العربي حتى أيامنا هذه ، حين قامت حياة البلد ونشاطه الاقتصادي ، بصورة رئيسية ، على الاقطاعية الريفية الزراعية ، باستثناء بعض الفترات حيث كان يعود النشاط التجاري والملاحي فيتغلب الى حين .

وانطلاقاً من الفعل شبه الدوري للمسببات العامة التي تحكم تتابع الحوادث التاريخية ، فان التقسيمات والتفصيلات الناشئة عنه تتيح لنا البحث لاستكشاف العلاقات المسببة الرابطة ما بين الحوادث ، كما توضح في الوقت نفسه الاعمال المألوفة والمنتظمة التي تبرز بشكل مستمر أو بين حين وآخر .

وبصورة عامة ، فان همنا دائماً هو الالتزام بالعرض التأليفي الموضوعي . وأمنيتنا

هي أن يحوز هذا المؤلف على استحسان القراء المخلصين ، وبخاصة أولئك الذين يريدون فهم لبنان الحاضر ، « لأن الذي ندعوه حاضراً ليس سوى نتيجة مؤقتة لمجموع سلسلة وقائع النشاط الانساني ... التي انتجتها القرون الخالية » (Mortet) .

القسم الاول

الحقبة البحرية او الفينيقية منذ البدء حتى الفتح العربي

(٥٠٠٠ ق.م. — ٦٤٠ ب.م.)

ان فينيقيا متصلة بلا شك بسوريا الداخلية ، لكنها تتطلع بأجمعها نحو البحـر المتوسط ، ولا تحيا الا للمتوسط وبه ... والجبل الذي تستند عليه فينيقيا ، الجبل الذي تنحدر منه الى البحر ، يدفعها الى البحر ... ان مهارة الفينيقيين البحرية والتجارية ... ما لبثت ان تحولت الى مهارة فكرية (R. Grousset) .

الفصل الاول

لبنان في عصور ما قبل التاريخ وأوائل التاريخ

(٥٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م.)

١ ــ الشرق الأدنى في عصور ما قبل التاريخ

ان البيئات البشرية في الشرق الأدنى في زمن ما قبل التاريخ هي ، بوجه عام مشابهة لغيرها من البيئات في العالم كله في ذلك الزمن . فخلال عشرات الآلاف من السنين ، تطورت البشرية بصورة متوازية في الشرق وفي أوروبا . لكن في بدء فترة العصر الميزوليتي او الحجر الأوسط (حوالي ٨٠٠٠ ق . م) ، وعقب تغييرات مناخية كبيرة ، اختفى التوازي ما بين العالمين ، وتخطى الشرق المتوسطي الغرب في السباق الى التقدم .

وحوالي ٣٣٠٠ ق . م . ــ وهذا تاريخ تقريبي ــ ظهرت الكتابة في مصر وبلاد الرافدين معاً . وانتهت في الشرق الأدنى عصور ما قبل التاريخ لتبتدىء العصور التاريخية .

أ ــ عصور ما قبل التاريخ او العصر الحجري

انتهى في الشرق الادنى العصر الباليوليتي او الحجر المنحوت والذي دام عشرات او بضع مئات من آلاف السنين ، حوالي العام ٨٠٠٠ ق . م . وقد دشن الشرق

المتوسطي في هذه الفترة العصر الميزوليتي ، واتجه نحو الحياة الزراعية المستقرة . أما تشكله الجغرافي الذي بدأ متخذاً الشكل الصحراوي ، فقد تطور تدريجياً خلال آلاف السنين الماضية باتجاه شكله الطبيعي الحالي . فالجفاف التدريجي للبوادي الشرقية ، الذي تزايد حوالي الألف الثامن ، قد حول الصياد والراعي المتجول الى مزارعين مستقرين ومحترفين .

وحوالي العام ٥٠٠٠ ق . م . اي في العصر النيوليتي ، اتسمت الحقبة التاريخية بوجود الصوان والنحاس في الاسلحة والادوات التي كان يستعملها الانسان .

ب ـ السلالات البشرية في الأزمنة السابقة للتاريخ

اختفى عن المسرح « انسان هيدلبرغ » و « انسان النياندرتال » المعتبران كفرعين جانبيين في شجرة السلالة البشرية ، وكذلك « انسان الجليل » المكتشف في فلسطين ، والذي ينتسب الى انسان النياندرتال ، وذلك عقب تغييرات مناخية . وقد استمر في الوجود فرع «الانسان العاقل» (Homo Sapiens) وحده، فاستوطن الكرة الأرضية .

المتوسطيون ، والألبيون ، والشماليون

في العصر الحجري الاخير تمثل «الانسان العاقل» في آسيا الغربية واوروبا بتشكيلة متنوعة من اللون الأبيض ، قسمها العلماء المحدثون إلى ثلاث مجموعات أو عروق بشرية . وهذه المجموعات الثلاث ، المختلفة بشكل الجمجمة والوجه وبلون الجلد وبالقامة ، هي : المتوسطيون ، والألبيون المعروفون بالجبليين أو الاسبانيين ، والشماليين .

الساميون الرحل

بالنسبة للشرق الادنى يمكننا اضافة فرع متوسطي الى العروق الثلاثة هذه، وهو فرع

الساميين البدائيين أو القبائل الرحل في البادية السورية ـ العربية . وهؤلاء يتميزون بطبائع خاصة متكيفة وفق طريقة العيش التي تفرضها الصحراء . وهم يختلفون عن المستقرين كاختلاف عرقين متضادين . ومع ذلك نجدهم متجاورين ومتعاونين . فالساميون البدائيون أو القبائل الرحل الذين سيلعبون دوراً هاماً في تطور شعوب الشرق الادنى القديم ، هم اليوم عرب الجزيرة العربية .

وعلى عكس المجتمعات الغربية المستقرة بصورة اساسية « فان المجتمعات الانسانية الشرقية تنقسم الى رحل ومستقرين . فالمترحل في الشرق يمثل القوة ، أي الجيش ، ... الجيش الذي تهيئه الطبيعة والذي لا يتطلب موازنة ولا تدريباً ولا ادارة ... اما المستقر ، فهو ساكن الواحة .

فمصر وبلاد كلده (العراق) ليستا سوى واحتين شاسعتين ، بل أجمل واحات الكرة الأرضية . وهما تحتكران كل الانتاج الزراعي ، وسط امتداد أرضي (صحراوي) أكبر منهما بعشرة أو بعشرين أو بمائة مرة ، حيث لا حقل هناك ، ولا يمكن أن يكون ...

« وبالنسبة الى انعزال المستقرين في الواحة وسط الصحراء الرهيبة ... وقد ألانتهم الحياة السهلة نسبياً ، نجدهم ينتمون الى القوي الذي يرغب في السيطرة عليهم . فهم أغنياء وضعفاء في آن واحد . أشبه ما يكونون بالقطيع يساق الى جز صوفه ، اذ انهم دافعو الضرائب المثاليون ، يدفعونها بفعل طبيعتهم ، تماماً كما هو المترحل جندي بهذا الفعل ... ففي هذه البلاد حيث العناية اقامت الجندي البدوي الى جانب دافع الضريبة (المستقر) كان لا بد ان تظهر أولى الدول وأقدمها على الأرض ، ... هي مصر وكلده » [1] .

وحتى أوائل الألف الثالث ، كان الشرق الادنى ميداناً للمتوسطيين والألبيين ، حيث كانت الاتصالات بينهما قد تعددت . وكان المتوسطيون منتشرين على سواحل الأبيض المتوسط ، والألبيون يقطنون سهول الاناضول حتى الهند . ومنذ بداية الألف الرابع ، ابتدأ ساميو البادية العربية ، وهم فرع متوسطي ،

١) E.F. Gautier, **Mœurs et Coutumes des Musulmans**, p. 96, 97

يدخلون الى بلاد الهلال الخصيب [1] . ونحو العام ٢٥٠٠ ، ابتدأ الشماليون الخارجون من السهول الروسية – السيبيرية يزحفون باتجاه اراضي الجنوب المشمسة .

ومنذ نهاية عصور ما قبل التاريخ وهذه الاجناس المختلفة والمجموعات الخلاسية المتأتية عن تخالطها ، تتعارض أو تتمازج في عالم الشرق الأدنى ، مولدة بذلك مجموعات قومية ، أو شعوباً متميزة ، ما زالت خصائصها القومية، المكيفة بفعل الوراثة والعوامل الطبيعية للبلد الذي اقاموا فيه ، ثابتة ثباتاً نسبياً .

ج – اللغات والكتابات القديمة

تلتقي مع المجموعات الجنسية الثلاث المذكورة ثلاث عائلات من اللغات ، تحتوي كل منها على تنوعات لغوية بقدر عدد المجموعات العرقية القومية المستعملة لها . وتنتسب ، من هذه اللغات ، الى العائلة المتوسطية ، اللغات الحامية والسامية ، ثم الى الألبيين اللغات الاسبانية ، والى الشماليين اللغات الهندية – الأوروبية . أما لهجات الشعوب التي كانت تقطن هذه البلاد سابقاً ، فلم يبق لها أثر .

ان الكتابة الهيروغليفية في مصر والمسمارية في بلاد الرافدين واللتين ظهرتا حوالي العام ٣٣٠٠ ق . م . ، هما كتابتان تصويريتان ، تمثلان الأشياء . وبما انهما كانتا من اختصاص الكتبة دون سواهم ، فقد كان لهما دوماً طابع مقدس. وفي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد ، اخترع كنعانيو لبنان ، أي الفينيقيون ، الكتابة الأبجدية ، التي كانت السلف المباشر للابجديات الحاضرة في العالم .

---

١) اسم « الهلال الخصيب » هو تعبير جغرافي حديث يدل ، في مجمله ، على مجموعة بلدان ما بين النهرين وسوريا ولبنان وفلسطين .

د – الثوابت التاريخية العامة

ان المجموعات العرقية او الشعوب في الشرق المتوسطي ، التي أصبحت مزيجاً ثابتاً منذ أنتهاء عصور ما قبل التاريخ ، غدت تشكل منذ تلك الأزمنة القديمة مجموعات جغرافية واجتماعية متميزة ، تتنوع بتنوع أقطار هذه البلدان . وبالرغم من تعدد العناصر العرقية المختلطة وتعقيدها ، فان الملاحظ ، منذ الألف الثالث ، استمرار العنصر السامي في بلدان الهلال الخصيب ، والعنصر الحامي في وادي النيل . وقد بقي الهلال الخصيب سامياً ، منذ الألف الثالث حتى أيامنا هذه .

لكن مختلف شعوب الهلال الخصيب السامية ، أو التي أصبحت سامية ، بعد أن كيفتها الأوساط الجغرافية المختلفة في المنطقة ، تتباين فيما بينها دوما ، ان من الناحية الجسمانية أو ، بنوع خاص ، من الوجهة النفسانية ، وذلك بقدر ما تختلف عن الساميين الرحل الذين اسهمت عناصرهم العرقية في تكوين هذه الشعوب . فالسمة السامية العامة وحدها هي التي منحتهم الصفة العائلية : لغات ذات أصل واحد ، وعادات اجتماعية موسومة بطابع الصحراء .

٢ – لبنان ما قبل التاريخ (٥٠٠٠ – ٣٢٠٠ ق . م.)

أ – عصر الحجر المنحوت (الباليوليتي قبل ٨٠٠٠ ق . م.)

« كانت فينيقيا مأهولة منذ أقدم العصور ، كما تدل على ذلك مواقعها الأثرية القديمة ... ويعرف من عصر الحجر المنحوت أي العصر الباليوليتي ، موقع نهر الجوز ، شمال البترون ، بين جبيل وطرابلس ، وموقع نهر ابراهيم ، ونهر بيروت ، وعدلون ، جنوبي صيدا... ويظهر ان موقع انطلياس، ما بين بيروت ونهر الكلب ، كان أنجح هذه المواقع . واذا كانت هذه المواقع الأثرية تؤكد لنا أن البلد كان مأهولاً منذ أقدم العصور ، فانها لا تقدم لنا اي معلومات عن

الشعب الذي كان يسكنها » (١) .

ب – عصر الحجر المصقول (النيوليتي ٥٠٠٠ – ٣٨٠٠ ق . م.)

في حوالي العام ٥٠٠٠ يظهر لنا بدء العصر الحجري المصقول ، على الشاطىء اللبناني ، وجوداً سكانياً كثيفاً ، امتزجت فيه كثيراً العناصر السلالية المختلفة . « فمواقع ... عصر الحجر المصقول هي موقعا نهر ورأس الكلب ، وموقع نهر الزهراني ، على بعد ساعة من صيدا ، وهو موقع يلوح انه كان عامراً جداً » (Contenau) . وفي جبيل حيث يرجع اقدم سكن مستقر الى حوالي العام ٥٠٠٠ ق . م ، كان الناس يستعملون الحجر المصقول والمعدن معاً . وكانوا يعيشون في أكواخ دائرية رضها من الطين المضغوط ، كما كانوا يدفنون موتاهم في جرار كبيرة من التراب ، كان الجسم في داخلها يطوى على نفسه . وكان غذاؤهم يقتصر تقريباً على الشعير والزيتون ولحم الضأن والماعز ، وبيض النعام المثقوب من طرفه يشهد على تطيرهم من الأرواح الشريرة .

« كان القسم الأكبر من أعتدتهم مصنوعاً من الخشب ، ولم يبق منه شيء . لكننا نجد اعتدة من الحجر يدل اختلافها على تقنية محترفة . وكان الانسان مسلحاً بالخنجر والسهم ذي الحد والحربة ... وكانت تستعمل أحياناً شفرات الزجاج الطبيعي ، مما يدل على علاقات مع البلدان البعيدة المنتجة له كالأناضول وأرمينيا . وكانت تصنع من العظام المثاقب والصنانير . وظهر الخاتم من الطين المشوي أولاً ، ثم ظهرت لأول مرة أوعية الفخار ، هذه الأجهزة الدالة على الحياة المستقرة . وكانت تصنع على اليد بأشكال مختلفة ... أحجار رحى لطحن الحبوب وأجران لسحق الأغذية تشهد على حياة القرية الصاخبة . وكان الاموات يطرحون في القبور على التراب أو على صفوف من الحجارة ... وكانت تحوي فخارة أو فخارتان الزاد لرحلة ما وراء القبر ، وهذا ما يشهد على الاعتقاد

١) G. Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 32, 33

بالحياة الأخرى . وقد دام هذا الوضع زمناً طويلاً . لربما الف عام » (١) .

ج – العصر الحجري المتأخر او الانيوليتي (٣٨٠٠ – ٣٢٠٠ ق . م .)

تظهر حضارة هذا العصر في لبنان وفلسطين في بدء الألف الرابع ، وقد تكون ناتجة عن هجرة شعوب آتية من مناطق الشمال المجاورة للمراكز المنجمية : الأناضول والقوقاز وقبرص . واكتشفت في جبيل مقبرة غنية لهذا العصر الحجري المتأخر .

ففي جبيل يتحدر مجتمع هذا العصر « من المجتمع السابق له ويعيش نمط حياته اياه تقريباً . فالناس لا يزالون يسكنون أكواخاً بسيطة ... ارضها من طين مضغوط ، أو نادراً من الحصى ... والمساكن كانت مقسمة من الداخل. والاعتدة الحجرية الكثيرة سابقاً أخذت تزول لتحل محلها مادة جديدة هي النحاس . وهذا الاكتشاف ، وهو الأول من صنع قدرة العقل البشري ، أدخل الانسان في مغامرة عصر المعدن الرائعة ، الذي لا يزال هو عصرنا ذاته . لقد صنعت ، أولاً ، الخناجر للدفاع عن النفس أو للدفاع عن المجموعة . ثم انتشر الخزف ... وتطور استعمال الختم او الطابع المصنوع من الحجر الصلب ...

« غدت المدافن قائمة في القرية ، بين السكان . فكانت الجرار الكبيرة تستخدم كتوابيت ، يوضع فيها الميت ، ملقى على جانبه في وضع متجمع على ذاته . ويرافقه ابريق وصحن وكأس للاستعمال في حياة ما بعد الموت . ويكثر وجود أدوات الزينة ، كحب المرجان والبلورات الصخرية والاعلاق للاذن وللاصابع وعصبات للجبين من الفضة وأقراط من فضة أو أحياناً من ذهب . وتوجد أيضاً أشياء من العاج ... ويكثر وجود الحيوانات التي دجنت في العصر السابق ، وكذلك الحبوب ، وقد غدا وجود الخنزير نادراً ، ... اذ لم يعد يظهر في

١) M. Dunand, **Byblos, son histoire, ses ruines, ses légendes**, p. 15, 16

البلاد ، حيث اصبح وجوده محل نهي ديني » [1] .

٣ – لبنان في أوائل التاريخ « ٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م. »

أ – جبيل (مركز مدني)

على الرغم من أن عصر أوائل التاريخ ينتهي نظرياً مع اكتشاف الكتابة ، حوالي العام ٣٣٠٠ ق . م ، فان هذا العصر يمتد في الواقع حتى العام ٣٠٠٠ ق. م. ، حيث كان بدأ بالفعل التاريخ الثابت في مصر ، وفي بلاد الرافدين .

جبيل قلب البلاد :

لا أحد يعرف التعبير الذي كان يستعمله سكان لبنان الاصليون في عصر أوائل التاريخ لتعريف بلدهم . فهناك نصوص مصرية قديمة تشير الى ان سكان وادي النيل ، الحاميي العرق واللغة ، كانوا يدعون منطقة جبيل اللبنانية (بيبلوس فيما بعد) باسم « نيغا » ، وجبيل ذاتها باسم « كيبين » أو « كبين » . كما أن لغة لبنانيي ذلك العصر مجهولة منا أيضاً . لكن من المحتمل جداً أن تكون السامية قد انتشرت في البلاد بشكل واسع حوالي هذا الزمن .

« في البدء كانت جبيل قلب البلاد . وقد أكدت الحفريات الحديثة التقليد المحلي القائل بأن هذه المدينة هي أقدم مدن فينيقيا ، وأظهرت صدق نظرية كهنتها حول قدم هيكلها ، المعاصر تقريباً لأقدم هيكل مصري » [٢] .

لكن جبيل ليست أقدم مدينة فينيقية وحسب ، بل هي المدينة الوحيدة التي ولدت حوالي العام ٥٠٠٠ ق . م . في الشرق الادنى وعبرت القرون والآلاف بدون

(١ Dunand, **Byblos**, p. 16-18

(٢ P.F.M. Abel, **Géographie de la Palestine**, I, p. 257

انقطاع وظلت قائمة حتى أيامنا هذه . وجبيل الحالية التي هي وارثة جبيل – بيبلوس القديمة ترقد على أكوام من الردم هي بقايا منشآت الانسان المتتابعة ، وفي الموضع نفسه ، طوال سبعة آلاف سنة من التطور التاريخي .

المنشآت ونوع الحياة :

« حوالي العام ٣٢٠٠ ق . م . ، دخلت مصر وبلاد حوض الفرات ، في آن واحد ، في التاريخ ، بدينهما وكتاباتهما الخاصة ... وفي الوقت نفسه الذي ولدت فيه مدن ما بين النهرين ومصر على ضفاف الانهر ، بدأت الحياة المدينية في فينيقيا وكنعان . ففي بيبلوس أصبحنا نجد المدافن والأكواخ مسقوفة بطريقة بناء ذات طابع متقدم . وهكذا بدأ نوع جديد من البناء . واستعمال الفرن كان مقدمة للاختراعات الصناعية الأولى ... وبالجملة ، كانت هناك بشرية جديدة قد بدأت » [١] .

« اختفت تماماً حوالي العام ٣٢٠٠ ق. م. ، العادات المأتمية وطرق البناء السابقة ، وكذلك صناعة الخزف ... فأصبحت البيوت تبنى مستطيلة متينة ... وكانت هذه البيوت مجمعة داخل أسوار كبيرة . ولم تعد تستعمل الحجارة المجمّعة بل الحجارة المسطحة المستخرجة من تربة صخرية . وحين تطور صنع الأدوات المعدنية ، وبخاصة صنع الفأس المسطحة ، أتيح استعمال أخشاب الجبل ، فاستخدمت أعمدة خشبية كانت تنصب في البناء على قواعد حجرية ... وكان مسكن الاله مبنياً على النمط نفسه الذي يبنى عليه مسكن الانسان » .

« اما التجهيزات السكنية ... فإن عدم وجود جُديرات (تصوينات) للبيوت ينبيء عن تجمع ما يزال على الصعيد القروي . لكن الخزف أصبح أكثر رقة ، مصنوعاً بقوالب ومشوياً بالنار . كما أضحت صناعة الأواني حرفة ذات تقنية متقدمة . وتنتشر المعادن في جبيل ، مستوردة من المراكز المنجمية ومن المصنعات (مراكز التصنيع) الخارجية : قبرص ، ولربما القوقاز . أما الأموات

(١ Dunand, **Byblia Grammata**, p. 5 et 6

فغدوا يدفنون بعيداً عن الأحياء ، خارج القرى . وهذه التجديدات تدل على تطور سيقود الى التنظيم المدني ...» .

« وبدأت تزول رويداً رويداً المساحات الفارغة ، وأصبح السير يمر في شوارع ضيقة ، تحيط بها الأبنية المؤلفة من بيوت يحتوي كل منها على عدة غرف متلاصقة ، ... وتلتحق بها أقنية لمجارير المياه . اما الهياكل ، فبدأت تتميز عن المساكن ... ولأول مرة أصبحت المدينة محاطة بسور ... والآثار التي تم جمعها تشهد بتأثير مصر الصريح أيام اسرتها المالكة الأولى (٣٣١٥ — ٣١٠٠ ق. م.)، كما تشهد بتأثير بلاد ما بين النهرين . وكانت الرحلات التجارية تجلب الى بيبلوس خشب الابنوس السوداني واللازورد من باكتريا والنحاس القبرصي والقوقازي . وتنير مصر ، النجمة الكبرى ، فينيقيا الجنوبية، وجبيل بنوع خاص بضوء مدنيتها . لقد خرجت الكتابة الى الوجود في وادي النيل ، وظهرت في الوقت نفسه أيضاً في بلاد ما بين النهرين ، وانتشرت بعدها في سوريا الشمالية ، فعرف العالم الشرقي عندها انطلاقة ثقافية متقدمة جداً على البربرية المحيطة به . وان تطور جبيل ومدن فينيقية أخرى الى المرتبة المدينية لأكبر شاهد على تلك الانطلاقة » [1] .

ب — جبيل ، مركز تبادل تجاري وثقافي

منذ بدء الألف الرابع ، أصبحت مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما موطنا ثقافة وحضارة زراعية ومدينية مراكز نشاط تجاري شديدة الحيوية . فالبحار والصحاري التي تفصلهما لم تحل دون تبادلهما المواد الأولية والمنتَجات المصنعة . كما ان التجارة ما بين هذين البلدين تطورت ، في المناطق المتوسطة التي تربطهما، مراكز ثقافية وتجارية أخرى ، أهمها جبيل على الشاطىء اللبناني .

ويستدل من الحفريات انه ، منذ نهاية عصور ما قبل التاريخ ، كانت هناك علاقات اقتصادية ودينية تجمع ما بين جبيل ومصر . ومن جبيل ، التي كان

١) Dunand, **Byblos**, p. 18-21

امراؤها يستغلون غابات لبنان ويصدرون الخشب ، كانت مصر المفتقرة الى أخشاب النجارة وأخشاب سقوف البيوت وسواري المراكب وغيرها ، تستورد ما تحتاجه منها . وكان المصريون يستوردون المعادن أيضاً من جبيل ، التي كانت بدورها تستوردها من البلدان الآسيوية المجاورة ، ذات المراكز المنجمية . وهكذا أصبحت جبيل ، منذ الألف الرابع ، مركزاً نشيطاً للتبادل التجاري والثقافي ما بين مصر وقبرص وبلاد ما بين النهرين وبلدان الشرق الأدنى الأخرى .

« ومنذ الأسرة المصرية الأولى (٣٣١٥ — ٣١٠٠ ق . م.) ، وجبيل تصدر آنية الفخار ، التي ربما كانت تحتوي على الزيت . وكانت أخشاب جبالها والصموغ والقطران تأخذ طريقها الى وادي النيل . أما العلاقات الثقافية فكانت متعددة وثابتة ، والعلاقات الدينية كانت أشد أواصر . وكانت أساطير أوزيريس وأدونيس الزراعية ، أو أساطير شبيههما (هاي — تاو) تؤثر الواحدة على الأخرى . فآلهة جبيل كانت مكرمة عند أتقياء المصريين » [1] . وحوالي العام ٢٩٠٠ ق . م . ، أرسل الفرعون خازخموي الى إلهة جبيل هاتور إناء من المرمر الأبيض محلى باسمها . وفي أحد هياكل جبيل تلاحظ الهة مصرية بجانب إله جبيل المحلي ، السابق للكنعانيين .

ج — جبيل ، مركز ديني وثقافي

في الألف الرابع ، وفي فينيقيا كما في باقي آسيا الغربية ، كانت الديانة ديانة طبيعية . فالزوجان الالهيان يرمزان الى مبادىء الخصب والاثمار ، والام « بعلة (سيدة) جبيل » وهي عشتروت ، إلهة الأمومة والخصب ، هي الإلهة الرئيسية في بلاد فينيقيا ، كما كان هناك إله آخر كبير في جبيل يقال له « رع البلاد الأجنبية » ، وهو شبيه بالاله الشمس المصري ، وابنه ، وهو اله لجبيل أيضاً ، كان يتجسد برأس أسد وجسم انسان ، ويعرف عند المصريين باسم « روتي » ،

١) Dunand, **Byblia Grammata**, p. 7-9

« الذي له مظهر الأسد » . وأخيراً ثمة إله رابع هو « هاي — تاو » ، أدونيس بلاد الفينيقيين الكثيرة الغابات ، وروح النباتات الحرجية التي تتقمص بشجرة . وهذا الأخير هو نفسه الاله الذي عرفه سكان ما بين النهرين باسم «دوموزي» أو « تموز » .

وقد أتاحت العلاقات الاقتصادية فرصة لتبادل الأساطير بين فينيقيا ومصر . وهكذا رسمت بعلة جبيل على خاتم مصري اسطواني (حوالي العام ٢٩٠٠ ق . م .) مثل الآلهة هاتور المصرية . وهي مرسومة أيضاً على نقش تستقبل أحد الفراعنة وتعانقه . وأخيراً فان سكان وادي النيل ، في زمن ما قبل التاريخ ، كانوا قد تبنوا الاله الفينيقي « هاي — تاو » وشبهوه بالههم الكبير أوزيريس . وسنرى ، بعد هذا ، ان اسطورة هاي — تاو الدينية هي بالواقع اسطورة أدونيس الفينيقية واسطورة أوزيريس المصرية نفسها .

٤ — المصدر الجبيلي المشترك للاساطير الدينية الخاصة بادونيس (فينيقيا) واوزيريس (مصر)

أ — اسطورة ادونيس الفينيقية

« ان شخصية ادونيس غامضة ، فليس هناك نص فينيقي ، أو اغريقي أو لاتيني من مصدر فينيقي ، يتكلم عن أدونيس . وهذا الاسم ليس سوى الشكل الاغريقي لكلمة « آدون » السامية ، التي تعني « السيد » ، وهي ، ككلمة « بعل » ، لفظة عامة . وقد بقي اسم أدونيس مقتصراً على الاغريق وحدهم » [1] .

واقدم حديث اغريقي عن أسطورة أدونيس لا يرجع إلى ابعد من أول القرن الخامس قبل الميلاد . لكن الاكتشافات الاثرية الحديثة اظهرت شخصية أدونيس الفينيقية الحقيقية . فاسمه ، الذي ليس سوى تسمية عامة (أدونيس = سيدنا) ،

(١ Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 94

يخفي في طياته اسم (هاي — تاو) ، اله اشجار جبيل الكبير ، الذي كان يعبد في فينيقيا منذ فجر التاريخ . وهكذا فان أدونيس في الألف الأول قبل الميلاد ، وهاي — تاو في بداية الألف الثالث ، ليسا سوى اسمين دالين معاً ، او بالتتابع الزمني ، على شخص أسطوري واحد .

وفي مختلف النصوص ذات الاصل الاغريقي لتاريخ أدونيس ، نجد دوماً انه مولود من الشجرة التي اتخذت أمه شكلها ، وهو ممثل باله شاب قتله خنزير بري كان يحاول اصطياده . اما عشتروت ، حبيبته ، فانها تنزل إلى الجحيم لانتزاعه من الموت .

« أدونيس ... هو اله حقلي ، هو روح النبات ... وهو العنصر المذكر ، مبدأ التناسل والخصب ... مليء بالقوة في الربيع ، فهو يموت في الصيف اللاهب (يقتله خنزير بري حسب الاسطورة) ، ليبعث بعد ذلك . وتندب عشتروت ، حسب الرواية الاسطورية ، موت أدونيس» [1] . وكان أدونيس موضوع عبادة في جميع بلاد فينيقيا . كما كانت تقام له احتفالات سنوية مشهورة باسم « الادونيات » . وكان مكرماً بصورة خاصة في أفقا ، وهي منطقة جبلية قرب جبيل .

ومع أن الروايات الاغريقية عن اسطورة أدونيس هي من عصر متأخر ، فإن هذه الاسطورة تعود ، في فينيقيا ، إلى ما قبل العام ٣٠٠٠ ق . م . اذ على خاتم اسطواني وجد في جبيل ، يرجع إلى بداية الألف الثالث ، « نجد مذكوراً اسم الاله هاي — تاو ، من بلد « نيغا » (اسم منطقة جبيل في ذلك العهد) . وهذا البلد ، كما يذكر المؤرخون القدامى ، مقدس جداً ، وهو مكرس لعبادة أدونيس ، الذي يمثل روح النبات بصورة عامة . وفي العهد الثيني (عهد الاسر الفرعونية الأولى ٣٣٠٠ — ٢٩٠٠ ق . م) ، كان المصريون يدعون روح النبات هذا باسم « هاي تاو » . كما ان الاغريق يعبرون عن علاقة أدونيس بالشجرة بقولهم انه ولد منها . أما المصريون ، فكانوا يعتقدون ان هاي — تاو قد تحوّل

(١ G. Contenau, **op. cit**, p. 94 et 95

إلى شجرة صنوبر ... ومن هنا يأتي دمج هذا الاله من قبل المصريين بالههم أوزيريس »[1] .

وتجدر الاشارة إلى اننا عندما نجد تشبيه هاي – تاو وأدونيس بشجرة أمراً طبيعياً في بلد كثير الغابات كلبنان ، لا يكون الأمر كذلك في بلد تنقصه الغابات كمصر ، فهاي – تاو اذن هو اله جبيلي ، وهو أدونيس النصوص الاغريقية اللاحقة ، والذي دعي في وادي النيل باسم آخر واندمج بالاله المصري الكبير أوزيريس .

وفضلاً عن الخاتم الاسطواني الذي وجد في جبيل والذي يذكر الاله هاي – تاو من بلد نيغا ، « فهذا الاله النادر ذكره في النصوص المصرية ، وجد اسمه في الاهرام ، حيث شبه الفرعون المتوفى بانه هاي – تاو الموجود في بلد نيغا . وهذا يلقي ضوءاً على شخصية الاله . اذ ان نيغا معروفة في الجغرافية المصرية ، وهي البلد المصدر لأخشاب آسيا ، حيث كان المصريون يذهبون ليجلبوا تلك الأخشاب . فهاي – تاو اذن هو اله هذا البلد، وبما ان اسطوانة جبيل تظهر في الوقت ذاته انه اهم آلهة هذه المدينة ، فيعني هذا ان منطقة نيغا هي جبيل بالذات ، وان الاله هاي – تاو له خاصة هامة وهي كونه اله الاشجار » .

« لكن هنا تنقشع علاقات أخرى . فاله جبيل يعرف جيداً في التقليد اليوناني كممثل لقوة النبات ، والبطل المحور لاسطورة الموت والبعث السنوية للنبات والحياة ، الذي كان يدعى أدونيس ... وفي الاسطورة المحلية التي نقلها اليونان يحدد بأنه أدونيس « المولود من الصنوبرة » . فنرى هكذا ان هاي – تاو ، اله الشجر الكبير في جبيل ، وأدونيس اله جبيل الكبير المولود من الصنوبرة ، هما الشخص الواحد نفسه . ومن الممكن أيضاً ان الاسمين ليسا سوى تسمية واحدة. فلفظة هاي – تاو ، التي لا معنى لها في اللغة المصرية ، يمكن شرحها كنسخ للفظة « آدون » السامية » .

« وفي قسم الصيغة التي تذكر آلهة جبيل (على الخاتم الاسطواني) ، يلاحظ ،

١) G. Contenau, **op. cit**, p. 41 et 42

بجانب هاي – تاو ، رسم الهة لها شكل ايزيس – هاتور ، بتاجها الحامل لقرني البقرة . وهذا الشكل هو بالضبط ما نجده في مصر ممثلاً لعشتروت الفينيقية . فعلى الاسطوانة اذن ، جنباً إلى جنب ، أدونيس وعشتروت، الزوجان الالهيان الرئيسيان في اسطورة جبيل، حيث يلعبان الدور الرئيسي والضروري في الاسطورة الحقلية للدراما السنوية عن الموت والبعث في الربيع ... ونجد دوماً ان خنزيراً برياً يقتل أدونيس في نهاية الصيف ، بينما كان يصطاد ، وقرينته عشتروت تبكي موت رفيقها الالهي ... ثم تبدأ البحث عنه فتجده (في الجحيم حسب النص اليوناني) ، وترده إلى الحياة بعملية سحرية بلا شك » .

« وبالجملة ، فأدونيس يقتل ثم يرد إلى الحياة ، وهذا تمثيل للشتاء والربيع . ثم تعاد الدورة وتتجدد الدراما كل سنة وإلى الأبد . وهكذا ، فأدونيس ضروري لنظام العالم وديمومته . وكانت الناس تحتفل بالذكرى دينياً بشكل درامي »[1] .

ب – أسطورة أوزيريس المصرية

في مصر ان أوزيريس ، اللفظة الاغريقية لكلمة « أوزير » ، كان في البدء (في الألف الرابع) إلهاً للطبيعة وروحاً للنبات ، وهو يموت ليبعث ، كما هو اله الاموات . وعندما انسحب والده « غب » ، اله الأرض ، إلى السماء ، خلفه أوزيريس كملك على مصر ، مصطحباً ايزيس اخته كملكة . وكان حكمه على الارض جليل الفائدة . لكن أخاه « سيت » ، الذي أوغره نجاحه ، دبّر مؤامرة ضده وقتله .

ويروي بلوتارك انه بعد موت أوزيريس ، حملت الأمواج نعشه الملقى في النيل إلى شواطىء فينيقيا ، حتى جذع شجرة أثل . وقد نمت الشجرة وهي تحتضنه في جذعها . ويقطع ملكندر ملك جبيل الشجرة التي تضم النعش ليجعل منها دعامة في قصره . وتعلم ايزيس بالأمر ، فتسافر إلى جبيل حيث تصبح مرضعة للامير

١) R. Weill, **La Phénicie et l'Asie Occidentale**, p. 60, 61

الصغير في القصر . وعندما تعلن عن اسمها وعن الغاية من مجيئها ، تسلم جثمان زوجها ، فترجعه إلى مصر . وهناك تعيد له الحياة بعملية سحرية ، فينسحب اوزيريس بعد ذلك إلى حقول الجنة ، حيث يملك على الأموات .

واننا نجد في اسطورة اوزيريس المصرية حلقة جبيلية قديمة ، وتشابهاً واضحاً مع اسطورة ادونيس الفينيقية (هاي – تاو في عصور أوائل التاريخ) ، الذي قُتل وبُعث .

« واوزيريس ، الذي يصبح بعدئذ اله الاموات ، كان في البدء اله الاسطورة وهو يموت وينبعث سنوياً ، تماماً كما في الاسطورة الفينيقية ... وفي الشكل البدائي للاسطورة يقتل سيت ، رمز الموت والقحط ، اخاه اوزيريس ، رمز الاحسان ... – ولأوزيريس اخت – زوجة هي ايزيس ، الساحرة العظيمة ، التي تستسلم إلى الندب (كما فعلت عشتروت على ادونيس الميت) . ثم تجد جثمان زوجها فتدعوه إلى الحياة بعملية سحرية ... ونلاحظ ان التطور الاسطوري نفسه موجود في الرواية المصرية كما هو في روح الرواية الفينيقية .

« ومنذ الأيام الاولى ، لاحظ المصريون تشابه الروايتين ، فاستنتجوا ان ادونيس الاغراب هو شخص اوزيريس نفسه ، وان عشتروت هي ذاتها ايزيس ... ومن وجهة نظرنا ، فان الاسطورتين المصرية والفينيقية ، رغم عراقتهما في القدم ، تتحدران من نموذج مشترك ... وهذه دلالة قيمة على العلاقات الوثيقة في نظام الشؤون الدينية قبل الألف الثالث » .

« وثمة ما هو أبعد من ذلك ، إذ يمكن الملاحظة ان اوزيريس وادونيس ، واقعياً وتاريخياً ، هما الشخص الواحد نفسه ، وقد انتقل من بلد إلى آخر باسم آخر او بالاسم الأصلي . وبالاستطاعة ان نوضح ايضاً ان الشكل الفينيقي هو الشكل الأقدم ، وأنه جاء من آسيا إلى مصر . ويدل على هذا احتفاظ اسطورة اوزيريس المصرية بموضوع الشجرة الخاص بأدونيس وتعيين جبيل كمكان لفصل من الرواية ... تجسد اوزيريس بالشجرة ، وأوزيريس في الشجرة ، وخروج اوزيريس من الشجرة ، تماماً مثل ادونيس ابن الشجرة ، في الاسطورة الفينيقية . ومن ناحية

اخرى ، فان تعيين جبيل كمكان للحادث ، لا يمكن فهمه لو لم يكن هناك توافق في رواية واردة من جبيل نفسها ... »

« وليس مدهشاً ، بعد هذا ، أن نجد اسطورة ادونيس في اوزيريس . فالاسمان متغايران تماماً . لكن ربما كان اسم اوزيريس هو التسمية الأولى لسيد جبيل ، والاسم الخفيّ المحرّم تداوله في الدين الساميّ » [١] .

« وازاء هذه التشابهات ، التي تدل على تأثير قديم جداً لآسيا على مصر وليس العكس في ذلك العصر ، يحسن التساؤل ما اذا كان يجب القبول باحتلال آسيوي لمصر ، لا بد ان يكون دام زمناً حتى اعطى تأثيره... والآثار الساميّة التي وجدت في مصر تفرض ان يكون هذا الاحتلال قد حصل قبل بداية الحقبة التاريخية ، ... أي خلال الألف الرابع قبل الميلاد » [٢] .

ان مختلف وجوه اسطورة اوزيريس تجعل الاحتلال الساميّ لمصر ممكن الوقوع في فترة اوائل التاريخ ، حيث كان اوزيريس احد قادته الآتين من جبيل . وهذه الاسطورة ، التي يدور بعض مراحلها في جبيل ، كما رأينا ، « تمثل لنا اوزيريس كملك واله معاً ... فكملك يصبح ، حسب النصوص الكلاسيكية ، بطلا قومياً يحقق وحدة مصر السياسية ، ومن ثم يحتل العالم . وتنسب اليه جميع اختراعات العصر الحجري النيوليتي ... فأي أمر حقيقي يمكننا ان نميزه في اوزيريس الاسطوري هذا ؟ من خلال نصوص قديمة جداً ، نقدّر ان أوزيريس الآتي ، على الارجح ، من جبيل ... قد اقتبس ، بعد ان هاجر إلى الدلتا الشرقية ، شخصية وخصائص وسلطات «انزتي» ، زعيم القبيلة المحلي(سيد الدلتا الشرقية)...
« وتسفر الاسطورة عن وجه آخر لأوزيريس ... فلاعتبارات جديدة ، ... يصبح الهاً عالمياً ، وليس محلياً فقط... وكان يتمثل في البدء بشبح شجرة صنوبرية هي « زد » . وهذه شجرة غريبة في مصر ، لكنهـا مستوردة من لبنان ، على مراكب جبيل التي ترجع علاقتها بالدلتا إلى أقدم العصور . زد عـلى ذلك ان

---

١) R. Weill, **La Phénicie et l'Asie Occidentale**, p. 62-66

٢) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 42

بعض مراحل من اسطورة اوزيريس وقعت في جبيل » [1] .

٥ ـ فلسطين وسوريا في الألف الرابع

في الالف الرابع ، كما في الالف الثالث ، كانت فلسطين وسوريا لا تزالان غير بارزتين بعد .

كانت فلسطين مأهولة منذ أقدم العصور . وقد كشفت الحفريات الأثرية فيها عن وجود رجل العصر الحجري الباليوليتي ، الذي كان يستعمل ادوات خاماً واسلحة من الصوان الغليظ . وفي العصر الحجري الميزوليتي كان السكان يستخدمون الحجارة المصنوعة والمصقولة ويصنعون الفخار ، فكانت لهم اوان غليظة وكانوا يحرقون موتاهم . لقد كانوا صيادين في البر والبحر ، يعيشون من محصول رحلاتهم ، وكانوا يلجأون إلى مغاور نصفها طبيعي ونصفها الآخر من صنعهم . ويبدو انهم كانوا من غير الجنس السامي .

لقد اكتشفت قرب « اريحا » مدينة ترجع إلى العصر الحجري الميزوليتي الذي يعود للألف الثامن ، وهي اقدم انشاء مديني معروف . كانت بيوتها واسعة الاحجام ، مصنوعة من طين مجفف ، ولم يكن السكان يستعملون الا أواني حجرية وأسلحة ومعدات من الصوان . ولقد اكتشف فيها هيكل ومعبد . وحوالي العام ٥٠٠٠ ق . م . ، كان يوجد سور ضخم حول المدينة . ثم في العام ٤٠٠٠ ق . م . ، ظهرت مدنية العصر الحجري الانيوليتي .

وفي سوريا ، اكتشفت الحفريات الحديثة انشاء مدينياً في دمشق يرجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد .

١) Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 62-64

الفصل الثاني

انتشار الساميين الكنعانيين

(حوالي ٢٩٠٠ ـ ٢٨٠٠ ق.م.)

ظهور صيدا وصور وارواد وأوغاريت وبروزها

« ان الجماعات الانسانية ... تنطلق في الارض مدفوعة بالرغبة في وجود افضل . فمنها من تقيم في مناطق صالحة ، فتهيؤها . ومنها من تكون اقل حظاً ، أو أقل فطنة ، أو أكثر قلقاً ، فتستمر في حياة البداوة ... لكن هناك طمعاً جشعاً وشهوة معقدة ... تجعل القبائل الرحّل يثورون على المستقرين ، وتدفع المستقرين للتعارك فيما بينهم فتطرد جماعة منهم الأخرى او تخضعها وتستغلها ، او تحتويها» (H. Berr) .

١ ـ الساميون الكنعانيون في الهلال الخصيب

أ ـ ساميون رحّل وبلدان مستقرة

قلما تفيدنا الوثائق الخطية في الألف الثالث عن أولى الهجرات « التاريخية » للساميين البدائيين الرحل خارجاً عن مقرهم في البادية السورية العربية وعن توسع الشعوب المستقرة خارجاً عن مقرها في بلدان النيل ودجلة والفرات ، باتجاه الممر السوري ـ اللبناني ـ الفلسطيني . فالتوسع الذي حصل ، في آن واحد

تقريباً ، لمختلف هذه الشعوب يقع حوالي العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد [1] .

فالهجرات والفتوحات والاحتلالات التي قامت بها الانسانية في الشرق الأدنى قبل الألف الثالث ، ضائعة في ظلمات ما قبل التاريخ . وكل ما نعرف انه في الألف الرابع ، اقام السومريون ، الآتون من السهول الروسية — السيبيرية ، في المنطقة السفلى لبلاد الرافدين (بلاد سومر) ، والاكاديون الأولون ، وهـم ساميون من البادية السورية العربية ، استقروا في بلاد الرافدين الوسطى (بلاد أكاد وبابل فيما بعد) .

ومنذ العام ٣٠٠٠ ق . م ، تتيح لنا المعطيات التاريخية أن نتابع بوضوح اكثر التنقلات الكبرى للشعوب المترحلة وسياسة التوسع للبلدان المستقرة . فقد اصبح الممر السوري الفلسطيني (لبنان — سوريا — فلسطين) ، الواقع ما بين البحر المتوسط والصحراء والرابط ما بين آسيا وافريقيا ، محط انظار مجاوريه بالاجمال. وهكذا سنجد ثلاثة مراكز انتشار كبرى تتدفق موجاتها معاً او بالتتالي ، عبر المناطق السورية الفلسطينية ، مغيرة او مدمرة منشآت المستقرين البنّائين . فالبادية السورية العربية راحت تطلق، على فترات متتالية، جماعات من الرحل لاحتلال الأراضي الزراعية . ومن جهة أخرى ، فان بلاد الرافدين كانت تندفع دوماً نحو سوريا الشمالية للوصول إلى المتوسط . كما كانت تندفع مصر باتجاه فلسطين وفينيقيا ، للدفاع بصورة افضل ضد أي هجوم محتمل يأتيها من بلاد الرافدين أو من آسيا . ويضاف إلى مراكز التوسع او الهجوم الثلاثة هذه ، التي كانت تطمع على الدوام ببلاد الممر السوري — الفلسطيني ، منذ أواخر الالف الثالث ، الشعوب النوردية : هندو — اوروبيين مقيمين منذ اواخر الالف الثالث ، في آسيا الصغرى وارمينيا وايران واليونان الخ...، وآسيويين من مختلف الاجناس آتين من أبعد المناطق .

١) كما فعلنا في كتابنا « شعوب وحضارات الشرق الأدنى » ، كذلك هنا نتبنى التسلسل التاريخي القصير .

ب — الساميون الكنعانيون في الهلال الخصيب

حوالي العام ٣٠٠٠ ق . م . ، كانت قد استقرت قبل عدة قرون موجة سامية توسعية ، خرجت من البادية السورية — العربية إلى مصر وفلسطين ولبنان وسوريا وبلاد الرافدين . غير ان العنصر الأصلي كان لا يزال طاغياً في هذه البلـــدان . وحوالي العام ٢٩٠٠ ، زادت الموجة السامية — الكنعانية في الطابع السامي لبلدان الهلال الخصيب .

ان الغزاة الجدد هؤلاء باتوا يدعون كنعانيين في فلسطين ، وكنعانيين — فينيقيين في لبنان ، وآموريين في سوريا ، وآكاديين في بلاد ما بين النهرين . وكانوا جميعاً شعوباً سامية حملتها موجة مد سامي واحدة . ان اسماءهم الحقيقية مجهولة، او على الأصح أسماء قبائلهم المختلفة عند وصولهم . والأسماء التاريخية التي ذكرناها (كنعانيون ، آموريون الخ .) والتي سيعرفون بها فيما بعد تلتحق بالبلدان التي أقاموا فيها . اما لهجاتهم السامية ، التي كانت واحدة في الأصل ، فراحت تختلف فيما بعد وفق المناطق التي أقاموا فيها . كما أن نزعتهم الاساسية راحت تتشعب . فالكنعانيون اصبحوا تجاراً وبحارة في لبنان ، في حين أن كنعانيي فلسطين والاموريين في سوريا والاكاديين (بابليي المستقبل) في بلاد الرافدين ، راحوا يتعاطون بصورة خاصة الزراعة والتجارة البرية .

ج — العالم السامي في الشرق القديم ، سلف العالم العربي في الشرق الحديث

وهكذا ، ومنذ الألف الثالث ، نجد بلدان الهلال الخصيب يسودها العنصر الساميّ ، وقد بقيت الحال إلى ايامنا هذه . اما اللهجات الساميّة في تلك العصور، من كنعانية وفينيقية وامورية وعبرية وآشورية — بابلية — الخ ، فقد خلفتها في الألف الأول قبل الميلاد ، اللغة السامية الآرامية ، التي اضمحلت في الألـــف الأول بعد الميلادامام اللغة العربية الساميّة .

« وهل ينبغي الذهاب في هذا الاتجاه حتى فكرة القرابة الحقيقية ، الاولية ما بين

شعوب الشرق القديم ؟ وهل هي قرابة عرقية عنصرية ؟ هذا ليس بالاكيد دوماً، ان بالنسبة للتنظيمات البشرية في الألف الثالث أو بالنسبة لشعوب اليوم . وكل ما نلاحظه او ندعوه باسم عنصر هو بالفعل مجتمع توحّده الثقافة واللغة وغير ذلك من المكتسبات الموحّدة بالاتصال والتبادل ... » .

« فالساميون عائلة واسعة من الشعوب ، تربطها قرابة وثيقة متأتية من البيئة الطبيعية ، التي هي ، في الأصل على الأقل ، البيئة شبه الصحراوية ، أي البطاح السائدة والمتحكمة في حياة الرعاة الرحل أو شبه المستقرين ، ومن التنظيم الاجتماعي الناتج عنه ، أي القبيلة ، ومن العادات والأخلاق والدين ، ومن مجموع الثقافة ، وبخاصة اللغة ولهجاتها المتقاربة ...

« ففي الزمن الذي بدأ فيه التاريخ بالنسبة الينا ، لم يكن الساميون كلهم رحلاً ، اذ كان هناك سكان البطاح والبوادي في درجة البداوة او على طريق الاستقرار . وكان هناك المستقرون في البلاد الزراعية ، الذين كانوا يقطنون ، كما صرنا نعرف ، سوريا وفلسطين كلها ... مع فينيقيا في الوسط . وكان مقر الاموريين في الشمال . فمن اين أتى هؤلاء السكان ؟ فاذا كانوا حقاً ، كما يفترض في اغلب الأحيان ، أتوا من الصحراء الشرقية ، فان وصولهم يضيع تماماً في ظلام ما قبل التاريخ . »

« لكننا نعرف ، بطريق علم آثار ما قبل التاريخ ، أسلاف فينيقيي التاريخ ، وهم اناس سكنوا المغاور ونظموا امكنة للعبادة . اما تاريخهم فيصعب حصره ، كما تصعب معرفة تاريخ قدوم الساميين إلى هذا الشاطىء ، فهو دون أي شك أقدم بكثير من الألف الثالث » [1] .

٢ — كنعانيو لبنان أو الفينيقيون

ذكر هيرودوت ان « الفينيقيين يقولون انهم أتوا من شاطىء البحر الاريتري

(١) R. Weill, op. cit, p. 25, 32, 33

(الأحمر) عبر فلسطين ... فأقاموا على شاطىء البحر ، حيث بنوا مدينة دعوها صيدون ، لكثرة السمك في ذلك المكان » . اما قدوم هؤلاء الساميين المهاجرين ، وهم الكنعانيون ثم الفينيقيون فيما بعد ، إلى صيدا وصور ، فحصل حوالي العام ٢٨٠٠ ق . م .

أ — اسم البلد

كيبين ونيغا :

يذكر المصريون ، في الألف الثالث والرابع ، جبال (جبيل الحالية) تحت اسم « كيبين » ، أو « كبن » ، والمنطقة بكاملها تحت اسم « نيغا » . فالجبيليون هم « كيبينيو » الكتابات الفرعونية . وفي كتابات ما بين النهرين ، تدعى جبيل « جوبلة » . وفي الألف الأول قبل الميلاد ، يدعوها العهد القديم « جبيل » ، كما يدعوها اليونان « بيبلوس » ، أي « مدينة الكتاب » .

بلاد كنعان :

في الألف الثاني ، تشير الكتابات المصرية والبابلية إلى سهول وشواطىء فلسطين ولبنان باسم عام هو « كنعان » . وهذه كلمة سامية تعني « المنخفض » . اما السكان ، فكانوا يسمون انفسهم إما باسم مدنهم وإما بالاسم القومي العام : « كنعانيين » . وفي الألف الأول ، يطلق العهد القديم اسم « كنعان » على بلاد الكنعانيين في فلسطين ولبنان ، وهم سكان يجمعهم العرق واللغة . ويطلق اسم « فلسطين » على الساحل الفلسطيني بعد احتلاله من قبل الفلسطينيين ، حوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد . ويبقى اسم كنعان على الساحل اللبناني (فينيقيا) حتى اوائل المسيحية . وكنعان الفلسطينية مدينة بشهرتها النسبية لحروبها مع الإسرائيليين .

اسم لبنان :

هو بقدم اسم كنعان . ففي حين يشير اسم كنعان إلى الساحل ، يشير اسم لبنان إلى الجبل ، وهو كلمة ساميّة تعني « أبيض » . وتسمية لبان ، مكان لبنان ، موجودة في نص يرجع إلى ١٩٠٠ قبل الميلاد (١) . وقد بقي اسم لبنان يشير إلى سلسلة الجبال حتى يومنا هذا ، في حين اختفت ، مع مرور الزمن ، اسماء كنعان وفينيقيا وآمورو وآرام واليهودية وبابل وآشور وكلدة ، الخ .

ومنذ القديم وجبل لبنان مأهول بكثافة . أما ضيق مساحة الساحل وتزايد عدد السكان فيه ، بفضل تطور النشاط التجاري والملاحي في المدن ، فقد دفعا المواطنين ، منذ القدم ، إلى استثماره وزراعة كل قطعة من ارضه مهما صغرت. وتدل شهادة المؤلفين القدامى ، وكذلك بقايا المعابد الفينيقية في قلب الجبل اللبناني ، على أن « كل مدينة كانت تمد حدودها على لبنان إلى بعد يراوح من ١٢ إلى ٥٠ كلم عن الساحل ، فتزرع اراضيها ، بجلال تصل إلى علو ٢٠٠٠ م بالحبوب والكرمة والاشجار المثمرة ... » (٢) . لكن شهرة لبنان القديمة قد اكتسبها ، قبل كل شيء ، من غناه باشجار الارز والصنوبر والسرو ، التي كان يرغب فيها سكان ما بين النهرين ومصر ، حيث كانت مفقودة . وعلى الصعيد الديني ، فان « روح الجبل كان يدعى « بعل لبنان » عند الفينيقيين ، وكان لبنان يدعى كاله في المعاهدات بين الحثيين والاموريين » (٣) .

ويتحدث العهد القديم عن الارز وخصوصاً في مناسبة بناء هيكل اورشليم ، حيث ارسل الارز والسرو ، بناء لطلب سليمان (٩٥٥ — ٩٣٣ ق . م .) ، إلى يافا عائماً في البحر .

واذا كانت فينيقيا مدينة بموهبتها التجارية والملاحية وبازدهارها الاقتصادي

---

١) Abel, op. cit, I, p. 340, note 4.

٢) Moret, Histoire de l'Orient, II, p. 606

٣) Abel, op. cit., I, p. 340 et note 6

لموقعها الجغرافي ولشواطئها ، فهي مدينة بالقدر نفسه ، ولربما اكثر ، لجبلها . فبالاضافة إلى غناه بالغابات ، كان الجبل يحمي فينيقيا ضد الغارات الآتية من البر ، وضد تعسف الحكم المحلي ، فاتاح للفينيقيين التفرغ للتجارة البحرية وللأعمال السلمية والحفاظ على استقلالهم وحرياتهم .

بلاد زاهي :

في الألف الثاني وحتى العام ١٢٠٠ ق . م . ، كان المصريون يدعون الشاطىء الفلسطيني اللبناني باسم عام هو بلاد « زاهي » . وراح يقتصر هذا الاسم فيما بعد على الشاطىء اللبناني وحده ، ما بين عكا وطرابلس . أما جبل لبنان ، المشرف على الشاطىء ، فقد سمي « رمينن » ، الذي يقال انه المرادف المصري للتعبير الفينيقي « لبنان » . « رمينن = لبنن = لبنان » (Moret) . ومنحدرات لبنان الجبلية المزروعة هي جلال زاهي الشهيرة، التي كانت الكتابات المصرية تمدح غناها الزراعي .

اسم فينيقيا :

في الألف الثالث والثاني والأول ، نجد الكتابات المصرية تدعو السكان الكنعانيين على الشاطىء اللبناني — الفلسطيني باسم « فنهو » او « فنخو » . وفي رأي موريه ان لفظة «فينيقي» ، التي استعملها الاغريق ، ظهرت مع هوميروس (في القرن التاسع قبل الميلاد) ... وكلمة « فنخو » تتناغم مع كلمة (فينيقي) ، مما يحمل على الاعتقاد بأن الاغريق استعملوها تمثلا بالتعبير المصري » (Moret) . أما بالنسبة لعلماء آخرين ، فكلمة « فينيقيين » تبقى من ابتكار الاغريق انفسهم ، وهي كلمة اغريقية قد تعني مثلاً « الحمر » (Abel).

« وعندما بدأ الكنعانيون باستعمال الكتابة ، اخذوا يسمون انفسهم اما باسم

مدنهم : صيدونيين ، وصوريين الخ ... ، أو بالاسم العرقي العام : كنعانيين ، وهم يجهلون اسم « فينيقيين » ... والعهد القديم ، الذي يشخص البلدان والشعوب باسم الاجداد ، يقول : « كنعان بن حام، وابنه البكر صيدون»[1]. وحتى بعد المسيحية ، فالاناجيل المكتوبة بالآرامية تدعو البلاد اللبنانية باسم كنعان ، في حين ان تلك المكتوبة باليونانية تدعوها فينيقيا .

وبالاختصار ، فان لفظة فينيقيين ، وهي اسم ، او على الأرجح كنية (الحمر)، هي من أصل اجنبي ، استعملها الاغريق ابتداء من هوميروس (القرن التاسع قبل الميلاد) للاشارة الى كنعانيي لبنان . ولكن هؤلاء ، الذين كانوا ، كما يبدو ، يجهلون هذه التسمية ، استمروا ، بعد عهد هوميروس ، بتسمية انفسهم ، كما في الألف الثالث والثاني ، اما باسماء مدنهم : صيدونيين وصوريين وجبيليين وارواديين الخ ...، واما بالاسم العرقي العام : كنعانيين .

ب — المنطقة الفينيقية

منذ بداية الألف الثالث وحتى نهاية الألف الثاني ، كان الكنعانيون يقيمون على امتداد الشاطىء المتوسطي الشرقي ، من غزة جنوباً حتى خليج الاسكندرونة شمالاً . وقد تغير امتداد هذه الرقعة مع العصور ، لكن القسم الوسيط ، أي الساحل والجبل اللبنانيين ، اللذين كانا في جميع العصور قلب بلاد فينيقياوارض الوطن الأم ، هما اللذان شكلا ، حوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، فينيقيا العصور الماضية بمعناها الكلاسيكي ، ثم لبنان ايامنا هذه .

« والبقعة التي شغلها الكنعانيون البحريون في اوج ازدهارهم تقع ما بين

(١ Moret, op. cit., II, p. 602 et 603.

الرأسين الأهمين من سوريا ، وهما رأس الشقعة شمالاً ورأس الناقورة جنوباً (بين طرابلس وجنوبي صور) . وهكذا فجبيل وصيدون وصور الواقعة كل منها امام سهل صغير قابل للنمو الصناعي والزراعي ولتحرك الهواء ، عاشت حياة مليئة ، يصعب تخيلها ، امام واقعنا الحالي ... هناك كان (الفينيقيون) حقاً في موطنهم ، دون الاختلاط بأي عرق آخر » .

« في جنوب رأس الناقورة (على الشاطىء الفلسطيني) ، لم تستطع منشآتهم مزاحمة العواصم الفينيقية ... وفي شمال رأس الشقعة ، ادت اقامتهم الى ولادة فينيقيا شمالية ، كانت على اتصال بالاموريين والحثيين (في سوريا الشمالية) . وكان على رأس المجموعة الفينيقية هذه أرواد ، التي زاحمت صيدا زمناً طويلاً ... واكتشافات رأس شمرا الأثرية ، اوغاريت قديماً (أغرت) ... أظهرت حديثاً كم كان الطابع الفينيقي عميقاً على الشاطىء الشمالي لسوريا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد » .

« هذه هي الخطوط الكبرى للمنطقة المسماة فينيقيا ، مرئية من زاوية عرقية . اما من الوجهة السياسية ، فلم يكن لها في أي وقت تماسك الدولة الموحدة ، المركزية ، اذ كانت احياناً مجزأة الى جمهوريات صغيرة او امارات تنافس الواحدة منها الاخرى ، واحياناً تعاني من الحكم الاداري المشترك مع سوريا ، تحت السلطات المصرية أو الآشورية أو الفارسية أو الاغريقية . وفي العهد الروماني ، نراها تظهر باسم « سوريا الفينيقية » اولاً ، ثم تحت تسمية مزدوجة : فينيقيا البحرية ، وفينيقيا اللبنانية »[1] .

ج — بروز صيدا وصور وارواد واوغاريت

حين اصبح كنعانيو هذه المنطقة اسياد الشواطىء الشمالية للبحر الأحمر بالتجارة

(١ Abel, op. cit., I, p. 258.

و الملاحة ، اسسوا ، حوالي العام ٢٩٠٠ ، على الساحل الفلسطيني ، مدن عسقلان واشدود ومجدو وغزة ، التي ما لبثت ان اصبحت مخازن لبضائع ما بين النهرين والبلاد العربية ومصر . لكن السواحل الفلسطينية المسطحة والقليلة الخلجان الطبيعية ، لم تكن لتؤمن لمراكب تلك الأيام حماية كافية . وحوالي العام ٢٨٠٠ ، تقدم هؤلاء الكنعانيون نحو الشمال ، فاحتلوا امكنة صيدا وصور وارواد وغيرها ... وفضلاً عن خلجانها الطبيعية ، فقد كانت هذه المرافىء البحرية ، المحمية بالجبل اللبناني من الغارات البرية ، افضل موقعاً من جبيل للاتصال بسوريا الداخلية والشمالية (أمورو) .

وحيث كانت منطقة لبنان جبلية وكثيفة الأشجار ، مما يعني قلة الأراضي الصالحة للزراعة ، فقد وجه المحتلون الجدد نشاطهم نحو البحر : كالصيد والتجارة البحرية الخ . ومنذ ذلك العهد ، وصور وصيدا وارواد واوغاريت وغيرها تؤلف سلسلة من المرافىء تقتدي بتقاليد جبيل ، فتصدر نحو مصر منتوجات ما بين النهرين وآسيا ، ونحو بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى منتوجات مصر وافريقيا . وكانت صيدون « مدينة كنعان الأولى » ، وكانت اللغة هي الكنعانية ، الفينيقية والعبرية بعد ذلك . اما اللغة التي كان يتكلمها السكان الأصليون السابقون للكنعانيين ، فما زالت مجهولة كما ذكرنا .

وهكذا ، ابتداء من ٢٩٠٠ – ٢٨٠٠ ق . م . ، اضيف عرق جديد ، هو الكنعاني السامي ، الى السكان الأصليين الذين كانوا قد اختلطوا سابقاً بمن اخضعهم من الآسيويين . « هذا المزيج من عناصر محلية وشمالية وسامية ، وضع اسس الشعب الذي دعاه الاغريق بالفينيقيين . وهذه الحضارة المختلطة ، التي تحققت في فينيقيا وكنعان ، هي متقاربة منذ الأصل الأول مع مصر وبلاد ما بين النهرين ... اضف الى هذا قيام التبادل التجاري بين الفينيقيين الوسطاء التجاريين وشعوب تلك الامبراطوريات الكبيرة » [1] .

(١ Dunand, **Byblia Grammata**, p. 7-9

والخلاصة هي انه منذ بداية الألف الثالث ، بدأ البلد اللبناني ، الذي اصبح سامياً من جراء الانتشار الكنعاني ، بتطوير نشاطه الملاحي والتجاري والثقافي . وكانت جبيل قد دشنت هذا النشاط منذ النصف الثاني من الألف الرابع . وهذا النشاط المتخصص اضحى ، منذ ذلك الزمن ، النزعة الاساسية للبنانيين خلال تطورهم عبر الآلاف من السنين .

الفصل الثالث

فينيقيا في الألف الثالث قبل الميلاد
(٣٠٠٠ — ٢٠٠٠ ق.م.)

بعد ان توحدت بلاد حام (وادي ودلتا النيل) اقليمياً وسياسياً حوالي سنة ٣٣٠٠ قبل الميلاد ، بدأت حوالي سنة ٣٠٠٠ ، سياسة جديدة دشنت بموجبها عهداً من التوسع الاقتصادي والسياسي نحو فلسطين وفينيقيا . اما في بلاد دجلة والفرات ، فكانت الممالك الصغيرة والمدن المستقلة عديدة ، تتطور جميعها نحو هدفين معاً ، هما : توحيد هذه الدويلات تحت سلطة احداهن ، من جهة ، ومن جهة ثانية ، التوسع السياسي والعسكري لدول أرض الرافدين خارج حدودها الاقليمية واخضاع البلاد المجاورة ، وبخاصة سوريا الشمالية ، من اجل الوصول الى المتوسط الشرقي . وهذان الهدفان أصبحا الشغل الشاغل الدائم لجميع دول أرض الرافدين ، حيث برزت ، منذ ذلك الحين ، شهوة الفتح والتسلط ، وجعلتنا نعرف اولى التوسعات والامبراطوريات السياسية والعسكرية التي يذكرها التاريخ. ولسوء الحظ ، نجد ان كل دولة كبرى أنشئت في أرض الرافدين لم تدم طويلاً بعد زوال مؤسسها .

١ – فينيقيا والامبراطورية المصرية القديمة (٢٩٠٠ – ٢٤٠٠ ق . م .)

أ – الامبراطورية المصرية القديمة

كانت مملكة فراعنة السلالة الثينية في مصر (٣٣١٥ – ٢٨٩٥ ق. م.) قد حققت ، منذ وجودها في الحكم ، الوحدة السياسية بين الدلتا ووادي النيل ، ثم خلفتها بعد ذلك، سنة٢٨٩٥ ق. م.، «المملكة المصرية القديمة» او «مملكة منف»، التي دامت اكثر من خمسة قرون .

التاريخ الداخلي :

لم تصلنا وثائق وافية عن عهد « مملكة منف » ؛ ولكنها كانت تعتبر ، من قبل المصريين في عهد الانحطاط ، « العصر الذهبي » والفترة المثالية للسلام والاستقرار والازدهار . وخلال خمسة قرون تقريباً ، بلغت مصر درجة عالية من التطور في مختلف الحقول ، بقيادة مجموعة من الملوك الأقوياء الحكماء الذين توالوا على السلطة . وبين سنة ٢٨٤٠ وسنة ٢٦٠٠ ق . م . ، بنيت الاهرام الكبرى واقيم نصب « ابو الهول » في الجيزة .

وفي مصر ، كما في جميع بلدان الشرق القديم ، كان المفهوم الاساسي للحكم ملكياً ودينياً . وكان طابع الملكية المصرية اختلاط الدين والسياسة . فالملك اي الفرعون، إله او نائب إله ، لم يكن طاغية قاسياً تابعاً لهواه . كان يمارس نحو رعاياه عناية خاصة يحققها بنفسه ، فكان يشجع الزراعة والتجارة والصناعة ويوجه الادارة ويختار الموظفين ويقيم العدالة بينهم ويحمي الآداب والعلوم . فقد كانت الدولة مملكة شديدة التركيز ، والملك ، وهو اله متجسد أو نائب إله ، كان تجسداً للدولة ومركزاً للمملكة .

السياسة الخارجية :

على الرغم من عزلة مصر النسبية ، فقد كانت ، بفضل اتصالها ببرزخ السويس

الذي يقود الى صحراء جنوب فلسطين ، منجذبة دائماً نحو فلسطين وفينيقيا . وهي رغم كونها افريقية من السلالة الحامية ، فقد ظلّت دائماً متعايشة مع جيرانها الساميين في الشمال الشرقي من الشرق المتوسطي ، اسلاف العرب العصريين في هذه المناطق . وكانت اللغة الفرعونية تقارب كثيراً اللغات السامية .

وحيث كانت الصحاري القاحلة الواسعة تشكل حاجزاً يحمي من الغزوات الأفريقية ، وكذلك البحر المتوسط ، فان المصريين كانوا دوماً قلقين بسبب الحدود الشمالية الشرقية التي تتصل ببرزخ السويس . وهذه الحدود ، منذ ما قبل التاريخ ، كانت معرضة للاختراق احياناً من قبل القبائل البدوية الآتية من الصحراء الفلسطينية – العربية ، واحياناً من قبل موجات من الغزاة الآسيويين ، وبخاصة من سكان أرض الرافدين ، الطامعين باستمرار بالوصول الى المتوسط الشرقي واحتلال المناطق السورية ، التي كان يضطر المصريون الى اخراجهم منها . وكذلك ، فان مصر وبلاد الرافدين ، « لاسباب مختلفة ، كانتا تتجهان نحو الشاطىء اللبناني وتلتقيان فيه» (Grousset) . وقد تولد بين هذين البلدين الكبيرين، اللذين تفتحا معاً على الحضارة في مكانين مفترقين ، صراع عنيد لا يعرف الانتهاء ، منذ فجر التاريخ ، واستمر هذا الصراع ، دون انقطاع عبر تاريخيهما ، وذلك من اجل امتلاك المناطق السورية – الفلسطينية .

« ومن اجل تأمين سلامة مصر من جهة آسيا الصغرى ، كانت هناك سياسة وحيدة فعالة ، في جميع الأزمنة . وهذه السياسة هي الاحتلال العسكري لممر الغزو في وادي العاصي والاردن ، أي سوريا الكنعانية ... وقد ادرك الفراعنة التحامسة (تحوتمس) والرعامسة (رعمسيس) هذه المسؤولية الدفاعية ، فاستخدموا لها قواهم العسكرية ودهاءهم السياسي . ويؤكد لنا التاريخ ان البطالسة ، والصليبيين ، وبونابرت ، ومحمد علي ، وحتى الجنرال اللنبي في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٨ م.) ، كانوا يدركون هذه الضرورة . فدائماً كان القادة الكبار يدافعون عن ابواب مصر في أرض سوريا وفلسطين » [١] .

١) Moret, **L'Egypte pharaonique**, p. 290 et 292.

ومنذ حقبات التاريخ الموغلة في القدم ، نجد اسياد وادي النيل ، سواء أكانوا مواطنين أم غرباء ، لم ينقطعوا عن مراقبة جميع ما يجري في فلسطين ولبنـــان وسوريا ، وعن محاربة اية دولة كبرى تتشكل أو تحاول التشكل على حدودهم الشرقية (سوريا الكبرى ، الهلال الخصيب ، الخ) . فالخطر الذي تكونه على جيرانها دولة سورية كبرى او سورية — عراقية ، كان مشتركاً لمصر وفينيقيا . وهكذا ، منذ اوائل الألف الثالث وطوال التاريخ المزدوج للبلدين ، كـــان حلف طبيعي يجمع بين ملوك وادي النيل وملوك المدن الفينيقية .

ب — جبيل ، عاصمة تجارية ودينية

حتى اواسط الألف الثاني قبل الميلاد ، كانت العلاقات المصرية مع البلدان الخارجية علاقات سلمية بوجه عام . فمصر ، التي تحتاج للخشب وبعض المعادن الاخرى ، اتجهت في اوائل عصر التاريخ الى الشاطىء اللبناني ، الى بلد نيغـــا (جبيل) حيث الجبال مغطاة بغابات كثيفة ، وحيث البحارة المتمرسون كانوا يتاجرون بالخشب والفضة والبرونز والقصدير والمنتجات الاخرى ، مع البلاد الآسيوية ومع الايجيين في البحر المتوسط .

وحوالي ٢٩٠٠ ق . م . ، كانت الحياة المدينية قد اصبحت متطورة في جبيل . « فالطابع المديني للحقبة السابقة كان قد برز واتسع ، وكان تخطيط البيوت هو ذاته ، لكنها غدت امتن بناء ، والمعابد اضحت أضخم . وهذه الخواص تشير الى ان نوع الحياة كان لا يزال هو ذاته كالسابق ، لكن بتحسن ملموس . فقد خلقت التجارة اليسر للناس . وهذه المرحلة في تطور جبيل كانت مزامنـــة للاسرتين المالكتين الثانية والثالثة في مصر (٣١٠٠ — ٢٨٤٩ ق . م .) ، وهي الفترة المحددة التي ظهرت فيها المنشآت الحجرية الاولى في وادي النيل . وتثبت لنا العلاقة التجارية مع مصر وثيقة مصرية تذكر قيام الملك سنوفرو (حوالي ٢٨٤٠ ق . م .) ببناء قارب من خشب صنوبري لم يكن له مصدر آنذاك

غير فينيقيا » [1] . وفي الفترة نفسها يذكر لنا نقش حجر « بالرم » ان الفرعون سنوفرو تلقى حمولة اربعين سفينة من خشب الارز والصنوبر من لبنان . وكانت هذه السفن تنقل الخشب والمواد الاخرى من جبيل، التي كانت تدعى «كبنتي»، الى وادي النيل .

« وبكلمة ، فان جبيل كانت باباً مفتوحاً على اسواق آسيا والبلاد العربيـــة . كما أن الفراعنة ، في عهد المملكة القديمة ، كانوا انشأوا في جبيل قاعدة بحرية ومركزاً لهم ... (في أحد معابد جبيل) ، عدة فراعنة تركوا آثاراً تشهد على ذلك : ألواحاً منقوشة وأواني واشياء متفرقة ... وهذه الاثباتات يراوح زمنها بين ٢٩٠٠ و ٢٤٠٠ ق . م ... وفي الوقت ذاته ، ومع السلع التجارية ، كانت تنتشر العقائد الدينية . وقد اشرنا الى السمات المشتركة التي تجمع بين اوزيريس وأدونيس ووقائع اسطورة اوزيريس التي تجري في جبيل ... فجبيل ، المركز التجاري الناشط بحركة التبادل ، كانت إذن ، منذ هذه الازمنة الموغلة في القدم البوتقة التي تمتزج فيها العبادات والاساطير المصرية والآسيوية . وكان نفوذها يتنامى منعكساً على مجالات الفن والسياسة » [2] .

وحوالي ٢٥٠٠ ق . م . ، « راحت انشاءات جديدة تحل شيئاً فشيئاً محـــل الانشاءات السابقة ، فوسمت حياة جبيل المدينية طوال خمسمئة سنة . فالمنازل نفسها كانت تشاد وترمم دون انقطاع . والبيوت الضخمة ... تشير إلى وجود بورجوازية ثرية . والمعابد كانت عديدة ، والهامّة منها واسعة وثرية . وكان معبد هاتور ، سيدة جبيل ، يتلقى التقدمات المتعددة من الفراعنة . واسماء هؤلاء كانت تكتب بكلمات هيروغليفية انيقة على اوان ثمينة من المرمر ... لقد اصبحت العلاقات الاقتصادية مع مصر في غاية النشاط . فجبيل كانت تصدر اخشاب جبالها والصمغ والقطران ، اللازمة لبناء السفن ، والاصواف ... وزيت الزيتون كان ينقل بجرار جميلة وجدت بأعداد كبيرة في مصر .

---

١) Dunand, **Byblos**, p. 21.

٢) Moret, **Histoire de l'Orient**, I, p. 359 et 360.

وبالمقابل كان الفينيقيون يستوردون من مصر الكتان والحبال ، وربما الحنطة والعدس ، ... والذهب الذي كان ينتج بكثرة في بلاد النوبة . فعبر فينيقيا كانت تمر المنتجات والمحاصيل والافكار ، فتتبادل معاً بين وادي النيل وبلاد الرافدين ومناطق الأناضول » [1] .

وباختصار ، فان العلاقات بين جبيل ومصر ، في النصف الاول من الألف الثالث ، كانت ترقى إلى عهود ما قبل التاريخ ، وكانت علاقات تجارية ودينية وثقافية . وتعتبر تقدمات الفراعنة لمعبد جبيل ، في عهد مملكة منف (٢٨٩٥ — ٢٣٩٠ ق . م .) ، « شهادة على تواصل هذه العلاقات ... بين البلدين منذ ما قبل الحقبة التاريخية » (Contenau) .

وعلى الرغم من تصاعد النفوذ المصري في جبيل في الحقل الاقتصادي والديني والثقافي والسياسي ، فان نفوذ بلاد الرافدين لم يكن غائباً عن عاصمة الجبيليين . « ان اقدم معبد في جبيل ، مع باحته المركزية والغرف المحيطة بها بشكل دائري ، ... مبني وفق تصميم مشابه لمعابد بلاد كلدة » (Dunand) . يدل ذلك على التوازن السياسي اللبناني ، منذ ذاك الزمن ، بين وادي النيل وأرض دجلة والفرات .

ج — التوسع البحري لصيدا وصور وارواد واوغاريت

ان تطور الحياة الاقتصادية والتبادل التجاري ، في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، استدعى توسيع النشاط البحري ، فقامت شقيقات جبيل : صيدا وصور وارواد ، بانتزاع السبق البحري منها . وباتصال هذه المدن بقبرص وبلاد الاغريق ومصر ، امتد ميدان الملاحة امامها في البحر المتوسط ، وأطلعت سكان جزيرة كريت على الحضارة الشرقية ، التي كان عمرها ما يقارب ألف عام آنئذ .

١) Dunand, Byblos, p. 22.

ومنذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، جعلت حركة التوسع البحري هذه من كريت مركزاً اقتصادياً كبيراً . وقد شملت مناطق كثيرة في بحر ايجه ، فكانت هذه تستخدم كمحطات للرحلة بين الشرق القاري واوروبا المجهولة آنذاك . وكان الملاحون الكريتيون يؤمون شمال بلاد الاغريق ، سعياً وراء القصدير الذي كان يستورد آنذاك من حوض الدانوب . وبفضل الفينيقيين في هذه الحقبة ، استيقظ العالم الايجي على الحضارة واتسعت الخريطة الحضارية شيئاً فشيئاً نحو الغرب .

وعلى الرغم من التوسع البحري هذا ومن الازدهار الذي أوجده في فينيقيا ، فان دور مصر ، على الصعيد السياسي ، بقي هو المسيطر فيها . ولقرب مصر من الطرق البحرية اكثر من بلاد الرافدين ، ولكونها اقل توسعية منها ، كانت مملكة الفراعنة تملك في جبيل عملاء سريين ووكلاء وسماسرة ، بل سفراء ايضاً . ولكن المدن الفينيقية ، المعتبرة كمرافىء متقدمة لأرض الرافدين على المتوسط الشرقي كانت تخضع ، كجبيل ، للنفوذ الاقتصادي والثقافي لبلاد دجلة والفرات .

لقد كانت المدن الفينيقية ، منذ بدء تاريخها ، حريصة على استقلالها . ولهذا احتفظت دائماً باستقلال مدنها . وقد بقي التفوق الخاص لصيدا وصور وجبيل وارواد واوغاريت تفوقاً تجارياً اكثر منه سياسياً ، وبحرياً أكثر منه برياً . فقد كان البحر الميدان الحيوي لها . وكانت مصالحها التجارية المتنامية اكثر فأكثر وحاجاتها لحماية هذه المصالح ، تدفعها إلى تبني سياسة مشتركة ومتضامنة . ودائماً كانت جبيل تتمتع ببعض التفوق على شقيقاتها الفينيقيات ، نظراً لماضيها القديم ولدورها كعاصمة دينية .

٢ — احتجاب النفوذ المصري في فينيقيا (٢٤٠٠ — ٢٠٠٠ ق . م .)

حوالي ٢٣٩٠ ق . م . ، بعد وفاة الفرعون بيي الثاني ، سقطت مملكة منف

المصرية فجأة في الفوضى والاضطراب ، بعد ان قضت خمسمئة سنة بسلام وازدهار . فقد احتلت دلتا النيل سلالة ملكية غريبة ، من الساميين الأموريين ، فأحدثت هناك ثورة اجتماعية دامية . فمصر هي على نمط النيل الذي تعتمد عليه . فتاريخها الطويل هو : « فيضان وانحسار للفيضان » ، « بقرات سمان وبقرات عجاف » ، عظمة وتدهور ، ارتفاع وسقوط ، هذا ما كان يتتالى عليها خلال القرون .

« ان محفوظات بابل واشور وحتي ، تذكر لنا سلسلة من التحركات الواسعة للشعوب في آسيا الصغرى وفي سوريا وكنعان ، خلال القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد ... وهذه جميعاً تشير إلى امتداد هذه الهجرات إلى وادي النيل بعد موت ببي الثاني ... ومع هذه الموجة من الغزاة ، التي تزامنت مع تقلص السلطة الملكية ، حدثت نهاية المملكة المصرية القديمة »[1] .

ان خراب المملكة القديمة ادى إلى تدهور مصر ، وكان نتيجة طبيعية له ان يتراجع النفوذ المصري فيختفي تماماً من بلاد آسيا . فتغيرت العلاقات عندئذ بين فينيقيا ومصر ، وبرزت روح التنافر بدل المحالفة والصداقة التقليدية ، التي كانت تجمع ، منذ قرون عدة ، بين جبيل والمدن الفينيقية ، من جهة ، وبلاد وادي النيل ، من الجهة المقابلة . وكانت نتيجة تغيُّب القوى المصرية عن فينيقيا ، طوال اربعة قرون تقريباً ، أن عُزلت هذه سياسياً ، بسبب حرمانها من مساعدة حليف قوي ضد التحركات التوسعية لملوك ارض الرافدين ، الذين كانوا يسيطرون آنذاك على بلاد الاموريين في سوريا الشمالية .

أ ـ فينيقيا والساميون الاموريون (٢١٥٠ ـ ٢٠٠٠ ق . م .)

الساميون الاموريون :

حوالي ٢٣٠٠ ق. م. ، خرجت موجة جديدة من الساميين الاموريين في سوريا

(1) Moret, **L'Egypte pharaonique**, p. 189 et 192.

الشمالية ، وراحت تتوسع حتى دلتا النيل . وقد اكتسحت هذه الموجة ارض الفرات الوسطى ، حيث ساندت الاكاديين الساميين المحليين هناك ، فأخضع هؤلاء جيرانهم السومريين لسلطانهم سنة ٢٢٣٧ ق . م . وقد برز منهم زعيم مدينة صغيرة اسمها بابل ، هو « سوموابم » ، فأصبح قوة مرهوبة الجانب وأعلن نفسه ملكاً سنة ٢١٠٥ ق . م . فكان مؤسس مملكة بابل الأولى ، التي اتخذت من مدينة بابل عاصمة لها . وبعد قرن من ذلك التاريخ ، وفي ظل حكم حمورابي (٢٠٠٣ ـ ١٩٦١ ق. م.) ، اصبحت بابل عاصمة اول امبراطورية وكبرى في بلاد الرافدين ، وكانت المدينة الأولى والاجمل في جميع منطقة غرب وآسيا .

هذه الموجة الامورية الساميّة ذاتها ، التي اخذت على عاتقها قلب أنظمة الحكم الاسر الحاكمة في مصر وبلاد الرافدين ، هددت فينيقيا كذلك . فهذه ، بعد خراب المملكة المصرية القديمة ، لم يبق لها الا الاعتماد على نفسها . وفي حماية جبالها ، تابعت بهدوء نشاطها التجاري والبحري مع الخارج ، حيث كانت تحصل منه على مداخيلها الاساسية . « ولكن وسط هذا الازدهار ، كانت الافكار قلقة، يدل على ذلك اعادة بناء اسوار جبيل بكاملها » (Dunand) .

الاموريون في فينيقيا :

حوالي ٢١٥٠ ق . م . ، غزا الاموريون فينيقيا وفلسطين ، حيث عم الخراب والحرائق معظم المدن .

« بين ٢١٥٠ و ٢٠٠٠ ، اصبحنا نرى تغييراً كاملاً في التنظيم المديني لجبيل ... ومقابل ذلك بقيت المعابد تُستعمل كما كانت ، بعد ان نالت نصيباً جزئياً من الحريق . فقد تغيرت انواع الخزف ودخلت انواع جديدة جاءت من الشرق . واحتلت البلد جماعات جاءت من تخوم الصحراء السورية ، وكانت هذه الجماعات هي ذاتها التي وضعت نهاية الحضارة السومرية في ارض الرافدين وهددت مصر في الفترة نفسها ، اي « الاموريون » . ان غارات هذه الجماعات ،

في سوريا وفينيقيا وكنعان ، تثبتها المدن العديدة المدمرة التي انتهى بعضها إلى الابد آنذاك ، بينما عاد البعض الآخر ليقوم من جديد في المكان نفسه . كما أنشئت مدن جديدة في أمكنة لم تكن مسكونة حتى ذلك التاريخ . وحملت هذه الغزوة معها تغييرات عميقة وتجديدات دائمة إلى البلد (جبيل) . وكانت هجرة ابراهيم من اور إلى حران ، ومن هناك إلى فلسطين ، مظهراً من مظاهر هذه الهجرة الكبرى ...

« وحوالي ٢٠٠٠ ق . م . ، عمت موجة خراب أكثر عنفاً من السابقة فوضعت حداً لهذه الفترة المضطربة . وتشهد آثار الحرائق العديدة على حدوث هذه الموجة . وقد أعيد بناء المدينة (جبيل) حالاً ، كما اقيمت أسوارها من جديد . وبقيت المعابد محتفظة بشكلها العام القديم » [1] .

ان الخراب الذي تكبدته فينيقيا من جراء غارات الاموريين ، يشهد على حدوث مقاومة ضارية وحروب دامية بين الفريقين ، قبل ان ينتهي الأمر بهزيمة لبناني هذا العصر وبخراب بلادهم في هذه الفترة . وفي ظل الاسر الحاكمة الجديدة والطبقة القائدة الجديدة من الساميين ، دشن لبنان ، وهو سامي منذ الانتشار الكنعاني (٢٩٠٠ — ٢٨٠٠ ق. م.) ، حقبة جديدة من تطوره التاريخي .

لقد تحول الساميون المهاجرون الجدد ، في فينيقيا ، بفعل العوامل الطبيعية والاقتصادية المحلية ، إلى مواطنين أصيلين ، وأصبحوا ذوي طابع لبناني فينيقي خاص ، تماماً كالكنعانيين القدامى . ومثلهم غدوا يحرصون على استقلال ومصالح البلاد التي اخضعوها . وبعد تبنيهم للغة الكنعانية الفينيقية ، انقطعوا عن بني قومهم أموريي بابل ، وتقربوا من الحليفة التقليدية لفينيقيا ، مصر الحاميّة ، الخصم الدائم لدول ارض الرافدين .

---

١) Dunand, **Byblos**, p. 22, 23 et 25.

٣ — الحضارة الفينيقية في الألف الثالث

أ — الوسط الثقافي

اللغة :

كانت اللغة الكنعانية هي اللغة السائدة في البلد اللبناني طوال الألف الثالث قبل الميلاد . فقد كانت تستعمل ، منذ اوائل الألف الثالث ، في جميع البلدان التي نالها التوسع السامي الكنعاني : لبنان وسوريا وفلسطين . وفي هذه البلدان المختلفة التي جزّأتها الطبيعة ، كانت اللغة الكنعانية تنقسم بالتدريج إلى لهجات عديدة . فالكنعانية او الاصح الفينيقية في لبنان وفلسطين والامورية في سوريا والمؤابية في شرق الاردن ، الخ ، لم تكن الا لهجات مختلفة من اللغة الكنعانية الاصلية .

تعدد اللغات :

حمل التأثير الخارجي المتعدد المصادر ، والمتنامي دائماً في حقل الاقتصاد والسياسة والثقافة ، في فينيقيا ، حمل معه ، في الألف الثالث قبل الميلاد ، لغات غريبة عدة راح يستعملها السكّان ، وبنوع خاص الاكادية (البابلية فيما بعد) والمصرية . ويحمل احد الواح الطين العائد إلى ما بين ٢٣٠٠ و ٢٢٠٠ ق . م . تمريناً مدرسياً يظهر « ان اللغة الاكادية كانت تدرس في مدارس جبيل ... فالمصرية والاكادية ، وربّما السومرية ايضاً ، كانت لغات مألوفة ، في فينيقيا وبلاد كنعان ، عند الذين كانت تربطهم علاقاتهم الخارجية ببلاد هذه اللغات » [1] .

وهكذا كان تعدد اللغات ، في الألف الثالث قبل الميلاد ، كما كان في الآلاف اللاحقة ، وكما في ايامنا هذه ، إحدى الثوابت التاريخية في لبنان .

---

١) Dunand, **Byblia Grammata**, p. 9 et 10.

الكتابة :

حتى حوالي ٢٢٠٠ ق . م . ، كان كنعانيو لبنان يستعملون الكتابة الهيروغليفية المصرية ليصوروا بها لغتهم الخاصة . وفي ٢٢٠٠ ق . م . ، تركوا الهيروغليفية المصرية إلى هيروغليفية خاصة اخترعوها بانفسهم . ثم بدأوا باخراج محاولات ابجدية خلال قرون عدة ، حتى أدى بهم الأمر إلى ابتكار الأبجدية الفينيقية ، الأم المباشرة لجميع الابجديات الحديثة ، وذلك ما بين القرن السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد .

ب ــ الفن :

في الألف الثالث ، كما في جميع حقب تاريخ فينيقيا ، كان الفن الفينيقي ، بمجموعه ، فناً مركباً ، يقتبس عناصره من الحضارات الاجنبية ، « فيستوعب اقتباساته بوسمه اياها بطابعه الشخصي » . ولمهارة التبني للعناصر الأجنبية المختلفة، من مصرية وكريتية ، ومن أرض الرافدين ، أصبح للفن الفينيقي اصالة حقيقية .

ج ــ الدين :

بقي الطابع العام لآلهة الفينيقيين ، في الألف الثالث ، كما كان في الألف الرابع قبله . وكانت سمة هذا الطابع هي العناية بموضوع الخلق والانتاج والخصب . فالدين الفينيقي هو ، كاديان باقي بلاد آسيا الغربية ، دين طبيعي . والآلهة عندهم كانت موجودة قبل مجيء الساميين : سيدة جبيل ، الاله هاي ــ تاو (ادونيس فيما بعد) وغيرهما . فهذا الدين السابق للساميين أعاد النظر فيه الكنعانيون الساميون وكيفوه حسب مزاجهم وتبنوه . فعبادة العناصر والظواهر الطبيعية هي سمة آسيوية بقيت محفوظة ، ولكن « جميع الكائنات الالهية تحولت إلى صفات انسانية ووضعت بترتيب طبقي صارم » ، موسومة بالسمة السامية

الصحراوية ، وهي أقرب إلى النظام العسكري القبلي منها إلى الحياة الزراعية . فآلهة فينيقيا ينقسمون إلى فريقين يمثلان مبدأين إلهيين رئيسيين : الفريق الأول هو الذكورة وهو الاله الأكبر ، والفريق الآخر هو الانوثة ، الالهة الكبرى . ويضاف اليهما الاله الشاب العاشق ، ابن الالهة او حبيبها . وقد راحت خواص الآلهة البحرية تبرز مع تطور النشاط الملاحي .

كان لكل مدينة إله رئيسي ، اله كبير ، او آلهة كبيرة ، دون ان يكون ذلك مخلاً بالتكريم الذي يؤدى للآلهة الآخرين . والكثيرون من الآلهة يعودون إلى شخص واحد تكون اسماؤه مختلفة فقط ، وفق الطرق التي يكرم بها ووفق الوظائف الالهية المختلفة التي تنسب له .

كان الفينيقيون في الألف الثالث يعرفون آلهتهم بأسماء سامية « ايلوهيم » ، وهي جمع « ايل » أي إله ، وبنوع خاص « بعليم » جمع « بعل » أي سيد . كما كانوا يدعون الاله « ملك » او « ادون » أي «سيد» . ومن كلمة ادون جاء اسم ادونيس، أي سيدنا . وهذا التقليد يعود إلى عقيدة سامية دينية تقضي باخفاء الاسم الحقيقي للاله ، لان التلفظ بالاسم الحقيقي يساعد نوعاً على السيطرة على الاله . « لذلك كانوا يعمدون إلى إخفاء اسم الاله خلف أحد نعوته » (Contenau) . فهناك بعل صور وبعل لبنان وملكارت (أي ملك المدينة) وبعلة جبيل وادونيس وغيرهم ، فهم ليسوا آلهة معينين ، اذ خلف هذه النعوت يختفي الاسم الحقيقي للاله : فبعلة جبيل هي عشتارت ، وأدونيس هو هاي ــ تاو ، وغير ذلك .

وكانت امكنة العبادة تقع على المرتفعات ، فوق الروابي والجبال ، وكانت مقدسة . وكان المعبد مؤلفاً من سور دائري مكشوف من الأعلى . وفي الوسط كان يوجد المحراب وبيت الاله (بيت ايل) . وهذا الأخير هو حجر عادي مخروطي الشكل ، يعتبر هيكلاً يقيم فيه الاله . وهذا التقديس للحجر لا يزال مألوفاً في بعض المناسك .

وكان الخبز والخمر من التقدمات التي تقدم للآلهة . اما الحيوانات التي كانت تقدم كاضحيات ، فكانت نوعاً من الوليمة تقدم للاله : « كانت التضحية

بالابكار من الأبناء تقليداً مألوفاً عند الكنعانيين القدامى... وقد حافظ الفينيقيون على هذا التقليد حتى زمن متقدم » (Contenau) . وقد حيل بين ابراهيم وبين تقديم ابنه اسحق قرباناً لله ، تقليداً للكنعانيين في فلسطين .

وكان الفينيقيون ، كالمصريين ، يعتقدون بالحياة الاخرى ، كما يبدو في بعض فترات تاريخهم . فكانوا يحفظون الجثة من أي عطب . « والتوابيت الموضوعة في الآبار العميقة أو في الكهوف المخفية كانت لوقايتها من عبث لصوص القبور» .

٤ ــ سوريا وفلسطين في الألف الثالث

أ ــ سوريا (امورو)

في الألف الثالث ، ان سوريا (سوريا الشمالية ومنطقة دمشق) غير معروفة جيداً . والمعلومات النادرة التي نملكها عن هذه البلاد ترينا أن سكانها كانوا يعيشون في حالة العصر الانيوليتي ، ويتجمعون بشكل قبائل وتجمعات ريفية .

الاسم :

كانت سوريا في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد تعرف خلال جغرافية أرض الرافدين باسم « امورو » ، وهي كلمة سامية تعني « الغرب » . وهذا الاسم استعمل في بلاد الرافدين لتعريف المنطقة الواقعة غربي بلادهم ، بين الفرات ونهر العاصي . وقد عرف سكان هذه المنطقة باسم الاموريين في التاريخ حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد .

وتذكر لنا نصوص بلاد الرافدين ، في الألف الثالث ، ان « امورو » كانت جزءاً من مملكة نارام سن السامية (٢٢٩١ ــ ٢٢٥٥ ق. م.) ، ملك اكاد في اواسط أرض الرافدين . اما ما يخص السكان الاموريين في هذا الزمن ، فهو ليس بمتناولنا حتى الآن .

وقد رأينا سابقاً أن الموجة السامية الكنعانية ، التي خرجت من البادية السورية العربية في اوائل الألف الثالث ، امتدت إلى مناطق الهلال الخصيب . وهذه الجماعات التي اقامت في فلسطين ولبنان وعلى شاطىء سوريا الشمالية ، أصبحت تعرف بالكنعانيين ، بينما تلك التي تفرقت عنها لتقيم في امورو (سوريا) ، اصبحت تعرف بالاموريين .

وبعد الفي سنة تقريباً ، على اثر انتشار الساميين الآراميين في بلاد أمورو (حوالي ١٢٠٠ ق . م .)، اصبحت بلاد امورو تعرف ببلاد « آرام » ، واصبح سكانها الآراميين الذين يذكرهم التاريخ . وبعد فتح الاسكندر الكبير لبلاد الآراميين (٣٣٢ ق . م .)، اصبحت بلاد آرام تعرف باسم « سوريا » وهي لفظة من اصل اغريقي .

الحياة الاجتماعية :

ان الوثائق التي وصلتنا عن الألف الثالث من بلاد الرافدين لا تذكر شيئاً عن حياة مدينية منظمة في بلاد الأموريين . وحتى ما بعد موجة التوسع الأموري التي خرجت من أمورو حوالي ٢٤٠٠ ق . م . وامتدت إلى مصر وأرض الرافدين وفينيقيا ، فان الشعوب الامورية السورية كانت لا تزال ذات وجود غامض وصامت .

وعلينا ان نفترض ، مع جميع الاحتمالات ، ان المدن الامورية في الالف الثالث ، مثل حلب وحماه ودمشق ، كانت شبه مرافىء للصحراء ومحطات ما بين أرض الرافدين وفينيقيا ومصر ، وهي قديمة كقدم المدن الفينيقية على الساحل (جبيل وصيدون وصور وأوغاريت وغيرها) . وقد كانت بالضرورة على علاقة معها وتقوم بدور نشيط ، إلى حد ما ، في ميدان التجارة البرية : ونظراً لعدم توفر أية وثيقة توضح لنا التطور التاريخي لهذه المدن السورية في الألف الثالث ، فان الحفريات الحديثة أظهرت لنا وجود حياة مدنية مستقرة في دمشق يعود تاريخها للالف الرابع قبل الميلاد . ومن المرجح جداً ان تقوم

حفريات جديدة في ارض دمشق وحلب بالقاء بعض الضوء على التاريخ الاقدم لهذه المرافىء المنفتحة على الصحراء .

اللغة الامورية :

تفرعت لغة الساميين الكنعانيين ، الذين أقاموا حوالي سنة ٢٩٠٠ ق . م . في لبنان وسوريا ، إلى لهجتين رئيسيتين هما : الكنعانية على الساحل ، والامورية في الداخل . وحوالي نهاية الألف الثالث ، كانت اللهجتان الشقيقتان قد تباينتا تبايناً محسوساً ، فأصبحتا لغتين متمايزتين ، كتمايز مجموعتين جغرافيتين وعرقيتين مختلفتين .

ومع أن اللغة الامورية دام استعمالها في التخاطب قرابة الفي عام (في الألف الثالث والثاني) ، فقد اختفت ، لأنها لم تدون ، على ما يبدو ، ولم تترك أثراً منها امام اللغة الآرامية التي خلفتها في سوريا بعد ١٢٠٠ ق . م . ويعرفها اللغويون وعلماء الآثار الآن معرفة جزئية من خلال آثارها في اللغة الآرامية التي حلت محلها . ويرى المستشرقون ان الطبقات الحاكمة والمثقفين والتجار والكتبة ، في بلاد الاموريين ، كانوا يستعملون في لغة التخاطب والكتابة لغة الاكاديين (البابليين) . فقد كانت هذه لغة السياسة والتجارة ، بينما كانت جماهير الأموريين غير المثقفة والمتخلفة تواصل استعمال اللغة الامورية في تخاطبها اليومي .

ب ــ فلسطين (كنعان)

ان فلسطين في الألف الثالث ، كسوريا ايضاً ، هي غير معروفة جيداً .

« تذكر لنا الحفريات الأثرية في فلسطين والنقوش على النُصب في بابل ومصر ، أن فلسطين ، في الالف الثالث ، كانت مأهولة بالساميين ... ولكن هؤلاء الساميين لم يكونوا السكان الأُول لهذه البلاد ... فان الحفريات تشير إلى آثار

شعب يمكن تسميته بالمواطنين الاصليين ، وهو من اصل غير سامي » [1] .

وحوالي ٢٩٠٠ ق . م . ، وبعد استقرار الموجة السامية ــ الكنعانية في فلسطين ولبنان ، أصبح هذان البلدان يدعيان « كنعان » وتبنيا اللغة الكنعانية .

وحتى زمن الغزو العبري ــ الاسرائيلي (حوالي ١٢٠٠ ق . م .) ، كانت فلسطين مأهولة بشعبين ساميين متقاربين هما : الكنعانيون والأموريون : « وقد كان الكنعانيون يعيشون على الساحل ، بينما كان الأموريون يقيمون في الهضاب والمرتفعات ... وفي عدة مقاطع من كتاب العهد القديم ، ... نجد اللفظتين « أموريين » و « كنعانيين » مترادفتين ... فالكنعانيون كانوا يمثلون موجة لاحقة من المهاجرين . فالأموريون كانوا أجلوا إلى الشمال ، بينما كان الآتون الأخيرون (الكنعانيون) يسيطرون على الساحل وعلى البلاد بأكملها ... وقبل ان يطأ العبرانيون أرض كنعان بزمن طويل ، كان الكنعانيون يعيشون في فلسطين كشعب قوي مستقر حيث أنشأوا حضارة قوية فيها » [2] .

« وخلال النصف الأول من الألف الثالث ، كانت كنعان (فلسطين) تبدو متخلفة بالنسبة إلى مصر وبلاد الرافدين... فصناعة الآلات الحجرية والصوانية والخزفية الغليظة تشير إلى وجود شعب من العصر الانيوليتي . وبعض الكهوف المستعملة كمساكن جماعية يشير إلى تنظيمات بدائية » [3] . و « حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ، يرينا بعض الكتابات المصرية في فلسطين الغربية شعباً مستقراً من الفلاحين يعيش ضمن مدن مسورة ، ولكنه منقسم لا وحدة سياسية بينه » (Moret) .

ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وفلسطين مجزأة دائماً وعرضة لأطماع بلاد الرافدين ومصر . وكانت تترجح باستمرار بين هاتين الامبراطوريتين بينما كان الملوك الصغار والزعماء المحليون فيها ، من كنعانيين وأموريين ، يخضعون

---

١) Rappoport, **Histoire de la Palestine**, p. 27

٢) Moret, **Histoire de l'Orient**, I, p. 37, 38, 42

٣) Moret, **Histoire de l'Orient**, I, p. 358

أحياناً لهؤلاء وأحياناً لأولئك ، حسب مصالحهم الآنية وخصوماتهم الداخلية ، وحسب القوى والنفوذ للدولتين الكبيرتين المجاورتين .

« ومن الناحية السياسية ، كانت فلسطين تجذب اهتمام بابل ، كبلد خلفي للشاطىء المتوسطي الفينيقي وكطريق كبرى للتجارة بين بلاد الرافدين وبلاد النيل » (Rappoport) . وللاسباب نفسها كانت تجذب كذلك اهتمام مصر . وفي عدة غزوات (حوالي ٢٦٧٠ و ٢٦٠٠ و ٢٥٠٠ ق . م .)، تشير الوثائق المصرية إلى حملات عسكرية في فلسطين وإلى عودة الجيوش بعد انتصار العمليات . وتاريخ هذه الحملات المصرية يتوافق مع تاريخ التطور التوسعي في بلاد الرافدين ومع زمن التوسع السياسي والعسكري لهذه في سوريا وفلسطين . وكان الكنعانيون في فلسطين ، ككنعانيي لبنان الفينيقيين ، يستخدمون الكنعانية كلغة شعبية وقومية . كما كان دينهم هو دين الفينيقيين ذاته ، وبخاصة في ما يتعلق بالالهين الكبيرين « ايل » و « بعل » .

الفصل الرابع

فينيقيا في الألف الثاني

(٢٠٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.)

١ – جبيل تابعة لمصر (٢٠٠٠ – ١٨٠٠ ق . م .)

كثيراً ما أضر موقف المدن الفينيقية العدائي تجاه مصر بمصالح البلدين الاقتصادية ، وبخاصة أن النشاط التجاري والملاحي في المرافىء الفينيقية هو عنصر مكمل للحياة الاقتصادية في وادي النيل . فمرفأ جبيل لم يكن ليقوم بدوره بمعزل عن دلتا النيل . كما أن دلتا النيل لم تكن قادرة على البقاء منعزلة عن منطقة حيوية بالنسبة للاقتصاد المصري .

وعليه ، لما اعادت السلالة المصرية الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٨) النظام والازدهار إلى وادي النيل منذ تسنمها الحكم ، ارجعت السيطرة المصرية على جبيل وعلاقاتها التجارية معها .

فبعد العام ٢٠٠٠ ق . م . ، دخلت فينيقيا وفلسطين في فلك النفوذ المصري . وكان مبعوثو الفراعنة وسفراؤهم يتجولون بين جبيل وسوريا العليا والبلاط المصري، وقد وضعوا إلى جانب الملك الجبيلي مستشارين ومراقبين مصريين. وعادت بين البلدين العلاقات التجارية البحرية القديمة . وعندما حدثت أعمال قرصنة بقصد تعكير العلاقات بين البلدين ، سحقتها السلطات المصرية (١٩٧٠ ق . م .) . وحصرت دلتا النيل حركة صادراتها عبر جبيل، التي غدت محطة

بين كريت وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين ، فصدرت عن طريقها الأواني الحجرية ولوازم الاناقة والعاج . هذا ، اذا لم نذكر المنتجات التي كانت تستوردها مصر عبر تلك المحطة نفسها .

بعد خسوف دام اربعة قرون ، رجعت السيطرة المصرية إلى فينيقيا كاملة في البداية ، متخذة شكل الادارة المباشرة . وقد احتل نوّاب الملوك المصريين ، إلى زمن ، عرش الملوك الجبيليين . وترينا الحفريات الخاصة بذلك العهد «نواويس جصيّة تحتوي على توابيت من خشب الأرز ، وادوات خاصة بالموتى ، مع كتابات بالحرف الهيروغليفي المصري تدل على أسماء أمراء جبيل . وكان احد هؤلاء الأمراء مصرياً ، ابناً وزوجاً لمصرية : لقد كان حاكماً أرسله الفرعون ، ربما في اوائل الامبراطورية المصرية الوسطى » [١] .

لقد اظهر هذا الحكم الاداري المباشر ، الذي كان يتنافى والعادات الفرعونية التحررية ، أنه غير ملائم وباهظ النفقات ، فاستبدل به البلاط المصري جهازاً آخر أكثر مرونة وفعالية ، هو الحكم بواسطة التحالف والتبعية ، وكان يطبقه الفراعنة قديماً أيام الامبراطورية المصرية القديمة .

« وفي النصف الثاني للسلالة الثانية عشرة (حوالي ١٩٠٠) ، لم يعد في النواويس مصريون ، بل أمراء كنعانيون (فينيقيون) ، تابعون للفراعنة ، وأسماؤهم السامية مكتوبة دون مهارة بالحرف الهيروغليفي من قبل فنانين محليين » [٢] . وكان اثنان من هؤلاء الامراء ، « ابشيمواب » وابنه « ابشيمو » ، يحملان أسماء آمورية . أما نوعية الهدايا الفرعونية التي وجدت في قبريهما ، وقيمتها الفنية مع الألقاب المحفورة عن يد المرسل الملكي ، فتدل على ان فراعنة ذلك العهد كانوا يعتبرون أمراء جبيل كملوك محليين، وأن هؤلاء كانوا يحكمون بلدهم ما بين ١٨٥٠ و ١٨٠٠ كإقطاعيين تابعين لمصر . فكان الفراعنة ، كما يرى موريه (Moret) ، يرغبون في إبقاء جبيل محمية لهم ، لا بلداً مفتوحاً

١) Moret, **Histoire de l'Orient**, I, p. 461

٢) Moret, **Histoire de l'Orient**, I, p. 461

بالقوة ، وذلك لتجنب التكاليف الكثيرة ، وللاحتفاظ بقاعدة لتجارتهم البحرية تلك التجارة التي كانت مصر حريصة عليها مع سوريا ، منذ العهد الثيني » [١] ، أي في اواخر الالف الرابع .

وكان قبرا الملكين الجبيليين المذكورين « في بئرين عميقتين مجهزتين بأثاث جنائزي ثمين ... والنواويس هائلة الكبر ... والأشياء المكتشفة تشهد بتأثير المراكز المنجمية في القوقاس وأرمينيا . اما تأثير حضارة بلاد الرافدين ، فظاهر في الحقل الديني وفي الفنون الصناعية . وكانت مصر حاضرة بكل عظمة مدنيتها وصناعتها الساحرة . وحتى كريت البعيدة كانت ترسل إلى جبيل اوانيها الفخارية المزخرفة من صنع « كماريس » .

وعلى الصعيد السياسي ، كان لمصر الاولوية في جبيل ، حيث كان الامراء يحملون القاب مصر الشرفية . واستعمل الجبيليون اولا الكتابة الهيروغليفية ، وبعدها كتابة شبه هيروغليفية من اختراعهم الخاص . وهذه لم تحل رموزها بعد ، وهي تشبه جزئياً اشكال الاشارات المصرية في الكتابة » [٢] .

٢ — فينيقيا المستقلة (١٨٠٠ — ١٦٠٠ ق . م .)

أ — تدهور النشاط الملاحي الفينيقي

حوالي العام ١٨٠٠ ق . م . ، وكما في الماضي حوالي ٢٤٠٠ ق . م.، عادت مصر إلى حالة التخلف وعمتها الفوضى من جديد مدى قرنين ، فتجزأت إلى اقطاعات . وحوالي العام ١٦٦٠ ق . م . ، احتلها الهكسوس الآسيويون .

وحوالي العام ١٧٠٠ ق . م . ، احتل الكاشيون الآريون بابل ، وأبقوها تحت سيطرتهم البربرية قرابة ستة قرون . وقد تفككت الحياة الاقتصادية في آسيا

١) Moret, **L'Egypte pharaonique**, p. 263

٢) Dunand, **Byblos**, p. 25, 26

القديمة . وتوقفت تقريباً التجارة مع القارة الآسيوية ، فوقعت ازمة اقتصادية خطيرة في المرافىء الفينيقية ، نظراً لانعدام الأمن على طريق الخليج الفارسي . فاتجه نشاط الفينيقيين إلى الزراعة أكثر فأكثر . ويبدو ان مجموعات آرية وشمالية دخلت فلسطين وفينيقيا في تلك الفترة .

« في فينيقيا وكنعان ، تبدلت من جديد فنون صناعة الخزف والمعادن ... وظهرت تغييرات في اقتصاديات المدن ... واضطربت الحالة ، فظهرت التحصينات العديدة في تلك الفترة ... أما فينيقيا ، فكانت تنعم آنذاك بحقبة سلام ، بعد ان استقرت شعوبها وازدهرت زراعتها » [١] .

وهذه الحوادث ، التي عكرت صفو الملاحة والتجارة الفينيقية، افسحت للملاحة في كريت فرصة للاستيلاء على التجارة البحرية ، حيث يعود نشاط الكريتيين في بحر إيجيه إلى العام ٢٤٠٠ ق . م .

ب – سيطرة جزيرة كريت البحرية

تأسست دولة كريت الأولى ، كما ذكرنا ، حوالي منتصف الالف الثالث ، فكان الفينيقيون ينقلون اليها معطيات الحضارة الشرقية ، التي بلغت آنذاك درجة عالية من القوة والثقافة . وقد أخذ شأن دولة كريت يتعاظم منذ اوائل الألف الثاني . وخلال قرون ، بقيت فينيقيا وكريت عاملي الاتصال بين الشرق والغرب وتجنيان خيرات كثيرة من بابل ومن مصر . وقد بلغت حضارة كريت الرائعة اوجها حوالي منتصف الألف الثاني ودام ازدهارها قرابة ثلاثة قرون .

وبينما كانت الملاحة الفينيقية متجهة نحو مصر وآسيا الداخلية ، كانت كريت ، وهي في المتوسط محطة اجبارية لملاحي قارات ثلاث ، الدولة الأولى التي تجرأت على تأسيس حضارة بالاعتماد على التجارة البحرية وحدها . أما الغزوات الآرية التي هدمت بعد العام ٢٠٠٠ ، بلاد الرافدين وسوريا الشمالية وتسببت في تدهور

(١ M. Dunand, **Byblia Grammata**, p. 16-18

البلاد الداخلية . وحيث إنه لم يكن يملك عزم سلفه الكبير وهيبته ، فكر باعتماد طريقته الحازمة للحكم . ولما لم يفلح بمحاولته ، فقد جميع رصيده الشعبي .

وكان رد الفعل لدى زعماء الدروز ، الذين كانوا يرغبون في خلع الأمير بالقوة ، أن هاجموا دير القمر ، المدينة المسيحية (١٨٤١) ومقر الأمراء الشهابيين المألوف . و « استغل سليم باشا ، حاكم بيروت ، هذا الظرف ليثير الفتن فيما بين المسيحيين والدروز . فأرسل إلى الفريقين صناديق من البارود والرصاص لكي يشعل نار الفتنة . وقد ابتدأت أزمة عام ١٨٤١ بخلاف سياسي محض ، بل اقطاعي ، ثم تحولت إلى حرب طائفية . فتعصّب العامة وتحمسوا للخلافات القائمة بين الأشخاص أكثر منهم للمبادىء ، ودخلوا ، مع الأسف ، في الصراع ، خالطين بين مصالح الزعماء الاقطاعيين ومصالح الوطن . وهكذا اقتتل المسيحيون والدروز فيما بينهم إشباعاً لهوى الأتراك والاقطاعيين » [١] .

ب – عمر باشا ، ضابط عثماني ، حاكم للجبل (١٨٤٢)

عرف الباب العالي أن يستغل هذه الحال التاعسة ، التي أحدثها بدهاء ، لكي يقنع العواصم الأوروبية بعجز اللبنانيين عن حكم أنفسهم بأنفسهم ، وذلك بغية إخضاع اللبنانيين إلى إدارته المباشرة . فأعلن خلع بشير الثالث (١٨٤٢) وعين حاكماً على الجبل ضابطاً عثمانياً من أصل مجري ، هو عمر باشا ، الذي اعتنق الاسلام ودخل في خدمة السلطان . وبينما رحب الدروز بهذا الحل ، رفضه المسيحيون ، الذين أعلنوا أنهم لا يرضون الا بأمير وطني مسيحي . وبادر عمر باشا ، الذي اتخذ بيت الدين مقراً له ، إلى كسب تأييد رؤساء العائلات الاقطاعية ، من مسيحيين ودروز . لكن الاحتلال المصري ومقاومته

(١ A. Ismaïl, **op. cit.**, p. 144, 145

عدد كبير من مساعدي الهكسوس وممثليهم كانوا من الكنعانيين والفينيقيين . كما ان قسماً كبيراً من الهكسوس، كما يذكر المؤرخ مانيتون، كان من اصل فينيقي . ويظهر ان جبيل ، في ذلك العهد ، عرفت سلالة من ملوك آسيويين أو آريين .

« لقد عثر في جبيل على قبور ترجع إلى ذلك العهد ، وفيها اسلحة ثمينة كانت ترافق الميت . وفي الهياكل ايضاً ، وجدت أسلحة مختلفة ورائعة الصنع مقدمة إلى الآلهة . وكان للمدينة سور جديد مبني من صخور كبيرة أمام الجدار القديم . وقد سهّل انتصار الهكسوس عاملان جديدان رئيسيان هما : استخدام العجلة والحصان ... واستخدام الرمح والسهم ... وكما فعلت مدن كثيرة في ذلك العهد ، دفعت جبيل بقسم من سكانها إلى خارج الاسوار التي لم تعد تؤوي سوى المدافعين الاخيرين المشاة وهياكل الآلهة وكهنتها »[1] .

كانت مدينة اوغاريت الفينيقية مزدهرة في الألف الثالث ، وقد بقيت كذلك في الألف الثاني : « شوارع جميلة التخطيط ، تحيط بها البيوت ذات الطابق الواحد، وتحتوي تحتها قبر العائلة ... وكان هناك هيكل للاله داغون ، يرجع إلى أوائل الألف الثاني ، وهيكل احدث مكرس للاله بعل ، يتألف كل منهما من غرفتين مستطيلتين ... امامهما ساحة كبيرة ومذبح . وكانت القلعة على الطرف الشرقي للتل ، وهناك كان القصر ايضاً الذي ... يحتوي على مكتبات ووثائق » .

وحوالي ١٦٠٠ ق . م . ، أصبحت صيدا العاصمة الكبرى لفينيقيا ، اذ كانت تملك مؤسسات ومراكز تجارية في القارة الآسيوية وفي بعض جزر المتوسط . وكان اسمها يدل على جميع بلاد فينيقيا . وفي تلك الفترة ، كان اسم صيدوني مرادفاً غالباً لأسم كنعاني (الفينيقي فيما بعد) .

الا ان ذلك النشاط البحري تراجع نسبياً ، اذ إن ارتباط الاقتصاد الفينيقي بازدهار بلاد النيل ودجلة والفرات ، التي تدهورت معاً في ذلك العهد ، أثر كثيراً على

---

١) Dunand, **Byblos**, p. 28

فينيقيا والمرافىء اللبنانية ، فتدهورت اقتصادياً . وقد حدث في فينيقيا تطور زراعي ، رافقه انخفاض في المستوى الثقافي .

٤ – فينيقيا وامبراطورية طيبة المصرية ، او الامبراطورية الجديدة (١٥٨٠ – ١٢٠٠ ق . م .)

أ – فينيقيا ، منطقة نفوذ مصري (١٥٨٠ – ١٤٠٠ ق . م .)

بعد أن أجلت مصر الهكسوس عن أراضيها (١٥٨٠ ق. م.) ، بدأت باتباع سياسة توسعية تجاه فلسطين وفينيقيا ، حيث استعادت نفوذها السياسي فيهما .

ويعتبر هذا التوسع المصري نحو الشاطىء الفلسطيني اللبناني من متطلبات الجغرافيا . وهو ثابتة تاريخية ، كما قلنا في مكان آخر . وهكذا سنرى فيما بعد اسياد وادي النيل يعودون الى الظهور احياناً كثيرة ، في مناطق الشرق المتوسطي خلال القرون اللاحقة . ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد ، وعلى اثر تطور النشاط التجاري والملاحي في العالم القديم ، كانت المنافسة شبه دائمة بين مصر من جهة ، وبلاد ما بين النهرين والاناضول من جهة اخرى . وقد اتجهت المنافسة إلى امتلاك الممر الفلسطيني – اللبناني – السوري أو السيطرة عليه ، لأنه يشكل منطقة مرور عالمي بين الشرق الآسيوي وعالم البحر المتوسط الجديد . ان هذه الاسباب العامة ادت فيما بعد إلى حروب طويلة ومنهكة ، اشترك فيها دول الشرق الادنى طوال ثلاثة قرون تقريباً . وكان على رأس المتقاتلين ، في هذه النزاعات التوسعية فراعنة مصر والملوك الميتانيون ، واسياد أرض الرافدين العليا ، والملوك الحثيون في آسيا الصغرى .

وبعد ان استردت مصر نفوذها السياسي على فينيقيا وفلسطين (١٥٨٠ ق. م.) ، بدأت بفتح هذه البلدان عسكرياً ، ابتداء من ١٤٨٠ ق . م . ، فشنت حملات متتابعة دامت عشرين عاماً . « وقد أقيمت آثار تذكارية لهذه التدخلات ، في

عدلون ، بين صور وصيدا ، وعند مصب نهر الكلب »[1] .

وكان الحكم المصري في آسيا بمثابة حماية ذات طابع تحرري ، اذ كان كل شعب يحتفظ بإدارته التقليدية تحت اشراف مصري . فبقي الملوك والامـراء واعضاء المجالس البلدية في مراكزهم ، في فينيقيا وغيرها . اما السلطة المشرفة فلم تكن تفرض الضرائب التي كان يتفق على معدلها وشكلياتها . وكانت هناك قوات مصرية متمركزة في النقاط الستراتيجية . «كانت امبراطورية مصر الآسيوية تتألف ، بصورة رئيسية ، من مدن كثيرة العدد ، محصنة في أغلب الأحيان ، يحكمها تارة ملك وطوراً مجلس أعيان ». وكانت المدن الفينيقية تشكل دويلات صغيرة ، ذات مجلس يعاون الملك .

كان ثراء الامبراطورية المصرية في المنطقة الآسيوية متمثلا بنوع خـاص ، بنشاط المدن الفينيقية الاقتصادي ، الذي كانت تشجعه سياسة الفراعنة التوسعية . وكانت صور وصيدون وجبيل وأرواد وسيميرا وأوغاريت تملك سفناً مهمة ، كما كانت ايضاً اسواقاً للتجارة العالمية ، ما بين مصر وبابل والعالم الجديـد الكريتي — الايجي .

وبفضل مورد الثراء هذا ، الذي كان يصب في وادي النيل ، بلغت الحضارة المصرية في ذلك العهد درجة عالية من الرفاه والبحبوحة (قبر توت عنخ أمون الخ ...

اما بابل التي كانت تجتر نفسها تحت حكم الكاشيين الآريين منذ سنة ١٧٥٠ ق.م. ، فقد اصبحت مركزاً تجارياً ومالياً وحلقة بين الشرق المتوسطي والهند . لكن مع كون مصر هي المسيطرة سياسياً في الممر السوري — الفلسطيني ، فان اللغة البابلية كانت اللغة المستعملة في هذه المنطقة . كما ان القانون البابلي كان معمولا به في المعاملات التجارية . ومع هذا ، وبالرغم من اولوية البابلية كلغة دولية ، فإن الفينيقية بقيت اللغة الوطنية والدولية معاً لكنعانيي لبنان . ومن جهة أخرى ،

١) Dunand, Byblos, p. 28

لم يتوانَ الكنعانيون عن استعمال لغتهم عندما ابتكروا الهجائية لتسهيل علاقاتهم التجارية مع ممثليهم ووسطائهم في البلدان البعيدة .

وكانت مصر وفينيقيا وبابل وكريت ، في ذلك العهد ، اكبر مراكز توزيع للتجارة العالمية . لكن مصر ، وهي نقطة الالتقاء بين العالم المتوسطي والعـالم الهندي ، كانت مركز استقطاب للتجارة البحرية التي كان يتزايد حجمها يوماً بعد يوم .

وهكذا ، من ١٧٥٠ إلى ١٤٥٠ ق . م . ، بدأ يتجابه الفينيقيون والكريتيون في المتوسط الشرقي وفي البحر الايجي . وكان الكريتيون قد دفعوا بشبكـة مراكزهم التجارية نحو الغرب ، في ايطاليا وصقلية ، ونحو الشرق ، عـلى الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى .

ب — سيطرة فينيقيا البحرية (١٤٠٠ — ١٣٠٠ ق . م .)

حوالي ١٤٠٠ ق . م . ، اختفت مملكة كريت فجأة ، تحت ضربات الآخيين الاغريق ، الذين كانوا تابعين للكريتيين ، فأصبح الآخيون بين عشية وضحاها أسياد أسيادهم القدامى . وأصبحت « ميسينا » عاصمة العـالم الايجي بدل « كنوسوس » .

وقد أتاح اضمحلال سيطرة كريت البحرية المجال امام بحرية فينيقيا ، التي كانت ملجومة منذ قرنين ، لكي تمد نشاطها نحو العالم الايجي . ويعتقد بعضهم أن ثورة الآخيين ضد الكريتيين قد اثارها المصريون ، الراغبون في تأمين السيطرة على البحار للمرافىء الفينيقية ، التي كانت جزءاً من امبراطوريتهم . « فهل اسهم أمينوفس في إثارة مسينا ضد كنوسوس ، ... من اجل محميه الفينيقيين ... ، كما دفع بعد ذلك الصوريون والصيدونيون داريوس (ملك الفرس : ٥٢١ — ٤٦٦ ق . م .) للحرب ضد الاغريق ، محاولة منهم للقضاء على المنـافسة اليونانية ؟ ان الامر ممكن . وعلى أي حال ، فان سيادة فينيقيا على البحار بدأت

بعد سقوط كريت »[1] .

ومنذ ذلك العهد ، وحتى ظهور السيادة البحرية الآخية (حوالي ١٣٠٠ ق. م.) ، كان النفوذ الفينيقي يهيمن على العالم الايجي. وبقيت ذكرى ذلك النفوذ محفوظة في سلسلة من الأساطير الأغريقية : في اساطير دانايوس وقدموس وايو ، وفي بعض مقاطع اسطورة هرقل وفي الميثولوجيا والدين الخ. واتّسع النشاط الملاحي الفينيقي في البحر الايجي ، بنوع خاص ، نظراً لتقهقر المرافىء الفينيقية في ذلك الوقت بسبب اختلال الامن في منطقة سوريا وبلاد الرافدين ، من جراء النزاع المصري – الحثي الذي جرت بعض فصوله في فينيقيا وسوريا طوال قرن تقريباً (١٣٨٠ – ١٢٧٨ ق . م .) .

ج – اضطرابات وفقدان الأمن في المنطقة . ظهور الكتابة الابجدية

لم يكن الوضع على ما يرام في فينيقيا ، حوالي ١٤٠٠ ق . م . ولم تكن مصر لتستطيع احلال السلام في محميتها . ففي عهد الفرعون أمينوفس الثالث (١٤٠٥– ١٣٧٠ ق . م .) ، الذي عرف بسذاجته ، كانت الحروب لا تنقطع بين اتباع مصر : ملوك المدن والحاكمين الصغار في المناطق . وكانت هناك احداث متعددة نشأت عن وجود تجمعات شعبية بارزة من الاجانب في البلدان الشرقية ، ممن دفعتهم أمامها غزوات الشماليين والساميين .

« كان ملك جبيل ، حليف الفرعون الأمين ، موضع عداء الأمراء الآموريين ، الخاضعين للحثيين . وتصف العداء ما بين الامراء السوريين والفينيقيين ألواح تل العمارنة الشهيرة ، وهي رسائل دبلوماسية ، محررة بالاكادية المسمارية ، ما بين هؤلاء الامراء والفرعون أمينوفس الثالث والرابع (١٤٠٥ – ١٣٥٢ ق . م .) . فكان يدفع كلا الفريقين من الامراء عن نفسه تهمة الخيانة ويتهم جـاره » (Dunand) .

(١) De Laplante, **Histoire Générale Synchronique**, I, p. 46

ان رسائل تل العمارنة (الوثائق المصرية : ١٤٠٠ – ١٣٥٠ ق . م .) تظهر لنا القلق الذي كان قد بدأ يحرك المنطقة . فمن فينيقيا ومن سوريا ومن فلسطين ، كانت الرسائل تنذر وتهدد بالخطر . وكان للامبراطورية الحثية في آسيا الصغرى عملاء في المحمية المصرية ، تحرك المؤامرات لزعزعة السلطة الفرعونية . «كانت كل رسالة تختتم ، عبثاً ، بطلب معونة من القوات » . وكان موقف المـدن الفينيقية يختلف من مدينة إلى أخرى . وعلى العموم ، كانت ارواد وسيميرا وحتى صيدا ضد مصر ، في حين بقيت صور وجبيل تناصرانها . اما اوغاريت ، الواقعة في اقصى الشمال ، فكانت تميل إلى الحثيين . وكانت القوات والعدد التي تسلمتها المدن المهددة ضئيلة . فقد طلبت صور ٢٠ رجلا (مدرباً) وجبيل أربعة رجال ، فقد كانت الحاجة ملحة لاموال الفرعون .

كان العدو الرئيسي للمدن الفينيقية عبد – اشيرتا ، امير أمورو ، سوريـا الشمالية ، الذي كان يطمح للوصول إلى البحر . وكان يستخدم البدو الرحل وشعوباً غريبة لمهاجمة رب – أدي ، ملك جبيل التابع لمصر . وكان أنصـار الأموري ، في فينيقيا نفسها ، ملوك صيدون وبيروت ، أعداء ملك جبيل . فقد طلب هذا الأخير معونات مـن الفرعون ، موجهاً اليه هذه الكلمات ، التي هي من اسلوب ذلك العصر : « من رب – أدي إلى الملك سيدي : على اقدام سيدي ، سبع وسبع مرات اقع ... فليسرع سيدي بإرسال الفرق العسكريـة والا قضي علينا » . لكن الفرعون ، الذي كان مضطراً لأن يجيب على طلبات عدة ، لم يرسل سوى مساعدات لا قيمة لها، فانتهى الأمر باسقاط رب – أدي .

وتحت اشراف الملك أزيرو الأموري ، ابن وخليفة عبد أشيرتا ، نشأ تحالف جمع ملوك أمورو وصيدا ، متخذاً شكل حركة وطنية موجهة ضد المصري الغريب . وبمساندة الحثيين ، احتل أزيرو دمشق واتخذ منها عاصمة له .

وتكشف لنا وثائق تل العمارنة عن ان فينيقيا ، في ذلك العهد ، كانت بلداً غنياً وآهلاً . كما كان سكانها يتكلمون الكنعانية اي الفينيقية . وتكشف ايضاً

أنه في حين كانت فينيقيا دوماً ساميّة ، كان ما بعدها ، أي سوريا المجوفة ، حورية او آسيوية. وكان في فلسطين مزيج متعادل من ساميين وحوريين(آسيويين) وميتانيين (آريين) .

« في تلك الفترة ، ظهرت اولى الوثائق المكتوبة بالاحرف الهجائية ، اي بكتابتنا الحاليّة : واحد وثلاثون حرفاً ذات شكل مسماري في اوغاريت ، وهي كتابة لم يطل عمرها لأنها لم تكن صالحة الا للنقش على الواح الطين . وظهرت في جبيل كتابة اكثر مرونة ، معدة لأن تكتب على الورق وتنتشر في الشرق كله ، ثم بعد ذلك في العالم اجمــع باستثناء الصين . ويظهر ان احرف هذه الكتابة الاثنين والعشرين متحدرة ، بالنسبة لشكلها ، من الاشكال المقلدة للهيروغليفية الفينيقية التي تكلمنا عنها في مكان آخر » [1] .

ولكن ، وإن تلك الكتابة ظهرت في وثائق ذلك العصر (حوالي ١٤٠٠ق . م .)، فان اكتشاف الفينيقيين الجبيليين للكتابة يرجع الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كما سنرى فيما بعد .

د – دخول الامبراطورية الحثية إلى المسرح (١٣٨٠ – ١٢٧٨ ق . م .)

بعد خسوف دام عدة قرون ، عادت المملكة الحثية الى المواجهة العلنية مــع مصر ، فقد قبل الحثيون موالاة ازيرو ملك دمشق الاموري ، وحالفوه ، ثم زحف شوبيلوليوما ، الامبراطور الحثي (١٣٨٠ – ١٣٤٦) ، ليفرض سيطرته على سوريا الشمالية وعلى امير حلب . وعندما رأى ان مصر لم تتحرك ، احتل البقاع ، بينما احتل ازيرو جبيل . وفي فلسطين احتل بدو الخبيرو (العبرانيون)، اعداء مصر ، مدينة اورشليم واشرفوا على مرافىء الساحل .

وحين قلق ازيرو لتقدم الحثيين ، الذين وضعوا البقاع وسوريا الشمالية تحت اشرافهم المباشر ، سارع الى مصالحة الفرعون . وتشير وثائق بوغاز – كوي ،

١) Dunand, **Byblos**, p. 29, 30

في آسيا الصغرى ، الى ان ازيرو وقع في الوقت نفسه معاهدة مع الحثيين . وحيث كان « غير مخلص للحثيين ، كما كان من قبل غير مخلص للمصريين» ، فقد سحقه شوبيلوليوما ، حوالي ١٣٥٠ . وأصبحت دمشق وسيميرا وجبيل وصيدون وصور ، التابعة قبلاً لأزيرو ، اقطاعات حثية . وقد خنق انحدار ازيــرو النواة الوحيدة الهامة التي كانت قادرة على انشاء تحالف وطني وقيادته ضد الحثيين . فسارعت مصر بالجلاء عن لبنان وفلسطين .

وفي سنة ١٣١٨ ق . م . ، رجع المصريون فاحتلوا فلسطين ثم فينيقيا ، في ١٣١٥ ق . م . وفي ١٢٩٤ ق . م . ، اخترق رعمسيس الثاني فينيقيا في طريقه الى سوريا الشمالية ، وترك لنا ثلاثة نصب ، كثيرة التشويه اليوم ، لتذكر بمروره بنهر الكلب ، ما بين بيروت وجبيل . وتشهد معركة قادش غير الحاسمة ، سنة ١٢٩٣ ق . م . ، في ضواحي حمص ، على ركود الصراع المصري الحثي . وفي ١٢٧٨ ، انعقدت معاهدة سلم ما بين المصريين والحثيين ، تقاسموا بموجبها مناطق الممر السوري – الفلسطيني : فبقيت سوريا الشمالية في عهدة الحثيين ، في حين احتفظت مصر بفلسطين وفينيقيا . اما مملكة جبيل ومملكة دمشق فأصبحتا دولتين محايدتين ، أي دولتين حاجزتين بين الحثيّين والمصريين .

ه – فينيقيا وسيطرة الآخيين البحرية

بينما كان المصريون منهمكين في الورطة السورية ، كان الآخيون الاغريق ، خلفاء الكريتيين ، قد اصبحوا اسياد البحر . وكانت عاصمتهم ميسينا قدأضحت مركز الثقل للعالم الايجي ولامبراطوريــة بحرية غنية وقوية (حوالي ١٣٠٠ ق . م .) .

وعلى عكس الكريتيين والفينيقيين ، الذين كانت سيادتهم اقتصادية فقط ، فان الآخيين لم يفهموا التجارة بمعزل عن التسلط السياسي . فالقومية والنزعة التوسعية قادتاهم الى سياسة التوسع والعدوان والمغامرة . فمنذ ظهورهم بدأوا يخططون لسياسة عدائية ضد البحارة الفينيقيين ، الذين كانوا ينافسونهم . وبقدر مــا

كانت تتزايد قواتهم ، كانوا يخرجون الفينيقيين تدريجياً من البحر الايجي ، ويزاحمونهم حتى في مرافئهم في المتوسط الشرقي . وكانت منتجاتهم الصناعية تغرق اسواق مصر ، وحتى اسواق المدن الفينيقية . وكانت البحرية الفينيقية أقل شأناً من البحرية الآخية ، بالرغم من نفوذها في المتوسط الشرقي . فالآخيون او الاغريق الأُول ، الذين جمعوا المدن البحرية الاغريقية في اتحاد فدرالي دعوه « الآخي » وجعلوا من ميسينا عاصمة لهم ، اضحوا قوام السيادة البحرية الآخية – الايجية وانطلقوا بمغامرات بعيدة في الشرق والغرب .

وحوالي ١٢٠٠ ق . م . ، نجد الآخيين ، الذين دمروا مدينة طروادة على مدخل الدردنيل ، يخضعون لاحتلال برابرة شماليين هم الدوريون ، الذين اكتسحوا امبراطوريتهم . وقد تسببت هذه الهجرة الجديدة بشن هجمات « شعوب البحر والشمال » ، التي تدفقت على العالم الشرقي فانهت وجود المملكة الحثية وداست بلدان الممر السوري – الفلسطيني ودمرت ، الى عدة اجيال ، بلاد الفراعنة .

٥ – الحضارة الفينيقية في الألف الثاني

ان الحضارة الفينيقية ، التي تطورت في الألف الثالث ، تجلت بحلة ابهى في الألف الثاني .

أ – اختراع الكتابة الهجائية او الابجدية

رأت الهجائية او الابجدية الفينيقية النور في جبيل ، في النصف الأول من الالف الثاني ، وهي أم جميع الكتابات الهجائية الحديثة . وقد ولّدت الهجائية الكتاب الذي ، كانت تصنعه جبيل من ورق البردي المستورد من مصر ، وتوزعه في عالم البحر المتوسط . ومن هنا تسميتها « بيبلوس » ، من الكلمة اليونانية « بيبلو » التي تعني « الكتاب » ، الذي كان الاغريق يشيرون به الى جبيل .

ومقابل فكرة النشوء الذاتي للكتابة الهجائية ، فاننا نعرف اليوم ان تجارب عديدة

جرت في فينيقيا وغيرها ، منذ اوائل الالف الثاني ، أي قبل ثلاثة او اربعة قرون من اختراع الهجائية النهائي . وبالفعل ، فان هذا الاختراع يتطلب من العالم بذلاً فكرياً عظيماً ونشاطاً فلسفياً كبيراً من شرح وتحليل . فلم يكن الأمر متعلقاً بتبسيط الطرائق الهيروغليفية او المسمارية ، التي كانت متداولة منذ فجر التاريخ ، بل كان التركيز على تحويل هذه الكتابة المرتكزة على الصور ، الى كتابة مرتكزة على الصوت . و « منذ خمسة وعشرين قرناً ، والهجائية الفينيقية تؤمن وحدها – مع منافسة الطريقة الصينية فقط – التعبير الدائم عن اية فكرة ... لقد كانت احد الاختراعات الانسانية الاكثر كمالاً . وتحت اشكال متعددة ، وبعد اربعة آلاف سنة في عالم يعيد النظر في كل مناهجه ، صمدت هذه الهجائية رغم جميع التطورات الحضارية »[1] .

« ان اكتشاف الابجدية هو احد القاب الفخر للفينيقيين (Parrot) . فهي تضعهم في مصاف الشعوب التي اسهمت كثيراً في تطوير الفكر والحضارة العالمية ». لم يسهم أي شعب ، قبل الرومان ، بقدر ما اسهموا في نشر ثقافة البحر المتوسط في الغرب الاوروبي ... فينيقيا عملت اكثر مما هو معروف في التهيئة للفلسفة الهلنستية »[2] .

لقد اهمل الفينيقيون اللغة المصرية ، وهي لغة بلد كبير ، كما اهملوا الأكادية البابلية ، وهي لغة الدبلوماسية والتجارة الدولية في ذلك العهد . ونظراً لنفسيتهم الاقليمية فقد استعمل كنعانيو لبنان الاختراع الهجائي الجديد لنقل لغتهم الكنعانية الفينيقية ، وهي لغة بلدهم فقط . « ان هذا الحدث مهم . فهو يظهر أن فينيقيا ظلت تلك الشخصية الفريدة ، رغم تسلط اللغات القوية التي كانت تتقاسمها»[3]

ان جميع الهجائيات التي تستحق هذا الاسم ، قديمة كانت أم حديثة ، تنتسب الى حد ما الى الهجائية الكنعانية الفينيقية . فآراميو سوريا وبلاد الرافدين ، الذين

---

١) Dunand, **Byblia Grammata**, p. 24, 195

٢) P. Masson-Oursel, **La Philosophie en Orient**, p. 27, 28

٣) Dunand, **Byblia Grammata**, p. 24

نقلوا لغتهم الى هذه الهجائية ، اسهموا في نشرها ، بواسطة تجارتهم ، حتى الصين والبلاد العربية . وبفضل الهجائية ، احتلت اللغة الآرامية مركز الاكادية البابلية ، كلغة دبلوماسية وتجارية في الشرق المتوسطي ، ومن ثم كلغة وطنية في مجمل بلاد الهلال الخصيب . وكان الصوريون ، من جهتهم ، ينشرون الهجائية في بلاد الاغريق وفي جزر البحر الايجي . وبعد ان اكتملت بالاحرف الصوتية عبرت من الاغريق الى اللاتين ، ومن هؤلاء الى باقي الشعوب الأوروبية . وبالنهاية ، « فان الفينيقيين يستحقون ان يكونوا المشكاة في القاعة المكرسة للامم المتمدنة ، لأن تجارهم ، بلا شك ، هم الذين علموا الأمم القديمة استعمال الهجائية ... وهذه الرموز الغريبة هي حقاً الجزء الاثمن من كل تراث حضارتنا » (١) .

ب – الحياة الفكرية

يعود تحرير الكتابات التي اكتشفت الواحها في رأس شمرا ، سنة ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ميلادية ، الى حوالي ١٤٠٠ قبل الميلاد . وقد وجدت هذه الألواح قرب اللاذقية ، في انقاض المدينة الفينيقية القديمة اوغاريت ، التي هدمت حوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد هذه الالواح ، المعروفة اليوم بـ « نصوص رأس شمرا » والتي تحمل كتابات من عصور مختلفة ، هي اجزاء من مجموعة واسعة ، قد اختفت ، كانت تشكل مكتبة اوغاريت . والكتابة فيها هجائية ، ذات سبع وعشرين او ثلاثين اشارة ، أما اللغة فهي لهجة كنعانية – فينيقية . وقد حملت لنا هذه الالواح سلسلة من نصوص أدبية واسعة اوقصائد شعرية ، ذات خصائص ميثولوجية اسطورية .

والقصائد التي اكتشفت في رأس شمرا ، والتي تعود الى حوالي العام ١٤٠٠ قبل الميلاد ، حلت رموزها اثر السنة ١٩٣٠ بعد الميلاد . وهي تضم « عدداً من التعابير الشعرية التي استعملها العهد القديم فيما بعد » ، اي بعد ستة قرون تقريباً .

١) W. Durant, **Histoire de la Civilisation, I**, p. 364

« ان مجمل هذه الكتابات يؤلف « التوراة الكنعانية » . ومن الممكن معرفة قسم كبير مما اقتبسه العبريون من الأموريين او الكنعانيين ... فعناصر عدد من كتابات رأس شمرا قد رددتها التوراة العبرانية ... ولم نفاجأ بجمال المواضيع وغنى التعابير وقيمة الاخلاق العالية التي ترشح من النصوص ... حتى ليمكن بعث هوميروس آخر من رفات اليملكو » (١) .

« وكان يقال في العهد الروماني ان فينيقيا انجبت ، منذ حرب طروادة ، مؤرخين وفلاسفة ... ولكن من المؤكد ، على الاقل ، ان فينيقيا قد انجبت قبل حرب طروادة ، شعراء اكتشفت مؤلفاتهم حديثاً ، ... في سوريا الساحلية وفي انقاض مدينة كانت اسستها صيدون او صور ، وهي متروكة منذ ٣٠٠٠ سنة ... ويلاحظ ايضاً انه ، بينما كانت مصر قد اقتبست الكثير من منجزات الخيال من فينيقيا ، لا نجد هناك شيئاً مصرياً ، او بابلياً ، في الاساطير او الميثولوجيا الكنعانية ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قصائد رأس شمرا » (٢) .

لقد قدمت كتابات رأس شمرا « نصوصاً مهمة ، وربما كانت أثمنها تلك التي حملت الينا معاجم ولوائح بلغتين ، يعتقد البعض انها كانت تعتمد في تثقيف الكهنة والكتاب ، ممن كان عليهم ان يلموا بمختلف اللغات المستعملة في رأس شمرا (اوغاريت) ، بالاضافة الى كتب النحو وفن الكتابة الخاص بكل منها . لقد أملى الواجب على هؤلاء التلامذة عملاً شاقاً ومعقداً . فقد كان عليهم ان يجيدوا ست لغات وهي : السومرية اولاً ، وكانت اللغة الدينية ، والبابلية التي كانت تستخدم في العلاقات الدبلوماسية ، والمصرية ... والحثية ... والفينيقية ، التي كانت مكتوبة بحروف هجائية . وجميع هذه الاكتشافات تظهر أن رأس شمرا كانت مدينة تجارية مترفة ومزدهرة ، كما كانت ايضاً مركزاً ثقافياً لامعاً . وكانت جميع منتجات حوض المتوسط تتجمع في مخازنها واسواقها... وكانت فيها ست لغات متداولة ، وربما كانت هناك معتقدات دينية لشعوب

١) M. del Medico, **La Bible Cananéenne**, p. 14, 16, 236

٢) Ch. Virolleaud, **Légendes de Babylone et de Canaan**, p. 61, 84

مختلفة ، تتجاور وتتداخل » [١] .

واذا كانت النصوص الكنعانية الفينيقية اقل نسبياً مما اكتشف في مصر وفي بلاد الرافدين ، فمرد ذلك الى ان الفينيقيين استعملوا اوراق البردي ، كالمصريين ، في نسخهم للنصوص . « لكن ، بينما تحفظ التربة المصرية ، لجفافها ، كل ما يدفن فيها ، نجد رطوبة المناخ الفينيقي تتلف بسرعة كل ما هو قابل للعطب . فنحن لا نجد مثلا النواويس المصنوعة حتى من خشب الارز ، والتي تبلغ سماكتها العشرين سنتيمتراً ، فلا عجب اذا ما اختفت اوراق البردي ايضاً . اما النصوص التي كتبت على الواح طينية في رأس شمرا (كما في بلاد الرافدين) فقد بقيت محفوظة » [٢] .

ج — الدين

حوالي العام ١٢٠٠ ق . م . ، وعلى الرغم من التقلبات التي عانت منها فينيقيا خلال الالف الثاني ، فقد بقي الدين الفينيقي محافظاً محافظة تامة على الخصائص الكبرى التي كانت تميزه في الالف الثالث . الا انه ، في نهاية الألف الأول قبل الميلاد ، تأثرت فينيقيا من التقلبات التي نتجت عن تغلغل النفوذ الهلينستي في جميع انحاء الشرق الادنى . ويعترف المستشرقون بما للدين الفينيقي من قيمة اخلاقية عالية .

ويستدل من نصوص ، رأس شمرا ، ان الفينيقيين كانوا منقسمين بين انصار للاله ايل وانصار للاله بعل . وبعد زوال الوثنية ، بآلهتها الكثيرين واتباعهم ، فقد خلفتها ، في لبنان ، المسيحية ، التي تقاسمت طوائفها المتعددة سكان هذا البلد . وبعد انتشار الاسلام ، اضيفت طوائف هذا الدين المتعددة الى طوائف المسيحية في لبنان . نستنتج من ذلك ان تعدد الطوائف الدينية ليس امراً جديداً

(١) M. Brion, **La résurrection des villes mortes**, p. 123-125

(٢) G. Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 274

على لبنان ، بل انه ظاهرة اجتماعية ، تنم عن الروح التحررية المتسامحة التي يتحلى بها اللبنانيون في كل زمان .

د — الفن الفينيقي

في الالف الثاني ، كما في الالف الثالث ، كانت للفن الفينيقي مظاهر متنوعة . فقد كان يستقي بعض عناصره من الحضارات المجاورة ، كبلاد الرافدين ومصر ، والعالم الحثي والعالم الايجي الخ . « ان كثرة التبادلات وتكاثر الاحتلالات الاجنبية ، التي قلما تركت فينيقيا سيدة امرها ، تفسر هذه النتيجة المتناقضة في الظاهر » (Contenau) . ففي « حوالي ١٨٠٠ ق.م. ، نجد في فن جبيل تركيبات فنية متعددة تظهر في الفن الفينيقي في الالف الأول » (Moret) . كما اننا نجد فينيقيا تتبنى الطريقة المصرية في التحنيط .

« ترجع بوادىء الفن الفينيقي الى الألف الثالث قبل الميلاد ، ويبلغ ازدهاره في اوائل الألف الثاني . وتظهر حفريات رأس شمرا ان الفن الفينيقي قد تأثر كثيراً بفنون بلاد الرافدين ومصر وميتانيا ومنطقة الحثيين ، وحتى جزيرة كريت . وان مهارة الفينيقيين في استخدام كل هذه العناصر اسبغت على فنهم اصالة حقيقية . ففي فن البناء ، كان يكثر استخدام الحجر ، والبيوت الثرية كانت تتألف من طابق واحد ومن عدة آبار وحمامات ... وكان فن البناء والهندسة متطوراً جداً ، كما كانت هناك اسوار سميكة تحمي المدن . وهذه كانت تتضمن اقنية مياه كثيرة وشوارع تتقاطع بزوايا مستقيمة في الاحياء الجديدة » .

« كانت العناية بالقبور عناية فائقة ، كما كانت الحال في مصر ... وكانت تجهيزات الموتى كثيرة وفاخرة ، وثمينة . اما الاجساد المحنطة ، فكانت تودع في نواويس ، غالباً ما تكون كبيرة . ولم يترك ناحتو التماثيل الا بعض الآثار ، كتماثيل جبيل الضخمة التي تظهر بجلاء تأثير الفن المصري . اما النقوش ،فكانت كثيرة وليس للتأثير المصري أو لتأثير وادي الرافدين اية علاقة بها ... فقد

إزدهرت صناعة النقوش على النواويس ، وكان اجملها ناووس احيرام ، ملك جبيل (١٢٤٠ ق . م .) ، المزين بالنائحات وازهار اللوتس . اما اعمال البرونز ، فقد اعطت نتائج باهرة ، وبالاخص الصحاف التي اشتهرت في الشرق القديم كله ... كما ان اشغال العاج انتجت قطعاً فنية رائعة الجمال »[1] .

« ترينا الحفريات الأخيرة التي اظهرت حقيقة ماضي فينيقيا حتى فجر التاريخ ، ان الوضع لم يتبدل في الالفين الثالث والثاني : نفوذ مصر مسيطر في جبيل ، ونفوذ الحوريين (في أعلى وادي الرافدين) والايجيين مهيمن في اوغاريت ... لم يكن الفن المحلي لامعاً بالنسبة للفنون الاخرى الدخيلة ... ومع ذلك كان هناك فن فينيقي ، ان الفينيقيين رغم اقتباسهم النقوش من هنا وهناك ، فقد مهروا بتجميع تلك الزخارف النقشية وتجنبوا المغالاة في التباين ... والعالم مدين لهم لنشرهم ، في العالم القديم ، بواسطة التجارة ، الافكار والمواضيع والنماذج الفنية ... »

« ونستطيع تمييز فترتين في الفن الفينيقي ، الاولى منذ اقدم العصور حتى بداية الألف الأول قبل الميلاد ، وكان خلالها الفن الفينيقي تقليداً وتكييفاً للفن المصري والفن الايجي وفنون البلاد الاخرى الغريبة بوجه عام . والثانية تشمل الألف الاول حتى نهاية العصر اليوناني ــ الروماني ، حيث لم يكتف ذلك الفن بالتقليد ، بل نسق واستوعب ما اقتبسه ، وجعل منه كلا متجانساً »[2] .

فحتى نهاية الألف الثاني ، بقي الفن الفينيقي تشكيلة من فنون اخرى ، مع شيء من الطابع الخاص . « لقد كان مزيجاً من فن سوري ــ حثي وآشوري ــ بابلي ومصري ، عرفت العبقرية الفينيقية المرنة ان تصهره في وحدة متناغمة»[3] . وبعد ١٢٠٠ ق . م . ، عرفت فينيقيا نسبياً فترات طويلة من السلم والاستقلال، وذلك اثر تحررها من الوصاية الأجنبية ، فاستوعب الفن الفينيقي الفنون الاجنبية

١) Grand Larousse Encyclopédique, 8, Phénicien, p. 404
٢) Contenau, op. cit., p. 119, 120
٣) Contenau, op. cit., p. 155

وصاغها بأصالة وفق طابعه الخاص . لكن التأثير الأجنبي بقي بادياً في الاطار العام .

٦ ــ سوريا وفلسطين في الألف الثاني

أ ــ سوريا (أمورو)

ان سوريا (أمورو) ، التي كانت مجهولة الى حد ما في الألف الثالث ، غدت ، في الألف الثاني ، فسيفساء من الامارات المستقلة، السامية والآسيوية : حلب ، حماه ، حمص ، قادش ، قطنة ، دمشق ، الخ . وهذه المدن ــ الدويلات طالما كانت محط انظار جيرانها الكبار : بلاد الرافدين وآسيا الصغرى ومصر ، وقد تهافتوا على امتلاكها . وكانت اللغة المتداولة هي الآمورية ، كما كانت اللغة المكتوبة هي الاكادية البابلية .

حلب :

لقد برزت حلب حوالي العام ٢٠٠٠ ق . م . ، الا انها لم تدخل التاريخ الا حوالي العام ١٩٠٠ ق . م . ، « بالاسم الذي حافظت عليه حتى ايامنا هذه (خلب بالحثية وحلب بالعربية) ، وبظروف تحمل على التأكيد ، بأنها كانت ذات ماض عريق » (Sauvaget) .

وقبل ١٨٠٠ ، كان للملك الحثي خاتوسيل « علاقات سلمية مع حلب ، التي كانت آنذاك مدينة أمورية كبيرة ... وحوالي ١٨٠٠ ق . م . ، قضى مورسل الأول على حلب والبيت المالك فيها » (Moret) ، وهكذا احتلها ، وقد بقيت خاضعة تقريباً للحثيين حتى ١٥٠٠ ق . م . ، اي حتى الغزوة العسكرية المصرية الأولى لسوريا .

حماة :

« مدينة حماة (حما) ترجع الى عصور قديمة جداً . احتلها الحثيون حوالي ١٨٠٠ ق . م . وتركوا فيها عدة كتابات » (Sourdel) .

حمص ، قادش ، قطنة :

تعتبر حمص بلدة صالحة لنشاط زراعي كبير ، بفضل مياه العاصي ، وهي مفترق طرق هام و « اسهل ممر من الخليج الفارسي الى المتوسط مروراً بتدمر ... وتقع حمص في منتصف الطريق ما بين حلب ودمشق ... وفي الألف الثاني ، كان دور حمص ما يزال غامضاً . اما اهم مدن المنطقة ، فكانت قادش ... وقطنة المدعوة حالياً مشرفة » (Elisséef) ، وتقع هاتان المدينتان في جوار حمص .

دمشق :

« دخلت دمشق التاريخ عندما اكتشف اسمها في الواح تل العمارنة (١٤٠٠ — ١٣٥٠ ق. م.) . ويرد ذكرها بين المدن التي احتلها الفرعون تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر (١٥٠١ — ١٤٤٧ ق . م .) »[1] .

فبعد أن أجلي الهكسوس عن مصر (١٥٨٠ ق . م .) ، أخذ الفراعنة يشنون حملات سنوية ضد أمراء الممر الفلسطيني — السوري — فاصطدموا بمركز مقاومتهم في شمال سوريا . « وكانت هناك مراكز هامة ، كدمشق وحمص وحلب ، مأهولة بسكان ، نصفهم ساميون والنصف الآخر آسيويون . وكان النفوذ الحوري مسيطراً ، فحل مكانه النفوذ الحثي . وتقدم المصريون بتكتيك دبلوماسي اكثر منه عسكرياً . ومنذ اللحظة التي استولى فيها الفراعنة على نصف

١) Elisséef, **Dimashk**, Encycl. de l'Islam, Nouvelle Edition, III, p. 286

البلاد ، عملوا على تفادي جيرانهم الأقوياء ، من حوريين وحثيين ، ما امكنهم ذلك ، وعملوا على عزل واحدهم بواسطة الآخرين »[1] .

وبعد ١٤٠٠ ق . م . ، استعاد الحثيون سيطرتهم على سوريا الشمالية . وكما رأينا ، فان ازيرو ، ملك دمشق الأموري ، المتطلع الى منفذ على البحر ، كان في نزاع مع ملك جبيل الفينيقي . وقد طمأن أزيرو المصريين والحثيين معاً الى ولائه لهم . لكن الحثيين سرعان ما خذلوه ، حوالي ١٣٥٠ ق . م . فأصبحت دمشق ومدن الشاطىء الفينيقية خاضعة لملك الشمال ، كما ان مصر أخلت فينيقيا وفلسطين . وفي ١٢٧٨ ق . م . ، وعلى اثر معركة كبيرة غير حاسمة في قادش ، تقاسم الحثيون والمصريون الممر السوري — الفلسطيني : سوريا الشمالية للحثيين ، وفينيقيا وفلسطين للمصريين ، واعترفوا بدمشق وجبيل كامارتين محايدتين .

ب — فلسطين (كنعان)

« لم تدخل فلسطين (كنعان) التاريخ ، الا في القرن السادس عشر قبل الميلاد » (Rappoport) . ففي الألف الثالث ، كما في الثاني ، كان لكنعانيي فلسطين لهجتهم ، كما كانت لهم ايضاً طريقة خاصة في كتابتها . الا انهم ، في التعبير كتابياً ، كانوا يستخدمون ، كأموريي سوريا ، الكتابة واللغة الأكادية البابلية ، التي كانت اللغة الدولية في ذلك العصر .

وتظهر فسيفساء ترجع الى امبراطورية حمورابي البابلية (٢٠٠٣ — ١٩٥٠) ، امراء محليين يتقاسمون بلاد كنعان (فلسطين) وآمورو (سوريا) . وكان اهم اولئك الملوك الكنعانيين او الفلسطينيين ، ملك « يبوس » او «اورسليمو»(اورشليم) وكانت تمتد مملكته حتى الكرمل . « وهكذا تبدو اورشليم او اورسليمو ، « مدينة ملك السلام » ، معروفة منذ العهد البابلي » (Rappoport) . كما ان اسمي

١) Contenau, **L'Asie occidentale ancienne**, p. 248

ملكي هذه المدينة ، ملكيصادق وآدوناي – صادق (حوالي ٢٠٠٠ ق . م .) ، هما من اسماء العلم المعروفة في ذلك العهد .

وفي الربع الأول من الألف الثاني ، دخل ابراهيم وقبيلته العبرية (خبيرو)، وهم جزء من موجة سامية – عربية كانت مترحلــة ، منذ قبل العام ٢٠٠٠ ق . م . ، على الحدود السورية – الفلسطينية ، دخلوا الى بلاد كنعان أو «ارض الميعاد» . ومن اتصالهم بالكنعانيين المحليين يظهر ان الابراهيميين تبنوا لغة اولئك الكنعانيين وآلهتهم ايضاً ، الذين كان منهم الاله « ايل » الأعظم . اما اسم يهوه ، فلم يظهر الا مع موسى ، اي بعد بضعة اجيال . ويسمى اول ابناء ابراهيم الذي ولد في فلسطين «اسمع ايل» (ايل يسمع) وهو الذي اصبح جد العرب الرحل (اسماعيل) .

« وبالفعل ، لو كان يهوه تدخل ، لسمي الولد شمعيا او اشمعيا ، وليس « اسماعيل » . وتنبأ ايل عن الدور المهم الذي سيلعبه اسماعيل » [1] . ويدعى فيما بعد يعقوب ، حفيد ابراهيم من اسحق ، اسرائيل (ايل ينتصر) وليس اسرايـــا .

« ان تعلق قسم من العبرانيين بالارض اكتمل منذ عهد يعقوب ، لان يعقوب اقام في الارض التي سكن فيها أبوه اسحق ، في بلاد كنعان ... وكان اسحق قد تعاطى الزراعة ... وهكذا منذ عهد يعقوب ، أي في الربع الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد كان قوم يعقوب (اسرائيل) ، وهم شبه مزارعين وشبه مربي مواش ، متعلقين بالتربة الفلسطينية » [2] .

وتعقب السيطرة البابلية على فلسطين ابتداء من ١٩٥٠ ق . م . فترات متقطعة من الاستقلال والتبعية . وابتداء من ١٥٠٠ ق . م . ، تأتي السيطرة المصرية . « يلوح ان فلسطين محتم عليها العيش تحت سيطرة سيد اجنبي ... في العهود القديمة ، كانت مدن بلاد كنعان تتقاتل دوماً فيما بينها ... وعندما أتحدت ،

(١ R. Dussaud, **La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam**, p. 174

(٢ R. Dussaud, **La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam**, p. 180, 181

ولفترات نادرة ، كان اتحادها عادة تحت امرة رئيس اجنبي » [1] .

ومنذ ١٤٠٠ ، ابتدأت القوة المصرية تتساقط ، كما ذكرنا اعلاه ، وأخذت سيطرتها في آسيا تنهار . وعندما تنبه الامراء المحليون لهذا الضعف عندالمصريين ، نشطوا للتخلص من النير الفرعوني . لكنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم ويتآمرون مع اعداء مصر وبخاصة مع الحثيين ، الذين كانوا تمركزوا في شمال فلسطين . ان وثائق مصر ، أي رسائل تل العمارنة « تكشف لنا ان مصر قد فقدت سيطرتها على فلسطين (كما على فينيقيا) وان حكام المدن ، على اختلافهم ، لم يتمكنوا من حد نفوذ الحثيين والخبيرو (العبرانيين) المتزايد ... وحاول الحثيون اثارة فتنة بين امراء كنعان المحليين . لكن هؤلاء ، وبخاصة من بقي منهم اميناً لمصر ، طلبوا مساعدة الفرعون ، كما كانوا يجهدون أنفسهم في قمع الثورة وصـد غزوات القبائل ... لكن طلباتهم وضراعاتهم لم تلق جواباً » . « كان الحثيون والخبيرو (العبرانيون) يقومون ببعض الغارات في البلاد ، وكان عدد من الامراء قد تحالف معهم ، في حين ان آخرين ، رغم تظاهرهم بالولاء للمصريين ، كانوا ينتظرون فرصة للتخلص من نيرهم ... وحتى الامراء الذين كانوايرغبون في البقاء مخلصين لمصر تركوها مرغمين ، يأساً منها . اما الوضع في شمـال فلسطين (في فينيقيا) ، كما تكشف رسائل رب – عبدا ، حاكم جبيل آنذاك ، فلم يكن اقل قلقاً ... ولم تحرك مصر ساكناً لانقاذ الحالة فاغتنم كثيرون من الامراء الكنعانيين هذا الوضع المبلبل لينزعوا عنهم نير المصريين وليحققوا استقلالهم . وقد انقذ سيتي الأول (١٣١٨ – ١٢٩٨ ق. م.) ورعمسيس الثاني (١٢٩٨ – ١٢٣٢ ق. م.) جزءاً من النفوذ المصري في سوريا وفلسطين » [2] . وفي عهد خلف رعمسيس الثاني ، ازداد انهيار الامبراطورية المصرية .

(١ Rappoport, op. cit., p. 46

(٢ Rappoport, **op. cit.**, p. 69, 70, 73, 74, 76

الفصل الخامس

غزوة «شعوب البحر والشمال»

(حوالي ١٢٠٠ ق.م.)

تغير خريطة الشرق المتوسطي السياسية والعرقية واللغوية

١ – غزوة « شعوب البحر والشمال »

اكتسحت العالم الشرقي ، حوالي ١٢٠٠ ق . م . ، غزوة هائلة من شعوب بربرية جاءت من الشمال ، ودعاها المصريون « شعوب البحر والشمال والجزر » . وقد دمرت هذه الغزوة العالم الشرقي وقضت على حضاراته ودوله وقلبت وجهه السياسي والعرقي ، وفي بعض الامكنة ، غيرت لغته وتركته طوال عدة قرون مفككاً مجزأ .

وحوالي هذا التاريخ اهمات ميسينا الاغريقية ، عاصمة المملكة الآخية وسيدة البحر ، القوى البرية ، كما كانت فعلت قبلها كريت البحرية . وحيث انها انهكت بحربها الطويلة مع طروادة ، التي دمرت بعد عشر سنوات من القتال (١١٩٠ – ١١٨٠ ق. م.) ، لم تستطع ميسينا الصمود في وجه الدوريين الغزاة البرابرة الجدد ، الذين كانوا يمثلون الموجة العرقية الاغريقية الثانية الآتية من الشمال . ولم تستطع القوى البحرية الآخية ، في هذا الظرف ، ان تقدم اية مساعدة للعاصمة التي جرى احتلالها عن طريق البر .

لقد كان اندحار الآخيين ، او الاغريق الاولين ، النهاية لسيطرة الآخيين ولازدهار حضارتهم ، التي لم تدم سوى قرنين من الزمن (١٤٠٠ – ١٢٠٠

ق . م .) . أما الاسطول الآخي القوي ، الذي غدا منذئذ بلا وطن ، والذي ضم اليه جماعات من الآخيين ومن المغامرين الآسيويين والآريين من آسيا الصغرى ومن جزر بحر ايجيه ومن جزيرة كريت ، فقد اتجه نحو المتوسط الشرقي .

كان هذا التجمع البشري الهائل المنتقل حصيلة مهاجرين هندو — أوروبيين ، قد احتل سوريا الشمالية وحولها الى خراب . اما المملكة الحثية في آسيا الصغرى ، التي كانت في حالة نزع ، فقد سقطت تحت ضرباتهم . وحيث تابع هؤلاء الغزاة مسيرتهم نحو الجنوب ، وصلوا بحراً وبراً الى دلتا النيل . واذ كانت مصر منعزلة وسط عالم معاد لها ، فقد انطوت على نفسها ، تعاني ازمة قومية عنيفة اتخذت طابعاً دينياً . وحدث ان ثارت شعوب خاضعة على الحكم في داخل مصر ، فألقاها الفراعنة خارج الحدود . وفي هذا الزمان ، كما يقول المؤرخون، ان القبائل الاسرائيلية ، بقيادة موسى ، تركت دلتا النيل لتمضي وتستقر في « ارض الميعاد » .

وفي معركة بحرية كبيرة ، دمر الفرعون رعمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٦ ق . م .) المراكب الايجية . وفي البر ، شتت الفرعون المهاجمين على الحدود المصرية — الفلسطينية . وبعد هزيمة اتحاد « شعوب البحر والشمال » ، تفرق هؤلاء في الارض ، فاتجهت عناصر منهم الى شواطىء سوريا الشمالية وآسيا الصغرى وجزر البحر الايجي وسردينيا وايطاليا . لكن مصر ، وقد انهكتها تلك المعركة ، وقعت بعد انتصارها في مصاعب داخلية ، فتخبطت ، طوال قرون ، في انهيار اقتصادي وفوضى وانقسام سياسي .

ان الفترة التي عقبت هجوم شعوب البحر والشمال تتميز بتغييرات عميقة في بلدان الهلال الخصيب ، على الصعيدين العرقي والسياسي وعلى الصعيد اللغوي في بعض الاماكن . ففي سوريا وفلسطين ، « اللتين برزتا خلال الألف الثاني قبل الميلاد ، تمركز الآراميون والاسرائيليون والفلسطينيون ...، وهم، آخر الموجات العرقية التي كانت تحرك ، منذ ستة او سبعة قرون ، العنصر السامي

المستقر هناك ، منذ الألف الثالث ، تحت اسمي امورو وكنعان ... أما صدى تلك الموجة فكان اخف عند الكنعانيين (اللبنانيين) المتحصنين وراء حواجزهم الجبلية والمشرفين على الساحل المنفتح نحو العلاقات الايجية » [1] .

٢ — انحصار ارض فينيقيا بالمنطقة اللبنانية

غداة العام ١٢٠٠ ق . م . ، انخفضت مساحة ارض فينيقيا ، التي كانت تمتد منذ الألف الثالث ، من حدود مصر حتى خليج اسكندرونة ، فاقتصرت على الساحل والجبل اللبنانيين ، اي على مساحة لبنان الحالي تقريباً . اما اوغاريت ، المدينة الفينيقية الشمالية ، الغنية والعظيمة ، فقد دمرت تماماً ، وفقد الفينيقيون المنطقة الممتدة على الساحل الشمالي السوري . واحتل الفلسطينيون الساحل الفينيقي الجنوبي ، كما توغل الاسرائيليون في فلسطين الداخلية .

ولم يتبدل اطلاقاً التكوين العرقي او السياسي في فينيقيا اللبنانية . فصور وصيدا ، اللتان غزتهما شعوب البحر والشمال ودمرتهما ، ما لبثتا ان نهضتا ، ومنذ ذلك الوقت ، بدأت فينيقيا اللبنانية بلعب دور اقتصادي وسياسي من الدرجة الأولى على مسرح العالم الشرقي .

٣ — الفلسطينيون على الساحل الفلسطيني

البولاستي (الفلسطينيون) هم شعب هندو — اوروبي كان جزءاً من موجة شعوب البحر والشمال ، فتمركز على الشاطىء الفلسطيني ، حيث طرد منه السكان الكنعانيين الاصليين . واصبحت تدعى هذه المنطقة الساحلية « بلاد الفلسطينيين» أو «فلسطين» . وهذا التعبير الأخير كان يعني ، في الجغرافيا الاغريقية الكلاسيكية ، البلاد بمجملها ، اي الساحل وداخله .

---

١) Abel, op. cit., II, p. 1

وبعد ان احتل الفلسطينيون المدن الكنعانية ، غزة وعسقلان واشدود وغيرها ، جعلوا منها اتحاداً فلسطينياً . ثم انهم تبنوا عبادات الكنعانيين المواطنين ولغتهم ، لكنهم احتفظوا طويلاً بشخصيتهم القومية والسياسيةوعاداتهم الخاصة .

نحن نعرف تاريخ الفلسطينيين من خلال العهد القديم . فهؤلاء المحتلون الجدد لم يكونوا متخلّفين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . فقد كانوا يملكون جيشاً حقيقياً وعربات للحرب وتنظيماً سياسياً ، كما كانوا ، لقرون عديدة ، اعداء اسرائيل المرهوبي الجانب .

٤ ـ الإسرائيليون في بلاد كنعان (فلسطين الداخلية)

أ ـ اسرائيل من البدء حتى قيام الملكية (١٢٠٠ ـ ١٠٢٥ ق. م.)

حوالي سنة ١٢٣٠ ق . م . ، غادرت دلتا النيل ، بقيادة موسى ، جماعات اسرائيلية كانت تعيش في مصر منذ احتلال الهكسوس لها (حوالي ١٧٠٠ق. م.) عائدة الى بلاد كنعان (فلسطين) .

وبعد اقامة دامت ٤٠ عاماً في صحراء سينا، اتجهت هذه الجماعات الى شرقي الاردن ، حيث توفي موسى في سهول مؤاب . وبعدها ، عبر يشوع (بن نون) تلميذ موسى وخليفته ، نهر الاردن واحتل اريحا . وعلى اثر معركة انتصر فيها الاسرائيليون على الكنعانيين المحليين ، احتل الاسرائيليون شمال فلسطين .

« لم يعد المؤرخون يسلمون بأن الاسرائيليين احتلوا بسرعة فلسطين كلها ... وابادوا الكنعانيين ، وتقاسموا البلد بالقرعة ما بين قبائلهم . وما يقدر هو أن « سفر القضاة » ... محق بوصفه التغلغل بصورة بطيئة ومتفرقة على مراحل متعددة » .

« ففي البدء ، ... كانت للاسرائيليين علاقات وثيقة مع الكنعانيين . وكانوا يؤمون اماكن عبادات هؤلاء ... ، حيث كانوا يجدون عدداً من آلهتهم ،

وخاصة عليون وايل ... وعبرانيو عهد الآباء لم يكونوا موحدين ، حتى عهد موسى نفسه ... ويظهر ان الاله الجديد الذي تبناه الاسرائيليون (يهوه) كان معروفاً ومعبوداً ، على ما يظهر ، في بلد مديان (بين سيناء ومؤاب) . وعلى اي حال ، فان نصوص رأس شمرا (الفينيقية) تعرف « يو » ، كابن لايل وإيلات ... وبالفعل كان هذا الاله معروفاً في جميع انحاء العالم الكنعاني »...

« ان رابطة المودة الطويلة الاجل ما بين الاسرائيليين والكنعانيين ... قد وحدت بين الطقوس الكنعانية والاسرائيلية القديمة ... فاحتل يهوه مكان ايل ... كما كان عليون ، في اسرائيل وفي كنعان ، أباً لجميع الآلهة ... ومن ناحية العبادة ، فقد وقع انفصام بين الكنعانيين والاسرائيليين المتحدين عندما اخذ بعل عند الكنعانيين مكان إيل ، في حين ان الاسرائيليين آثروا عليه يهوه » [1] .

وكما رأينا ، فان اسم بعل الذي يعني « السيد » ، كان تعبيراً عند الفينيقيين والكنعانيين يخفي وراءه اسم الاله الحقيقي ، الذي قد يكون على الارجح ايل . ونجد عند الاسرائيليين ان اسم يهوه يعني « الذي هو » ، وهو اسم عام سيغني فيما بعد الاله الذي يحمي اسرائيل بصورة خاصة .

وهكذا يستغرق احتلال كنعان تدريجياً قرنين او ثلاثة قرون . « لقد تم تغلغل الإسرائيليين بين السكان الكنعانيين دون عناء يذكر ... ولم يحدث بينهما تعايش وحسب ، بل حدث ما يشبه الانصهار ، فتبنى الإسرائيليون لغةالكنعانيين (العبرية فيما بعد) ووسائلهم الفنية وفنونهم وصناعاتهم ، مما يصعب تبنيه الا في فترة تعايش سلمي طويل » (Dussaud) .

ولم يخضع الكنعانيون خضوعاً تاماً للاسرائيليين الا في عهد سليمان (٩٥٥ ـ ٩٣٣ ق . م .) فقبل هذا التاريخ كان الاسرائيليون يقيمون بين الكنعانيين . الا ان وضعهم كان يختلف من مكان الى آخر . ففي داخل البلاد ، بقيت المدن والقلاع خاضعة للسكان القدامى . وطوال ثلاثة قرون ، كان على المحتلين الجدد

---

(١) R. Dussaud, p. 188-193 et 197

ان يجابهوا اعداء أقوياء من كل جانب ، كنعانيين وآموريين ، وفلسطينيين ، الذين كانوا يترقبون الفرص لاجلائهم عن الأرض .

« لم تكن الرابطة بين الاسرائيليين سياسية أو قومية ، بل كانت رابطة دينية . وحتّى الذين لم يكن بلغ نفوذاً كبيراً عليهم ... فكانت النتيجة تفكك قبائلهم . وعندما كان العدو يهاجم قبيلة ضعيفة ، لم تكن القبائل الأقوى تأتي لمساندتها . فقبائل الشرق كانت دوماً في نزاع وعراك مع العمونيين والمديانيين (في شرق الاردن) ، في حين كانت قبائل الشمال عرضة لمهاجمة الكنعانيين بشكل دائم ، لكنها كانت تنجح بالمحافظة على استقلالها الى حد ما . الا ان العدو المتربص في وجه قبائل الجنوب (الآدوميون في جنوب البحر الميت ، والفلسطينيون على الساحل) كان اشد بأساً » (١) .

وبعد موت يشوع ، خليفة موسى ، عادت الروح الذاتية في قبائل الإسرائيليين الى سابق عهدها . وتحت ضغط الاحداث ، عمل القضاة اي « السوافط » على تطبيق شريعة موسى ، بعد ان غدوا يمارسون سلطة مطلقة . ولكن سلطتهم كانت موقتة ومحلية فدامت الفوضى . وقد اضطرت انتصارات الفلسطينيين على القبائل الاسرائيلية المختلفة الى التجمع للدفاع العام . وبعد الانتصار على الفلسطينيين ، اقنع القاضي صموئيل القبائل بضرورة إقامة سلطة موحدة ، والا فان الاسرائيليين سيتعرضون للاجلاء عن ارض الميعاد . فاجتمعت القبائل الاثنتا عشرة واختارت شاوول (١٠٢٥ — ١٠١٠ ق. م.) ليكون ملكاً عليها ، فكرّسه صموئيل . فهذه المملكة الاسرائيلية الاولى تتألف من الاسرائيليين والكنعانيين المحليين . وهي تختصر بثلاثة اسماء : شاوول ، وداود ، وسليمان (جميعاً ١٠٢٥ — ٩٣٥ ق . م .) ، وتمثل قمة الازدهار السياسي الاسرائيلي .

(١ Rappoport, op. cit., p. 95

ب — الميول الذاتية والاقليمية والخلافات بين الإسرائيليين ومختلف الجماعات والشعوب في فلسطين

بالاضافة الى الكنعانيين والاموريين والعمونيين والادوميين والعماليق وغيرهم من الشعوب التي كانت تعيش في فلسطين منذ الألف الثالث ، جاءها ، في نهاية الالف الثاني ، العبرانيون الاسرائيليون والفلسطينيون . وقد احتفظت هذه الجماعات العرقية او الشعوب بتقاليدها وباسمائها واحياناً بلغاتها ولهجاتها وآلهتها الخاصة ، سواء كانت مقيمة أم في حالة شبه اقامة . ويضاف الى ذلك تنظيماتها الاجتماعية والسياسية وخصائصها النبلية .

وعلى الرغم من كون هذه الجماعات كلها تقريباً ، من العرق السامي وتتكلم لغات سامية ، فقد توالت الخلافات والاشتباكات بينها طوال القرون التي تلت . وكانت الاختلافات تحدث احياناً ، بين القبائل الاسرائيلية ذاتها التي احتلت المنطقة واحيانا بين مُختلف المجموعات المجاورة .

وهذه الذاتية المشاكسة ، الصعبة المراس ، التي كانت تغذيها العوامل الطبيعية لفلسطين ، هي نابعة من حياة البداوة او شبه البداوة ، او متأتية بالوراثة من طبيعة الحياة القبلية المترحلة للأسلاف . ولم يكن الوطن ، في مفهوم هذه المجموعات القومية ، بما فيها السلالات المختلفة المتحدرة من قبيلة واحدة ، وكما هي الحال مع سائر الشعوب المترحلة ، لم يكن الوطن ليعني الارض التي كانوا ينصبون خيامهم فوقها ، بقدر ما كان يعني القبيلة او الفرع من القبيلة التي كانوا ينتمون اليها ، والتي يكون مؤسسها الجد العام او البطل الذي يعطي الفرع اسمه ، تاريخياً كان ام اسطورياً ، مثل : ابراهيم ، اسحق ، يعقوب او اسرائيل ، موسى ، وغيرهم بالنسبة للعبريين — الاسرائيليين ، كما هو فيما بعد ابراهيم ، اسماعيل ، عدنان وقحطان وغيرهم ، بالنسبة لعرب شبه الجزيرة . وكان يهوه ، في البدء ، بطل قبيلة او عشيرة ، قبل ان يصبح الاله الواحد الشامل . وهكذا غدا الأمر بالنسبة لمختلف القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية ، اذ اختفت آلهتها امام الله ، الاله الواحد الاعظم ، بعد ظهور الاسلام .

كانت الخلافات والنزاعات بين الاسرائيليين وسائر شعوب فلسطين تدور دائماً حول رغبة واحدة هي التسلط والسيادة . اذ ان القبائل الرحل ، او من استقر منها ، لم تكن تهدف الى القضاء على التجمعات المجاورة والمخاصمة لها ، بل كانت ترمي الى اخضاعها لسلطتها واستثمار خيراتها .

ومن جهة اخرى ، لم تقع الحروب التي قادها شاوول وداود وسليمان بدافع فرض ديانة اليهود على الكنعانيين ، الذين كانوا يؤلفون نصف السكان تقريباً في مملكتهم ، ولا على الفلسطينيين او الاعداء الآخرين ، بل كان هاجس هؤلاء الملوك جمع مجمل المناطق الفلسطينية ، وحتى السورية تحت سيطرتهم السياسية .

ومن هنا ايضاً كانت حروبهم مع العمونيين والمؤابيين وادوميي شرق الاردن ، ومع آراميي دمشق ، الذين كانوا بدورهم في نزاع دائم مع مختلف المجموعات الآرامية في سوريا الشمالية ، لانهم كانوا يطمحون الى توحيد المناطق السورية تحت امرتهم .

ان هذه الثوابت التاريخية يمليها الواقع الجغرافي لفلسطين . فخلافاً للبنـان ، الذي تحميه جباله العالية شبه مفتوحة ضد الهجمات والهجرات من الشرق ، نجد فلسطين شبه مفتوحة على الصحراء السورية ــ العربية ، التي هي خزان لا ينضب من المجموعات المترحلة التي تدخل متسللة ، او بالقوة ، الى اراضي السكان المستقرين المزروعة . ومن جهة اخرى ، وبحكم دور فلسطين كمنطقة مرور بين مصر وبلاد الرافدين ، فانها تشكل معاً طريقاً تجارية وطريق غزو حربي ومركزاً استراتيجياً للتوسع باتجاه افريقيا وآسيا بنوع خاص .

ان هذه العوامل الجغرافية والظاهرات البشرية التي تشترك في تكوين شخصيتها ، هي التي تملي على فلسطين قدرها ، فتجعلها مركز ايواء لشعوب متباينة وتكتلات اجتماعية متمايزة متنافرة ، تتصارع باستمرار ، وتجعلها بالتالي خاضعة نسبياً للنفوذ الاجنبي .

« وطوال تاريخ (فلسطين) ، اي ما يعادل اربعين قرناً ، ظل انعدام الاتحاد ، ولا يزال ، سبباً في هلاكها . وفي الماضي القديم ، كانت مدن كنعان لا تنفك

تتقاتل فيما بينها ... وفي فترة احتلال العبرانيين لبلاد كنعان ، استمر القتال نظراً لفقدان الاتحاد ، كما ان البغضاء والنزاعات العنصرية تعبث بفلسطين اليوم ، كما كانت تعبث بها قبل اربعين قرناً ...

« يعتبر تاريخ فلسطين السياسي باكمله ، وكذلك تاريخها الثقافي ، حصيلة موقعها الجغرافي . فوجودها بين آسيا وافريقيا ، كنقطة التقاء ، وامتدادها ما بين ثلاثة بلدان متمدنة ، كانت تسيطر على العالم القديم : بابل ومصروامبراطورية الحثيين ، جعلها ، منذ اقدم العصور ، ترضخ لنفوذ هذه الحضارات الثلاث . لقد ظل صغر حجمها وصراع الدول الكبرى بسببها وفقر ارضها ، عاملاً رئيسياً في إبقائها عاجزة عن تكوين حضارة أصيلة ، كما انها لم تنعم ، الا في فترات قصيرة نسبياً ، بحياة مستقلة . وتبقى كل اهمية فلسطين في انها اعطت للعالم ديانتين كبيرتين » [١] .

٥ ــ الآراميون الساميون في سوريا

أ ــ التوسع الآرامي

كان « الآراميون التائهون » او « الاخلامو » متمركزين على الفرات ، وراحوا منذ العام ٢٠٠٠ ق . م . ، يتنقلون ما بين بابل وسيناء . وهم قبائل سامية مترحلة خرجت من السهوب السورية ــ العربية ، فانتهزت وجود البلبلة العامة التي حدثت حوالي١٢٠٠ ق . م . وتغلغلت في بلاد الهلال الخصيب . وفيما توجه قسم من أبناء جنسهم ، العبرانيون (خبيرو) ، الى أرض كنعان ، أرض الميعاد لابراهيم ولذريته ، وبدأوا بالاستيلاء عليها ، انقسم الآراميون إلى فريقين : آراميو الغرب ، الذين استقروا في امورو (سوريا) ، واراميو الشرق (كلدانيو المستقبل) ، الذين تمركزوا على ضفاف الفرات ، وبخاصة في بلاد بابل ، التي أصبحت بلاد كلدة فيما بعد .

---

(١) Rappoport, op. cit., p. 41, 46 et 47

أما آراميو الغرب الذين استقروا في امورو (سوريا الشمالية ومنطقة دمشق) ، فقد تسلطوا على السكان الآموريين الأصليين . واصبحت بلاد أمورو القديمة ، بالنسبة للاسرائيليين ، بلاد آرام (سوريا فيما بعد) . واحتلت اللغة الآرامية مكان الآمورية في بلدان سوريا وآشور وبابل ، وغدت بعد قرون اللغة الدولية ولغة التجارة ، كما أنها احتلت مكان جميع اللغات السامية الباقية في الهلال الخصيب ، بما فيها الفينيقية والعبرية .

« وما يبدو أكيداً ، هو أن الآراميين لم يلاقوا الا مقاومة ضعيفة في سوريا ... لكن مدن الساحل الفينيقي ، جبيل ، صيدون وصور ، التي كانت افضل تنظيماً وأحسن تحصيناً ، نجحت في صد الآراميين ، الذين لم يتمكنوا ابداً من الوصول إلى البحر . ومن جهة فلسطين ، فانهم اصطدموا بمملكة اسرائيل الفتية »[1] .

ب — دمشق ، المركز الرئيسي لآرامي سوريا

أسس الآراميون في سوريا ممالك صغيرة ، ولكنها قوية نسبياً . وبعد أن احتلوا سوريا بقليل ، أصبحت امارات الآموريين القديمة : حلب وحماة (حما) وحمص ودمشق وحوران وغيرها ، دولاً آرامية مستقلة ، كانت اهمها دمشق وحلب . وكان ملك دمشق الآرامي ، كما كان اسلافه الاموريون ، الملك الأقوى والأهم بين ملوك سوريا الآراميين الآخرين . وهكذا « غدت مملكة دمشق ... تسيطر على العالم الآرامي في سوريا ، وهي التي قادت ، فيما بعد ، المعارك ضد العبرانيين . وملك دمشق هو الذي تدعوه النصوص التوراتية والكتابات الآرامية القديمة « ملك آرام »[2] .

---

١) Dupont-Sommer, **Les Araméens, p. 29**

٢) Dupont-Sommer, **Les Araméens, p. 29**

٦ — الحثيون الجدد في سوريا الشمالية

بعد ان دمرت شعوب البحر والشمال المملكة الحثية ، في آسيا الصغرى ، ظهرت في سوريا الشمالية امارات حثية متعددة ، كانت اهمها كركميش (جرابلس) وحماه . وقد اتحدت هاتان الامارتان بما يسميه المؤرخون الحديثون « المملكة السورية — الحثية » . فأصبحت سوريا العليا (سوريا الشمالية ومنطقة دمشق) منقسمة إلى قسمين : دول حثية ، ودول سامية . ومن أهم الدول الاولى التي ظهرت ، كركميش (جرابلس) وحماه ، ومن الثانية كانت حلب ودمشق . لكن من الخطأ الافتراض ان هذه الدويلات كانت مراكز لا أثر فيها لغير الجنس الذي كان يطغى عليها . « فسوريا العليا مليئة برواسب الآسيانيين ، الذين كان منهم الحثيون والحوريون ، وبرواسب من الساميين الذين كان منهم الآموريون والكنعانيون »[1] .

وهكذا ، غداة ١٢٠٠ ق. م. ، « نعرف وجود شعوب ولغات متعددة في سوريا وحتى الحدود الحالية للغة العربية (من انطاكيا إلى حلب) ، نجد أسماء سامية . وشمال هذه الحدود نجد ان الاصطلاحات الجغرافية لها صلة بلغات آسيا الصغرى » (Dussaud) .

٧ — الخلاصة : فينيقيا — سوريا — فلسطين ، فسيفساء من امارات مستقلة ومتنافرة

رأينا حوالي العام ١٢٠٠ ق . م . أن الوجه السياسي والعرقي في منطقة شرق المتوسط قد تبدل تماماً . ففي سوريا طغى الآراميون والحثيون الجدد على الآموريين الاصليين وسيطروا عليهم ، كما فرضوا عليهم لغتهم واسمهم . وفي فلسطين ، أخضع الفلسطينيون والاسرائيليون السكان الكنعانيين وتبنوا لغتهم ؛ أما فينيقيا ، التي انحصرت في الساحل والجبل اللبنانيين ، فقد نجحت بالتخلص

---

١) المصدر السابق .

مـن الغزاة الشماليين الذين خربوها ، وحمت نفسها من الغـزاة الشرقيين (الآراميين) ، فحافظت على لغتها واسمها وتركيبها الكنعاني . ومن جهة اخرى ، فان اختفاء المملكة الحثية وضعف مصر وبلاد الرافدين بعد ١٢٠٠ ق . م . ، قد انهى النفوذ الأجنبي في سوريا وفينيقيا وفلسطين ، حيث اصبحت شعوب هذه البلدان مستقلة تقريباً .

وهكذا ، « في نهاية الألف الثاني ، كان للمنطقة خطوطها الكبرى من حيث التنظيم البشري ، الذي أعدها لتلعب دورها التاريخي » (Abel) .

اما العناصر العرقية المختلفة التي تغلغلت في سوريا وفلسطين وسيطرت عليها في موجة الغزو العارمة حوالي ١٢٠٠ ق . م . ، فقد اندمجت في البيئة المحلية العامة وذابت .

مع الزمن ، وتحت تأثير مختلف الاوساط الجغرافية التي اقامت فيها ، ما لبثت هذه العناصر الجديدة ان ظهرت للوجود بالخصائص العامة والقومية التي كانت تتصف بها الشعوب الاصلية المغلوبة . فظهرت هذه العناصر على مسرح التاريخ ، بحيوية أقوى ولكن بالشهوة والطموح ذاتهما اللذين كانا عند الشعوب الاصلية التي اخضعت . فبالاستطاعة القول ان « عنصر العالم الجديد الخام ليس آدم جديداً بل آدم القديم » . ونضيف فقط انه آدم قد تجدد إلى حين .

وكالأسلاف الاموريين والكنعانيين قبل ١٢٠٠ ق . م . ، انهك الآراميون والاسرائيليون والفلسطينيون انفسهم بنزاعات داخلية عقيمة . فخلال قرون عديدة ، كانت « هذه الممالك الصغيرة ، التي كـانت تعيش حياة قتال نشيطة ، تتخاصم فيما بينها مندفعة بكبرياء عنيدة ، من اجل سيادة واهية » (Moret) . وكان ملوكها الصغار ، يتآمر واحدهم على الآخر او يتقاتلون فيما بينهم . وكثيرون منهم ، بدلاً من ان يتحدوا ضد اجنبي طامع بارضهم ، كان واحدهم يطلب مساندة ذلك الأجنبي ضد الآخرين . كما كان همهم الدائم توسيع حدودهم على حساب بعضهم ، فملأوا العالم الشرقي بضجيج معاركهم ، التي اوصل الينا العهد القديم بعضاً منها .

ومنذ ١١٠٠ ق . م . ، بدأت الغزوات الآشورية تنزل من السهول العليا لأرض الرافدين ، متدفقة على مناطق الحثيين الجدد والآراميين في سوريا . وفي فلسطين كان شاوول ، أول ملك لاسرائيل (١٠٢٥ — ١٠١٠ ق . م .) وفي نزاع مستمر مع العمونيين والعماليق والادوميين ، وبخاصة الفلسطينيين . أما خلفه داود (١٠١٠ — ٩٥٥ ق. م.) فانه انتصر على اليبوسيين واحتل اورشليم ، ثم دمشق ، ووسع نفوذه إلى حماه على العاصي ، في سوريا الشمالية .

وبعد مدة ، استعاد ملكا دمشق وحماه استقلالهما . « وفي عهد سليمان (٩٥٥ — ٩٣٣ ق. م.) ، قاتل ملك دمشق بنجاح الملوك الآشوريين في الشمال وملوك اسرائيل في الجنوب » (Elisséef) .

وتدوم الحالة هكذا حتى القرن الثامن قبل الميلاد ، حيث انتفض النمر الآشوري واثباً من هضباته في شمال بلاد الرافدين ، فتلقف فرائسه الضعيفة والمنقسمة ، الواحدة بعد الأخرى ، واندفع يوسع حدوده حتى وادي النيل .

وفي حين كان ملوك الممر السوري الفلسطيني ينهكون انفسهم ، كل لحسابه ، من أجل بناء دولة سوريا الكبرى ، كان الفينيقيون ، الذين تحميهم جبالهم ضد الاعتداءات البرية ، قد بقوا بعيداً عن نزاعات جيرانهم ، فقرروا الانتشار باتجاه الغرب . وعندها اداروا ظهورهم إلى الشرق ، حيث الخلافات حـادة والتوسع مكلف وغير مستقر ، وراح لبنانيو ١٢٠٠ ق . م . هؤلاء يتابعون رسالة أجدادهم ، فانطلقوا باتجاه بحر الغرب حيث أسسوا مستعمرات بحرية دامت عدة قرون .

الفصل السادس

فينيقيا التوسعية امبراطورية بحرية واستعمارية

(١٢٠٠ ــ ٧٤٠ ق.م.)

« ان التجارة البحرية والاستعمار هما حدثان كبيران في تاريخ العالم . فنحن نجد فيهما اسلوباً للتوسع يختلف كل الاختلاف عن الهجرة الجماعية ، وعن فتوحات التسلط ، وعن السيطرة البحرية « الفونية » (اي الكارتاجية) . انهما طريقة لفتح العالم دون فتوحات عسكرية »[1] .

١ ــ فينيقيا غداة هزيمة شعوب البحر والشمال (حوالي ١٢٠٠ ق . م .)

ان الحقبة التي بدأت بعد هزيمة شعوب البحر والشمال واجهتها فينيقيا ، كما رأينا ، في حالة يرثى لها . فالاراضي الفينيقية ، التي كانت تمتد إلى ذلك الحين على مجموعةالشواطىء الشرقية المتوسطية، اقتطعت منها السواحل السورية الشمالية والفلسطينية وتقلصت حتى اضحت تقتصر على الأراضي اللبنانية وحدها ، أرض فينيقيا الكلاسيكية ، أي لبنان في ايامنا الحاضرة . فأوغاريت ، المدينة ــ الدولة الفينيقية على السواحل الشمالية السورية ، هدمها الغزاة بكاملها فاختفت وضاعت أراضيها نهائياً . وفي جنوب الكرمل ، احتل الفلسطينيون الشواطىء والموانىء الفلسطينية وجعلوا منها موطناً لهم . وفي فينيقيا اللبنانية ، بعد ان

١) H. Berr, En marge de l'Histoire Universelle, p. 149

خربت الحروب صور وصيدا ، لم تنهض قبل بضع عشرات من السنين . وفي جنوب صور ، قامت جماعة من القراصنة « الدجيكر » بتعطيل الموانىء الساحلية لمدة طويلة . واخيراً جاءت مجموعة كبيرة من اللاجئين الكنعانيين ، كان اجلاها الغزاة عن الشواطىء الفلسطينية والسورية الشمالية ، فغصت بها المدن اللبنانية ، وتأزم اكثر فاكثر وضعها الاقتصادي ، الذي كان في الاصل سيئاً نسبياً .

ولحل هذه المشاكل الخطيرة ، الناجمة عن دمار الحروب ، اتجه الفينيقيون ، غداة سنة ١٢٠٠ ق . م . ، نحو البحار البعيدة ، مدشنين بذلك سياسة جديدة من التوسع الاقتصادي والبشري ، الذي حملهم إلى عالم غربي المتوسط ، وحتى شواطىء الاطلسي الاوروبية والافريقية .

وبالمقابل ، نجمت عن غزوة شعوب البحر والشمال نتائج حسنة لفينيقيا ، التي عرفت كيف تستفيد منها . فخراب المملكة الحثية وانكماش مصر المنهكة إلى داخل حدودها الوطنية ثم انحسار السيطرة الآخية ، أعتقت فينيقيا من كل وصاية ومزاحمة خارجية وفتحت امامها المتوسط ، حيث لم يعد ينافسها فيه أحد . وقفزت فينيقيا في ذلك العهد من مرتبة بلد ثانوي وتابع إلى المرتبة الاولى على مسرح السياسة الشرقية والعالمية . واستمر دورها هذا عدة قرون بعد ذلك .

٢ — فينيقيا اللبنانية ومدنها المستقلة

لقد كان من نتيجة السلام الذي عقب غزوة سنة ١٢٠٠ ق . م . ان شهدت الأراضي الفينيقية ، المقتصرة على المنطقة اللبنانية ، ولادة اربع مدن مستقلة هي ، من الشمال إلى الجنوب : ارواد ، جبيل ، صيدا ، وصور . وكانت السيطرة على المدن الواقعة بين هذه المدن — الدول موزعة بينها . وبما ان الاتصال كان اسهل بين بلاد الداخل السوري وصور وصيدا وارواد ، فان هذه تفوقت على جبيل في حقلي الملاحة والتجارة . غير ان جبيل احتفظت بتفوقها الثقافي ، بفضل دورها الديني الرئيسي كمركز لعبادة ادونيس ولصناعة الكتاب.

وكانت صور ، القلعة التي لا تقهر في جزيرتها ، انتزعت من صيدا الصدارة البحرية التي كانت تتمتع بها في الألف الثاني ، فاصبحت صور المدينة الاولى في كنعان وورثت السيطرة البحرية الآخية الايجية ، التي كان قضى عليها الدوريون . وعلى الرغم من سيادة صور هذه ، فقد بقيت المدن — الدول الفينيقية مستقلة الواحدة منها عن الأخريات .

« على الصعيد السياسي لم يكن لفينيقيا على الاطلاق تجانس الدولة الواحدة المركزية ، بل كانت تارة مقسمة إلى جمهوريات صغيرة وامارات تحسد الواحدة منها الاخرى ، وطوراً خاضعة لنظام اداري مشترك مع سوريا ، في ظل السيطرة المصرية او الاشورية او الفارسية او اليونانية . وفي العهد الروماني ، نجدها تبرز من جديد كجزء من الولاية السورية ، مع اراض واسعة جداً إلى الشرق اولاً ، تحت اسم سوريا فينيقيا ، ثم بتسمية مزدوجة : فينيقيا البحرية وفينيقيا اللبنانية » [1] .

« وبفضل النقوش الكتابية ، اصبح بامكاننا تكوين فكرة واضحة عن طريقة سير الدولة الفينيقية ، التي تكاد لا تتغير على مر العصور ... فقد كان يحكم المدن والمناطق التابعة لها ملوك محليون ، يتم اختيارهم من بعض العائلات التي تدعي تحدرها من اصل الهي . كانت اذن ، في فينيقيا ، سلالات ملكة حقيقية . غير ان سلطة الملك كانت ، على ما يبدو ، مقيدة من قبل مجلس للشيوخ يتم اختيار اعضائه من بين اغنى تجار المدينة .

وفي اواخر العهد الفينيقي ، أصبحت لمجالس الشيوخ هذه سلطة تقارب سلطة الملك ... كما ان هؤلاء الملوك كانوا في الغالب مستقلين بعضاً عن بعض . الا انهم كانوا يتحدون عند مقاومة الغزاة . ولعل اهم اتحاد تم بين المدن الفينيقية هو ذاك الاتحاد (الكونفيدرالي) الذي ضم ارواد وصيدا وصور ، بزعامة صيدا ، في العهد الفارسي الاخميني (٥٣٨ — ٣٣٢ ق . م .) وكان الملوك

١) Abel, op. cit., I, p. 258

الفينيقيون يستخدمون مجموعة من المرتزقة الاجانب باشراف قادة فينيقيين »[1]

وهكذا ، نجد ان سيادة المدن – الدول الفينيقية ، التي كانت ترفض أن تنصهر كلها في دولة موحدة ومطلقة ، بقيت تجارية اكثر منها عسكرية ، وبحرية اكثر منها برية . فقد كانت امبراطوريتهم فوق البحار .

٣ – التاريخ الداخلي

أ – من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ ق . م . حقبة غامضة

من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ ق . م . ، تنقصنا الوثائق عن فينيقيا ، اذ كل ما نعرفه هو ان الفينيقيين في هذه الفترة قد رمموا الدمار الناجم عن غزوة شعوب البحر والشمال ، ثم انشأوا بحرية قوية واكتشفوا المغرب المتوسطي وبدأوا بانشاء امبراطوريتهم لما وراء البحار . وحوالي سنة ١١٠٠ ق . م . ، أسسوا مدينة « اوتيكا » في افريقيا الشمالية (بلاد تونس) ، على المتوسط ، وغاديرا ، وهي اليوم كادوكسي ، مدينة اسبانية على الاطلسي . فقد كانت فينيقيا في أوج عظمتها ، بينما كانت مصر ، صاحبة السيادة في الماضي ، تعيش بعجز وانحطاط . وابلغ دليل على تلك الحالة أن ملك جبيل احتفظ برسل رعمسيس التاسع كرهائن عنده لمدة سبع عشرة سنة (حوالي ١١٠٠ ق . م .) .

ب – من سنة ١٠٠٠ حتى ٨٢٠ ق . م .

حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . ، كان التوسع الاقتصادي والبشري الفينيقي ، الذي ابتدأ حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . ، في اوج عزه . فقد كانت اسس امبراطوريتهم البحرية والاستعمارية قد اكتملت . ومن سنة ١٠٠٠ حتى ٥٠٠ ق . م . ، كان العصر الذهبي لفينيقيا اللبنانية الكلاسيكية ، « عصر الذروة

(١) Contenau, op. cit., p. 76-78

لتجارة وتوسع صور » ، حاضرة بلاد فينيقيا وامبراطوريتها .

وبفضل التوراة والنصوص الاشورية والنصوص التي اعتمدها المؤرخ جوزيفس لدينا معلومات اوفر عن فينيقيا في الألف الأول قبل الميلاد . فقد استمر ازدهار صور ونفوذها مدة طويلة في حوض المتوسط الشرقي ، حتى ما بعد سنة ٥٠٠ ق . م . فهي كانت منعزلة في جزيرتها ، يحميها اسطولها الكبير . وقد ظلت هذه الحاضرة الفينيقية غنية وقوية إلى ان جاء الاسكندر الكبير ، فوضع حداً لاستقلالها ولدورها كقوة بحرية ومالية ، وذلك في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

وفي ظل حكم الملك أبيبعل (٩٨٠ – ٩٦٩) ، الملقب « بملك صور وصيدا والكنعانيين » ، مارست صور سيادتها على جميع أنحاء فينيقيا ، من عكا حتى أرواد . وبات دستور الدولة ، الذي كان حتى ذلك الوقت ديمقراطياً ، خاضعاً لحكم الاقلية ، إذ اصبحت السلطة بيد بعض العائلات المنتمية إلى الارستقراطية المالية والتجارية . وقد عقد ابيبعل مع داود ، ملك اسرائيل ، معاهدة تحالف وصداقة . وكان حيرام الاول (٩٦٩ – ٩٣٥) ، ابن ابيبعل ، الذي تولى العرش وعمره عشرون سنة ، ملكاً معمارياً عظيماً ، فكرس ثروته الضخمة ، المجموعة من التجارة وعائدات المستعمرات ، ليكبر ويجمل صور وصيدا بأعمال انشائية ، كبناء المعابد او ترميمها وانشاء القصور والاقنية واعداد المرافىء للسفن . وقد اعاد بناء هيكل ملكارت وهيكل عشتارتا ، مما كانت تدفعه جميع المستعمرات الفينيقية فريضة سنوية . وقمع ثورة الكيتيين (من سكان قبرص) ، عندما تمنعوا عن دفع الضرائب التي كانوا يؤدونها لمدينة صور .

وجدد حيرام مع سليمان ، ملك اسرائيل ، معاهدة التحالف والصداقة المعقودة مع داود . لكن نظرة حيرام السياسية البعيدة كانت أبعد من نظرة سليمان . فبالنسبة لملك صور ، سيد الامبراطورية البحرية والاستعمارية الواسعة ، لم تكن المملكة الاسرائيلية الفتية سوى دولة صغيرة ومجرد ممر بري ومنطقة اقتصادية من بين مئات المناطق الاخرى التي كان يستثمرها الفينيقيون . فالعالم المتوسطي ، بأكمله تقريباً ، كان منفتحاً امام نشاطهم التجاري . وفي القرن العاشر ، اثار

الازدهار التجاري في المدن الفينيقية حركات اجتماعية في داخلها ، أدت إلى ثورات سياسية . وكانت هذه الفتن الاجتماعية تعبر عن استياء الطبقة الفقيرة من استغلال العائلات الثرية المتمولة والمالكة للسفن .

بعل اوتصور الاول :

(٩٣٥ — ٩١٩ ق . م .) هو ابن حيرام وخليفته . وقد كان شخصية شاحبة ، زادتها غموضاً شخصية ابيه اللامعة . واثناء حكمه ، انقسمت مملكة سليمان ، بعد موته (٩٣٣) ، إلى دولتين صغيرتين : مملكة اسرائيل في الشمال ، وعاصمتها شكيم ، ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم . وبدأت مصر ، التي كانت تعيش في شلل منذ سنة ١٢٠٠ ق . م . ، بالتحرك والسعي لفرض سيطرتها مجدداً على فلسطين . ولأجل ذلك تقربت المدن الفينيقية من الفراعنة ، الذين عادوا إلى الظهور على المسرح العالمي بعد احتجاب دام اكثر من ثلاثة قرون . ولم تكن البحرية المصرية آنئذ كما كانت في الماضي ، بل اصبح قوامها سفن الصوريين والصيدونيين ، الذين استولوا على معظم التجارة البحرية في دلتا النيل ، لقاء الرسوم التي كانوا يدفعونها .

عبد عشرتا

(٩١٩ — ٩١٠ ق . م .) هو ابن بعل اوتصور وخليفته . قضى تسع سنوات في الحكم ، ثم ذهب ضحية مؤامرة على حياته . ومن بعده ، توالى على عرش صور ثلاثة مغتصبين للسلطة ، من سنة ٩٠٩ إلى ٨٨٨ ق . م .

وفي اوائل القرن التاسع ، اغتصب السلطة ايتوبعل الاول الذي كان الكاهن

الاول لعشتارتا . استولى على العرش في صور واسس سلالة مالكة جديدة . وبمجيئه إلى الحكم ابرز انتصار حزب العائلات ، الذي كان يتمثل بممارسة سلطة الكهنوت الديني على الطبقة الشعبية .

دام حكم ايتوبعل الأول ثلاثين سنة واتسم بالهدوء . فأسس بين جبيل وطرابلس مدينة البترون ، التي اصبحت تستخدم ، لأمد بعيد ، كقلعة ضد ملوك دمشق الآراميين الذين كانت غزواتهم ، عبر ممر طرابلس — حمص ، تعكر السلام والامن في الجزء الشمالي من فينيقيا . فايتوبعل الأول ، الذي كان يشعر بأنه مهدد من قبل ملوك دمشق الطامعين بمنفذ إلى البحر ، أعاد إلى الاذهان سياسة سلفه البعيد حيرام الاول ، عندما تقرب من اسرائيل وجدد معها المعاهدة القديمة . بل ذهب إلى ابعد من ذلك عندما زوج ابنته ايزابعل لآخاب ، الابن البكر لعمري ملك اسرائيل .

بعل اوتصور الثاني :

(٨٥٥ — ٨٥٠ ق . م .) وهو ابن ايتوبعل الأول وخليفته . لم يحكم سوى خمس سنوات . كما ان ابنه « موتن : ميتينوس » (٨٤٩ — ٨٢١ ق. م.) ترك بعد موته الامبراطورية الفينيقية لولديه القاصرين : بيغماليون واليسا .

ج — ثورة في صور (٨٢٠ ق . م .) . تأسيس قرطاجة في افريقيا (٨١٤ ق . م .)

بعد وفاة ميتينوس (٨٢١ ق . م .) ، تفاقمت الخلافات الاجتماعية في صور ، فأنقسمت الاحزاب إلى فريقين متنافسين : حزب الاغنياء من جهة ، وحزب الفقراء من جهة اخرى . واتخذ كل واحد من هذين الحزبين المتخاصمين أحد اولاد الملك ميتينوس زعيماً له . فتجمع الحزب الارستقراطي حول « اليسا » ، وكانت تتمتع بقسط كبير من الجمال ، فتزوجت من خالها « آشرباس » ،

الكاهن الاكبر « لملقرت : ملكارت » ، اي ثاني شخصية رسمية في البلاد . أما بيغماليون ، الأخ الأصغر لاليسا ، فقد اصبح مرشح الشعب .

ونشبت ثورة شعبية قادتّها الطبقة الديمقراطية ، فقلبت اليسا ونصبت بيغماليون على العرش (٨٢٠ — ٧٧٤ ق . م .) ، على الرغم من صغر سنه . وجرت محاولة مضادة ، الا انها فشلت وانتهت بمقتل آشرباس . وغدت الاميرة اليسا أرملة مغلوبة ومخلوعة عن العرش . ففرت بادىء الأمر إلى قبرص مع أتباعها ، ثم إلى اوتيكا في افريقيا الشمالية . وقد اسست بالقرب من هذه المدينة ، حوالي سنة ٨١٤ ق . م . ، وبمساعدة الصوريين الذين تبعوها ، مدينة جديدة أصبحت عاصمة لدولة كبيرة ، ثم لامبراطورية واسعة : هي قرطاجة (قرب تونس الحالية) ، واسمها الفينيقي « قرت حدشت : كارت هادست » ، ويعني « المدينة الجديدة » .

ومنذ وصول بيغماليون إلى الحكم وانتصار الحزب الشعبي في صور ، وحتّى عهد الفتوحات الاشورية (حوالي سنة ٧٣٨ ق . م .) ، استعاد تطور فينيقيا التاريخي غموضه السابق ، فلا التوراة ولا الاشوريون ذكروا شيئاً عن فينيقيا في هذه الحِقبة من الزمن . لكن ، يقال ، « ان الشعوب السعيدة ليس لها تاريخ » وقد كانت فينيقيا بلا شك سعيدة في تلك الحقبة . فعالم المتوسط ، الذي بسط عليه الفينيقيون نفوذهم الاقتصادي ، كان يملك السعة الكافية لاستيعاب نشاط شعب صغير مثلهم .

د — بروز قرطاجة في المغرب

منذ تأسيس قرطاجة ، بدأت تفقد صور تدريجياً اهميتها كعاصمة لامبراطورية . فصور ، التي أخذ سكانها ينزحون بكثرة نحو الشاطىء الافريقي ، تضاءل شأنها أمام قرطاجة في العالم المغربي الجديد .

فالفنون والصناعات الصيدونية انتقلت إلى الشواطىء الافريقية الشمالية . وعرفت

هذه المستعمرة الجديدة نمواً مدهشاً وسريعاً . اذ بعد تأسيسها بستين سنة تقريباً ، أرسلت قرطاجة جالية إلى سردينيا . وفي سنة ٦٥٤ ق . م . ، احتلت جزر الباليار واصبحت منذ ذلك الحين من المحميات شبه المستقلة .

وعلى الرغم من ان صور ظلت العاصمة الكبرى ، فان العلاقات التي كانت تربطها بمستعمراتها الافريقية الغربية أخذت تتراخى اكثر فاكثر . حتّى ان اسم فينيقي اختفى في افريقيا ، وحل محله اسم « فوني » او قرطاجي في جميع المعاملات التجارية . ورويداً رويداً ، تخلت صور عن جميع المستعمرات المغربية ، التي كانت تجني منها الارستقراطية الفينيقية القسط الاكبر من ثرواتها . وقد اعترفت هذه المستعمرات بسيادة قرطاجة . وعلى اي حال ، فقد بقيت هذه الاخيرة ، حتّى حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . ، مرتبطة رسمياً بوطنها اللبناني وثابرت على دفع الفريضة السنوية لصور .

ومن جهة اخرى ، فان زعامة صور التجارية والبحرية ، التي انتزعتها منها في المغرب ابنتها قرطاجة ، بقيت مسيطرة في المتوسط الشرقي ، حتّى في الفترات التي كانت ترزح فيها الشواطىء الفينيقية اللبنانية تحت الاحتلالات الاجنبية المتتالية : من الاشوريين والبابليين الجدد او الكلدانيين والفرس (٧٣٨ — ٣٣٢ ق . م .) . وقد احتفظت العاصمة الفينيقية (صور) بقوتها المالية واهميتها السياسية وباستقلالها حتّى دمارها على يد الاسكندر الكبير ، سنة ٣٣٢ ق . م .

٤ — الامبراطورية الفينيقية وراء البحار

أ — السيطرة الفينيقية والانتشار نحو الغرب

لقد رأينا انه ، حتّى سنة ١٢٠٠ ق . م . تقريباً ، كانت السيادة البحرية المحصورة بالمتوسط الشرقي وبحر ايجيه ، تخص ، منذ منتصف الألف الثالث ، الفينيقيين والكريتيين ، ثم الفينيقيين والآخيين . وبعد انحدار الآخيين على يد الدوريين الشماليين ، وهم قوم متخلفون لم يكونوا معدين ليصبحوا في الحال تجاراً

وبحارة ، بقي الفينيقيون وحدهم أسياد المتوسط . فاغتنموا هذه الفرصة ليحلوا بسرعة سيطرتهم البحرية محل السيطرة الآخية . وقد انتشروا بعيداً جداً نحو الغرب ، موسعين حدود العالم المتمدن ، وأسسوا هناك مستعمرات واسعة ، مزدهرة وقوية ، دامت عدة قرون .

فبين سنة ١٢٠٠ — ١١٠٠ ق . م . ، « دفعت سفن فينيقيا الجديدة خطوطها الملاحية حتى شواطىء المتوسط الغربي . وكانت صور تسيطر في الجنوب وارواد في الشمال ... هذا هو ... العهد الذي بدأت فيه السفن الفينيقية تصل إلى شواطىء الجزائر الحالية وإلى اسبانيا ، حيث اسس الفينيقيون اول المراكز الصناعية والتجارية . وفينيقيا هذه ، هي تلك التي عرفها الاغريق ، ومن بعدهم الغربيون » [1] .

لقد ادت حالة الاضطراب والفوضى التي جاءت أثر غزوة شعوب البحر والشمال حوالي ١٢٠٠ ق . م . ، الى تضعضع الحالة الاقتصادية في آسيا الغربية ، والى خراب المدن الفينيقية التي تأثرت كثيراً بهذه الغزوة . أما بلاد الرافدين ، التي اكتسحت القبائل الآرامية ، فقد أقفرت من التجار الذين كانوا يعبرونها في الماضي ، وتحولت تجارة الهند عن بابل ، لتتخذ طريق البحر الأحمر. وبعد ان حُرم الفينيقيون من التجارة مع بلاد الرافدين واصبحت هذه تقتصر على اشياء زهيدة ، وبعد ان عزلوا عن البحر الأحمر بسبب استيطان الفلسطينيين والاسرائيليين في فلسطين ، اجتازت المدن الفينيقية ، المكتظة باللاجئين الكنعانيين ازمة اقتصادية خطيرة جداً . فتضاءلت تجارتها ، وتعطل تقريباً اسطولها عن العمل ، واكتظت اراضيها ، الصغيرة نسبياً ، بالسكان .

وانسياقاً مع السنن التاريخية التي حملت دوماً اجداد الفينيقيين ، منذ اكثر من الالف الثالث ، على ان يجنوا من نشاطهم البحري والتجاري مواردهم الرئيسية ، اندفع لبنانيو عام ١٢٠٠ ق . م . من جديد نحو البحار ، حيث لم يكن لهم منافس جدي في تلك الفترة . وبعد ان اصبحوا وحدهم اسياد المتوسط ، أحلوا

١) Dunand, **Byblos**, p. 30 et 31

نفوذهم محل النفوذ الآخي الايجي المنهار ، ووسعوا بعيداً نحو الغرب حدود العالم المتمدن . فعرفت الملاحة بفضلهم امتداداً وازدهاراً لم تعرفهما من قبل . فنشاطهم البحري ، الذي كان مقتصراً حتى هذا الزمن على المتوسط الشرقي وبحر ايجيه ، امتدّ الى المتوسط الغربي ، حيث اسسوا ، ليس فقط مراكز تجارية ، بل مستعمرات للاستيطان .

ب — الامبراطورية الفينيقية

شُيّدت الامبراطورية البحرية والاستعمارية الفينيقية بالسبل السلمية وجزءاً جزءاً بالتدريج ، خلال قرنين تقريباً (١٢٠٠ — ١٠٠٠ ق . م .) . ولقد رأينا كيف تأسست مدينتا اوتيكا في افريقيا وغاديرا (كادريكس) او قادش في اسبانيا حوالي سنة ١١٠٠ ق . م . وانتهى بناء الامبراطورية الكبرى بكاملها تقريباً حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . « ومن سنة ١٠٠٠ الى سنة ٥٠٠ ق . م . ، كانت هذه الحقبة التاريخية بمثابة الذروة للتجارة والتوسع الصوريين . ففي هذه الحقبة ، ذهبت الاساطيل الفينيقية الى البعيد لتنشىء المؤسسات التجارية والمستعمرات الدائمة » [1] .

كانت الامبراطورية الفينيقية قد امتدت الى ما وراء البحر بفضل الصوريين والصيدونيين ؛ وقد شملت المتوسط الشرقي وبحر ايجيه والبحر الايوني ومجموع المتوسط الغربي ، حتى ما بعد اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) . « وهذه الامبراطورية الاستعمارية الشاسعة ، اذا ما قارناها بصغر مساحة الوطن الأم ، (هي) المثل الأول للسيطرات البحرية والتجارية التي اوجدتها فيما بعد ،بأساليب مشابهة ، البرتغال وهولندا والامم الاوروبية الكبيرة » [2] . فمؤسسو أولى الامبراطوريات البحرية التجارية والاستعمارية هم الفينيقيون ، الذين لم يهتموا مطلقاً بالفتوحات العسكرية ، بل كانوا السباقين الى الاستعمار الاقتصادي ،

١) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 56
٢) Moret, **Histoire de L'Orient**, II, p. 609

« وسيلة احتلال العالم دون اللجوء الى فتوحات ... اما المصريون ، فقد اخترعوا الحماية » (H. Berr) .

وهكذا ، بعد ان برز العالم الايجي في الالف الثالث ، دخل الى مسرح التاريخ العالمي ، بعد سنة ١٢٠٠ ق . م . ، عالم غربي جديد ، هو المتوسط الغربي ، الذي كان لا يزال بدائياً حتّى ذلك الحين ، فقام الفينيقيون بايقاظه على الحضارة .

قد كانت فكرة الامبراطورية ، بالنسبة للمصريين وشعوب ارض الرافدين على الاخص ، تتضمن سُلطة مركزية وجيوشاً للاحتلال ، بينما اختلف اسلوبها بالنسبة للفينيقيين . فقد كانوا يمارسون نفوذهم عن طريق التسلل وبتهيئة علاقات لسلمية مع الشعوب الذين كانوا يغرونها شيئاً فشيئاً بصناعاتهم وتجارتهم . كانوا يعدون منهم منتجين ومستهلكين ، لا اتباعاً . فلم تكن عاصمة الوطن الأم عاصمة الامبراطورية ، بحكامها وقناصلها ونواب ملوكها وبقوّتها العسكرية ، بل كانت نوعاً من مركز تجاري ومالي كبير . وعندما كانت تنجح مستعمرة ما ، يداخلها ميل الى حياة حرة خاصة بها ، ولكنها تظل مع ذلك مرتبطة بالعاصمة بعلاقات لا تحصى : تجارية وصناعية ، مساعدات طوعية ، وايمان مشترك ، ولكن دون اكراه . ونحن لا نجد اقواس نصر فينيقية في أي مكان ، كما نجد عند الاغريق والرومان .

وهذه الوحدة للامبراطورية ، القائمة على العاطفة والمصلحة ، اثبتت انها امتن من الوحدة التي ترتكز على قوة السلاح . وقد بقيت المحميات والممتلكات خاضعة بالفعل لصور اكثر من خمسة قرون . فبقيت ، طوعياً ، مرتبطة بالوطن الام ، حتّى بعد ان اصبحت اراضيه تحت الاحتلال الاشوري ثم الكلداني (٧٣٨ – ٥٣٩ ق . م .) .

وكانت النقاط الستراتيجية والمراكز المحصنة ، مع الاسطول البحري الحربي ، هي التي تحمي التجارة والمؤسسات التجارية والمستعمرات والامبراطورية والمحميات . وهذا الاسلوب ، المعتمد على المرونة وقابلية التكيف وروح المغامرة ، اتاح للفينيقيين ان يقطفوا خيرات الاستعمار دون ان يتحملوا اضراره. ولم تفقد فينيقيا استقلالها السياسي ونفوذها البحري وما تبقى لها من امبراطوريتها الواسعة لما وراء البحار ، الا بعد ان احتلها الاسكندر الكبير ودمر صور سنة ٣٣٢ ق . م .

٥ – دور فينيقيا واهميتها السياسية في الألف الأول قبل الميلاد

أ – فينيقيا الام وقوتها البرية

« اذا القينا نظرة سريعة على التاريخ الفينيقي ندرك الى اي حد لعب التكوين الجغرافي دوره في تحديد مصير فينيقيا السياسي . فثراؤها التجاري يتكون من مجموعة من الموانىء . وتحول الجبال القريبة جداً من الشاطىء دون توسّعها ، فتبقى فينيقيا فقيرة بالرجال والاراضي ، لتنطلق من مبدأ عدم وجود قوة عسكرية لديها ... واذا كانت تنقصها القوة التي تؤمن بها الفتوحات الكبيرة ،.. فانها تحتفظ بروح الاستقلال ، الذي عجز ضعفها عن تحقيقه الا بالدهاء السياسي وبالاستنجاد دون انقطاع بمساعدة الأجنبي ... لقد برهنت المدن الفينيقية عن حيوية ، دون شك ، ولم تحاول الوقوف على الحياد في الصراعات التي جعلت بلاد كنعان تجابه مصر تارة ، وتارة اخرى ، وبنوع خاص ، بلاد اشور ... ولكن المدن الفينيقية التي كان يسودها الانقسام لم تتحد مطلقاً ، في كل هذه التحالفات ، تحت قيادة واحدة .

كان الفينيقيون حاضرين على مسرح القتال ، ولكن لم تكن هناك ابداً فينيقيا الموحدة » [1] .

---

١) Contenau, La civilisation phénicienne, p. 70 et 71

لا جدل ان فينيقيا ، الاصغر كثيراً بمساحتها وسكانها من مصر او ارض الرافدين لعبت ، في الشرق القاري ، دوراً سياسياً يتناسب مع مساحتها وسكانهـا . لكن هذا الدور كان أبعد من ان يهمل في سوريا وارض الرافدين ، وذلك بفضل التجارة والنشاط البحري الفينيقي . لقد كان فعالا متعاظماً في كل مرة كانت فيها الدول الكبرى (مصر ، وارض الرافدين ، وآسيا الصغرى وغيرها) في حالة تدهور ، او ضعيفة منطوية على نفسها ، او تمر بفترات ركود كثيراً ما كانت تتتابع وتدوم لازمنة طويلة غالباً .

قبل كل شيء ، كان الفينيقيون تجاراً وبحارة . وللمحافظة على مصالحهم التجارية ، كانوا يراعون الدول البريّة الكبرى ، التي لم يكن باستطاعتهم مقاومتها . وتجاه الغزاة والفاتحين الاجانب ، كانوا يقبلون بسيادتهم عندما يرون بأن لا مفر لهم من تلك، بواسطة الجزية المفروضة عليهم ، وكانوا يحاولون اكتساب اقصى الفوائد من التبعية التي فرضت عليهم ، بالاتجار في اراضي الفاتحين .

وفي ظل سيطرة الاشوريين والكلدانيين والفرس المتتالية ، ظل الفينيقيون ، الذين وسعوا نشاطهم التجاري في مناطق آسيا البرية ، على رأس التجارة البحرية . ولم تكن آسيا وافريقيا واوروبا لتستطيع تبادل الاتصالات فيما بينها الا بواسطة سفنهم . كما انهم لم يحاولوا التخلص من التبعية الا عندما كانوا يرون ان حكم الأجنبي لم يعد يتلاءم مع مصلحتهم التجارية .

واذا كانت الجغرافية قد حالت دون ان تكون فينيقيا قوة عسكرية برية ، فقد هيأتها لأن تلعب في المتوسط الشرقي القديم ، وغالباً لمصلحة هـذا الاخير ، دور السور والحصن . انها الدريئة التي كان ينتظم فيها الدفاع الاعلى لبلاد هذا الشرق ضد الغزاة الاجانب . لقد كانت صور الحرة ، التي لا تقهر في جزيرتها، وحتى زمن تدميرها على يد الاسكندر الكبير ، روح جميع الثورات والمؤامرات التي كانت تحاك في فينيقيا وسوريا وفلسطين ، وحتى في مصر ، ضد المحتلين الاجانب ، من اشوريين وكلدانيين وفرس .

وبعد ان احتل الاسكندر الكبير صور سنة ٣٣٢ ق . م . ودمرها ، فقدت بالتالي استقلالها الخاص كل من فينيقيا وسوريا وفلسطين ومصر ، وحتى أرض الرافدين ولم تستعد هذه البلدان استقلالها الا في ايامنا الحاضرة . وخلال هذه المدة الطويلة من القرون ، كانت الثورات في هذه البلدان المختلفة ، ضد الأجنبي الـذي استعبدها ، شيئاً لا يذكر تقريباً .

ب – فينيقيا قوة تجارية ومالية وسياسية

مع توسع الحياة الاقتصادية والحضارة ، في الألف الأول ، نحو الغرب بدافع من الفينيقيين ، كان دور فينيقيا الأم ووضعها يصبحان اكثر اهمية . ان تفتح العالم المتوسطي الغربي ونموه ابتداء من سنة ١٢٠٠ ق. م. ، جعل من البلاد اللبنانية، التي كانت حتى ذلك الحين مرفأ امامياً لبلاد الرافدين ومنطقة عبور ، مركز الثقل الاقتصادي في العالم القديم والجديد . فقد سقطت بابل ، التي كانت المركز الجغـرافي لآسيا القديمة ، فأصبحت منطقة عبور بين العـالم الآسيوي القديم والعالم الغربي الجديد . واتاح الوضع الجغرافي للبلاد اللبنانية ، وسط هذا التغيير في الادوار الاقتصادية ، ان تصل مباشرة بآسيا الغربية وبأفريقيا الشمالية وباوروبا وان تحل محل بابل كمركز ثقل اقتصادي عالمي . ولا يزال هذا الوضع الجغرافي ، حتى يومنا هذا ، يعطي للواجهة اللبنانية السورية الفلسطينية أهمية عالمية .

جعلت الظروف الاقتصادية الجديدة ، من فينيقيا اللبنانية ، مركزاً لامبراطورية واسعة ، تجارية وبحرية ، منظمة بقيادة المدن الفينيقية . وقد اعطى الفينيقيون اول مثل لشعب كانت التجارة همه الأول ، وكان دوره أن يكون وسيطاً بين الحضارات القديمة الشرقية واوروبا البدائية . كانت المدن الفينيقية مستودعـاً لآلاف السلع التي كانت تستورد من جميع اجزاء العـالم المعروف آنذاك .
« وحلت التجارة الصورية ، المحتكرة بأيدي أرستقراطيـة رأسمالية ، محل التجـارة الايجية ، بفضل تزويدها بتلك الاداة المدهشة ، الكتـابة

الصوتية التي اخترعتها ونشرتها في العالم المتوسطي ... لقد كانت جميع مبادلات الحوض المتوسطي تمر من بين ايدي الشاحنين والصيارفة الفينيقيين » [1] .

« كانت المدن الفينيقية ، المعتمدة على التجارة والتي كانت تحكمها بمهارة ارستقراطية تجارية ، غنية الخبرة في السياسة والشؤون المالية ، حريصة على ثروتها من ان تضيع في الحروب . وكانت هذه المدن تعد من بين المدن الاكثر ثراء والاكثر قوة في العالم القديم » (Durant) . فالنشاط التجاري الواسع والمتواصل ، في البحر والبر ، اغنى كثيراً هذه المدن « التي كان فيها التجار اكثر ثراء من الملوك ، كما تقول التوراة » .

وعندما اصبحت المدن الفينيقية قوة بحرية وتجارية ، وبخاصة صور ، في الألف الأول قبل الميلاد ، بدأت تمارس بالفعل سياسة الاحتكار .

وبعد غزوة شعوب البحر بأقل من قرن ، أي حوالي سنة ١١٠٠ ق . م . تقريباً، لم يتنازل زكاربعل ، ملك جبيل ، « الفخور بسفنه العديدة التي تتاجر مع مصر» بأن يفاوض مبعوثاً مصرياً . « لست خادمك ولا خادم الذي ارسلك » كما قال له . انها لهجة متعالية تتناقض مع تواضع سلفه الملك رب – ادي ، سنة ١٤٠٠ ق . م . ، الذي كان يصرح في كتاباته الى الفرعون بأنه « يرتمي سبع مرات تحت اقدام الملك سيده » . حقاً لقد تغيرت الايام .

« دامت هذه الزعامة التجارية حتى في اصعب واحرج ظرف مرت به فينيقيا ، ذاك الذي عرف فيه الشاطىء حكم الاشوريين (٧٤٠ – ٦١٢ ق . م.) . وقد حافظت صور وحدها ، المنعزلة في البحر والتي كانت تحميها سفنها وثرواتها ومعاهداتها السياسية والتجارية مع العالم المتوسطي ، على استقلال شموس عنيد حتى مجيء الاسكندر (سنة ٣٣٢ ق . م .) ... فحتى فتح الاسكندر لم تنجح اية سياسة في المتوسط دون مساعدة او حياد « سفن ترشيش وصور وصيدا وارواد وجبيل » ، اي الاسطول الفينيقي . وهكذا تجاوزوا الهدف الاقتصادي

١) De Laplante, *op. cit.*, p. 57

للاستعمار الفينيقي . وقد انتقل هذا النمو في القوة الى الصعيد السياسي » [1] .

هكذا حقق الفينيقيون الوحدة الاقتصادية لمجموعة عالم المتوسط ، وقد اضاف اليها الاغريق ، فيما بعد ، الوحدة الثقافية . ومهد هؤلاء واولئك الطريق لروما التي انشأت الوحدة السياسية لهذه المنطقة الواسعة ، فخلقت امبراطورية العالم الروماني .

٦ – فينيقيا والبلدان المجاورة من سنة ١٢٠٠ إلى ٧٥٠ ق . م .

أ – العلاقات مع سوريا وفلسطين والجزيرة العربية

كان نشاط الفينيقيين في حقل التجارة البرية ، بالمقارنة مع ملاحتهم وتجارتهم البحرية ، مهماً وواسعاً نسبياً . فقد كانوا على اتصال بدمشق وحمص وحماه وحلب وتدمر واورشليم والبتراء وغيرها . وبواسطة القوافل التي كانت تنطلق من الشاطىء اللبناني ، بعد ان تجتاز البلاد المجاورة (سوريا وفلسطين) ، كانت تصل تجارتهم الى بلاد القارة في الشرق والشمال : الجزيرة العربية وارض الرافدين وايران وارمينيا والاناضول الوسطى ، وحتى القوقاز .

وتربط الجزيرة العربية ، هذا البحر من الرمال الممتد الى الشرق ، بين البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي ومن وراء هذه البحار : اوفير والهند واريتريا وآسيا الوسطى والجنوبية . ولأجل ذلك ، اقام الفينيقيون علاقات دائمة مع القبائل العربية التي كانت اراضيها تتاخم مرفأ إيلات على البحر الأحمر والبتراء ، المدينة المحصنة في الاردن ، « جميع هذه القبائل هي نفسها التي سماها الاغريق فيما بعد : العرب النبطيين » .

١) Moret, **Histoire de L'Orient,** II, p. 610, 612, 613

ب – فينيقيا ومملكة اسرائيل

لكي يصل الفينيقيون ، عن طريق البر ، الى الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، استخدموا الوسيلة المعروفة والمطبقة من جانب التنظيمات الاقتصادية المعاصرة ، وهي التعاون المتبادل . وتحت ستار التحالف والصداقة ، استغلوا ، بالاشتراك مع ملوك اسرائيل ، الطرق البرية التي تمر بفلسطين .

كان داود ، ثاني ملك لاسرائيل (١٠١٠ – ٩٥٥ ق . م .) ، قد توصل الى دفع الفلسطينيين الى الشاطىء وبسط سلطته على جميع المنطقة الواقعة بين غزة والنقب ودمشق ، فاضحى سيد الطريق البرية التي تقود من المتوسط الى البحر الأحمر والى الجزيرة العربية . وقد رأينا ان المعاهدة المعقودة بين حيرام ، ملك صور ، وداود ، اتاحت للفينيقيين فرصة استعادة تجارتهم البرية ، التي كانت مقطوعة مع الجزيرة العربية والبحر الأحمر منذ حلول الفلسطينيين على الشاطىء الفلسطيني حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م .

و سليمان (٩٧٣ – ٩٣٣ ق . م .) ، بن داود وخليفته ، الذي جدد مع حيرام الأول (٩٦٩ – ٩٣٥) معاهدة الصداقة المعقودة مع والده ، كلّف بنّائين وعمال لبنانيين ببناء قصره وهيكل اورشليم الشهير . فقدم حيرام الخشب والذهب واخذ مقابلهما قمحاً وزيت زيتون ، ورفض قبول عشرين قرية على حدود الجليل قدمها له سليمان .

ومع عظمة حيرام على الصعيد الاقتصادي والمالي ، لم يكن اقل من سليمان ذكاء على الصعيد الفكري . « فالحكمة العجيبة التي ينسبها المؤرخون الى سليمان كان حيرام يتمتع بها ايضاً » (Contenau) .

« ويبدو ان داود وضع نفسه تحت حماية حيرام ملك صور . فقد ثبّت تحالفه مع الفينيقيين سلطته ، كما كان هذا التحالف العنصر الاساسي لعظمة ابنه سليمان .... فقد حافظ هذا الاخير على تحالفه مع حيرام ، الذي استخدم مملكة سليمان كطريق نحو البحر الأحمر ، حيث كان يقوم ببناء اسطول . وقد درت

هذه المعاهدة على اورشليم فيضاً غزيراً من الثراء ... ولسنا بحاجة للذهاب الى أبعد من التوراة لكي نرى كيف ان سليمان لم يكن يعمل سوى الموافقة على اهداف الملك التاجر حيرام ، هذه الاهداف التي كانت على نطاق واسع . ولم تكن مملكته سوى ممر بين فينيقيا ومصر » [1] .

اتاحت معاهدة التحالف هذه للفينيقيين ان يستغلوا ، بالمشاركة مع ملك اورشليم ، الامكانات الاقتصادية للبلاد الاسرائيلية وان يجعلوا منها ، بشكل او بآخر ، منطقة نفوذ اقتصادي وحقل استثمار للمتمولين ورجال الاعمال الفينيقيين .

وكانت اسرائيل ، العديمة الخبرة بالتجارة ، والتي كانت حتى ذلك الزمن منهمكة بالفلاحة وتربية الدواجن ، تحتاج الى رؤوس الاموال والتقنيين . ولم يستطع الاسرائيليون ان يتعلموا التجارة والفنون المالية إلا بعد ان اكتسبوا الخبرة الفينيقية . وفي هذه الفترة ، كانت صور عاصمة امبراطورية كبرى بتجارتها واسطولها القوي ، وكانت تملك في ذلك الوقت مصانعها الخاصة ومموليها وصيارفتها وتقنييها ورجال اعمالها .

« حملت معاهدة حيرام ، ملك صور ، الذي كان يملك على البحر ، مع سليمان ، المسيطر على طرق القوافل نحو البحر الأحمر والدلتا ، الى المناطق الفلسطينية ازدهاراً جديداً ، ترك في ذاكرة الناس وفي صفحات التوراة ذكرى بحبوحة ذهبية .

فقد عهد سليمان إلى الصوريين بمهمة انشاء المراكب الكبيرة التي اطلقها من ميناء « عصيون جابر » نحو البحر الأحمر وبلاد اوفير (شواطىء الصومال) . وكان البحارة الصوريون يقودون هذه السفن التي تمخر البحار إلى جانب سفن حيرام . كما كان الاسطول يقوم برحلة كل ثلاث سنوات ، ثم يعود محملاً بالذهب وبالفضة وبالعاج والحيوانات الغريبة » [2] . « على الرغم من ان التوراة تحاول ان تنسب فكرة هذه الرحلات إلى سليمان ، فان البحارة الفينيقيين هم

---

١) G.H. Wells, **Esquisse de l'Histoire Universelle,** p. 119-121

٢) De Laplante, **op. cit., I,** p. 57

الذين كانوا يقودون « سفن ترشيش » ويأتون بكنوز الجزيرة العربية » [١] .

فالنفوذ الاقتصادي الفينيقي في البلاد الاسرائيلية ، كان يشمل ضمنياً نفوذاً سياسياً ، موطداً بالنفوذ الثقافي الذي لم يكن في ذلك الزمن الا دينياً . فاجتاحت الآلهة الكنعانية اسرائيل ، واقيمت معابد على المرتفعات لعبادة هذه الآلهة الغريبة الملعونة من يهوه . وهذا النفوذ الفينيقي في اسرائيل هو الذي اثار سخط الانبياء الاسرائيليين ولعناتهم ، المتمثلة بالدعوة القومية وبالمعارضة ضد صور وضد حليفها سليمان ، « هذا الملك الدنيوي المنفتح على حضارة الشعوب المجاورة » .

ج – فينيقيا ومملكتا اسرائيل ويهوذا

بعد وفاة سليمان (٩٣٥ ق . م .) ، تغلبت الروح القبلية الذاتية على الاسباط الاسرائيلية . وبتحريض من الاسباط العشرة والكنعانيين المحليين ، الذين كانوا يشكلون مجموعة مهمة من سكان المنطقة الشمالية في المملكة السليمانية ، انقسمت هذه الاخيرة إلى دولتين منفصلتين ومتنازعتين ، في اغلب الاحيان ، هما : مملكة اسرائيل في الشمال ، ملكها يربعام وعاصمتها شكيم في البدء ثم السامرة ، ومملكة يهوذا في الجنوب ، ملكها رحبعام بن سليمان ، وكانت اورشليم عاصمة سياسية لها . وهاتان المملكتان ، اللتان ستبقيان في اغلب الاحيان متعاديتين ، لم تتحدا مطلقاً ، وقد دامت الأولى ٢١٣ سنة ، والثانية ٣٤٨ سنة . وتبع انفصالهما السياسي انشقاق ديني ، اذ بينما بقيت المملكة الجنوبية مؤمنة تتابع عبادة يهوه الحقيقية ، اعادت المملكة الشمالية ، التي كانت تضم عدة عناصر كنعانية ، العبادات الكنعانية القديمة ، ومنها عبادة العجول الذهبية .

انهك النزاع مملكتي اسرائيل ويهوذا ، بعد ان استسلمتا اليه حوالي خمسين سنة . فاغتنم هذه الفرصة آراميو دمشق في الشمال الشرقي ، والفلسطينيون في الغرب ، لتوسيع رقعة اراضيهم . ومن جهة ثانية ، فان مصر ، التي استيقظت بعد عدة

(١ Moret, Histoire de l'Orient, p. 611 et 612

قرون من السبات ، عادت فظهرت في بلاد كنعان القديمة (فلسطين) ، لتنازع الاشوريين السيطرة على الممر السوري الفلسطيني ، مطمع الاشوريين والمصريين.

وتحت تهديد طموح ملوك دمشق الآراميين ، الذين كانوا يطمعون بمنفذ إلى البحر ، تمشياً مع سياسة اسلافهم الاموريين ، استعاد ايتوبعل الثالث (٨٨٧ – ٨٥٦ ق . م .) ، ملك صور ، سياسة جده حيرام الأول ، فتقرب من اسرائيل ، المهددة هي ايضاً من قبل دمشق . وبذلك تجددت المحالفة القديمة بين البلدين ، واشتدت اواصرها بزواج ايزابعل ، ابنة ايتوبعل الثالث ، من آخاب ، ابن عمري البكر ، ملك اسرائيل .

وبفضل هذا الزواج ، تغلغل من جديد النفوذ الصوري السياسي والاقتصادي والديني في بلاد اسرائيل ، واصطحبت الزوجة الفينيقية معها آلهتها ، « البعليم » المكروهين ، واخذت تضطهد انبياء يهوه .

وحوالي سنة ٨٥٥ ق . م . ، اقترب الخطر الاشوري من دمشق والسامرة واورشليم وصور . وقد تكرس الاتفاق بين ملوك السامرة وملوك اورشليم بزواج عثليا ، ابنة آخاب وايزابعل ، من يهورام ، ابن يوشافاط ملك يهوذا . ودخل مع عثليا ، ابنة الفينيقية ، النفوذ الصوري القوي في السامرة إلى اورشليم ، حيث دخل بعل وعشتارتا منتصرتين .

وتمكن الفينيقيون ، بتحالفهم مع اسرائيل ويهوذا ، ان يشرفوا من جديد على الطريق البرية بين صور والبحر الأحمر .

لكن الردة الدينية السامرية سنة ٨٤٢ ق . م . اوصلت إلى العرش القائد ياهو (٨٤٢ – ٨١٤ ق . م .) ، المتمسك بالتوحيد فشرع الملك الجديد بمذبحة حقيقية ، وقتلت الملكة ايزابعل في السامرة . ثم امتدت هذه الحركة الثورية إلى اورشليم ، فقتلت عثليا بدورها . وانتصرت هكذا الردة الدينية والشعور الوطني في كلتا العاصمتين . وبذلك سقط النفوذ الفينيقي مرة اخرى في فلسطين .

٧ ـ المفهوم التاريخي للامبراطورية الفينيقية البحرية

علاوة على رسالة الفينيقيين التجارية والبحرية ، التي يؤكد لنا رسوخها التوسع الاقتصادي نحو بلدان ما وراء البحر منذ فجر التاريخ ، فان تأسيس امبراطوريتهم البحرية ، في الألف الأول ، يجعلنا نتثبت من بعض الحقائق التاريخية ، التي نستخلصها من التطور العام لسكان لبنان على مر العصور السالفة . وهذه الحقائق نراها تستمر في القرون التي تلت .

والامر الأول باهميته ، هو ان الامبراطورية الفينيقية لما وراء البحر كانت اولى الامبراطوريات البحرية الكبرى التي عرفها العالم . فقد كان الفينيقيون والكريتيون والآخيون ، حتى سنة ١٢٠٠ ق . م . ، يكتفون بتأسيس بعض المراكـز التجارية ، وربما بعض المستعمرات ، ضمن نطاق المتوسط الشرقي وبحر ايجيه فقط . اما الفينيقيون ، فقد وسعوا نطاق نشاطهم البحري فشمل جميع انحاء حوض المتوسط .

والامر الثاني هو ، بينما كانت السيطرة الآخية استعمارية بجوهرها وعسكرية بسيادتها ، نجد السيطرة والتوسع الفينيقيين تجاريين واقتصاديين ، مجردين من كل ضغط عسكري بوجه عام . ونستطيع القول ان التوسع الفينيقي كان سلمياً اقتصادياً ، بينما توسع الآخيين ، وفيما بعد توسع الاغريق والقرطاجيين والرومان والبيزنطيين ، كان توسعاً استعمارياً تسلطياً .

والامر الثالث هو ان البلاد اللبنانية وحدها ، من بين جميع بلدان الشرق الأدنى وشعوبه التي برهنت عبر التاريخ عن انها ارضية قارية ، كانت وحدها تظهر دوماً ، منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا ، باستثناء بعض الفترات العارضـة والمؤقتة ، أن لديها رسالة ما فوق البحر . وبالفعل ، قبل سنة ١٢٠٠ ق . م ، أسست الدول الكبرى للشرق الادنى ،مصر وبابل والامبراطورية الحثية في آسيا الصغرى ، وبعد سنة ٨٠٠ ق . م . ، الاشوريون والكلدانيون والفرس والعرب والاتراك،أسست هذه القوى امبراطوريات قارية كبيرة،غير ان البحر لم يدخل ابداً تحت سيطرتها.ولم يكن بتصرف الامبراطورية الفارسية الاخمينية الجامعة،

التي كانت تمتد من الهند إلى بحر ايجيه وإلى شلالات النيل ، لم يكن بتصرفها على البحر ، في صراعها الطويل مع الاغريق ، سوى بحرية المدن الفينيقية ، عدوة المدن الاغريقية . وكان ملك صيدا الفينيقي امير البحر الاكبر في البحرية الفارسية .

وكما رأينا سابقاً ، لم يتطور حب الملاحة والحياة البحرية والتجارية ، لـدى الفينيقيين ، الا تحت تأثير وضعهم الجغرافي ، وليس لاسباب عرقية . وبالفعل لم يجعل الساحل الفلسطيني في الجنوب والساحل السوري في الشمال ، المعتبران امتداداً للساحل اللبناني ، لم يجعلا ممن عاشوا عليهما شعوباً بحرية . فكنعانيـو فلسطين اخوان الكنعانيين اللبنانيين ، واسرائيليو يهوذا والهندو ــ اوروبيين الفلسطينيون ، على الساحل الفلسطيني ، والاموريون وخلفاؤهم الآراميون ، على الساحل الشمالي السوري ، لم يصبحوا على الاطلاق ، كالفينيقيين ، جيرانهم المباشرين ، شعوباً بحرية . وذلك لأن السواحل الفلسطينية والسورية الشمالية ، لا تحتوي ، كالشواطىء اللبنانية ، على ملاجىء طبيعية يمكن استخدامها كمرافىء للسفن . وعلاوة على ذلك ، فان انفتاح تلك الشواطىء على البلاد الخلفية لا يجعلها تتمتع ، كالشواطىء اللبنانية ، بجدار جبلي عال ، يمكن ان يحميها من الغزوات القارية البرية من الجهة الشرقية . اما جبل لبنان ، الممتد نحو هاتين المنطقتين ، فانه ينحدر حتى يصبح هضاباً سهلة العبور . واذا كانت المدينـة الفينيقية اوغاريت ، في سوريا الشمالية ، اصبحت مدينة بحرية عظيمة ، فقد كان هذا الدور عارضاً وموقتاً . ولأجل ذلك ، اختفت اوغاريت وقلبت رأساً على عقب ، حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . ، واكتشفت خرائبها صدفة سنة ١٩٢٩ من تاريخنا الحالي .

ويبدو ان الشاطىء المصري ، مثله مثل الشواطىء الفلسطينية والسورية الشمالية ، لم تجعله الطبيعة بشكل يسمح بان يطور في سكانه الميل للملاحة . ولم تنجح مصر ، على مدى التاريخ ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها اكثر من مرة ، بـان تخلق لنفسها قوة بحرية الا نجاحاً محدوداً وموقتاً . اما الشواطىء الافريقية الشمالية ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، فان الفينيقيين هم الذين استغلوا تجارتـها

البحرية ، كما نعرف ، اذ كانت قرطاجة ، في بلاد تونس ، المركز الرئيسي لقوتهم البحرية في المتوسط الغربي .

وهكذا كانت فينيقيا ، القوة البحرية الساميّة ، وابنتها التونسية ، قرطاجة ، القوة البحرية الساميّة ـ الحامية ، سيدتي العالم المتوسطي في الألف الأول قبل الميلاد ، والخصمين الطبيعيين لمنافسيهما على البحر : الاغريق ، ومن بعدهم الرومان . وقد انتهى هذا التنافس ، الذي دام عدة قرون ، بدمار القوة البحرية الفينيقية وحاضرتها صور ، على يد الاسكندر الكبير سنة ٣٣٢ ق . م . ، وبدمار القوة الفونية وحاضرتها قرطاجة ، على يد الرومان سنة ١٤٦ ق . م .

ولم يتوصل العرب ، الذين ثأروا للفينيقيين والقرطاجيين بصدهم الاغريق والرومان عن العالم الشرقي والشمال الافريقي ، وعلى الرغم من جهود الخلفاء الاولين ومساعدة احفاد الفينيقيين اللبنانيين ، لم يتوصلوا لأن يصبحوا قوة بحرية . وقد كانت امبراطوريتهم وامبراطورية خلفائهم العديدين ، حتى عصرنا الحاضر ، امبراطورية قاريّة بريّة .

الفصل السابع

فينيقيا والامبراطوريات القارية او البرية الأشوريون والبابليون والفرس

(٧٣٨ ـ ٣٣٢ ق.م.)

١ ـ فينيقيا والامبراطورية الاشورية (٧٣٨ ـ ٦١٢ ق . م .)

أ ـ أشور

بلاد « ما بين النهرين »

ان العوامل الطبيعية المختلفة (تضاريس ، ومناخ ، ووضع جغرافي) قسمت ارض الرافدين ، العليا والسفلى ، إلى وحدتين جغرافيتين متباينتين (اشورية في الشمال ، وبابلية او كلدانية في الجنوب) ، حيث نشأ ، منذ ما قبل التاريخ ، شعبان متمايزان ، بنفسية ، وحياة اقتصادية مختلفة . وتقابل النزعة العسكرية بجوهرها لشعوب ارض الرافدين العليا (الاشوريون قديماً والاكراد حالياً) ، النزعة الزراعية والتجارية المتميزة لشعوب ارض الرافدين السفلى (سومريون واكاديون وبابليون وكلدانيون قديماً ، وعراقيون حالياً) .

وهكذا ، بينما كانت المنطقتان المصريتان (الدلتا ووادي النيل) ، المتشابهتان بالمناخ والخصائص الجغرافية ، موحدتين باستمرار تحت سلطة واحدة مركزية ، عبر تاريخهما الطويل ، كانت منطقتا ارض الرافدين تؤلفان دولتين متمايزتين ،

وغالباً متخاصمتين. ووحدتهما السياسية، التي تحققت بالقوة في اغلب الاحيان ، كانت دائماً وليدة الصدفة ومرشحة باستمرار لاعادة النظر فيها ، كما كانت تتمزق بدون انقطاع كلما ضعفت القوة التي اوجدتها . « لم تعرف بلاد الرافدين، كما عرفت مصر ، سلطة مستمرة تحكم مجموعة البلاد لمدة طويلة من الزمن . فهنا الانقسام والتغيير هما القاعدة ، بصرف النظر عن الغزوات الاجنبية والازدواجية القديمة بين نينوى وبابل » [1] .

من جهة ثانية « تتجسد الروح التوسعية باعلى درجاتها في شعوب ارض الرافدين السامية . وقد لعبت الحرب عند هذه الشعوب ، بخاصة عند الاشوريين ، دوراً بارزاً ، اذ ان المؤسسات العسكرية تطورت بنوع خاص ، واستغلال القوي للضعيف كان عملية مألوفة ، وكانت بلا شفقة . كما لم يكونوا يكتفون بالانتصار، فقد كانت تتبع الاحتلال والسلب مذابح منظمة وعمليات اجلاء جماعية . وفي بابل ، كان الملك يحتفظ لنفسه بعملية سمل عيني الملك المغلوب . وفي اشور لم تكن الحرب وسيلة فقط ، بل يبدو غالباً انها كانت غاية : المحاربة لممارسة العنف ، والانتصار للذة التعذيب » [2] .

وتقدم لنا اليوم ارض الرافدين العليا شعباً خليطاً ، وجماعات مختلفة الاصول العرقية ، تعيش معاً جنباً إلى جنب ، بينها الاكراد ، وهم شعب محارب هندو – اوروبي اللغة . والموصل ، التي تشغل مكان نينوى القديمة ، هي مركز العنصر الكردي في العراق الحالية .

الاشوريون :

ساميو اللغة والثقافة ، وأول سكان ارض الرافدين العليا في التاريخ . والاشوريون

(١ E. Cavaignac, **Histoire du Monde,** « Prolégomènes », p. 28, 29

(٢ H. Berr, **En Marge de l'Histoire Universelle,** p. 141

هم من الوجهة العرقية نتيجة اصل اسياني محلي ، تطعم بهجرات مهمة من سامية وشمالية .

« وبسبب بعد الاشوريين الساميين عن الطرق التجارية والعسكرية كما هو الشأن بسبب محيطهم المطوّق من كل جهة ، ولكونهم شعباً حازماً وقليل الشفقة وذا تصميم على النصر ، اندفعوا ليجعلوا من الحرب صناعة وطنية لهم . فبالحديد والنار والدم ، وبقتال دون هدنة ، انتقل ملوك اشور بخطى شاقة ، وبعد حروب متواصلة سنوية تقريباً دامت اكثر من اربعة قرون (١١٠٠ إلى ٧٠٠ ق . م .)، انتقلوا من بابل الى الاورارتو (ارمينيا)، ومن عيلام (شوشان) إلى فينيقيا ، ثم حتى مصر ... ولم يصبح جيشهم قوياً الا في القرن الثامن ، عندما حقق لهم فتحاً ارعب شعوب الشرق الادنى ، خلال الزمن القصير لسيادة الامبراطورية الاشورية » [1] .

لقد سودت التاريخ الاشوري الاساليب القاسية والبربرية التي كانت تطبع بناء امبراطوريتهم وتسم وجه حكمها : إجلاء جماعي ، نهب ، واقفار شامل للبلاد المغلوبة ، وضراوة تجاه الاعداء . وبدلاً من ان يستنكر الحكام الاشوريون هذه التصرفات ، كانوا ، بطبعهم وسياستهم القاسية ، يتباهون بها في وثائقهم الرسمية . ولهذا دمرت ثورة الشعوب المستعبدة امبراطوريتهم الكبيرة ، فاختفت الى الابد عاصمتها نينوى ، بعد أن قلبت رأساً على عقب ، سنة ٦١٢ ق . م .

أشور غداة سنة ١٢٠٠ ق . م . :

ابتداء من سنة ١٢٠٠ ، وعلى اثر تحرر دولتي ارض الرافدين (بابل واشور) من القيود التي كانت تكبلهما ، بدأتا باستعادة الدور الذي لعبتاه في الماضي . فقد ازال دمار الامبراطورية الحثية ، حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م ، الحاجز الاكبر الذي كان يحول دون التوسع الاشوري باتجاه المتوسط . كما ان بابل ،

(١ Moret, **Histoire de l'Orient, II,** p. 673

من جهة اخرى ، وبعد ان تحررت ، في الزمان نفسه تقريباً ، من الفاشيين الآريين الذين كانوا يسيطرون عليها منذ عدة قرون ، صممت بدورها على استعادة سياستها التاريخية بالتوسع نحو الغرب . ولأجل هذا ، كانت اشور ، من سنة ١٢٠٠ إلى ٧٥٠ ق . م . ، في صراع دائم مع جيرانها العديدين : البابليين واورارتيي ارمينيا وآراميي سوريا الشمالية وغيرهم . وقد نشأ عن هذه النزاعات المستمرة تعاقب بين انتصارات وهزائم في الحروب .

ب — فينيقيا والامبراطورية الاشورية

قبل سنة ٧٥٠ ق . م . وخلال اكثر من اربعة قرون ونصف القرن (١٢٠٠ — ٧٥٠ ق . م .) ، كانت دول الممر السوري الفلسطيني : فينيقيو لبنان وآراميو سوريا واسرائيليو فلسطين ، هذه الشعوب التي استقلت منذ ١٢٠٠ ، كانت تتابع حروباً داخلية غير آبهة أو مدركة للخطر الجسيم الذي كانت تشكله على أمنها سياسة حكام نينوى الاستعمارية ، التي كانت في هذه الاثناء تبني قواعد قوتها العسكرية .

« وقد برهنت المدن الفينيقية ، طوال هذه الفترة ، عن روحها الذاتية التقليدية ، التي دفعت ثمنها غالياً جميع بلدان آسيا الغربية القديمة . فعندما كانت هذه المدن متحدة ومتحالفة مع مدن فلسطين وسوريا العليا ، لم يطرح على الاطلاق استقلالهما للبحث . غير ان التنافس والحسد دفعا بعض المدن للتحالف مع مصر ، والبعض الآخر للتحالف مع اشور . فعقدت المعاهدات وحلت . وفي بعض الاحيان ، كانت تعلن الحرب بين المدن المتنافسة ، وغالباً كان يحمل ملك صور لقب ملك الصيدونيين الذين اخضعهم لسلطته . وشكلت هذه النزاعات المتواصلة اكثر من سبب للتخاذل امام العدو المشترك ... وفي الحالات النادرة التي عرفت فيها فينيقيا كيف تستوحي المصلحة العامة وتتحالف مع

فلسطين وسوريا العليا ، كنا نرى بان هذا الاتحاد كان يؤلف خصماً لا يستهان به »[1]

فتح سوريا وفينيقيا وفلسطين (٧٣٨ — ٧٣٤ ق . م .) :

لم تكن اشور تستطيع ان تصبح امبراطورية كبيرة دون ان يكون لها منفذ إلى البحر . ولهذا طمعت بالموانىء الفينيقية ، التي سبق أن اخضعت حكامها قبل ذلك لدفع الجزية . ولكن هذه السيطرة كانت في اغلب الاحيان قصيرة . فمنذ سنة ٧٤٥ ق . م . ، عندما اصبحت أشور في اوج عظمتها ، بدأت تمارس سياسة الاحتلال النهائي حتى تركز سيطرتها بطريقة افضل على العالم المتوسطي الشرقي .

احتل تغلاتبلاصر الثالث سوريا الشمالية ، سنة ٧٣٨ ق . م . ، وحولها إلى ولاية اشورية ؛ فدفع الجزية له ملوك دمشق واسرائيل وجبيل وصور وكركميش. وسنة ٧٣٤ ق . م . ، اجتاح فلسطين واحتل غزة ، التي لجأ ملكها إلى مصر . وقد أقيم حكام اشوريون على المناطق المتاخمة للجزيرة العربية ولمصر .

« ان العهد الاشوري كان مشغولاً دوماً بالثورات المتواصلة في بلاد كنعان القديمة . فقد ثارت القبائل المجاورة للبحر الميت وممالك يهوذا واسرائيل ودمشق وفينيقيا ، تارة منفردة ، وطوراً متحدة فيما بينها . ولكن في اغلب الاحيان ، كان الفرعون يتهرب ويترك حلفاءه يسحقون » (Contenau) .

ثورة مملكة دمشق وازالتها (٧٣٢ ق . م .) :

احتل الملك الاشوري دمشق ، سنة ٧٣٢ ق . م . ، بناء على طلب مساعدة من ملك يهوذا ضد عاهل هذه المدينة . فنهب الهيكل والقصر وقتل الملك ، ثم اجلى

---

١) Contenau, l'Asie occidentale Ancienne, p. 272

قسماً من السكان . وبعد ان اصبحت دمشق ولاية اشورية ، اقيم عليها حاكم اشوري . اما ملوك الفينيقيين واورشليم وأدوم وعسقلان ، فقد اصبحوا تابعين او دافعي جزية . وعيّن الامير الملكي شلمناصر حاكماً عاماً على جميع بلاد المنطقة وأقام في فينيقيا .

ثورة فينيقيا (٧٢٧ ق . م .) :

سنة ٧٢٧ ق . م . عاد الامير شلمناصر إلى نينوى ليرث عرش والده . فنشبت بعد ذهابه ثورة عامة في فينيقيا ، بتحريض من ايلولوي ، ملك صور وصيدا . ثم انضمت اسرائيل إلى المتمردين ، فجهزت اشور حملة بحرية ضد صور لأجل اخماد ثورتها . كان قوام الحملة ستين سفينة ، جمعتها اشور من المدن الفينيقية الخاضعة لها . وقد تمكن الصوريون من تدمير هذه الحملة وأسر جنودها باثنتي عشرة سفينة فقط ، فالحقوا الفشل الذريع بحصار الجزيرة الذي دام أكثر من خمس سنوات (٧٢٧ — ٧٢٢ ق . م .) .

ازالة مملكة اسرائيل (٧٢٢ ق . م .) :

احتل الأشوريون السامرة ، عاصمة مملكة اسرائيل ، بعد ان اتهموا ملكها بالتآمر مع مصر . وقد تم ذلك بعد حصار دام ثلاث سنوات ، اسر الاشوريون خلاله ثلاثين الفاً من الاسرائيليين ، فنقلوهم إلى ارض الرافدين ، وبلاد مادي في ايران واحلوا مكانهم جاليات بابلية وسوزية شمالية . ثم الغيت الملكية في اسرائيل واقيم عليها حاكم اشوري . فكانت هزيمة ملك السامرة هذه نهاية استقلال مملكة اسرائيل .

اما اورشليم ، فقد بقيت تحكمها سلالة يهوذا ، وتدفع الضرائب طوال ١٣٥ سنة بعد ذلك . وهكذا بقي لها نوع من الوجود الغامض .

سحق ثورة في سوريا (٧٢٠ ق . م .) :

ثارت معاً ، سنة ٧٢٠ ق . م . ، مدن حماه ودمشق والسامرة وسميرا ، بتشجيع من مصر . فهزم هؤلاء المتحالفون في قرقر ، على العاصي . سُلخ ملك حماه حياً ونقلت إلى مدينته جماعة كبيرة من الاشوريين وعين قائد عسكري حاكماً عليها . ثم تابع الاشوريون سيرهم نحو الجنوب ، فهزموا المصريين في رفح ، جنوبي غزة ، ونفوا ملكها (٧٢٠ ق . م .) .

ثورة فينيقيا واخضاعها (٧٠١ ق . م .) :

احتل الاشوريون قبرص سنة ٧٠٩ ق . م . ، فأضروا بمصالح الفينيقيين الذين ، بتشجيع من مصر ، سارعوا إلى استعادتها . وكي يصمد ايلولوي ، ملك صور وصيدا ، بوجه الاشوريين ، نظم ثورة اشترك فيها ملك يهوذا والمدن الفلسطينية عسقلان ويافا وعقرون . وكانت ردة الفعل الاشورية رهيبة ، بينما المساعدة المصرية لم تكن تذكر . فهرب ملك صور إلى قبرص واستسلمت صيدا وعين ملكاً عليها امير صيدوني ، هو ايتوبعل الثاني . وبعد ان اصبحت صيدا دولة ذات استقلال ذاتي ، استعادت زعامتها في فينيقيا واخذت تدفع فريضة سنوية لملك نينوى . اما ملك جبيل ، اورو ملكي ، وملك ارواد ، عبد ملك ، فقد كافأهما الاشوريون على عدم اشتراكهما في الثورة .

وعلى الشاطىء الفلسطيني ، تم احتلال جميع المدن المتمردة ونفي ملوكها إلى اشور مع عائلاتهم . أما الجنود المصريون فقد ردوا إلى بلادهم . ونجح ملك يهوذا بتجنيب عاصمته النهب ، عندما سلم بعض الكنوز الثمينة للاشوريين . أما صور قلب الثورة ، التي حماها اسطولها والتي لا تقهر في جزيرتها ، فقد خرجت سالمة من هذه المجازفة (٧٠١ ق . م .) .

قمع تمرد صيدا (٦٧٦ ق . م .) :

بتحريض من الفرعون ، خلع عبد يملكوتي ، ملك صيدا ، النير الاشوري ، وجر معه بتمرده هذا سندواري ، ملك كيليكيا . فاستعاد اسرحدون، الملك الاشوري ، صيدا ودمر اسوارها ، ثم « اصطاد كسمكة » ملكها ، الذي قطع رأسه . وحولت مملكة صيدا إلى ولاية يديرها حاكم أشوري (٦٧٦ ق . م .) . وبعد صعود اسرحدون إلى جبال كيليكيا ، « أسر ، كما يؤسر العصفور ، الملك سندواري وقطع رأسه » (Moret).

حصار صور ومقاومتها (٦٧١ ق . م .) :

حاصر اسرحدون صور ، سنة ٦٧١ ق . م . ، بعد ان رفضت ان تنقل بزوارقها الجنود الاشوريين المعدين لاحتلال مصر . ولكن صور قاومت بنجاح.

الاشوريون في مصر (٦٧١ ق . م .) :

صمم اسرحدون على الوصول إلى دلتا النيل ، بمساعدة رؤساء العشائر العربية في الصحراء . وقد وصل إلى ممفيس بعد خمسة عشر يوماً من السير ، فاحتلها بنصف نهار واعلن نفسه ملكاً عليها (٦٧١ ق . م .) . ولكن في سنة ٦٦٩ ق . م . ، استعاد الفرعون ممفيس . ثم سقطت ثانية ، سنة ٦٦٦ ق . م . ، بيد اشور بانيبال ، ابن اسرحدون وخليفته ، الذي احتل مدينة طيبة ايضاً ، سنة ٦٦٣ ق . م . ، ونهبها ودمرها .

أما صور التي رفضت الاشتراك بعملية غزو اسرحدون ، فقد اصبحت مطيعة اكثر بعد انتصار اشور بانيبال . ولما مر هذا الاخير على السواحل الصورية ، عند عودته من مصر ، قدم ملك صور ابنته إلى الحريم الملكي . أما البحرية الفينيقية ، التي وضعت نفسها في خدمة الاشوريين ، فكانت تسعى إلى احتكار

التجارة البحرية في المتوسط الشرقي ، وبخاصة تجارة الغرب نحو الهند ، بطريق مصر والبحر الأحمر .

دمار الامبراطورية الاشورية (٦١٢ ق . م .) :

سنة ٦٢٦ ق . م . ، ثار حاكم بابل الكلداني ، نابوبلاصر ، فألقى عن عاتقه النير الاشوري وأعلن نفسه ملكاً . فاستولى هذا العاهل الكلداني الجديد ، بالاشتراك مع ملك الماديين في ايران ، على نينوى ودمروها سنة ٦١٢ . « ولا تزال نينوى حتى يومنا هذا مدفونة تحت أنقاضها » .

٢ — فينيقيا والامبراطورية الكلدانية البابلية (٦١٢ — ٥٣٩ ق . م .)

أ — بابل او كلده

الارض والشعب :

« ان الجبال والهضاب العالية في بلاد اشور ومادي وفارس ، ووهاد الصحراء في سوريا وفي الجزيرة العربية الشمالية ، كانت دائماً مستودعاً لا ينضب من القبائل الرحل . وقد سيطرت كل من هذه القبائل بدورها على واحة ارض الرافدين الكبيرة ، التي ظهر انها لم تكن مطلقاً ملكاً خاصاً لابنائها . وهكذا نجد ان تاريخ كلده (بابل) متقطع ، غير متجانس، بعكس تاريخ مصر الموحد »[1].

منذ البدء ، كانت الارض الثرية في بابل الكلدانيين، ذات النزعة الزراعية ، مسرحاً للتصادم بين شعوب متعددة ومتنافسة ، من محلية وغريبة . ولأجل هذا ، كان سكان هذه البلاد في الوقت نفسه زراعيين وتجاراً ومحاربين . ونجم عن

(١ E. F. Gautier, **Le Sahara**, p. 156.

ذلك ، أن بابل – كلده (العراق حالياً) ، بقيت « دائماً في صراع حتى الموت للدفاع عن حدودها المكشوفة » . ومن جهة ثانية ، فهذه الارض الكثيرة الرواسب ذات النزعة الزراعية ، المهيأة خصيصاً كي « تصنع » مجتمعاً متحضراً ، مزوداً على الدوام بالدم الجديد من البدو الرحل الذين كانوا يتحولون إلى حضر ، كان سكانها دائماً « غير متجانسين وبطباع متحركة ومحبة للحرب » .

« ان الثروة المادية للسهل البابلي الكبير امتد تأثيرها على البلاد المجاورة ... فقد توسع المجتمع البابلي بتصدير منتجاته المصنعة إلى جميع انحاء الهلال الخصيب . كما أتاح التقدم الفكري لهذا المجتمع ان ينشر ثقافته في الاتجاه نفسه . (ففي القرن الرابع عشر قبل الميلاد) ، كانت اللغة البابلية واحرفها المسمارية قد اصبحت اللغة والكتابة الدبلوماسية في جميع بلدان الشرق الادنى... وعلى الرغم من اتجاه انهارها (باتجاه المحيط الهندي) ، فقد اتجهت كلده نحو اشور والجزيرة وسوريا ، اي نحو الاجزاء الباقية من بلاد الهلال الخصيب ، حتى البحر المتوسط . ففي هذا المسار ، اتجهت الانسانية البابلية والاقتصاد البابلي وحققا فتوحاتهما السلمية ، واحياناً تجسد هذا التوسع التجاري و « الثقافي » بتوسع عسكري ... وفي كل مرة ، كان المزارعون في ارض دجلة والفرات السفلى يدفعون انتشارهم حتى البحر المتوسط ...

« الا ان ذلك لم يكن ، في العموم ، الا استثناءات موقتة . فقد كان هذا المجتمع ، الراسخ بالزراعة والصناعة والتجارة ، مستقراً وشديد الشغف بأعماله الزراعية والنسجية ، على ضفاف انهاره الغزيرة . ولم يستسلم دائماً لمغامرة الفتوحات . لكن اشور هي التي جعلت من الفتوحات صناعة وطنية » [1] .

بلاد بابل او كلده حتى دمار الامبراطورية الاشورية :

بعد انكساف دام حوالي أحد عشر قرناً (١٧٥٠ – ٦١٢ ق . م .) ، عرفت

١) R. Grousset, **La Face de l'Asie**, p. 15-17

خلاله بابل ، عاصمة الامبراطرية السامية – الامورية لحمورابي ، اي اول امبراطورية بابلية ، الخراب والتحكم الاجنبي ، عادت في ظل الامبراطورية السامية الكلدانية ، اي امبراطورية بابل الجديدة (٦١٢ – ٥٣٩ ق . م .) ، إلى عصر عظمتها .

ففي هذا الوقت (حوالي سنة ٦٠٠ ق . م .) ، اصبحت بلاد بابل او كلده آرامية لغوياً ، اذ منذ اواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، تركت هذه الوريثة لمجد الساميين الاكاديين وثقافتهم ولاموريي بلاد الفرات الوسطى اللغة الاكادية ، لغة هؤلاء الاخيرين السامية ، واتخذت اللغة السامية الآرامية . فقد كان من نتيجة استقرار « الآراميين التائهين » ، القبائل السامية التي قدمت من البادية السورية العربية حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . إلى مختلف مناطق ارض الرافدين وسورية ، ان حلت تدريجياً اللغة الآرامية محل اللغات السامية المحلية : الاشورية والبابلية والامورية . وقد تثبت هذا الحلول مع تصاعد الاهمية السياسية لقبائل كلدو الآرامية في بلاد بابل .

وقد رأينا بان الامير الكلداني نابوبلاصر ، حاكم بابل وقائد الجيش المحلي ، تحرر من نير نينوى ، سنة ٦٢٦ ق . م . ، واعلن نفسه ملكاً . ثم ان تحالف الكلدانيين والماديين دمر الامبراطورية الاشورية ، سنة ٦١٢ ق . م . وكما فعل حمورابي من قبل ، دفع نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ – ٥٦٢) ابن نابوبلاصر وخليفته ، قوة المملكة الكلدانية إلى الأوج ، فكانت عظمة بابل الجديدة .

وكما ان اسم بابل الامورية لم ينفصل عن اسم حمورابي ، كذلك اسم بابل الكلدانية لم ينفصل عن اسم نبوخذ نصر . لكن بابل التي بهرت خيال الشعوب والمقترنة باسم نبوخذ نصر والتي خلدها التاريخ وانبياء اسرائيل ، هي بابل الكلدانية لسنة ٦٠٠ ق . م .

فينيقيا وسوريا وفلسطين التابعة لبابل (٦١٢ ق . م .) :

ورثت الامبراطورية البابلية الجديدة او الكلدانية ، من الامبراطورية الاشورية التي دمرت سنة ٦١٢ ، سوريا وفينيقيا وفلسطين . ولكن المصريين احتلوا هذه البلدان الثلاثة ، سنة ٦٠٩ ، ثم اخرجوا منها سنة ٦٠٥ . وكما كان الممر السوري الفلسطيني ، في ظل الامبراطورية الاشورية ، هكذا بقي ، منذ ذلك التاريخ ، المحور وساحة القتال بين ملوك بابل وفراعنة مصر . فالسنن الجغرافية تتحكم دائماً !

ولم يتغير الوضع اطلاقاً على فينيقيا وفلسطين وسوريا بعد اضمحلال الاشوريين . فمركز السلطة الحاكمة لا يزال في ارض الرافدين . وقد انتقل من نينوى إلى بابل ، التي سارعت إلى تقوية سيطرتها على المناطق المحتلة .

تمرد صور واورشليم (٥٩٧ ق . م .) :

منذ سنة ٥٩٧ ق . م . ، قامت ثورة ضد بابل ، بتحريض من مصر وتحت قيادة صور . وقد ضمت صيدا وملوك مؤاب وعمون ، في شرق الاردن ، وملك أدوم ، في جنوب البحر الميت . وعلى الرغم من معارضة ارميا النبي ، انضم إلى الثورة ملك يهوذا يهوياقيم ، صنيعة الفراعنة . وكعادة مصر دائماً في الماضي ، اكتفت بارسال بعض سفنها للانضمام إلى سفن صور .

زحف جيش بابل على مملكة يهوذا الصغيرة ، التي لم ترسل لها مصر اية نجدة . فاحتل اورشليم ونهب الهيكل والقصر ، ثم ذبح يهوياقيم (٥٩٧ ق . م .) وسبى ابنه وخليفته يكينا ، مع حاشيته وآلاف من الاشراف ، إلى بابل ونصب صدقيا ، الابن الثاني ليهوياقيم ، ملكاً على عرش اورشليم . اما صور فقد حوصرت من جهة البر .

دمار مملكة يهوذا (٥٨٦ ق . م .) :

اجتاح الفرعون ابرياس فلسطين سنة ٥٨٦ ق . م . واكمل زحفه في البر وفي البحر بمساعدة الملك ايتوبعل ، ملك صور . وبعد ان استسلم صدقيا ، ملك يهوذا ، لالحاح المتطرفين في اورشليم ، تخلى عن الولاء لبابل وانضم إلى ابرياس . لكن جيش نبوخذ نصر تغلب على جيوش مصر في البر ، بينما استمر الاسطول الفرعوني يدافع عن المدن الفينيقية .

تُركت اورشليم المحاصرة بجيوش الكلدانيين لتدافع عن نفسها بقواتها فقط ، بعد ان هُزمت جميع النجدات المصرية التي ارسلت لمساعدتها . وبعد ثمانية عشر شهراً من الحصار ، فتحت اورشليم وهدمت اسوارها ودمر هيكلها وقصرها . وقد ذبح اولاد صدقيا وكبار شخصيات مملكته على مرأى منه . اما هو فقد فقئت عيناه وكبل بالسلاسل ونفي الى بابل ، مع نخبة سكان المملكة (٥٨٦ ق . م .) . فهاجر الكثيرون من اليهود الى بابل خوفاً من انتقام الفاتحين ، وبخاصة الى مصر ، حيث قدم لهم ابرياس اراضي ليقيموا فيها .

فبعد ١٣٦ سنة من تدمير مملكة اسرائيل بايدي اشوريي نينوى ، امحت بدورها عن الخريطة مملكة يهوذا بأيدي كلدانيي بابل ، واختفى بذلك اثر الاسرائيليين كأمة (٥٨٦ ق . م .) . وكانت هذه الكارثة بداية التشتت الكبير لشعب الله المختار .

حصار صور (٥٨٦ – ٥٧٣ ق . م .) :

بعد ان سوى نبوخذ نصر حسابه مع مملكة يهوذا ، ارتد الى صور ، رأس المؤامرة (٥٨٦ ق . م .) . وقد جابه الاسطول الصوري ، سيد البحر ، مع بعض الزوارق المصرية ، الكلدانيين ، بمقاومة عنيدة . وحيث اضطر نبوخذ نصر للعودة الى بابل ، ابقى الحصار قائماً على صور من جهة البر . فدام هذا الحصار ثلاثة عشر عاماً ، حسب قول ميناندر ، وقد افقر المدينة ولكنه لم ينل

شيئاً من صمودها . وظل الوضع على هذه الحال حتى سنة ٥٧٣ ق . م . ، عندما وقّع خليفة ايتوبعل الثاني ، مربعل ، معاهدة مع بابل . وكما هي الحال دائماً ، « احتفظ ملك صور بعرشه وتخلص من المشكلة بدفع جزية » .

جمهورية صور :

سنة ٥٦٤ ق . م . ، بوفاة ايتوبعل الثاني ، ملك صور ، سقط النظام الملكي وحل محله نظام شبه جمهوري ، هو نظام القضاة (سوافط) ، الذي طبق في قرطاجة والذي اقتبسه الرومان فيما بعد ، تحت اسم نظام القناصل .

وفي سنة ٥٥٢ ق . م . ، ترك الصوريون نظام القضاة واعادوا النظام الملكي . ولم يحكم بعليصور ، الملك الجديد لصور ، سوى سنة واحدة فقد خلفه مربعل ، احد اولاد ايتوبعل ، الذي كان يعيش في بابل كرهينة . وخلف مربعل ابنه حيرام الثالث ، الذي كلف تنصيبه مجيء نابونيد ، ملك بابل ، وبذاته الى صور .

وسنة ٥٣٩ ، حلت الامبراطورية الفارسية محل الامبراطورية البابلية الجديدة او الكلدانية .

٣ ـ فينيقيا والامبراطورية الفارسية الأخمينية (٥٣٩ ـ ٣٣٢ ق . م .)

أ ـ الامبراطورية الفارسية الأخمينية

يعتبر كورش الكبير (٥٥٥ ـ ٥٢٨ ق . م .) ، ملك الفرس الاخمينيين ، من ابرز الوجوه في التاريخ . فقد كان سيد ايران الغربية وارمينيا ، منذ توليه العرش ، واحتل ، سنة ٥٤٦ ق . م . ، ليديا وآسيا الصغرى . ومن سنة ٥٤٥ الى ٥٣٩ ق . م . ، تابع احتلال جميع البلدان الواقعة بين الأورال والهندوس .

واستولى كورش ، سنة ٥٣٩ ق . م . ، على بابل ، فانهى وجود الامبراطورية الكلدانية اي البابلية الجديدة .

السماح لليهود بالرجوع إلى فلسطين :

بعد جلوس كورش على عرش بابل (٥٣٨ ق. م.) ، اعاد الى اليهود ، المشردين من فلسطين منذ عهد الكلدانيين ، الأواني الذهبية والفضية الخاصة بهيكل اورشليم ، وسمح لهم بالعودة الى فلسطين وبإعادة بناء الهيكل المهدوم . ولكن قلائل من اليهود تخلوا عن اوضاعهم المعيشية التي اكتسبوها في المنفى ، اذ عاد حوالي اثنين واربعين الفاً فقط الى الأرض التي عاش فيها آباؤهم . وبفضل مساعدة الحكومة الفارسية ، ادارت هذه القلة الصغيرة بنجاح اعمال اعادة بناء هيكل اورشليم .

الطابع شبه الفيدرالي للامبراطورية الفارسية :

ان السمات الفارقة التي ميزت الحكم الفارسي الاخميني عن غيره من عهود الفاتحين الذين مروا على بلدان الشرق الادنى ، هي تأسيس امبراطورية موحدة ، مركزية ومنظمة ، وبالاخص ، دولة مركبة ، واسعة ، ان لم تكن ادارتها الليبرالية اعطتها وحدتها العضوية ، فعلى الاقل اعطتها وحدتها السياسية والاقتصادية . وقد جاء الاهم اخيراً في تصرف الفاتحين الفرس تجاه الملوك والشعوب المغلوبة ، التي كانوا يعاملونها برفق .

ولعله لأول مرة تتجمع مناطق متباينة وشعوب غير متجانسة في دولة واحدة مركزية ، وتترك لكل وحدة جغرافية وعرقية تراثها الخاص ودينها الخاص ، ولغتها ومؤسساتها ، وحتى رؤساءها المحليين . وقد كسبت هذه السياسة الليبرالية للسلالة الحاكمة وللملوكها اخلاص الشعوب الخاضعة ومحبتها . وبكل بساطة ، كانت هذه السياسة تتناقض مع شعوب الساميين ، الاشوريين والكلدانيين ،

الذين لم تعرف امبراطوريتهم ، خلال عدة قرون ، « سوى تكريس التجزئة والحقد والعنف » (Grousset) .

ومنذ وصول كورش الى الحكم ، زال نظام الرعب الذي كان يطبقه ملوك أشور وكلده ، وحل محله مذهب حكومي وديني يقوم على التساهل والسخاء . فلم يعد هناك قتل ولا نفي ، بل على العكس ، كان الملوك المغلوبون يعاملون برفق . وقد سمح للأشخاص والجماعات التي أجلاها الفاتحون السابقون عن بلادها بالعودة اليها . فأمنت السياسة الحكيمة للامبراطورية الواسعة ، التي انشأها كورش ، وثبتها خلفاؤه من بعده ، قرنين من الراحة والرخاء (٥٣٩ — ٣٣٢ ق . م .) .

كان العاهل الفارسي ، الملقب « بملك الملوك » أو « الملك الأكبر » ، يملك بارادة الهية كحاكم مطلق اختارته العناية السماوية الكبرى . وكان جميع مرؤوسيه ، حتى كبار النبلاء ، يعتبرون انفسهم عبيداً لسيد قضت المراسم الصارمة ان لا يقترب احد منه . وكان الحد الوحيد لسلطته المطلقة « تطبيقه الدائم للحق والعدل . اذ كان يستغيث دائماً بالحقيقة الالهية ، ليجابه بها الكذب الذي تمليه اعمال الاختلاس والتمرد » (Moret) .

الآرامية كانت اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية :

لم يتح التوسع السريع للامبراطورية الاخمينية الكبيرة وقتاً لنشر اللغة والكتابة الفارسيتين . فكانتا تستعملان بين أقلية من الطبقة الحاكمة فقط . ولذلك لم تعم اللغة الفارسية الولايات والأقاليم . فاللغة السامية الآرامية ، التي كانت منذ اوائل الألف الأول قد حلت محل اللغة الأمورية في سوريا والأشورية — البابلية في بلاد الرافدين ، هي التي خلفت اللغة البابلية كلغة عالمية للتجارة والدبلوماسية . وانسجاماً مع طبعهم الليبرالي ، تبنى الاخمينيون اللغة والكتابة الآراميتين ، اللتين اصبحتا رسميتين من مصر حتى الهند .

كانت الامبراطورية مقسومة الى ولايات تدعى « مرزبات » . وعلى رأس هذه الولايات ، كان يعين موظفون كبار بسلطات واسعة ، يدعون «مرازبة» ، ويتم اختيارهم من بين اقارب «الملك الأكبر» ، أو من بين أعضاء العائلات الفارسية الكبرى ، وارثي العروش المحلية . وكان الملك يعين نوابه هؤلاء ليكونوا مسؤولين أمامه فقط . والى جانب كل مرزبان كان يعيّن امين سر ملكياً ، وقائداً عاماً للقوات التي تحتل الولاية ، وموظفاً كبيراً لتحصيل الضرائب ، ومفتشين متجولين ، ويرتبط جميع هؤلاء بالملك مباشرة ويقوم بعضهم بمراقبة بعضهم الآخر .

السلام الأخميني :

احتفظت الشعوب الخاضعة بلغاتها ودياناتها وعاداتها ومؤسساتها وموظفيها ، وحتى بسلالاتها الحاكمة ورؤسائها المحليين . وحل محل الفديات الاعتباطية وعمليات النهب ، التي كان الأشوريون يمارسون فرضها على المغلوبين ، نظام ضريبي محدد ومنظم . وأعفي الفرس من الضرائب باعتبارهم شعباً فاتحاً . وانقطعت حروب الشعوب فيما بينها ، كما كانت تمارس في السابق . وهيمن ، لمدة قرنين تقريباً ، على الشرق الأدنى بكامله ، سلام عميق ، هو « السلام الاخميني » ، الصورة السابقة « للسلام الروماني » فيما بعد .

المدن الرئيسية :

استعملت عدة مدن رئيسية كمقر ملكي حسب الفصول : اقبطانا (همذان) ، برسيبوليس ، بازارغاد في ايران ، السوس في عيلام ، وبابل في بلاد الرافدين .

ولاية عبر النهر :

تمسك الفرس بالاطار الاداري الذي كان وضعه الاشوريون واحتفظ بـه الكلدانيون بعدهم . وكانت مجموعة البلاد الواقعة بين الفرات والبحر الاحمر تسمى ، من قبل الأشوريين والكلدانيين ، « عبر النهر » ، أي ما وراء نهر الفرات . وهذه كانت الولاية الفارسية الخامسة وعاصمتها دمشق ، وهي تشمل سوريا ، وفينيقيا ، وفلسطين ، وقبرص . « كانت للفينيقيين مصالح عديدة في قبرص ، فطالبوا بضمها الى الولاية التي كانوا جزءاً منها »[1] .

وضمّت ولاية عبر النهر ، علاوة على ذلك ، مقاطعة في جنوب غزة سُمّيت « العربية » أي بلاد العرب . وتؤلف هذه المقاطعة ، مع البلاد التي وراءها ، منطقة صحراوية واسعة ، حيث كان يخيم ، منذ عصور قديمة جداً ، العرب او رحّل البوادي السورية – العربية . « ان عبارة « العربية » تعني جماعة العالم العربي (الرحّل) المنتشرة من الفرات الى حدود مصر »[2] .

وبالنسبة لسوريا ، كانت التقسيمات الإدارية للولاية الخامسة هي : دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب . وبقيت هذه المدن ، كما كانت في عهد الامبراطوريتين الكلدانية والأشورية ، مراكز اقليمية ، أهمها دمشق .

ب – فينيقيا والامبراطورية الفارسية الأخمينية

على أثر إحتلال كورش لبابل سنة ٥٣٩ ، تحررت المدن الفينيقية من الحكم الكلداني النكد . واستقبلت صور وأخواتها الكنعانيات الفاتح الجديد كمحرر لها . وكان قد أخضع ، حتى ذلك الحين ، اغريق آسيا ، أي آسيا الصغرى ، حتى بحر إيجه . وكان الفينيقيون يرون فيه عدواً للإغريق ، منافسيهم التاريخيين على البحار . « ذلك لأن الصوريين الفطنين كانوا يشعرون سلفاً بالدور الذي سوف

١) F.M. Abel, **Géographie de la Palestine, II, p. 112**

٢) F.M. Abel, **Géographie de la Palestine, II, p. 115**

يتوفر لهم لعبه في هذا العالم الجديد . فقد حدسوا مسبقاً النزاع الإغريقي الفارسي وقدروا ان القضاء الكامل على المنافس الإغريقي سيتم بالإمكانات الفارسية الهائلة ولصالح أصحاب السفن الفينيقيين »[1] .

« ان الرحلة المنسوبة الى سكيلاكس ، امير البحر الاغريقي في خدمة داريوس (٥٢١ – ٤٨٥ ق . م .) ، تعكس عظمة القوة الفينيقية في العهد الفارسي . اذا كانت رقعة الارض السورية التي كان يشغلها الفينيقيون قدر عرضها بأربعين غلوة (*) وفي بعض الاماكن بعشر غلوات فقط ، فهذه الوثيقة تضمنا في ارض الفينيقيين غربي وادي العاصي ، وتقدم لنا ، كما يبدو ، أرواد ، الجزيرة والمرفأ ، كممتلكات صورية . وتعد هذه الرحلة ، لجهة الجنوب ، حيفا ، أراد ، دور ، وعسقلان ، – تابعة لصور وصيدا ... وعلم الآثار يبرهن على ان جميع الشاطىء السوري الفلسطيني كان حينذاك بقبضة المدن الفينيقية الكبيرة » .

« ان وضع اليد هذا ، الذي سهله تدهور الفلسطينيين ، وكان قد بدأ في القرن السابع ، انتهى بدمار صيدون، سنة ٣٥١ ق . م. ، وخراب صور ،سنة ٣٣٢ ق . م . وكان يصل الخط الجنوبي الفينيقي حتّى جبل الكرمل ... ، الذي جعل منه جوزيفس جبلاً فينيقياً ... اما الحدود الشمالية ... فيوقفها بطليموس وسترابون عند نهر اليوثيروس ، اي النهر الكبير ، او على وجه التقريب عند اورتوزيا . وعلى اي حال ، فمن المؤكد ان ارواد السامية كانت منشأة فينيقية ...

« اما من الشرق ، فقد ادى تململ فينيقيا من ضيق رقعة الشاطىء التي وصفها سكيلاكس الى تغلغلها في الوهاد الضيقة او تسلقها سفوح الاموريين اللبنانية : فعرفت ان تستغل أرزها جيداً وتصنعه في صور وصيدا وجبيل . وفي الداخل باتجاه الفرجة الوسطى الكبيرة (البقاع) ، كانت قادش او قديثا ، في شرق

١) De Laplante, **Histoire Générale Synchronique, I,** p. 97

*) الغلوة (stade) هي قرابة متي متر .

صور ، حصناً منيعاً يمتلكه الصوريون على حدود الجليل ... لأن الفينيقيين كانوا يتميزون عن الكنعانيين المتعلقين بالأرض ، ليس بحدودهم الارضية ، بل بميلهم الى العمليات التجارية البعيدة والى الملاحة . » [1]

احتل قمبيز ، بن كورش وخليفته ، مصر ، سنة ٥٢٥ ق . م . ، فأقام فيها حوالي خمس سنوات . وكان هدف الحملة التي قرر القيام بها ضد قرطاجة الاستيلاء على المتوسط الغربي ، الذي كان تحت قبضة فينيقيي افريقيا الشمالية . ولكنه لم يستطع الشروع بهذه الحملة وتأمين فرص النجاح لها دون مساعدة اسطول فينيقيي لبنان ، الذين رفضوا « ان يسهموا بحرب ضد ابنائهم » . وقد صرف قمبيز النظر عن هذه الحملة البعيدة ، بعد ان حصل على تأمينات بالنسبة لشيوع المصالح الفارسية والفينيقية — الفونية ، وأرجأ بذلك ، على الارجح ، تحقيق مشروع الطموح الى موعد آخر .

ج — المدن الفينيقية في العهد الفارسي

احتفظت المدن الفينيقية ، التي كانت تنعم بوضع خاص في ظل الامبراطورية الفارسية ، بملوكها ورؤسائها المحليين وبأراضيها ومؤسساتها ، تحت اشراف المرزبان المقيم في دمشق . « كانت تتمتع فينيقيا ، في الولاية الخامسة ، بوضع خاص ، كأمة عرقية وكتكوين طبيعي وكقاعدة بحرية ... وهناك عدة ادلة على استمرار الاصول العرقية فيها » [2] . كان الفرس قد احتفظوا ، كضريبة ، بحق الاشراف على قسم كبير من الاحراج اللبنانية الذي سُمي « جنة الملك » ، وورثه عنهم الاغريق ، والرومان فيما بعد . وفوق ذلك ، كانت المدن الفينيقية مرغمة على دفع بعض الضرائب السنوية ، ومحظوراً عليها عقد السلم او الحرب مع اية أمة .

(١ Abel, **op. cit.**, I, p. 256 et 257

(٢ Abel, **op. cit.**, II, p. 146

وفي ظل الحكم الفارسي « توصلت المرافىء الفينيقية الى ازدهار لا يوصف . وذلك يعود الى انفتاحها على افريقيا الشمالية والعالم الاغريقي ، عن طريق الحلقات التجارية التي كانت لها في السابق . فقد وجد الفينيقيون أنفسهم على اتصال مباشر مع جميع البلدان الآسيوية الخاضعة للملك الاكبر . وأدى ذلك الى ثراء المدن الساحلية ونموها . كما ادى ازدياد السكان الى توسيع رقعة الزراعة ، فاستصلحت حقول شاسعة لم تكن لتستغل من قبل . وحل السلام في كل البلاد ، ونظمت الادارة تنظيماً جيداً ، وانتشرت اللغة الآرامية في كل مكان ، الا في فينيقيا » [1] التي حافظت على لغتها القومية ، اللغة الكنعانية او الفينيقية .

صيدا :

في ظل الحكم الفارسي ، استعادت صيدا ، في فينيقيا ، بعد انكساف دام حوالي خمسمئة عام تقريباً ، المرتبة الاولى التي كانت تحتلها في الألف الثاني ، وذلك على حساب صور . وبوجه عام ، كان ملك صيدا ، القائد الاكبر للاسطول الفارسي ، الذي كان بمعظمه فينيقياً والذي برهن في جميع المناسبات على انه الآلة الوفية للملك الاكبر .

كانت صيدا تمتد ، كرقعة ، من نهر الدامور (جنوبي بيروت) الى نهر القاسمية (الليطاني) . وكان لملك الفرس فيها مقر ملكي ، ينزل فيه كلما أتى الى الشاطىء. وقد هدم الصيدونيون الثائرون هذا المقر سنة ٣٦١ ق . م .

صور :

كانت اراضيها تمتد من نهر الليطاني حتى عكا . وقد حافظت هذه المدينة الجزيرة على ملكها واستقلالها ، ولم يحتلها الفرس . أما صور البرية ، «باليوتيروس»

(١ Dunand, **Byblos**, p. 32 et 34

التي حولها الفرس الى مستودع سلاح ومركز للهجوم على مصر ، فقد عين عليها حاكم فارسي .

جبيل :

مدينة ملكية لسك العملة . كانت اراضيها ، الممتدة من رأس شكا (شمـــالي البترون) الى نهر الدامور ، تشمل مدينة بيروت .

ارواد :

كانت تمتد دائرتها الساحلية من النهر الكبير حتى ضواحي اللاذقية . وكانت تشرف ، بواسطة قلعة « سيغون » (صهيون) ، على جبل النصيرية او العلويين .

طرابلس :

كانت طرابلس في الاصل مركزاً تجارياً ، وأصبحت فيما بعد مركزاً للاتحاد الفينيقي . كانت تقيم فيها المدن الفينيقية مجمعاً سنوياً للتباحث بشؤونها المشتركة وعلاقاتها بالملك الكبير . وكانت فيها ثلاثة احياء متميزة ، محاط كل منهـــا بسور ومملوك من إحدى دول المدن الثلاث : ارواد وصيدا وصور . ومن هنا اسمها الاغريقي تريبوليس (ثلاث مدن) . كانت تقوم طرابلس في مكان مدينة الميناء الحالية ، او طرابلس المرفأ . واسمها الفينيقي هو ، على وجه التقدير ، وهليا . ويرقى تاريخ مدينة طرابلس الحالية الى عهد الصليبيين .

ميرياندوس :

مدينة ميرياندوس ، في كيليكيا ، على خليج الاسكندرونة ، كانت قد اصبحت مرفأ فينيقياً عاماً .

د ــ تحرر المستعمرات الفينيقية الغربية

لقد ادى الصراع مع الاشوريين والكلدانيين الى تخفيف النشاط السيـــاسي والعسكري للفينيقيين . ولما لم يبق بوسعهم تقديم المعونة الفعلية لمستعمراتهم في الغرب ، تنصلت صور وصيدا من واجبهما نحو قرطاجة .
وقد لعبت ابنة صور هذه ، التي اصبحت قوة جبارة منذ ذلك التاريخ ، الدور الأول في المتوسط الغربي على حساب فينيقيا الأم او فينيقيا اللبنانية ، على الصعيدين التجاري والسياسي .

وعلى الرغم من ان الاحتلال الفارسي تحقـق تحت شعار الصداقة والتحـــالف الفينيقي الفارسي ، فقد أدى الى تحرر قرطاجة تحرراً نهائياً ، فانفصلت سياسياً عن الوطن الأم (حوالي ٥٢٠ ق . م .) ، وبسطت نفوذها وزعامتها على مجموعة المستعمرات الفينيقية في الغرب .

وكان الصوريون ، في ذلك الوقت ، أصبحوا في وضع لا يسمح لهم بالتدخل في ذلك الجزء من العالم ، حيث أصبح اغريق صقلية هناك قوة بحرية عظيمة .

وبالنسبة لهؤلاء الاخيرين ، كانت المستعمرة الفينيقية القديمة (قرطاجة) قـد اصبحت تدريجياً قوة بحرية كبرى في وجههم . ومنذئذ حل فينيقيو أفريقيـــا الشمالية واغريقيو صقلية وايطاليا محل فينيقيي لبنان واغريقيي العالم الايجي. وقد وجدوا انفسهم وجهاً لوجه في الحوض الغربي للمتوسط ، كما كان أسلافهم ، في السابق ، في المتوسط الشرقي .

هـ ــ الفينيقيون والفرس

وبسبب عداوة الفينيقيين للمدن الاغريقية ، التي كانت تدفعهم لمعارضتهـــا خصومة قديمة واحقاد دفينة منذ ازمنة موغلة في القدم ، وجدت المدن الفينيقية اللبنانية في الامبراطورية الفارسية الشاسعة ، الممتدة من الهند الى العالم الايجي والى وادي النيل ، حقلاً رحباً لنشاطها التجاري ، كما وجدت في ملك الفرس الاكبر

حليفاً مهماً . وبما ان مصلحتها كانت تقضي باضعاف المدن الهيلينية ، كما كانت تلك مصلحة الفرس ، فلم تحاول المدن الفينيقية زعزعة الحكم الفارسي ، بل برهنت عن انها حليفة وفية ونافعة له . فقد سهل الاسطول الفينيقي لقمبيز احتلال مصر ، واسهم الفينيقيون في جميع الحملات الفارسية البحرية ضد الاغريق ، وبخاصة خلال الحروب المادية الشهيرة ، او الحروب الاغريقية – الفارسية (٤٩٢ – ٤٦٦ ق . م .) .

« استفادت الامبراطورية الفارسية ... من المؤهلات الفينيقية في الملاحة ... وطلب الملك الاكبر سفن المدن الرئيسية من ولاته ، واصبح ملك صيدا اميرالاً للبحرية الفارسية . اشترك الفينيقيون في جميع الحملات الفارسية ، لكنهم رفضوا مهاجمة قرطاجة التي اراد الملك قمبيز ان يستولي عليها ، فآثر الملك الفارسي التراجع عن خطته خوفاً من الفشل . وعلى اي حال ، لم يكن باستطاعة فينيقيا المفاوضة بالحرب او السلم مع اية أمة كانت ، لأن أخصامها وحلفاءها هم اخصام وحلفاء للفرس ، عدا عن انها كانت ملزمة بدفع الفريضة السنوية » .

« تدخلت البحرية الفينيقية ، سنة ٤٩٨ ق . م . ضد الاغريق الآسيويين المتمردين فكان تدخلها حاسماً ... وفي سنة ٤٩٤ ق . م . ، قضي على الايونيين في معركة بحرية امام ميليتا .
ولقد اشتركت ، دون شك ، فينيقيا بحملة ٤٩٠ ضد الاغريق . وعندما هيأ احشويرش حملته الكبرى ، سنة ٤٨٥ ، اشترك فيها الفينيقيون .وقد اشتركوا بشق قناة في البرزخ الذي يصل جبل أتوس بالبر ، لتمر فيها السفن . كما قاموا ببناء جسر مزدوج فوق السفن لتعبر الجيوش الفارسية فوقه الهلسبونت (مضيق الدردنيل) . وفي سلامين (٤٨٠ ق . م .) ، قام الاسطول الفينيقي بدور مجيد ، فقد اعطى إشارة الالتحام ، وحارب بشجاعة بعد خسارة المعركة. وبرهنت البحرية الفينيقية فيما بعد عن قوتها في المتوسط ، فنالت من الاغريق معاهدة سلام عرفت بسلام انتالسيداس ، وقضت هذه المعاهدة بحماية آسيا من اي هجوم اغريقي » [١]

(١) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 65 et 66

وفي سنة ٤٠٤ ق . م . ، خلعت مصر النير الفارسي ، مغتنمة فرصة تدهور الامبراطورية . فحكمت بلاد النيل ثلاث سلالات من الفراعنة المصريين ، خلال فترة قصيرة نسبياً (٤٠٤ – ٣٤٥ ق . م .) وكانت هذه الفترة آخر عهد استقلالي عرفته ارض وادي النيل .

وكان للاستقلال المصري انعكاسات سيئة على النشاط التجاري للمدن الفينيقية . فقد اثار تحالف الفراعنة مع الاغريق ، هذا التحالف الذي عزل الموانيء الفينيقية عن الاقتصاد البحري ، ازمة اقتصادية خطيرة في فينيقيا . ولاجل ذلك ، تقرب ستراتون ، ملك صيدا ، من مصر والاغريق (٣٦٠ ق . م .) ، وخلفه تبنيت أو تينيس ، الذي هزم واليين من المرازبة الفرس ، كانا ارسلا لاخضاعه (سنة ٣٥٣ ق . م .) . ولكن سنة ٣٤٨ ق . م . ، هاجمه الملك ارتحشستا الثالث ، فأعدمه من بعد استسلامه له ، ودمر صيدا . ثم أعاد بناء المدينة من انقاضها أشمون عازار ابن تبنيت وخليفته . وقد حكم فيها كتابع للفرس .

وبعد ان سوى أرتحشستا الثالث حسابه مع صيدا ، زحف على مصر فاحتل ، من جديد سنة ٣٤٥ ، وادي النيل ، وحول مصر مجدداً الى ولاية يحكمها مرزبان . وقد تركت اعمال القمع الوحشية لثورة صيدا والخراب والمذابح التي رافقت الاحتلال الجديد لمصر حقداً في نفوس الفينيقيين والمصريين على أرتحشستا ولذلك ، عندما وصل الاسكندر المكدوني ، قاهر الفرس سنة ٣٣٢ ق . م . ، الى فينيقيا ثم الى مصر ، استقبله هؤلاء كمحرر لهم .

الفصل الثامن

الحضارة الفينيقية في الألف الأول

(١٢٠٠ — ٣٣٢ ق.م.)

بعد سنة ١٢٠٠ ، عرفت الحضارة الفينيقية ، التي برزت بجلاء في الألف الثاني ، وجهاً جديداً من الانفتاح دام عدة قرون ، بفضل حقبة طويلة من السلام والاستقلال . وكانت العناصر الأساسية لهذه الحضارة الجديدة (حياة دينية وثقافية وفنية ، ومعطيات اجتماعية — اقتصادية وسياسية الخ .) ، تشبه الى حد بعيد العناصر والمظاهر ذاتها التي شهدناها خلال القرون السالفة . وقد « بلغت (هذه الحضارة) ذروتها حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . ، وبدأ انحطاطها زمن احتلال الاسكندر الكبير ، أي سبعمئة سنة تقريباً فيما بعد » (S. Moscati) .

١ — المعتقدات الدينية :

كان الدين الفينيقي ، في الألف الأول قبل المسيح ، لا يزال ، كما كان في الألفين الثالث والثاني ، يحتفظ بالخطوط الكبرى التي كانت تسمه منذ نشأته . فهو لم يطرأ عليه تغييرات ، عميقة الى حد ما ، الا خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل المسيح، وذلك بفعل النفوذ الهلّيني الذي ساد جميع بلدان الشرق الأدنى .

وكما كانت الحال في السابق ، بقيت أسس التراث الأسطوري والديني راسخة

في عبادة العناصر والظواهر الطبيعية . وقد بقي مجلس الآلهة منظّماً ، وبقيت للآلهة رتب وخصائص كثيرة ومعقدة . وحيث كانت الديانة الفينيقية فرعاً من الدين الآسيوي البدائي ، الذي يعظم قوى الخصب والانسال ، بقيت تحتفظ بنقاء بآثار عديدة من هذا الأصل . فالاله الأعظم « ايل » ، كانت أنثاه « أشيرة البحر » ، وهي تدعى ايضاً «إيلات» (الهة) . والبعل ، الاله الكبير بين الآلهة بعد إيل ، كانت رفيقته أشيرة ، ثم يأتي بعد ذلك مباشرة « عليان » ، ابن بعل ، واخته هي « عناة » ، البتول المحاربة . وكان الاله « موت » أخا لعليان وخصماً له ، الخ .

٢ — الفن :

رأينا انه في الألفين الثالث والثاني ، كان الفن الفينيقي في جوهره عالمي الوجه ، وقد استعار عناصره من الحضارات المجاورة . ولكن في الألف الأول « لم يعد يكتفي الفن الفينيقي بالتقليد ، بل أخذ ينتظم ويستوعب استعاراته هذه حتى يؤلف منها مجموعة متجانسة» (Contenau) .انه بدأ يكشف بقوة أكثر عن طبعه الأصيل .

ولم تكن فينيقيا ، كما كانت مصر وبلاد الرافدين ، قوة سياسية كبيرة . فبالنسبة للمدن الفينيقية ، التي هي في جوهرها بحرية وتجارية ، كان نفوذها السياسي ناتجاً عن نشاطها الاقتصادي والتجاري وعن قوتها المالية . وبما ان الفينيقيين لم يكونوا يضعون أمام أعينهم سوى مصلحتهم التجارية وتوسعهم فوق البحار ، فقد تفاهموا ، في جميع عصورهم التاريخية مع جميع الفاتحين القاربين وحافظوا تحت حكم هؤلاء ، على شبه استقلال ذاتي مفيد . وقد قادهم دورهم كوسطاء في بيع المحاصيل الى ان لا يهتموا في معاملاتهم الا بحاجات تجارتهم ، ولذلك كانوا يقلدون الأشياء الأكثر رواجاً . ان المهارة التي كان يعتمدها الفنان الفينيقي في تنسيق الأذواق الغريبة تثبت انه لم يكن مجرداً من مقدرة حقيقية .

لقد كان بعض المنتوجات الفينيقية ، في الألف الأول ، يعتبر من أجمل التحف الفنية . وقد اوردت الالياذة أوصاف كأس فضية يملكها أخيل ، فذكرت أنها كأس من الفضة « تفوق روعتها كثيراً جميع آنية الأرض ، ما دام الصيدونيون الماهرون قد زيّنوها على وجه رائع » .

فن البناء :

وكما في القرون السابقة ، كان فن البناء يعتمد دائماً على الحجر . وكان يستخدم ، في أغلب الأحيان ، النقوش التزيينية لمغزى ديني .

« كان يقتصر فن البناء الديني في الأساس على الهياكل ... فيقوم الفينيقيون بنحت الصخور عندما يجدون سبيلا الى ذلك ، ثم يكملون عملهم هذا بتكديس مجموعات من الصخور ذات أحجام ضخمة. كانت هذه المجموعات متقنة النحت عادة ، تصفّ الواحدة الى جانب الأخرى دون طين وبشكل دقيق ، حتى انه كان من المستحيل إدخال شفرة السكين بين الحجر والآخر...»

« اما ما تبقى لنا من البناء الذاتي فلا شيء تقريباً ... واذا اخذنا بعين الاعتبار عدد الفاتحين الذين دمروا المدن ليقيموا ابنيتهم الضخمة على انقاضها ، نجد أن أملنا ضعيف بأن نعثر في فينيقيا على آثار مهمة لأبنية مدنية من عصور قديمة . فهي جميعاً في حالة انقاض . بل اكثر من ذلك ، انها مدفونة تحت المنازل الحديثة ... ومن جهة ثانية ، بقي بعض الآثار من المنشآت ذات المنفعة العامة ، كالسدود وحواجز الأمواج ، التي تثبت ما عرفناه عنهم خلال فحص الهياكل : فالفينيقيون حين استعمالهم للحجارة الضخمة ، كانوا يجعلونها تستند على الصخر الطبيعي ».

النحت :

«نملك من الألف الأول تماثيل للآلهة من الحجر والخزف، وهي إما محفورة أو بشكل تماثيل . وتعكس هذه الرسوم نوعين من التأثير : المصري ...والإغريقي.

فتمثال عمريت (في شمال فينيقيا) يمثل بدقة ما كان عليه الفن الفينيقي قبل النفوذ الإغريقي . إنه مزيج من التصاميم السورية – الحثية والآشورية – البابلية والمصرية ، التي استطاعت العبقرية الفينيقية البارعة ان تستوعبها وتصوغ منها مجموعاً منسجماً وذاتياً ... »

المرافىء :

« لم يتقن الفينيقيون الا تدريجياً حماية موانئهم بالأرصفة . ولكن العمل الذي قام به الصوريون والصيدونيون والاروادييون ، عندما جمعوا ما بين الصخور البحرية في القعر والصخور المنقولة من الشاطىء بحيث جعلوا منها جدراناً هائلة بضخامتها لحماية موانئهم ، هو بحد ذاته جدير بالإعجاب » [1] .

اسطول سليمان وهيكله :

أوكل الملك سليمان (٩٥٥ – ٩٣٣) الى فينيقيي صور ، كما رأينا ، امر بناء اسطوله على البحر الاحمر وجهزه ببحارة فينيقيين . وكذلك اوكل الى المهندسين والعمال الفينيقيين أمر بناء قصره الملكي ، وهيكل اورشليم الشهير .

الابحار حول افريقيا :

حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، اوكل الفرعون نخاو الثاني الى الاسطول المصري على البحر الاحمر ، الذي بناه وجهزه البحارة الفينيقيون ، أمر استكشاف شواطىء أفريقيا الجنوبية . وبعد ان دار الفينيقيون حول الرجاء الصالح ، قبل فاسكو دي غاما بعشرين قرناً ، عاد هؤلاء ، بعد سنتين من الملاحة ، الى مصر ، عبر مضيق جبل طارق .

---

١) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 140, 146, 152-155, 228

الارجوان :

اخترع الفينيقيون الارجوان الذي كانوا يصنعونه في صيدا وصور .. وقد تفردوا باحتكاره . « واشتهروا بنوع خاص بالفنون الخفيفة ، وبالاخص في صناعة الزجاج » .

٣ – دور فينيقيا الثقافي في الألف الأول

أ – فينيقيا وبلاد الاغريق

إن غزو شعوب البحر والشمال (حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م .) ، الذي دمر الدول والمؤسسات القائمة في بلاد الاغريق وفي آسيا الصغرى وفي فينيقيا ، وضع حداً للحضارات الموجودة في هذه البقاع . فالدوريون ، المهاجرون الشماليون المتخلّفون الذين خلفوا الآخيين في بلاد الاغريق بعد ان دمروا امبراطوريتهم وحضارتهم ، جعلوا من العالم الاغريقي الايجي والاناضولي منطقة متوحشة .

وبينما كان الاغريق يتطورون ، بعد نكبة ١٢٠٠ ق. م . وخلال عدة قرون ، بشكل جماعات بدائية ، كانت فينيقيا ، منذ سنة ١١٠٠ ، في اوج نهضتها . فاسطولها القوي كان موجوداً في جميع المرافىء ، والتجار الفينيقيون كانوا يمخرون البحار ، ومستعمراتهم منشورة في كل مكان . ومنذ هذا العصر ، أخذ نفوذ فينيقيا الاقتصادي والثقافي يطل على شعوب المتوسط الغربي التي كانت بدأت تظهر في التاريخ ، وعلى بلاد الاغريق ، التي كانت عادت الى الحياة البدائية . ومنذ ذلك الزمن اطلق الاغريق على كنعانيي لبنان اسم « فينيقيين » .

وكما ان الفينيقيين ، في الألف الثالث ، نقلوا الى العالم الكريتي – الايجي ، الحديث العهد آنذاك ، الحضارة الشرقية الناضجة منذ عدة قرون ، كذلك ، بعد كارثة سنة ١٢٠٠ ق . م . ، ان العالم الاغريقي – الايجي – الذي وقع من جديد في الحياة البدائية ، تعرّف الى الحضارة بفضل مساعدة الفينيقيين ، الذين نقلوا

اليه من جديد العناصر الاساسية للحضارة الشرقية .

ذلك ان « التجربة الرهيبة لغزوة شعوب البحر أخرت الحضارة الفينيقية ،ولكنها لم تقض عليها . ويبدو انه بعد مرور الغزاة استعادت الحضارة سيرها منطلقة من الموانىء والشواطىء (اللبنانية) . وهذه المبادرة المشرقة ، التي ليس بحوزتنا منها سوى اشارات ، انتهت مع الحكم الاشوري » [1] . و « في القصائد الهوميرية ، المنظومة حوالي سنة ٨٠٠ ، نجد النفوذ الفينيقي حقيقة لا يمكن نكرانها . فعندما نظمت الالياذة والاوذيسة ، كانت فينيقيا في اوج ازدهارها ، وكانت تشع تجارتها بعيداً فوق البحار ... كان العالم الاغريقي بأجمعه مديناً ، بادىء الامر ، للفينيقيين ، وقد برهن م . ف . بيرار ، في مجموعة مؤلفاته القيمة ، كيف أن العالم الاغريقي كان مديناً لهم » [2] .

وقد اقر الاغريق القدامى انفسهم بأن الفينيقيين هم رواد نهضة البلاد الهلينية الحضارية . واذا عدنا الى قصصهم الاكثر شهرة وأمانة ، نجد قدموس ابن أغينور ، ملك صور الفينيقي، الذي ذهب للتفتيش عن اخته«اوربة»التي خطفها الاله« زفس »، قد أسس مدينة « طيبة »، في بلاد الاغريق، ونشر الابجدية، وعلّم الاغريق فن حراثة الارض وإستغلال المناجم وصهر المعادن . « وكان قدموس يجسد في اواسط بلاد الاغريق ، وبخاصة في طيبة ، التأثير الشرقي على الثقافة البدائية الهلينية » .

« لم يكن شعب قبل الرومان أسهم اكثر منهم (الفينيقيين) بنشر الثقافة المتوسطية في الغرب الاوروبي ... فقد مهدت فينيقيا الى حد بعيد للفلسفة الهلينية » . (Contenau) فهناك فلاسفة كبار من القدامى الذين يعتبرون عادة من الاغريق هم ، حسب قول الاغريق انفسهم ، من أصل فينيقي . وبين الاكثر شهرة نذكر الاسماء التالية : الفيلسوف وعالم الرياضيات طاليس الميليتي (بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد) ، صاحب النظرية الهندسية التي تحمل اسمه ، ثم

١) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 267

٢) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 7

الفيلسوف والعالم الرياضي فيثاغورس (القرن السادس) ، الذي تنسب اليه أبوة حساب وتر الزاوية القائمة وجدول الضرب ، ثم الفيلسوف زينون ، من مدينة كتيم الفينيقية في قبرص (عاش بين القرن الرابع والثالث قبل الميلاد) ، مؤسس المدرسة الرواقية ، « فينيقي لا يتكلم جيداً اليونانية » وغيرهم .

ثم هناك فيلسوف فينيقي هو موخوس الصيدوني ، الذي عاش في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، او قبل هذا التاريخ ، وقد افترض مذهباً فلسفياً قد هز عالم عصرنا الحديث. انه المذهب الذري، قاعدة النظرية الذرية المعاصرة . وقد ادعى علماء معاصرون بأن الفيلسوف الاغريقي ديمقريطس (حوالي سنة ٤٠٠ قبل المسيح) هو الذي اوجد هذا المذهب . لكن الأغريق أنفسهم ، كالكاتب وعالم الجغرافيا سترابون وغيره من المؤلفين الاغريق ، نسبوا هذه النظرية لموخوس الصيدوني . وعدا ذلك ، فاننا نعلم ان مؤلفات موخوس ، الاقدم بكثير من ديمقريطس، « قد ترجمت الى اليونانية» (Ph. Berger) ، وان هذا الاخير قد سافر مرات عدة الى الشرق . « ومن الممكن ان يكون ديمقريطس قد اطلع خلال هذه الاسفار على التراث الاصيل للنظرية السابقة لنظريته » [1] .

لما استعاد الاغريق مكانة خلفائهم الآخيين فوق البحر ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، التقوا في طريقهم هؤلاء البحارة الشرقيين الذين سموهم « فينيقيين ». وقد تولد حقد دفين من هذه المزاحمة البحرية ، اي المجابهة بين الفينيقيين والاغريق ، تماماً كما كان تولد من المجابهة سابقاً بين الفينيقيين والكريتيين وبعدئذ بين الفينيقيين والآخيين . ولم يكن اشتراك فينيقيا الى جانب الفرس في الحروب المادية الشهيرة (٤٩٢ — ٤٦٦) سوى مرحلة دموية من المزاحمة التجارية بين هذين الشعبين البحريين المتاجرين. وقد ذكرنا ان تدمير الاسكندر الكبير لصور (سنة ٣٣٢ قبل المسيح) كان الخاتمة العظمى لهذه المنافسة .

١) Masson-Oursel, **op. cit.**, p. 29

ب – فينيقيا والعالم القديم

بعد ان وسع الفينيقيون دائرة نشاطهم البحري والتجاري اوسع بكثير مما كانت في الألفين الثالث والثاني ، نشروا بسرعة ، في الألف الأول قبل الميلاد ، في بلاد الاغريق وفي افريقيا وايطاليا واسبانيا ، فنون الشرق الادنى وعلومه .
« لقد جمعوا الشرق والغرب بشبكة من العلاقات التجارية والثقافية ، وهكذا كانوا اول من انتشل اوروبا من الحياة البدائية ... ولم تكن الروائع الادبية لتعطي الشعوب المتوسطية بعض الوحدة ، وانما هي الحاجات التجارية . ولا شيء يبرهن على هذا بطريقة افضل من وجود علاقة سببية فعالة بين التجارة والحضارة » (١) .

« مهما كان اصل الثقافة الفينيقية ، فتأثيرها على تطور الانسانية كان كبيراً . فالفينيقيون ، بفضل ميلهم للتجارة والملاحة ، كانوا همزة الوصل بين الشرق والغرب ، في الألف الأول . وكانوا مروجي الرفاهية والعيش الرغد ، وكل ما يحبب الحياة . وهم ، سواء اخترعوا ام لم يخترعوا الابجدية ، قد قاموا ، بدون شك ، بنشرها في جميع بلاد العالم القديم ، وهكذا فتحوا للفكر آفاقاً لا تحد وقدموا للحضارة خدمات لا تقدر بثمن . لكن القسط الضخم الذي قدموه ، بدون ثمن ، والذي البس هذه الحضارة الغربية ثوباً منهم ، كان في نشرهم لغتهم (في افريقيا) ... وعلى اي حال ، فاننا نشهد اليوم ظاهرة مشابهة تقريباً . فاللغة العربية تنتشر بسرعة في افريقيا ، بين القبائل السود ، التي ليس لها لغة كاملة » (٢) .

ج – خاتمة

« لقد حدد الاستاذ ساباتينو موسكاتي ... العصر الذهبي الفينيقي الخالص بين

(١ Durant, **Histoire de la civilisation,** I, p. 362, 364

(٢ Contenau, **La civilisation phénicienne,** p. 295, 296

القرن العاشر والقرن الثالث قبل المسيح . ولكن ، حتى ما بعد القرن الثالث ، ان الفكر الفينيقي ، المبني على الواقعية والعلاقات الانسانية الطيبة والتوسع السلمي ، بقي حياً حتى ايامنا هذه ...

« ويبدو في آخر المطاف ان الفينيقيين حملوا الى العالم رسالتين رئيسيتين : فهم اخترعوا هذا النوع من التفكير الذي نسميه ، حسب الاوساط والعصور : واقعية ، وضعية ، الحس التجريبي ، المذهب « البرغماتي » (النفعي) . وهذه الصفات ، مع رمزها ، الكتابة المبسطة، خلقت... ذاك الذي نعتقد خطأ انه « الفكر الغربي » . ولكن الى جانب هذه الواقعية ، وبطريقة فضولية ، ترك الفينيقيون للعالم رسالة اخرى ، هي تلك التي تعطي الاولوية للروحانيات ،ولكن بشكل مبسط ايضاً . وهذه الروحانية كانت ترتكز على الشمس ، الاله القوي المشع البعيد المنال ، والموجود في كل مكان ... انها الروح الواقعية التطبيقية في الروحانية الفينيقية السامية ، وهي التي تفسر حبهم العميق للسلام ، الذي كان يستحوذ على مشاعرهم » (١) .

(١ J. Mazel, **Avec les phéniciens,** p. 304, 305

الفصل التاسع

فينيقيا والدول الهلنستية او الاغريقية – الشرقية

(٣٣٢ – ٦٤ ق.م.)

١ – الاغريق والشرق الهلنستي

ان كلمة هلنستية تعني مجموعة الحضارة الاغريقية ، وتنطبق ايضاً ، وبنوع أخص ، على انتشار العنصر الهليني والافكار الهلينية خارج بلاد الاغريق ، اي تلك الحضارة المختلطة ، الاغريقية الاصل ، التي امتدت ، ابتداء من القرن التاسع قبل المسيح ، الى جميع الحوض الشرقي للبحر المتوسط . أما العصر المدعو « هلنستي » ، فهو تلك الحقبة من الزمن التي تمتد من فتح الاسكندر حتى الفتح الروماني . وخلال هذه الفترة ، التي دامت اكثر من قرنين ونصف القرن (٦٤ ق . م.) ، نجد الدول الهلنستية التي تنظمت في الشرق الادنى تغير ، في هذا الجزء من العالم ، حتى مفهوم الحياة .

لقد لعب الاسكندر في هذا التطور دوراً حاسماً ، اذ انه بذل كل ما في وسعه لكي يدمج الشرق بالغرب : الاغريق مع المصريين والفينيقيين والسوريين والبابليين والفرس والباكتريين وغيرهم . وكان دور الدول الاغريقية – المصرية ، والاغريقية – السورية عظيماً في العالم الشرقي . لقد نضجت هنا حضارة الاسكندر المتألقة ، كما تألقت بعدها الديانة المسيحية والعلوم الحديثة . فسهول سوريا وبلاد الرافدين غصّت بالمدن التي اقرت الشعوب غير المستقرة

والمشتتة . ونمت ثروة عظيمة في المناطق التي تحولت على هذا المنوال .

ان تاريخ بلاد الاغريق القديم هو فصل من التاريخ العام لشعوب المتوسط الشرقي . فمنذ البدء حتى الحروب المادية (٤٦٦ قبل المسيح) ، كانت الحضارة الاغريقية تستقي من أعماق حضارات الشرق الادنى . وكما رأينا ، فان البحارة الفينيقيين هم الذين اوصلوا الى الكريتيين ، والى الآخيين ، والى الدوريين ، ثم الى الهلينيين ابداعات الشرق السامي — الفرعوني .

ويرجع لبلاد الاغريق القديمة الفضل في تنشيط الحياة الفكرية ، كالعلم وفلسفة العالم الغربي القديم واوروبا الحديثة . وقد دشنت مدن هيلاس الحرة ، مقابل الانظمة الاستبدادية في الشرق القديم ، مبادىء الدولة الحديثة وسيادة العقل بدل الخرافات الدينية القديمة

ويعتبر التاريخ الكلاسيكي أن فتح الاسكندر للشرق الادنى كان نقطة انطلاق للهلينية في هذه المنطقة القديمة . وقد اظهرت لنا الاكتشافات الحديثة ان التفاعل المتبادل بين الهلينية وثقافات الشرق بدأ قبل الاسكندر بكثير . فمنذ اوائل الألف الثاني ، كان الاتصال بين الاغريق والشرقيين مؤمناً ، وبشكل متواصل تقريباً ، بواسطة البحارة الفينيقيين والايجيين . فالثقافة — الايجية ، حتى اوائل القرن الخامس ، كانت تقتبس الكثير من الحضارة الشرقية القديمة . وعند مجيء الاسكندر ، كانت آسيا الصغرى والشواطىء الفينيقية ومصر قد ألفت الهلينية . كما ان بلاد فارس كانت تعج بالعناصر الاغريقية . وكان في مصر عدد من المستعمرات الاغريقية الثرية المهمة . كما كان المرتزقة ، مع المهاجرين والفنيين الاغريق ، في خدمة الفرعون والملك الفارسي الاكبر ، فكانوا يشكلون قوة جيشي هذين العاهلين الشرقيين .

كان للتجار وللمرتزقة وللاجئين السياسيين وللدبلوماسيين وللاطباء والفنانين الاغريقيين دور كبير في تطوير الامبراطورية الفارسية .

وفي مصر ، وقبل ذلك باكثر من خمسمئة سنة، كانت البلاد مشرعة الأبواب للتجار الاغريق ، الذين اقاموا فيها مؤسسات تجارية . كما كانت السفن التجارية

الاغريقية تصعد الى الداخل في النيل وتعود الى البحر ، بينما كان الفراعنة يستخدمون اكثر فاكثر فرقاً اغريقية مرتزقة تقوم بالحراسة في المدن .

وخلال هذه الفترة ، كان الفلاسفة والادباء والعلماء الاغريقيون ، يفدون الى المدارس المصرية للتعلم (ليكورغ ، وصولون ، وأفلاطون وغيرهم) .

« وجاء التأثير الفينيقي على الاغريق مباشرة بعد التأثير المصري . فتجار صور وصيدا ، الشجعان والحاذقون ، قاموا بدور الا سيط لنشر الحضارة ، وقد نشروا العلم والتقنية والفن وعبادات مصر والشرق الادنى ، في جميع انحاء المتوسط »[1] . وتأثير فينيقيا ، الذي لا ينكر في تطوير الثقافة الاغريقية ، تشهد له بوضوح التقاليد والاساطير الهلينية ، وبخاصة المؤلفات الهوميرية .

فالعصر الهلنستي ، في التاريخ الاغريقي القديم ، قد يمتد من فتح الاسكندر الى الفتح الروماني (٦٤ ق . م .) لكن الهلينية في الشرق لم تنته بانتهاء الممالك الهلنستية ، بل بقيت تحت الحكم الروماني والبيزنطي ، والثقافة الرومانية كانت ثقافة اغريقية . وحتى الفتوحات العربية الاسلامية ٦٤٠ ب . م . ، اي بعد الف سنة تقريباً من الاسكندر ، كانت الحضارة الهلنستية لا تزال تسود ، بدون منازع ، مدن الشرق الادنى .

٢ — فينيقيا وفتح الاسكندر الكبير

أ — اهمية فينيقيا الستراتيجية بالنسبة للاسكندر

بعد ان ترك الاسكندر المقدوني بلاد الاغريق ، على رأس جيش صغير من ٣٧ الف رجل سنة ٣٣٣ ق . م . ، حط رحاله على شواطىء آسيا الصغرى ، حيث كان الاغريق هناك يعيشون تحت حكم داريوس الثالث ملك الفرس . وقد جعله انتصاره على ولاة الفرس في معركة «غرانيك» » (٣٣٣ ق . م .) سيد

١) W. Durant, Histoire de la Civilisation, IV, p. 96

جميع أرض آسيا الصغرى . وفي معركة ثانية في ايسوس ، في كيليكيا ، قضى الاسكندر على الجيش الفارسي الضخم ، الذي كان تحت قيادة داريوس شخصياً وهزم الملك الاكبر (٣٣٢ ق . م .) .

وقد مهد انتصار إيسوس ، امام هذا الفاتح ، طريق فارس ، حيث كان داريوس قد انسحب ليجمع قوات الامبراطورية . وكان من مصلحة الاسكندر الذي احتل آنذاك سوريا الشمالية ودمشق ، أن يلاحق المهزوم حتى يصل الى قلب الامبراطورية الفارسية وينتهي بذلك من السلالة الاخمينية قبل ان يتاح لها الوقت الكافي لتجميع قواتها التي لم تكن مستكملة . لكن حنكته القيادية جعلته يسلك طريق الجنوب حتى يستولي على فينيقيا . وبالفعل ، لم يكن باستطاعته ان يتقدم في آسيا تاركاً وراءه المدن الفينيقية ، وبخاصة صور ، القاعدة البحرية للاسطول الفينيقي واقوى قوة بحرية في المتوسط الشرقي . وللمنافسة التاريخية بين فينيقيا والاغريق ، الذين كانوا ينازعونها منذ ازمان قديمة جداً الزعامة التجارية والبحرية ، كان على فينيقيا ان تكون الحليفة الطبيعية للفرس ضد الاغريق . وفي هذه الحرب الجديدة التي قام بها الاغريق ضد آسيا الفارسية ، كما في الحروب المادية (٤٩٢ — ٤٦٦) ، احتلت العمارات البحرية الفينيقية المياه الاغريقية . واخيراً ، كان على ملك مكدونيا ان يحذر من تدخل قرطاجة ، اميركا العالم القديم ، لمناصرة فينيقيي لبنان . فقد كان القرطاجيون انفسهم في حرب مستمرة ضد الاغريق الغربيين . ولذلك كان احتلال صور في ذلك الوقت عملاً لا بد منه للاسكندر .

« انها ملاحظة ذات مغزى ان نرى طالب الثأر لمصائب الهلينيين التاريخية في العالم يوقف زحفه سنة في آسيا ، لهدف وحيد هو تدمير المدينة الفينيقية . فالفينيقيون ، كانوا بالنسبة للبحرية والتجارة الهلينية ، المنافسين الدائمين . فقد وجدهم الاغريق ، منذ اوائل تاريخهم ، في كل مكان على طريقهم ... ويرتقي كره الاسم الفوني والسيطرة البحرية الصورية للعهود الاولى للملاحة الاغريقية . ولاجل ذلك ، نجد تدمير الاسكندر لصور امراً مطابقاً للبرنامج التقليدي وللمصالح الحيوية الهلينية . كان هذا التدمير الشرط اللازم للتوسع الاغريقي الخارجي

ولتأسيس الاسكندرية . فبعد ان سقطت صور ، اصبحت امبراطورية المتوسط الشرقية ملكاً للهلينيين »[1] .

اما الفرس ، فبعد ان هزموا في معركة الغرانيك ، اصبحوا امام احتمالين : « إما الدفاع براً عن امبراطوريتهم الواسعة ، او استنفار اسطولهم ونقل الحرب الى بلاد الغازي . وعلى الرغم من الحاح القيادة البحرية الفارسية ، فقد رجحت الفكرة الاولى . لكن الكتائب المكدونية كانت هي الاقوى . وبعد ان انهزم ملك الفرس ، داريوس كودومان ، في معركة ايسوس (٣٣٢ ق . م .) ، فر باتجاه عاصمته . اما الاسكندر ، فبدلاً من ان يستغل هذا الانتصار ويلاحق الفار ، قرر ان يحتل اولاً الشواطىء السورية ومصر ... وقد حقق بسهولة هذا المخطط ، اذ ان معظم الامراء الصيدونيين كانوا غائبين ، يقودون اسطول مدينتهم الخاص ، بعيدين عن فينيقيا . اما الحكام ومجالس الاعيان في المدن الفينيقية ، فبعد ان تحققوا من اهمية الكارثة الفارسية ، قرروا استباق الامور بأنفسهم ، ففتحوا ابوابهم للظافر ... عندما وصل الاسكندر امام صور ، بعث اليه السكان تاجاً من ذهب وهدايا ، واعترفوا به سيداً عليهم ، لكنهم لم يفتحو له الأبواب . فأصر الاسكندر على الدخول الى المدينة . وعندئذ رفض الصوريون وكان هذا الرفض بداية للاعمال الحربية »[2]

ب — احتلال صور ودمارها . اخضاع سوريا وفينيقيا وفلسطين ومصر (٣٣٢ ق . م .)

ترك الاسكندر الشرق موقتاً ، واتجه نحو فينيقيا ، بعد ان اصبح سيداً لسوريا . وقد فتحت له ارواد وجبيل وصيدا ابوابها ، وناصرته . لكن صور ، التي عرضت خضوعها ، رفضت طلب المقدوني زيارة المدينة شخصياً كي يقدم فيها اضحية في معبد ملكارت . والاسكندر ، الذي كان يعرف بأن صور لا

١) R. Grousset, L'Empire du Levant, p. 23

٢) Contenau, La civilisation phénicienne, p. 66, 67

يمكن اخذها من البحر ، بسبب المضيق الذي يفصلها عن البر والاسطول الذي يحميها ، قرر بناء رصيف بردم المضيق المذكور . وقد قام الاسكندر ذاته بدور فعال اثناء عملية الردم ، تحت عاصفة من السهام والقذائف التي كان يرشقهم بها الصوريون من الاسوار والسفن . وانتهى هذا العمل الشاق ، بعد سبعة اشهر ، بفتح ثغرة في الاسوار . فانقض عليها الاسكندر بنفسه ، ثم سقطت المدينة ، ودمرت بعد قتال عنيف دام (٣٣٢ ق . م .) ، وعومل السكان بضراوة . وكـان الاسطول التجاري والاسطول الحربي لا يزالان بعيدين في البحر .

وبعد ان هدم الاسكندر الاسوار وشتت من تبقى من السكان ، اراد ان يتجنب احتمال انبعاث صور من انقاضها من جديد . وكان ، كهليني مخلص ، يرغب في وضع حد للمزاحمة التجارية التاريخية التي قد تعود فتشكل خطراً على البحرية الهلينية . ومن اجل ذلك ، جعل من صور حصناً وقاعدة بحرية للاغريق المقدونيين ، ومن جهة ثانية ، كانت اسكندرونة ، في الشمال ، والاسكندرية ، في مصر ، تستطيعان الحلول محل صور كمستودعين للتجارة البحرية .

ورغم هذه الاجراءات ، وعلى عكس العديد من العواصم الشرقية التي دمرت خلال الاجيال واختفت الى الابد (اور ، اوروك ، كيش ، اغاده ، ماري ، اوغاريت ، نينوى ، بابل ، طيبة ، ممفيس ، طروادة ، سوس ، خاتي ، البتراء ، تدمر الخ .) ، عادت صور وانبعثت بسرعة من أنقاضها بفضل عناد سكانها وصناعاتها التي كانت مشهورة منذ زمن طويل ، كالارجوان والزجاج . لكن اسطولها وقوتها البحرية والمالية والسياسية لم يبق منها الا الذكرى. وبعد صور ، حاصر الاسكندر غزة ، الحصن الفارسي المنيع الذي كان يُشرف على ولاية مصر ويراقبها ، وسقطت هذه المدينة بعد شهرين من الحصار . فانتقل الملك بعدئذ الى اورشليم ، حيث استقبله الكاهن الاكبر ، محاطاً بجمهور غفير من المواطنين . وقد سمح لليهود بأن يعيشوا في ظل قوانينهم الخاصة (٣٣٢ ق . م .) .

وعدلت السلطات الفارسية في مصر عن اية مقاومة ، متأثرة بالاخبار الواردة

عن صور وغزة . اما المصريون انفسهم ، الذين شعروا بانهم تخلصوا من الفرس المكروهين ، فاستقبلوا الاسكندر بحماسة (٣٣٢ ق . م .) .

ج — النتائج التاريخية لدمار صور كدولة مستقلة وكقوة بحرية ومالية

منذ البدء وحتى فتح الاسكندر ، يعني خلال ثلاثة آلاف سنة تقريباً ، كانت تتألف فينيقيا من عدة مدن او دويلات متحدة ، وكان نشاطها السياسي والبحري والتجاري يراوح حسب الظروف والاوقات ، فيكون تارة حراً تاماً وطوراً مقيداً نوعاً ما بتبعية او بسلطة اجنبية .

وابتداء من فتوحات الاسكندر ، وفيما عدا بعض الفترات العابرة والموقتة ، راحت تعيش فينيقيا ، بل جميع بلاد الشرق المتوسطي ، خاضعة لمختلف الفاتحين الاجانب الذين توالوا على حكم هذه المنطقة من العالم . وقد زالت نهائياً تقريباً بعد دمار صور ، التمردات والثورات التي كانت تقوم بها غالباً في الماضي بلدان هذا الشرق ، ضد الحكم الاجنبي . فسوريا وفلسطين ومصر ، التي كانت سريعة التمرد على النير الاجنبي في عهد استقلال صور ، أصبحت منذئذ طيّعة ومستسلمة . وقد خلفت صور في سيادة البحار مدينتا انطاكيا والاسكندرية الاغريقيتان ، ثم روما ، فالقسطنطينية ، فبيزنطيا ، فالمدن البحرية في ايطاليا واوروبا الغربية .

هذه الحقائق ، البليغة بحد ذاتها ، تشهد بوضوح بأن لبنان ، الذي يؤلف جزءاً لا يتجزأ من الشرق المتوسطي ، على الصعيد الجغرافي والاقتصادي والتاريخي ، هو ايضاً ، على الصعيد الستراتيجي والبحري والسياسي ، جزء رئيسي هام .

٣ — سوريا الشمالية مركز الامبراطورية الاغريقية — السلوقية

بعد ان خضعت سوريا — العليا (سوريا الشمالية ودمشق) للاغريق المقدونيين بفعل فتوحات الاسكندر ، اصبحت ، بعد موته وتقسيم امبراطوريته (٣٠١

ق . م) ، بيد القائد سلوقوس ، مؤسس الامبراطورية والسلالة السلوقية ، التي اتخذت من انطاكيا ، على العاصي ، عاصمة لها .

وامتدت الامبراطورية السلوقية ، التي كانت تكمن قوتها في سوريا العليا وبلاد الرافدين (انطاكيا على العاصي ، وسلوقيا على الفرات) ، الى آسيا الصغرى وايران ، وامتازت بتنوع شعوبها وحضاراتها . لكن المركز السياسي لهذه الامبراطورية ، ذات الحدود المتموجة ، كان سوريا الشمالية ، من المتوسط حتى الفرات . ومن هنا جاءها اسم « مملكة سوريا » ، الذي يطلقه عليها ، في بعض الاحيان ، الكتاب المعاصرون . واقتصر حكم السلوقيين في آخر المطاف على هذه المنطقة .

لقد اسهم عنصران في تمتين وحدة هذه الامبراطورية وهما : الاسرة المالكة ، والثقافة الهلنستية . وكان الجيش هو الاداة الرئيسية للسلطة . « وكانت تكمن فاعليته في الكتائب المقدونية ، المؤلفة من الفرق الاغريقية او الاجنبية ... وكان الاسطول الحربي يجمع ، عند الحاجة ، من المدن الحليفة ، الفينيقية اوالاغريقية. والثروة الاسطورية للملوك السلوقيين ، الذين استفادوا من تجارة القوافل بين المتوسط والشرق الاقصى ، كانت تهيء لبلاطهم ترفاً ،وتأثرت به روما بعد ذلك » .

أ – انطاكيا عاصمة امبراطورية

كانت انطاكيا ، التي اسسها سلوقوس الاول سنة ٣٠٦ قبل الميلاد ، عاصمة للامبراطورية ومقراً للملوك السلوقيين . وعدا عن انها كانت مجهزة بمرفأين على المتوسط ، هما سلوقيا واللاذقية ، كانت ملتقى الطرق البرية والبحرية التي بفضلها عرفت ، وطوال عدة قرون ، ازدهاراً اقتصادياً كبيراً .

« اصبحت انطاكيا ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، احدى عواصم الهلينية . فقد تقاسمت مع الاسكندرية وبرجام شرف الحلول محل اثينا على رأس العالم

الاغريقي ... ومن سار نحو عالية نهر العاصي ، بعد انطاكيا ، وجد افاميا ولاريسا ... وهذه المنشآت الهلنستية زرعت في البلاد الآرامية اشكال المدنية الاغريقية ، من فن وديانة ومؤسسات بلدية ومنشآت عامة وألعاب وأعياد ... لكن البيئة كانت هي الاقوى . ولم يستطع المستعمرون ... الحفاظ على طباعهم العرقية ضد عوامل العرق والمناخ ... فالرومان ، الذين حاربوا انطيوخس الثالث (١٩٠ ق . م .) ، كانوا ينظرون الى هؤلاء الرعايا الاغريق كسوريين ، وبالتعبير الحاضر : مشرقيين »[1] .

ب – حلب ودمشق مدينتان اقليميتان

تحت الحكم السلوقي ، انحطت الحاضرتان الساميتان القديمتان في سوريا ، حلب ، عاصمة سوريا الشمالية ، ودمشق ، عاصمة سوريا الداخلية ، الى مرتبة المدن الاقليمية .

حلب :

في اثناء الحكم الفارسي (٥٣٩ – ٣٣٢) ، بدا ان حلب قد احتجبت لمصلحة مدن آرامية اخرى : حماه ، حمص ، وبخاصة دمشق . « ولم تنهض حلب الا مع فتوحات الاسكندر وقيام المملكة السلوقية . فسلوقوس نيكاتور ، الذي سقطت في يده ، أسس في مكانها ، بين سنة ٣٠١ وسنة ٢٨١ قبل المسيح ، مستعمرة للمقدونيين سميت « بيرويا » (Sauvaget) .

دمشق :

خلال التطور التاريخي الطويل لمدينة دمشق ، « كان احتلال الاسكندر لها ،

---

١) Grousset, *L'Empire du Levant*, p. 32, 33

سنة ٣٣٢ ق . م . ، توقيتاً مصيرياً ، لأن دمشق تخلصت من الفرس الاخمينيين وبقيت ، طوال عدة قرون ، وحتّى الفتوحات العربية سنة ٦٣٥ بعد المسيح ، خاضعة للنفوذ الغربي ... وقد استعادت دمشق اهميتها كعاصمة سلوقية ، ... الى جانب المدينة الآرامية حيث كان يوجد الهيكل ... وتبعاً لتطور طبيعي ، نتجت عن الثقافتين المختلفتيّ الطابع ، اللتين وجدتا معاً في مكان واحد ، مدينة توأم هي : المدينة الاغريقية » [1] .

٤ – فلسطين في العصر الهلنستي

بعد احتلال الاسكندر لفلسطين ، حيث تابع اليهود حياتهم تحت قيادة الكاهن الأكبر ووفق شرائعهم الخاصة ، أصبحت هذه ، أولا ، جزءاً من مملكة مصر الهلنستية (٣٠١ – ١٩٨ ق . م .) ، ثم انتقلت الى المملكة الإغريقية – السلوقية في سوريا (١٩٨ – ٦٤ ق . م .) . وتحت حكم السلوقيين ، أصبح اليهود أعداء للهلنستية ومناضلين عن الثقافة والقومية الساميّتين . وسنة ١٦٤ قبل المسيح ، انفجرت ثورة يهودية عظيمة في فلسطين ،بقيادة رؤساء عائلةالمكابيين . وبعد عدة انتصارات وانتكاسات ، اعترف الحاكم السلوقي بشمعون المكابى ، حليف روما ومحميها ، ككاهن أكبر وكزعيم لليهود (١٤٣ ق . م .) . وعندما استقل هـذا الكاهن الملك بالفعل ، أسس سلالة الأسمونيين (١٤٠ ق . م . – ٤٠ م .) .

٥ – فينيقيا في العصر الهلنستي

أ – فينيقيا في عهد الاسكندر (٣٣٢ – ٣٢٣ ق . م .)

إرتضت فينيقيا بالحكم الأجنبي الجديد ، الى حد ما ، بعد ان ارعبتها نتيجة

(١) Elisséef, **Dimashk**, «Encyclopédie de l'Islam» Nouvelle Edition, II, p. 286, 287.

الحصار الطويل لمدينة صور . وتحالف الفينيقيون بسرعة مع الفاتح المقدوني ، لما اتصفوا به من واقعية عملية . وقد فتحت الامبراطورية العالمية التي أسسها الاسكندر ، أمام نشاطهم ، ميادين شاسعة في العالم الأسيوي . فرافق التجار الفينيقيون الجيوش الإغريقية – المقدونية عبر جميع المناطق الآسيوية ، وحتّى في المنطقة المقفرة في جدروسيا ، في الهند الغربية .

وفي ظل حكم الاسكندر ، كونت المدن الفينيقية منطقة بحرية متميزة وذات حكم ذاتي . « حافظت فينيقيا على نظامها الخاص ، بفضل وضعها وقدرها . فالدويلات الصغيرة (الفينيقية) ، التي استقبلت الظافر ، ظلت خاضعة لحكامها المحليين » [1] . أما صور ، التي قاومت الاسكندر . فوُضعت مع منطقتها بإدارة حاكم قلعة اغريقي ، بينما مدن صيدا وجبيل وأرواد ، الدول التي استقبلت الفاتح ، حافظت على ملوكها الوطنيين ، تحت رقابة نائب ملك مقدوني مكلف بجمع الرسوم والضرائب . لكنها لم تعد تشكل قوة بحرية وسياسية . فقد انتقل هذا الدور منذئذ الى المدينة الإغريقية – المصرية ، الاسكندرية ، والى المدن الإغريقية – السورية ، انطاكيا وسلوقيا ، على العاصي .

ب – فينيقيا وفلسطين موضوع الصراع بين المملكتين الاغريقيتين – المقدونيتين في مصر وسوريا (٣٢٣ – ١٩٨ ق . م .)

بعد وفاة الاسكندر ، أصبحت فينيقيا موضوع صراع بين القادة المقدونيين ، وبخاصة بين قادة مصر وسوريا . وفي بضع سنوات انتقلت فينيقيا اكثر من مرة من أيدي بطالسة الاسكندرية الى أيدي سلوقيي أنطاكيا . وحسب تقسيم ايبسوس (٣٠١ ق . م .) ، الذي جزأ امبراطورية الاسكندر ، كانت فينيقيا من حصة سلوقس . لكن بطليموس ، الذي احتلها من جديد في ذلك الوقت ، رفض الانسحاب ، وظل ديمتريوس ، ابن انتيغون ، متمسكاً بصور وصيدا ، اللتين استعادهما بطليموس سنة ٢٨٣ ق . م . وقد تلت هذه النزاعات ، التي اسفرت عن التقسيم النهائي لامبراطورية الاسكندر سنة ٢٧٥ ق . م . ، الحروب التي

(١) F.M. Abel, **op. cit., II**, p. 126, 127

يقال لها « السورية » ، والتي كانت فيها فينيقيا وفلسطين ، كما في القرون السالفة ، الهدف والمسرح . وقد دام النزاع فيها وعليها ، طوال ثلاثة أرباع القرن (٢٧٥ – ١٩٨ ق . م .) ، بين سلالة البطالسة الإغريقية في مصر وسلالة السلوقيين الإغريقية في سوريا . ولم تضم فينيقيا وفلسطين نهائيا الى السلالة السلوقية في أنطاكيا الا ابتداء من سنة ١٩٨ ق . م .

وعلى الرغم من هذه التقلبات ، فقد انتعشت فينيقيا بسرعة . وهذه علامة حيويتها الخالدة . ويبدو أن صور نفسها ، التي كانت بجهد قد خرجت من انقاضها ، استعادت ، منذ سنة ٣٢٠ ق . م . ، قوتها وشبه استقلالها وقسماً كبيراً من تراثها ، بفضل صناعاتها (الارجوان والزجاج) وحركة عبور القوافل . ولكن لم تعد صور أو أية مدينة فينيقية أخرى تقوم بدور مهم كقوة بحرية .

وفي ظل الممالك الهلنستية ، ظلت المدن الفينيقية دائماً ، كما كانت في عهد الاسكندر ، خاضعة لملوكها الوطنيين . وقد سمح لها استقلالها النسبي بأن تمارس نفوذها في صراع الملوك الإغريق المقدونيين في مصر وسوريا ، وان تحتفظ بعلاقات تجارية مع الفئتين . وكان لها ، علاوة على ذلك ، مساواة مع المدن الاغريقية او التي أصبحت اغريقية في الشرق ، ورتبة «المدينة» التي كانت تعني حق الحصول على حكومات محلية مستقلة ، تحت سلطة العاهل الهلنستي . وقد حفظت المدن الفينيقية هذا التنظيم طوال مدة السيادة الهلنستية ، سواء أكان الملوك بطالسة مصر ، أم سلوقيي سوريا . وقد أنعم سلوقس الثاني (٢٤٦ – ٢٢٦ ق . م .) ، ملك سوريا ، على مدينة أرواد الفينيقية بامتيازات عدة ، منها حق سك العملة ، وحق قبول اللاجئين السياسيين .

كانت البلاد الفينيقية مقسمة بين المدن – الدول التي لها حق سك العملة : أرواد ، طرطوس ، طرابلس ، البترون ، بيروت ، صيدا ، وصور . أما جبل لبنان ، فقد بقي شبه مستقل ، كما كان في عهد السيطرات السابقة .

وباختصار ، فإن الممالك الهلنستية في مصر وسوريا ، من وجهة النظر الجغرافية –

السياسية ، كانت دولا شرقية مستقلة عن بلاد الإغريق ، بلادها الأصلية . وكانت تحكمها سلالات وطبقات حاكمة اغريقية – مقدونية ، تسلطت على الشعوب المحلية فاستعبدتها واستغلتها .

وفي ظل حكم بطالسة مصر (٢٨٦ – ١٩٨ ق . م .) ، احتلت صيدا المركز الأول في فينيقيا ، فاحتفظت بملوكها الوطنيين وبحق سك العملة . وفي عهد سلوقيي انطاكيا (١٩٨ – ٦٤ ق . م .) ، اشترك الاسطول الفينيقي بحروب أنطيوخوس الثالث ، الملقب بالكبير (٢٢٣ – ١٨٧ ق . م .) ، ضد روما . وفي عهد انطيوخوس الرابع (١٧٥ – ١٦٤ ق . م .) ، حصلت صور على عدة امتيازات ، منها سك العملة وقبول اللاجئين السياسيين .

ج – فينيقيا والهلينية

لم يكن الفينيقيون والاغريق غرباء بعضهم عن بعض ، بسبب علاقات التجارة والبحر . فعلاقات هذين الشعبين ، التي كانت ترقى الى زمن بعيد جداً في التاريخ ، استؤنفت بعد التوسع السياسي والعسكري الاغريقي – المقدوني في الشرق الأدنى .

ونظراً الى وضعهم في النزاع والتنافس فوق البحار وفي الموانىء ، منذ عدة قرون ، خلقت فيما بينهم مشاغلهم المماثلة عقلية وحضارة متشابهتين تقريباً . وقد أسهم نير الفرس ، في أواخر أيام حكمهم ، في التقريب بين الفينيقيين والاغريق . واذا كانت صور قاومت الاسكندر ، فذلك لأنه ، كما رأينا ، أراد أن يدخلها كسيد ، بينما هي قبلت الاقرار له بالولاء .

« وهكذا ، في الجغرافيا البشرية ، على عكس النظريات العنصرية ، نجد التشابه بين الأمم التي هي من أصل لغوي واحد أقل منه بين الشعوب ذات النمط الحياتي المماثل ... فحضارات البحر تتشابه فيما بينها ، كما ان الحضارات الزراعية

تتشابه ايضاً فيما بينها ... والعوامل الجغرافية المتشابهة منحت هذين البلدين (فينيقيا وبلاد الاغريق) تاريخاً قريب الشبه ، مع تسهيلات واضحة للتفاهم المتبادل . لكن المدن الفينيقية لم تنفتح على الهلينية الا في العصر الهلنستي ، في القرن الثالث قبل المسيح . وآنذاك كان التعايش أكثر إخصاباً ، لأن من هنا خرجت أرقى فلسفة في العصر الهلنستي أي : الرواقية » [1] . فزينون ، الذي يقال له « الكتيمي » (٣٣٢ – ٢٦٢ ق . م .) ، هو فيلسوف فينيقي ولد في قبرص ، وأقام في أثينا حوالي سنة ٣١٢ ، حيث اسس حوالي سنة ٣٠١ ، مدرسته الفلسفية الشهيرة . وهناك زينون ، فينيقي آخر ، يدعى زينون الصيدوني ، فيلسوف أبيقوري ، أصبح رئيساً لهذه المدرسة سنة ١٠٠ ق . م . ، وكان في أثينا معلماً لشيشرون .

فمنذ الحروب المادية (٤٩٢ – ٤٦٦ ق . م .) ، وبخاصة منذ فتح الاسكندر ، كان تقدم الهلينية يتتابع نمواً في فينيقيا ، كما يتتابع نمواً في جميع بلدان الشرق الأدنى .

وقد ظهر النفوذ الهليني قوياً في اللغة والدين والفنون والحضارة ، كما استوحت منه الأزياء والعادات كثيراً . أما اللغة اليونانية ، وهي لغة التجارة الدولية آنذاك ، فأصبحت ، بسرعة ، اللغة الثانية على الساحل . وبعد سنة ٣٠٠ ق . م . ، اختار الفينيقيون أسماء اغريقية ، أو انها تحولت الى إغريقية ، لمدنهم ولأنهارهم ولآلهتهم . فصور أصبحت تير ، صيدا صيدون ، بيروت لاوديسية (لاذقية) لبنان ، بترون بوتريس ، أرواد أرادوس ، بعلبك هليوبوليس ، جبيل بيبلوس والخ .... والاله ملكارت أصبح هيراكليس ، وأيشمون أدونيس ، وبلاد كنعان (لبنان) أصبحت فينيقيا ، وبلاد آرام سوريا ، الخ . فكلمة « اغريقي » ، التي كانت تطلق على الاشخاص ، كانت تعني ، في أغلب الأحيان ، الحضارة ، وليس الدم أو الاصل .

وحتى الفتوحات العربية (٦٤٠ م .) ، بقيت الثقافة الوطنية الفينيقية ، وكذلك

(١ Grousset, *La Face de l'Asie*, p. 23-25

الثقافة السورية والفلسطينية والمصرية ، محتجبة خلف الثقافة الهلينية ، التي تقدمت الى الصف الأول . وطغت اللغة اليونانية على اللغة الفينيقية ، ثم على اللغة الآرامية فيما بعد .

لكن اللغة والعادات المحلية لم تختف كلياً . فالأساس السامي القديم بقي حياً ، والطباع العرقية للوطنيين الذين تحولوا الى الهلينية ، لم تتبدل مطلقاً بفعل هذه التشكلات الخارجية .

ففي العهد الاغريقي المقدوني ، بدأت اللغة الآرامية تحل محل اللغة الكنعانية الفينيقية . ومع ذلك ، بقيت اللغة في فينيقيا اللغة الرسمية حتى القرن الأول قبل المسيح .

د – الحياة الاقتصادية

لقد حد التسلط الاغريقي – المقدوني من نشاط التجار الفينيقيين ، لكنه لم يشلّه ، فراح هؤلاء يواجهون ، منذ ذلك التاريخ ، وفي أي مكان في الخارج ، مزاحمة البحرية والتجار والمنتوجات الاغريقية . ولهذا فإن الإزدهار المادي والحضارة الفينيقية ، وهما يرتبطان بعلاقة وثيقة بحياة الاستقلال ، احتجبا نسبياً ابتداء من هذا العصر ، لكنهما لم يختفيا كلياً .

وقد رأينا أن المدن الفينيقية ، في عهد الممالك الهلنستية ، استعادت بسرعة ازدهارها الذي تعرض للخطر بفعل الاضطرابات التي رافقت فتوحات الاسكندر وبفعل الصراع الذي نشب بين خلفائه لتقسيم امبراطوريته . وصور نفسها ، التي كانت خرجت من انقاضها ، استعادت كما يبدو قوتها واستقلالها . فالأرجوان والزجاج ، من انتاج صور وصيدون وأرواد ، كانا دائماً مشهورين . لكن هذه الموارد المهمة لم تستطع ان تعيد الى مدينة صور المركز والأهمية اللذين كانت تتمتع بهما ، في السابق ، بفضل أسطولها التجاري والحربي . ولم تستطع أية مدينة فينيقية ، منذ ذلك الزمن ، أن تلعب دوراً هاماً في البحر كالدور الذي

كانت تقوم به المدن الاغريقية ، مثل الاسكندرية في مصر وسلوقيا في سوريا الشمالية .

وعلى الرغم من التحولات والفوضى والاضطرابات ، التي فككت الامبراطورية السلوقية ، فالقرون الثلاثة التي عاشها الفينيقيون في ظل حكم هذه الامبراطورية ، « كانت أيام ازدهار . فهم يتاجرون مع مصر ومع العالم الإغريقي ومع ايطاليا ، ويسلكون كل الطرق التي فتحت فيما بعد للتبشير المسيحي» (Dunand) .

٦ — انحلال الامبراطورية الاغريقية السلوقية : تجزئة ، واضطرابات ، وفوضى (١٦٤ — ٦٤ ق . م .)

بعد موت الملك انطيوخوس الرابع (١٦٤ ق . م .) ، بدأت تنحل المملكة السلوقية في سوريا وبلاد الرافدين ، بعد أن زعزعتها ، على وجه التخصيص ، النزاعات على العرش . ومن سنة ١٦٤ ق . م . حتى الفتح الروماني في سنة ٦٤ ق . م . ، سعت ، « بميل طبيعي ، للعودة الى تقسيماتها الجغرافية المألوفة » . وسنة ١٤٢ ق . م . ، استقلت اليهودية ، تحت قيادة شمعون المكابي ، مؤسس السلالة الاسمونية (١٤٢ — ٤٠ ق . م .) . وفي سنة ١٢٩ ق . م . ، احتل الفارسيون بلاد الرافدين .

وخلال هذه المدة ، التي دامت قرناً (١٦٤ — ٦٤ ق . م .) ، « كان عصر الفوضى بالنسبة لفينيقيا . فقد عانت من الغزوات العربية ، وتكبدت اهوال الحروب الأهلية ، وحكم جبيل وطرابلس متسلطون طغاة . فتريفون ، مغتصب السلطة ، دمر بيروت سنة ١٤٠ ق . م . » . وفي سنة ١٢٠ أو ١٢٥ ق . م . ، استقلت صور نهائياً ، وقد تلتها ، سنة ١١١ ق . م . ، طرابلس وجبيل وصيدا وعكا وبيروت ، فراحت تسك العملة الخاصة بها . وعندما تقلص حكم السلوقيين الأخيرين فاقتصر على سوريا فقط ، أكلت عليه المؤامرات والمآسي الأهلية والحروب الداخلية . فقد أصبح لكل مدينة أو امارة استقلال خاص . أما أنطيوخوس الثامن (١٢٥ — ٩٦ ق . م .) وخلفاؤه ، فلم يبق لهم الا انطاكيا .

« كانت السلطة الاغريقية تتلاشى من جميع الجهات » .

وفي الوقت نفسه ، كانت الردة الساميّة قد فرضت نفسها في سوريا . ففي الجزيرة الحالية (بلاد الرافدين الشمالية) ، تجمع الشعب الآرامي في امارة مستقلة أسسها ، حول أديسا (أورفا أو الرها) ، حوالي سنة ١٣٢ قبل المسيح ، رئيس قبيلة اسمه أريو ، وحكم خلفاؤه على أديسا حتى سنة ٢٤٤ بعد المسيح . وقد نصبت القبائل البدوية الآتية من الصحراء خيامها في وسط المزروعات . وكانت احدى هذه القبائل ، قبيلة أنباط بترا ، قد أنشأت مملكة عبر الأردن ، فاستولى رئيسها ، الحارث الثالث ، على دمشق ، سنة ٨٥ ق . م . وفي سنة ٨١ ق . م . ، استولت قبيلة عربية محلية على مدينة حمص ومنطقتها ، وحكمتها أكثر من قرن . ويبدو ان هذه القبيلة كانت تقدس الشمس ، فاتخذت اسمها : « سمسيجرامس » . « فكانت حمص تنافس بعلبك بمعبد الشمس فيها ، الذي كان يقدس بشكل صخرة من البازيلت الأسود » .

وفي لبنان ، « كانت جميع مفترقات الطرق والممرات الرئيسية تحت سلطة رؤساء العصابات » . وفي البقاع ، بين سلسلة جبال لبنان الشرقية والسلسلة الغربية ، كان الايطوريون ، وهم شبه رحل قدموا من إيطوريا ، في الجنوب الشرقي من دمشق ، ويتكلمون اللغة الآرامية ، كانوا قد شكلوا ، حول مدينة عنجر ، مملكة عربية شبيهة بالمملكة النبطية في البتراء . وكانت تضم البقاع وبعض حصون لبنان ، حيث كانوا يسطون منها على مدن الساحل . وكان الامير الرهيب بطليموس الايطوري (٨٥ — ٨٠ ق . م .) « يفرض الجزية على جميع القوافل التي كانت تسير من دمشق الى بيريت (بيروت) أو الى بعلبك . حتى اضطر الدمشقيون الى استدعاء الملك النبطي الحارث الثالث ليعيد النظام . وهذا الأخير أقام في دمشق ، حيث سك العملة وحفر عليها كتابة يونانية هي : باسيليوس الحارث (الى اليمين) ، ومحب الهلينية (الى الشمال) » [1] .

---

١) Dussaud, op. cit., p. 148

وفي سنة ٨٣ ق . م . ضم دكران الثاني ، ملك أرمينيا ، سوريا اليه . وفي سنة ٦٤ ق. م. احتل بومبي ، الوالي الروماني على الشرق ، سوريا وفينيقيا ، وفي سنة ٦٣ ق. م. ، أورشليم وفلسطين . وفي سنة ٥٩ ق. م. ، اعترف بطليموس الثاني عشر ، ملك مصر ، بالسيادة الرومانية . وسنة ٣٠ ق. م. ، قضى أوكتافيوس ، الذي عرف بأسم أوغسطس فيما بعد ، على سلالة البطالسة وضم مصر للامبراطورية الرومانية .

الفصل العاشر

فينيقيا في عهد الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية
(٦٤ ق.م. — ٦٤٠ ب.م.)

١ — الامبراطورية الرومانية الشاملة (٦٤ ق . م . حتى ٣٣٠ م .)

أ — التدهور السياسي في الشرق المتوسطي

كان الفتح الروماني لبلاد الشرق المتوسطي تحولا تاريخياً جديداً وكبيراً . إذ كانت مواقع العواصم السياسية لدول شرق المتوسط المستقلة ، حتى زمن هذا الفتح ، ضمن الاطار الجغرافي الخاص لهذا الشرق . وهي ، حسب الأزمنة : ممفيس ، طيبة ، أواريس ، في مصر ، أكاد ، أور ، أشور ، نينوى ، بابل ، في بلاد الرافدين ، صور وصيدا ، في فينيقيا ، دمشق وحلب ، في سوريا ، القدس والسامرة، في فلسطين . وظلت ضمن الوضع نفسه ، في مختلف عهود الامبراطوريات التي كانت غريبة عن الشرق المتوسطي ، والتي ، بالتتالي أو معاً ، وبشكل تام أو جزئي ، أخضعت الأقاليم المختلفة في هذه المنطقة . كانت بابل المركز السياسي للامبراطورية الفارسية الأخمينية ، ثم للاسكندر الكبير . وفي ظل السيطرة الهلنستية ، غدت الاسكندرية عاصمة المملكة الاغريقية — المصرية ، في عهد البطالسة «اللاجيديين» ، وانطاكيا عاصمة المملكة الاغريقية — السورية ، في عهد السلوقيين . وبعد فتح الفارثيين لبابل ، أصبحت مدينة سلوقيا ، الواقعة على نهر دجلة ، عاصمة لهذه الامبراطورية الايرانية الجديدة .

وبعد الفتح الروماني ، تقلصت العواصم الكبرى للشرق المتوسطي الى مرتبة مراكز ولايات بسيطة ؛ وذلك بسبب بعدها عن روما ، العاصمة الجديدة للأمبراطورية الواقعة خارج حدود الشرق . فأصبحت روما ، طوال عدة قرون ، توجه سياسة الشرق الأدنى وتقرر مصائر شعوبه المختلفة . وغدت الاسكندرية وانطاكيا ، منذ ذلك الحين ، مراكز اقامة لممثل الامبراطور الروماني . وان انتقال العاصمة الامبراطورية من الشرق الى الغرب ، وتواقت الفتح الروماني للشرق المتوسطي وولادة الامبراطورية الرومانية العالمية مع انطلاق المسيحية ، هو الذي جعل المسيحية تأخذ بالانتشار ، في وقت واحد تقريباً ، في القدس ، بلد نشأتها ، وفي أنطاكيا ، مركز الولاية الرومانية السورية ، وفي الاسكندرية ، مركز إقامة نائب الامبراطور الروماني ، وفي روما ، عاصمة الامبراطورية . وها هما بطرس وبولس يؤسسان ، بالتالي ، في أنطاكيا وفي روما ، الكنائس المسيحية الأولى . وقد اتخذ هذان روما مركزاً لإقامتهما ، حيث غدت مركز خلفائهما البابوات ، الرؤساء الكبار للكنيسة الكاثوليكية ، حتى أيامنا هذه .

وبعدما دخلت بلاد الشرق المتوسطي هذه في فلك الغرب ، غدا تاريخها الفينيقي ، والسوري ، والمصري ، تابعاً للتاريخ الروماني والبيزنطي ، حتى الفتح العربي الاسلامي .

ب — الامبراطورية الرومانية مؤسسة سياسية جديدة

بعد ان اخضع الرومان ، بقوة السلاح ، جميع بلدان البحر المتوسط ، نفحوا هذه البلاد بتنظيم سياسي جديد ، وضعوا فيه ما لديهم من موهبة في الحقوق والحكم والتربية والنظم . وهكذا ولدت « الامبراطورية الرومانية » . وفي مجموع هذه البلدان المتباينة والشعوب المختلفة ، التي تشكل منها العالم الروماني ، كان هم الاباطرة هو التقريب بين العروق القومية واللغات والاخلاق والمدنيات ،

من أجل خلق وحدة بينها يسود فيها السلام طوال قرون ، ليعطوا العالم المتمدن في زمنهم ثمرات « السلم الروماني » .

الرومنة :

لم تكن « الرومنة » تمثل ثقافة او ديناً جديداً ، فهي على الاصح « طريقةحكم » ، حصيلة الانظمة الديمقراطية للمدن الهلينية ، التي تبناها الشعب الروماني وطبقها على نطاق واسع . وباتباع هذا النظام ، الذي لم تكن بلدان الشرق الادنى عرفت مثيلاً له قط ، فالسلطة السياسية لم تعد هبة ممنوحة من الآلهة لبضعة أشخاص مصطفين ، كأبناء او كمفوضين من قبل الآلهة ليكونوا على رأس جماعات او دول متغلبة ، ولكنها غدت وظيفة وعبئاً وانتداباً للعمل . فالنظرية الرومانية جعلت الشعب الروماني مؤتمناً على سلطة الحكم والسيد الحاكم للشعوب الاجنبية التي اخضعها . وسلطات هذا « المتسلط الخفي » ، كانت تفوض الى حكام تكون وظيفتهم مبدئياً موقتة وقابلة للالغاء . فالرئيس الاعلى ومساعدوه او وزراؤه ، مع الولاة ، كانوا نواباً عن الشعب الروماني . وهذا النظام ، الذي كان يحكم مدينة روما والذي امتد بعد ذلك ، بالتالي ، الى الاقاليم المفتوحة ، أصبح هو « الامبراطورية الرومانية » .

هكذا ، وبوجه مختلف عن «الهلنستية» ، التي كانت ثقافة انتشرت في البلدان التي خضعت للسيطرة الاغريقية — المقدونية ، كانت « الرومنة » بالعكس مذهباً قومياً وارستقراطياً وسياسياً . وكان الموجهون الرومان يجهدون من أجل «التوفيق بين الهلنستية ، سيدة الفنون والعلوم ، وبين الرومنة ، سيدة الحرب والحكم .»

وجميع المنشآت السياسية السابقة ، من مدن ودول او امبراطوريات ، كانت تتكون من شعوب متعددة ومختلفة غير مجموعة في كل موحد ومنظم ، بشكل من الاشكال . لكن الامبراطورية الرومانية ، وحدها ، هي التي خلقت ، على انقاض الممالك والاديان الخاصة القديمة ، حالة روحية جديدة ومفهوماً سياسياً واجتماعياً جديداً ، أصبحا يشكلان مفهوماً للدولة وللقومية بمعناهما الحديث .

وحتى بعد اضمحلالها ، بقيت الامبراطورية الرومانية الأنموذج لجميع الدول الغربية الحديثة . والقيمة الرفيعة التي بقيت ملازمة ، حتى ايامنا هذه ، كلمة امبراطوري (Imperial) إنما تعود الى ذكريات الامبراطورية الرومانية. فالامبراطورية الأثينية وامبراطورية قرطاجة لم تتجاوزا مفهوم دولة المدينة . أما في الامبراطورية الرومانية ، ومنذ سنة ٨٩ ق. م.، اصبح جميع سكان إيطاليا الاحرار مواطنين رومانيين . وهذه الحالة امتدت فشملت ، سنة ٢١٢ بعد الميلاد ، جميع الرجال الاحرار في الامبراطورية .

فالتاريخ الروماني يواصل ، ليس تاريخ مدينة روما وحسب ، لكن تاريخ جميع البلدان التي كان الرومان قد استلحقوها بهم ، وهي بالتتالي : اوروبا الغربية وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى والشرق المتوسطي ومصر وافريقيا الشمالية وغيرها . وقد حكم هذه الامبراطورية اباطرة، اصل بعضهم من الاقاليم (خمسة من أصل شرقي) ، وبلغ عدد سكانها مئة مليون نسمة .وقد اضطلعت المسيحية ، التي جاءت من الشرق المتوسطي ، بغرس عواطف الأخوة في قلب شعوب الامبراطورية .

ج — السلطة المركزية وادارة الاقاليم

سلطة رئيس الدولة :

تلقى اوكتاف (٣١ ق. م. — ١٤ م) ، الابن بالتبني لقيصر والرئيس الأول الاعلى للامبراطورية الرومانية ، تلقى من مجلس الشيوخ لقب «اوغسطس» ، اي المعظم . وراح هذا اللقب منذئذ يدل على الرئيس الرسمي للدولة الرومانية. وقد نال ايضاً اللقب المدني «برنسبس» ، اي امير ، واللقب العسكري «امبراطور» ، الذي يعطي حامله جميع سلطات الامبراطورية . وكان الحكم ، مبدئياً ، يتم بالمشاركة بين مجلس الشيوخ والبرنسبس او الامبراطور ، الذي لم يكن سوى ممثل للشعب الروماني . وقد اختلفت الدولة الرومانية عن السلطنات المطلقة ،

كممالك الشرق الهلنستية والآسيوية ، بكون الامبراطور كان مفوضاً من الشعب الروماني ، وسلطته كانت لمدى الحياة .

تنظيم الولايات وادارتها :

فقدت الولاية تنظيماتها المحلية ، التي كانت تؤلف مجموعة قومية . فهي منذ التحاقها بالدولة الرومانية برباط التبعية ، تم تجزيئها الى «مدن» منفردة الواحدة عن الاخرى ، وتابعة لروما ، التي كانت تمارس سلطتها مباشرة بواسطة ممثل فرد ، هو الحاكم . و « المدينة الحرة » ، التي كان سكانها يحصلون على حقوق خاصة ، كانت لها ادارة مستقلة . أما «المستعمرة» ، فكانت تعني المكان الذي يقيم فيه المستعمرون الرومان . فكان نظامها البلدي على صورة نظام روما ، كما كان السكان يحتفظون بحقوق المواطنية الرومانية ، لهم مجلس شيوخ وينتخبون حكامهم المحليين .

حكام الولاية :

كان الامبراطور يعين حكام الولايات ، فيكونون مسؤولين أمامه وقابلين للعزل متى شاء . الا انهم كانوا يتمتعون بسلطة مطلقة ، لكونهم مفوضين من رئيس الدولة . وكانت المجالس الاقليمية ، المؤلفة من ممثلي المدن ، عنصر توازن مع السلطة غير المحدودة للحاكم . وكانت مطالب هذه المجالس ترفع مباشرة للامبراطور . كما كان الحكام يتلقون معاشاً ثابتاً ، مما كان يجعل السلطة المركزية تشدد من رقابتها عليهم . وكانت مدة ولايتهم ، حسب الاصول ، سنة واحدة . ومن جهة اخرى ، كان سكان الولاية يلجأون الى السلطة المركزية ، وبخاصة الى مجلس الشيوخ ، ليشكوا اليه جور الحكام .

د — السلطة الرومانية والثقافة الهلينية في الشرق

أحلت السلطة الاغريقية — المقدونية في الشرق المتوسطي ، كما رأينا ، اللغة والثقافة الهلينية محل اللغة والثقافة الوطنية . وقد اضاف الرومان ، الذين كانوا يعاضدون الهلينية ويحمونها ، الرومنة ، اي « السيادة في الحرب والحكم ». وفي الشرق المتوسطي ، غدت السلطة رومانية بينما الثقافة بقيت هلينية . وقد واصلت روما رسالة الاغريق ، فكان العنصر الاغريقي ، في كل مكان ، يلقى الحماية والتشجيع .

« ان جميع ما هو قابل للاستمرار في عمل الاسكندر جرى الاقرار به ، وقد اخذه الفاتح الروماني على عاتقه . وجميع المناطق التي سادت فيها الهلينية (آسيا الصغرى ، سوريا ومصر) غطتها القوة الرومانية . وقد تنازلت روما عن الاجزاء الخطرة في الامبراطورية المقدونية (ايران ، ارض الرافدين) ... وفي كل ذلك ، بدا الرومان ورثاء واعين للمقدونيين . وكما فعل هؤلاء ، كان الرومان في آسيا جنوداً للهلينية . ولم يحولوا الى اللاتينية سوى الولايات الغربية والبربرية . وحيثما وجدوا الهلينية احترموها كواحدة من شكلين رسميين لسيطرتهم ... روما في الشرق لم تتصرف تصرفاً رومانياً ، بل تصرفاً مقدونياً » [1] .

« لقد تركت حرية داخلية كبيرة للشعوب ، التي استمرت باستعمال اللغة اليونانية كلغة للكتابة ، واحتفظت بالآرامية كلغة للتخاطب . وساعد الامن على ازدياد النشاط التجاري في البر والبحر . وان تكن العبادات المحلية المختلفة قد اثارت اضطرابات شديدة ، الا ان هذه بقيت محدودة ... هذا مع العلم بأن ظاهرات التعلق العميق بطقوس الدين كانت تبدو عند الشعوب في ممارسة عباداتها . ولما تخلت هذه الشعوب عن وثنيتها ، حولت هذا التعلق ، بما فيه من حماسة ، الى العبادة المسيحية ، ثم اخيراً الى الاسلام ».

---

١) R. Grousset, **L'Empire du Levant**, p. 49, 50

« وكان من جراء تركيز الفكرة السورية على العبادة وعلى مظاهر طقوسها ، ان تخلى الشعب عن الاهتمام بالتنظيم السياسي . ولم تحاول سوريا قط انشاء وحدة سياسية ، لأن مجموعاتها السلالية (الاثنية) ، كانت تحفظ اطباعها الارثية العربية ، ذاتيتها القبلية القديمة ... بعكس ما نلاحظ في المناطق الآسيوية الاخرى ، اذ ان الصراع مع روما لم يحدث على الصعيد السياسي ، ولكن على اساس ديني » [1] .

٢ — سوريا وفلسطين في العهد الروماني

أ — الولاية الرومانية السورية . التنظيم السياسي والاداري

في سنة ٦٤ و ٦٣ قبل الميلاد ، سيطر القائد الروماني بومبي على سوريا وفينيقيا وفلسطين ، ووحدها في ولاية رومانية ، وذلك بعد ان دمر الامبراطورية الارمنية للملك ديكران .

« وفي وادي العاصي دحر بومبي سيلاس اليهودي من وادي ليزياد (جسر الشغور) ، واحتل افاميا (قلعة المضيق) وهدمها . وفي لبنان اخرج الايطوريين من الحصون التي كانوا شيدوها ، ومن مدن السفوح التي كانوا احتلوها واخذوا يسطون منها على قوافل التجار . وقد قطع رأس ديونيسيوس في طرابلس ، وكنيراس الذي كان طغى في جبيل ، واجبر بطليموس ، ... حاكم عنجر (فيلارك) ، على دفع الف وزنة ، ومن ثم اجتاز حرمون وسار نحو دمشق ... وكان (الملك النبطي الحارث) سالمه بدفع ضريبة مع الاعتراف بالسلطة الرومانية فأقره بومبي ، بالمقابل ، على دمشق ، نظراً لثقة المواطنين به » [2] .

وقد توزعت الولاية الرومانية السورية ، التي تشمل : سوريا وفلسطين وفينيقيا ،

---

١) R. Dussaud, **op. cit.**, p. 155-157

٢) R. Dussaud, **op. cit.**, p. 148, 149

في عدة وحدات سياسية وادارية مختلفة (مدن او اقاليم) ، خاضعة للحاكم الروماني المقيم في انطاكيا . وهذا التقسيم الاداري والسياسي ، الموروث عن الاغريق السلوقيين ، كان بسبب اختلاف عناصر السكان او بسبب الصراع المحلي ، وقد حصلت فيه تغييرات متواصلة بعد ذلك . فهناك لغات مختلفة كانت تتكلم بها هذه التجمعات الجغرافية المتنوعة : اليونانية ، الآرامية ، الفينيقية ، والعبرية . وقد غدت المدينة الهلنستية انطاكيا ، مركز الوالي وعاصمة المملكة الاغريقية – السلوقية القديمة ، طوال فترة الحكم الروماني والبيزنطي ، العاصمة لسوريا والمركز السياسي للقوة الرومانية والبيزنطية في الشرق . وكانت بعد الاسكندرية ، باباً للشرق ، يفتح على البحر المتوسط الشرقي . وبعد كنيسة القدس ، كانت كنيسة انطاكيا ، التي انشأها القديس بولس ، الكنيسة الاولى في التاريخ والاكثر أهمية . وقد بقيت دمشق وحلب كمراكز اقليمية تابعة لانطاكيا .

ومن اجل إضعاف قوة والي سوريا ، قام الامبراطور سبتيموس سفيروس ، سنة ١٩٥ م . ، بتقسيم المنطقة الى عدة ولايات : سوريا المجوفة ، وتشمل سوريا الشمالية ، وعاصمتها انطاكيا ، ثم فينيقيا وتشمل فينيقيا والبقاع (هليوبوليس– بعلبك) وحمص ، ثم سوريا – فلسطين (اليهودية القديمة) . ثم الولاية العربية (بلاد الانباط قديماً ، في شرق الاردن) .

ب – المملكة اليهودية ، في فلسطين

كانت المملكة اليهودية ، المستقلة منذ سنة ١٤٢ ق . م . تحت حكم اسرة الاسمونيين (١٤٢ – ٤٠ ق. م.) ، صديقة لروما . فأقرها القائد الروماني بومبي على استقلالها . وخلفت الاسمونيين الاسرة الهيرودية (٤٠ ق. م. – ٧٠ م) كحليفة لروما . وفي زمن هيرودس الأول (٤٠ – ٤ ق. م.) ، ولد المسيح في بيت لحم ، حوالي السنة الخامسة او الرابعة قبل التاريخ الذي يحمل اسمه .

وفي سنة ٧٠ للميلاد ، ثارت اليهودية ضد الرومان ، فقام هؤلاء بسحقها والغاء استقلالها الذاتي . وبعدما تحولت فلسطين الى ولاية ، اصبح يحكمها وكيل روماني (Procurator) . وخلال الفوضى والانقسامات في الشرق الادنى ، قام اليهود ، الذين تخلوا عن اللغة العبرية وتبنوا اللغة الآرامية ، وهي لهجة قومية لشعوب سوريا وبلاد الرافدين ، قاموا بتمثيل رد الفعل السامي ضد التسلط الروماني .

وبين سنة ١٣٢و١٣٥م. ، سيطرت ثورة يهودية دامية على القدس، فاجهز عليها الرومان ودمروا المدينة وغيروا اسمها ذاته : « خمسون مدينة و ٩٥٥ بلدة امحت من الوجود ، وسقط ١٨٠ الفاً من اليهود وهم يحملون السلاح » (L. Homo) . واليهود الذين نجوا من الكارثة« تجمعوا في الجليل». وقد احتفظوا بحق اقامة كنائس يجتمعون فيها وبرئيس ديني يعينه الامبراطور . ومنذ هذا الزمن لم يعد اليهود في فلسطين يشكلون قومية ، وانما صاروا مجتمعاً دينياً . فالمعنى السياسي لكلمة « يهود » اختفى ، ولم يبق للكلمة سوى مدلولين : عرقي (اثني) وديني » (T. Reinach) . وبعد تشتتهم في العالم ، راحوا يتجولون ، منذ ذلك التاريخ ، نادبين باستمرار ماضيهم الذي اختفى .

٣ – المدن الفينيقية في الحقبة الرومانية

أ – الاستقلال الاداري والامتيازات

على طول الشاطىء اللبناني جرى توطيد اوضاع الحكم في المجتمعات المدنية : فصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وغيرها ، فقدت ملوكها ، لكنها حصلت على امتيازات وغدت تتمتع بحكم ذاتي ، بواسطة حكام اداريين او قضاة ، كما كانت تصك نقوداً خاصة بها . واخيراً فاز بعضها بلقب « مستعمرة » ، وبذلك اصبح سكان هذه المستعمرات « مواطنين رومانيين » . وقد كان من لا يحملون لقب « المواطنين » يدفعون ثلاثة اضعاف الضريبة التي يدفعها حاملو هذا اللقب .

جبيل :

صكت جبيل نقوداً باسمها . وكانت هذه النقود تحمل رسم هيكل الالهة عشتار ، كشعار للمدينة ، وهي مدينة المؤرخ الفيلسوف فيلون الجبيلي (ولد سنة ٤٢ ق . م .) . وفيلون هذا هو مؤلف تاريخ فينيقيا . وكان ترجمه عن مؤلف لسنكونياتون ، الكاهن الفينيقي المولود في بيروت حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد .

وجبيل ، كما ذكرنا سابقاً كانت دائماً مركزاً دينياً كبيراً (ادونيس ، ازيس حتحور ، اسطورة اوزيريس وغيرها) . وفي كل سنة كانت تأتيها جماعات للحج، وكان احد اكبر أعياد فينيقيا هو ذكرى موت ادونيس، الذي كان يحتفل به في الصيف في الجبل ، عند مغارة افقا ، قرب جبيل . وفي الحقبة الرومانية ، كانت هذه الاعياد تمثل دوراً كبيراً . ولذلك كانت جبيل ، مع المنطقة المجاورة لها ، من اكبر مراكز العبادة في الشرق جميعاً . وقد غدت بعد المسيحية مركزاً لكرسي اسقفية .

صيدا :

كانت صيدا من سنة ٤٠ ق. م. حتى سنة ١٨م. شبه جمهورية ، لها حكامها الخاصون (اراخنة) . وكان مجلس شيوخها جمعية من الشعب . ومع احتفاظها بحريتها ، حصلت على لقب « مستعمرة » ، وكانت تمارس نشاطاً تجارياً هاماً وتملك مدرسة للفلسفة تدرس مذهب ارسطو . وفي القرن الرابع غدت صيدا مركزاً لكرسي اسقفية .

صور :

كانت صور ذات حظوة عند الرومان ، « بسبب انتشار تجارتها ، وبخاصة بسبب صناعة الارجوان والزجاج المزدهرة دائماً فيها » . وهي كانت مركزاً

ثقافياً ايضاً وتملك مدرسة للفلسفة الرواقية . ومن ابناء صور كان المشترع الشهير « اولبيان » ، وكان يشغل من سنة ٢٢٢ حتى سنة ٢٢٨ م. ، اي وهي سنة وفاته ، رئاسة القضاء البريتوري في روما ، اي اعلى مركز في الامبراطورية . وهو احد خمسة فقهاء كلاسيكيين اتخذ رأيهم كقانون وعمم على القضاة الرومان سنة ٤٢٦ م . ومن ابناء صور ايضاً : الجغرافي مارينوس ، والفيلسوف الرواقي الافلاطوني مكسيموس ، معلم الامبراطور الفيلسوف مارك اوريل (١٦١ — ١٨٠ م.) . وكذلك الفيلسوف برفوريوس (٢٣٤ — ٣٠٥ م.)، من مذهب الافلاطونية الحديثة ، وكان اسمه الحقيقي «ملك» ، ودعي بورفير ، بسبب البورفير (الارجوان) الذي يصنع في بلده . وبعد وفاة فيلسوف الافلاطونية الحديثة افلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠ م.) ، تسلم بورفير ادارة مدرسته في روما .

وبعد ان تحولت صور الى المسيحية حوالي نهاية القرن الثاني ، أصبحت مركزاً لكرسي مطرانية ، ترئس اربع عشرة اسقفية . وفي القرن الرابع ، كانت قد استعادت جزءاً من ازدهارها القديم ، واصبح لها كنيسة كاتدرائية . وفي سنة ٣٣٥ م. ، كانت مركزاً هاماً انعقد فيه مجمع مسكوني .

بيروت :

بعد ان رفعها اوغسطس الى مرتبة « مستعمرة » ، وازدانت بمنشآت كثيرة ، كالمعابد والحمامات والمسارح وغيرها ، اصبحت مقراً لفرقتين عسكريتين رومانيتين ، وقاعدة للاسطول الروماني في جنوب شرقي المتوسط . وقد فاخرت بطابعها اللاتيني جاراتها ذات الطابع الهليني .

ومنذ منتصف القرن الثالث ، غدت بيروت مدينة ثقافية ومركزاً لمدارس هامة، كانت احداها مدرسة حقوق شهيرة ، وصفت بانها احد انشط مراكز علم الحقوق في الامبراطورية الرومانية . « وفي نهاية القرن الرابع ، كانت لا تزال من اهم المدن في فينيقيا » . وكانت المسيحية دخلتها مبكراً ، حيث غدت ، في القرن الرابع ، مركزاً لكرسي اسقفية .

طرابلس :

بعد السلوقيين ، زين الرومان هذه المدينة بمنشآت فخمة ، بينها معابد متعددة .

بعلبك (هليوبوليس) :

كانت مدينة دينية غامضة حتى هذا التاريخ ، وكانت ، كما يبدو ، قد نالت اسم هليوبوليس بعد فتح الاسكندر . والاسم اليوناني هذا يعني « مدينة الشمس » ، حيث كان الاغريق وحدوا بين البعل السامي المحلي والههم الشمس (هليوس) . وفي ظل حكم اوغسطس اصبحت هليوبوليس ، كبيروت ، مستعمرة رومانية . وقد عرفت طقوس العبادة فيها انتشاراً عظيماً .

كانت بعلبك ، قبل فتح الاسكندر ، مركزاً للاله الفينيقي « بعل » ، الذي أخذت منه اسمها السامي « بعلبك » اي « بعل البقاع » . وقد عرفت هليوبوليس، في حدود سنة ١٥٠ م ،، نهضة مرموقة وغدت العاصمة الدينية لسوريا الرومانية . واصبح الاله السامي « شمس » معروفاً باسم « جوبيتر الهليوبوليسي » . وقد عُبد منذئذ في الغرب ، وبنى له الاباطرة الرومان ، في بعلبك نفسها ، معبداً ضخماً حل محل المزار المتواضع . وقد بدأت اعمال البناء اثناء حكم اوغسطس، ودامت بلا انقطاع حتى القرن الرابع ، من اجل انشاء ثلاثة هياكل على شرف الآلهة الثلاثة من المثلث الهليوبوليسي : جوبيتر ، وفينوس ، ومركور او باخوس ، الذين حلوا محل الآلهة السامية المحلية : هدد ، واتارغيتس رفيقته ، وسمس . وخلال حكم الامبراطور قسطنطين (٣٢٣ – ٣٣٧ م.) ، جرى تحويل المعبد الوثني الى كنيسة ، يقوم على رأسها اسقف .

وفي سنة ١٦٦٤ م.، ثم في سنة ١٧٥٠ م ،، حدثت زلازل ارضية هزت بعلبك ، وهدمت هياكلها . ولا تزال الانقاض الضخمة تشهد للماضي المتألق لهذا المشروع

الجبار . ولكن لم تترك الهزات الارضية لنا سوى ستة اعمدة منتصبة من اصل اربعة وخمسين عموداً ، كان يقوم عليها هيكل جوبيتر .

عنجر (كالشيس) :

بين السلسلة الغربية والسلسلة الشرقية من جبال لبنان ، في منطقة البقاع ، تقع عاصمة المملكة العربية الايطورية ، التي نالت من الرومان رتبة « دولة إقليمية » . وكان هؤلاء الايطوريون ، كما يبدو ، من البادية السورية ، حيث كانوا في حالة شبيهة بالبداوة ، ويتكلمون الآرامية ، اللغة التي كانت لا تزال هي الدارجة آنذاك .

ب – تغيير الدين واللغة والاسم

في الحقبة الرومانية عرفت فينيقيا تغييرات كبيرة ، وبخاصة في الدين واللغة والاسم وغير ذلك ، مما حمل على الاعتقاد ، خطأ ، بأن الفينيقيين لم يبق لهم وجود في تلك الحقبة ، وقد حلت محلهم شعوب جديدة نازحة .

الدين :

دخلت المسيحية مبكراً الى فينيقيا . ومنذ منتصف القرن الأول ، قام القديس بولس بزيارة صور وصيدا . وكان في كل منهما جماعة مسيحية وكنيسة . وبعد نشر مرسوم ميلان ، سنة ٣١٣ م ،، الذي منح المسيحيين حق ممارسة دينهم ، « اخذت الوثنية تنكفىء ببطء ، من المدن اولاً ، ثم من الارياف . وقد وجدت آخر ملجأ لها في جبل لبنان ، وفي مدينة بعلبك » .

وفي ظل حكم الامبراطور قسطنطين ، انتصرت المسيحية على الوثنية في الامبراطورية الرومانية . وقد تقاسمت عدة طوائف مسيحية شعوب الشرق

المتوسطي : الآريوسية ، والنسطورية ، والمونوفيزية ، والديوفيزية ،وغيرها .
وتمشياً مع التقاليد الفينيقية المتسامحة والمتحررة ، تقبلت فينيقيا عدة جماعات من المؤمنين المنتمين لطائفة او لاخرى من هذه الطوائف ، تماماً كما تقبلت في عهد الوثنية شيع الآلهة : ايل والبعل وغيرهما . فالوحدة من خلال التنوع ، مع الحرية ، هذا ما نجده دائماً تحت السماء اللبنانية المتسامحة ، وفي ظل جبل لبنان المضياف .

اللغة :

في ظل الحكم الروماني ، بدأت اللغة الكنعانية الفينيقية تضمحل ، بعد أن سادت فينيقيا منذ اوائل الالف الثالث قبل الميلاد . فقد تخلت عن مكانها للغة سامية شقيقة هي اللغة الآرامية ، التي حلت محل الامورية في سوريا قبل الف عام ، ثم احتلت مكان الاشورية — البابلية في بلاد الرافدين قبل خمسمئة سنة ، ومكان العبرية في فلسطين قبل الميلاد بثلاثمئة سنة .

فمنذ سنة ثلاثمئة قبل الميلاد ، كانت الآرامية بدأت تنتشر في فينيقيا ، ولكن الفينيقية بقيت لغة المعاملات والاعمال الرسمية حتى القرن الاول قبل الميلاد . وفي اوائل التاريخ الميلادي كانت اللغة الفينيقية ، التي اختفت من الكتابات ، لا تزال مستعملة في جبيل وفي صور وفي المناطق الريفية . وفي القرن الثاني ، كانت الكتابات الاسطورية على العملة أصبحت تكتب باليونانية وليس باللغة الفينيقية . وحوالي هذا الزمن ، توقف استعمال اللغة الفينيقية في فينيقيا ، اذ حلت محلها اللغة الآرامية كلغة محكية ، بينما غدت اللغة اليونانية لغة الادب والتجارة ، واللغة اللاتينية لغة الادارة .

وفي القرن الثالث ، لاقت الآرامية حظوة في فينيقيا وسوريا وفلسطين ، مع انتشار المسيحية ، لكونها اللغة التي كان يتكلمها المسيح ، وبخاصة منها اللهجة السريانية ، التي غدت لغة نشر الايمان المسيحي . فاللغة السريانية ، لغة كنيسة اديسا (اورفا او الرها) في اعلى بلاد الرافدين ، كانت اللغة المفضلة للادب

وللكهنة في اديرة بلاد الرافدين وفي سوريا .

اجمالاً ، ومع المسيحية ، أصبح آراميو سوريا ، الذين تبنوا لغة أديسا الآرامية او السريانية ، لغة الكنيسة ، أصبحوا يعرفون باسم « السريان » أو السوريين ، لتمييزهم عن مواطنيهم الذين بقوا على الوثنية ويستعملون اللغة الآرامية . وهكذا انحسر فاضمحل الاسم السامي الآرامي تدريجياً ، امام الاسم السوري ، ذي الاصل الاغريقي .

وبوجه عام ، فان اللغة الاغريقية ، في ظل السيطرة الرومانية ، كانت لغة الفلاسفة والادباء ، واللاتينية لغة الحقوق والجيش . اما الشعب فكان يتكلم الفينيقية ، ثم الآرامية ، ثم السريانية .

الاسم :

في العهد الروماني غدا كنعانيو لبنان ، اي الفينيقيون ، الذين اندمجت بلادهم بالولاية الرومانية السورية ، يعرفون في روما ، وفي غاليا (فرنسا) وفي باقي بلاد العالم الغربي ، باسم « سوري » (سوريون او سريان) . وحدث هذا بعد الف سنة من تسمية الاغريق لهم بالفينيقيين . ومن جهة اخرى ، وعلى اثر انتشار اللغة السريانية في فينيقيا وفي بلاد الآراميين (سوريا) ، ولكونها اللغة الارامية المسيحية ، غدا مسيحيو فينيقيا وسوريا يعرفون بالسريان ، كما ذكرنا ، بعد تبنيهم اللغة السريانية في طقوسهم الدينية . وأصبحت لفظة « ارامي » في نظر المسيحيين واليهود مرادفة لكلمة «وثني» . فاسم السريان كان يعني ، اذن ، في الاصل ، جماعة من المؤمنين المسيحيين ، ولم يحمل الا مؤخراً معنى «الجماعة» العرقية (الاثنية) او القومية التي كانت تقيم في بلاد الآراميين القديمة ، التي اصبحت سوريا فيما بعد .

وفي هذه الاثناء ، وبينما كلمة «سريان» كانت تعني ، في فينيقيا ، المسيحيين من المواطنين الاصليين ، نجد بالمقابل ، وبالنسبة لمجموع السكان من مسيحيين ووثنيين ، أن الاسم العام ، أي بلاد كنعان او فينيقيا ، قد بقي . والاناجيل

المكتوبة بالآرامية او السريانية تدعو هذه البلاد « كنعان » بينما تلك التي كتبت باليونانية تدعوها « فينيقيا » ، او « سوريا » .

الخلاصة :

هكذا جرى بالتدريج تغير الاسم واللغة والدين في فينيقيا بعد الفتح الروماني ، مما جعل مؤرخين عديدين يعتقدون بأن مجموع سلالة هذا البلد العرقية ، التي عاشت فيه منذ ما يقارب ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك التاريخ ، قد اضمحلت وحلت محلها جماعات من الآراميين جاءت من سوريا المجاورة .

والحقيقة هي ان العناصر السلالية نفسها بقيت في فينيقيا ، بعد الفتح الروماني ، مع صفاتها الاساسية الجوهرية التي اتصفت بها منذ الاساس . وهذه الصفات كانت تتكيف باستمرار لتلائم الوسط الجغرافي الفينيقي ، وهي عينها الميزات الخاصة للاجيال الفينيقية السالفة . فالاسم واللغة والدين ، هي التي تغيرتْ فقط . وهذه ، كما نعرف ، هي اشكال سطحية في السلالات وقابلة للتغير ، ولكنها لا تستطيع تغيير الروح الاصلية الدائمة للسلالة العرقية . ونحن نرى ، بعد الفتح الروماني ، كما قبل هذا الفتح ، ان نشاط السكان في فينيقيا بقي على النمط ذاته ، في حقل الاقتصاد والاجتماع والثقافة . وهناك ظاهرة مماثلة سنراها ، بعد ذلك ، في فينيقيا ، بعد الفتح العربي الاسلامي ، الذي لم يغير تغييراً جوهرياً الصفات السلالية للسكان ، وانما كانت نتيجته البارزة هي احلال اللغة السامية العربية محل اللغة السامية الآرامية ، مع اضافة الدين الاسلامي بشيعه المختلفة الى الدين المسيحي وطوائفه المتعددة ، وكلا الدينين ساميّان .

ج ـ النشاط التجاري والتوسع نحو الغرب

حقق السلم الروماني للشرق فترة طويلة من الازدهار . فقد تطورت الزراعة والصناعة ، وتابع الفينيقيون ، كعادتهم ، تصدير الخمور والخزف والزجاج ،

والانسجة الصوفية والكتانية المصبوغة بالارجوان . وكانوا يشحنون بضائعهم الى الخارج ، ويقيمون مراكز توزيع لسلعهم في الاسواق التجارية الكبرى .

وقد رأينا ان الفينيقيين ، بعد الفتح الروماني ، وبعد ان دمجوا بالولاية الرومانية السورية ، اصبحوا يدعون «سوريين» في الغرب ، كما بعد انتشار المسيحية في فينيقيا أصبح الذين تحولوا الى مذهبها يدعون « سرياناً » (سوريين) ، وذلك تمييزاً لهم من ابناء جنسهم الذين بقوا على الوثنية ولقبوا « آراميين » . ومنذ العهد الأول للتسلط الروماني ، نجد الفينيقيين يتابعون تقاليد اسلافهم ، وينتشرون في جميع مناطق العالم الروماني ، وبخاصة في الغرب : « انها الحقبة التي استعمر فيها التجار السوريون (اي الفينيقيون) الامبراطورية الرومانية » (Brémond) .

« طور الفتح الروماني الامكانات التجارية الفينيقية نحو الغرب . فالطرق التجارية امتدت شبكاتها على حجم الامبراطورية ذاتها . وقد شملت هذه الشبكات الرين والدانوب واسبانيا وانكلترا . وكانت سوريا وفينيقيا وفلسطين في قمة ازدهارها . وجميع المدن اتسعت وتغيرت ، فعمرتها المنشآت المدينية . وقد أعيد النظر بجبيل من الاساس ، فتكيفت وفق الخطة المدينية الجديدة ... اذ كانت في تلك الاثناء مدينة صغيرة ، بالقياس الى انطاكيا وبيروت وصيدا وصور . وكانت عظمتها بكونها مركزاً لعبادة ادونيس » [١] .

« نما نفوذ السوريين (اي الفينيقيين) نمواً مرموقاً في روما ، حيث كانوا بعدد كبير هناك ، فاصبح عدة باباوات من اصل سوري ... (فهم) منتشرون في جميع الموانىء ، ولكن نجدهم في الداخل كذلك . ففي ظل الامبراطورية كانوا يملكون مؤسسات في الاسكندرية وفي روما وفي اسبانيا وفي غاليا وفي بريطانيا العظمى ... وتؤكد كشوف الآثار هذا الانتشار السوري ، كما ان النصوص تدل عليه ايضاً » [٢] .

---

١) Dunand, **Byblos**, p. 36, 39

٢) H. Pirenne, **Mahomet et Charlemagne**, p. 39, 43

٤ — الامبراطورية الرومانية الشرقية او البيزنطية (٣٣٠ — ٦٤٠)

أ — دولة اغريقية مسيحية شرقية

حقبة التكوّن :

في ٣٣٠ ، انهى الامبراطور قسطنطين اعمال الترميم والتوسيع في مدينة بيزنطيا القديمة ، على ضفاف البوسفور ، فدشّن رسمياً بيزنطيا الجديدة واعطاها اسمه ، قسطنطينة ، واعلنها عاصمة الامبراطورية الرومانية .

كان انتقال عاصمة الامبراطورية من روما الى بيزنطيا اشارة انطلاق للامبراطورية البيزنطية ، التي نشأت بعد ذلك . ففي هذا الزمن بدأت الامبراطورية الرومانية التي اسسها اللاتين في ايطاليا ، تفقد طابعها اللاتيني بالتدريج ، وقد تحولت شيئاً فشيئاً الى دولة كبرى اغريقية — شرقية ، لم يبق لها من الرومان غير الاسم . ومع ان اللغة اللاتينية دامت وقتاً طويلا اللغة الرسمية فيها ، فان اللغة اليونانية كانت تحتل دورها بالتدريج ، حتى غدت اللغة المسيطرة .

وفي ظل حكم خلفاء قسطنطين ، بدأ العالم الاغريقي — الشرقي ، الذي التف حول « روما الجديدة » (قسطنطينة — بيزنطيا) الاغريقية المسيحية ، يعي دوره شيئاً فشيئاً . وبعد سنة ٣٩٥ م ، وهو تاريخ الانفصال النهائي بين قسمي الامبراطورية الرومانية ، الشرقي والغربي ، توزع هذا الالتفاف للعالم الاغريقي الشرقي حول ثلاثة مراكز هي : القسطنطينية وانطاكيا والاسكندرية .

في سنة ٣٢٥ م ، عقد قسطنطين اول مجمع مسكوني في « نيقيا » من اعمال « بيثينيا » . وهذا المجمع حدد المذهب المسيحي المستقيم ، وادان مذهب « اريوس » ، كاهن في الاسكندرية ، هذا المذهب الذي قسم الامبراطورية الى فريقين متشاحنين . وفي سنة ٣٣٥ م ، انعقد مجمع مسكوني آخر في مدينة صور ، في فينيقيا ، فادان « اثناس » ، اسقف الاسكندرية واحد كبار المعارضين للهرطقة الآريوسية .

وفي سنة ٣٦٤ ، تقاسم الامبراطور «فالنتينيان» واخوه «فالنس» الامبراطورية بينهما : فكان الشرق من نصيب فالنس والغرب من نصيب فالنتينيان . وفي سنة ٣٧٩ م ، صدر مرسوم امبراطوري بالغاء جميع الهرطقات الدينية . وفي سنة ٣٨٠ م ، صدر مرسوم ثان يعلن مذهب مجمع نيقيا ، المسمّى رسمياً « كاثوليكيا » ، اي عالمياً ، المذهب الديني للامبراطورية . وفي سنة ٣٨١ م ، طغت العقيدة الكاثوليكية ، المعتمدة في مجمع نيقيا ، على جميع العقائد الاخرى ، وذلك بعد انعقاد مجمع مسكوني في القسطنطينية ، اعلن فيه شعار نيقيا . وفي سنة ٣٨٨ م ، غدا تيودوس الاول ، الذي اعاد الوحدة السياسية للامبراطورية ، امبراطوراً للشرق والغرب .

وفي سنة ٣٩٥ م ، قسم تيودوس الاول ، وهو على فراش الموت ، الامبراطورية بين ولديه : فكان الشرق من نصيب « اركاديوس » ، والغرب من نصيب « هنوريوس » . وكانت الوحدة السياسية التي تربطهما معاً مجرد صيغة فقط . فقد انفصلت الامبراطوريتان انفصالاً ، لا رجعة عنه . وغدا لكل منهما تاريخها المستقل ومصيرها الخاص . واضبحت المجابهة بين الشرق والغرب والتطور المتميز للدولتين الطابع السائد للعلاقات بين هذين العالمين . اما ما يتعلق بالمسألة الدينية ، بنوع خاص ، فقد تطورت المسيحية تطوراً مختلفاً في الشرق عنها في الغرب .

ومنذ ولادة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، او الاصح ، الامبراطورية الاغريقية الرومانية والبيزنطية ، بصفة رسمية ، وهي « تعمل بانتظام وتماسك تام » . وبينما نجد امبراطورية الغرب ، التي رزحت تحت هجمات البرابرة سنة ٤٧٥ م ، لم تبق اكثر من اسم بعد هذا التاريخ ، فان امبراطورية الشرق ، التي صمدت لجميع العواصف وعاشت بعد ذلك ما يقارب الالف سنة ، لم تسقط الا سنة ١٤٥٣ م . بسبب شيخوختها ، امام ضربات الاتراك العثمانيين .

الصفات الاساسية للامبراطورية البيزنطية :

منذ ظهور الامبراطورية البيزنطية وهي تحمل الصفات الاساسية التالية : شكل هليني مسيحي ، مع سلطة وراثية ومطلقة على نمط الممالك الآسيوية ، دولة شرقية اي تيوقراطية دينية ، وذات ادارة بيروقراطية مغرقة في المركزية . أما بخصوص الازمات الخارجية والداخلية الكبرى ، التي كانت تهز هذه الامبراطورية باستمرار في القرن الخامس والتي اصبحت جروحاً لا اندمال لها طوال عهدها الطويل ، فهي : هجمات البرابرة ، والخصومة مع الفرس ، والخلافات الدينية .

القوة الامبراطورية :

كانت الامبراطورية تعني « بيزنطيا » ؛ ولكن على قمة بيزنطيا كان يتربع الامبراطور ، « الذي كان صورة السيادة التي يمتلكها ... فالسلطة الامبراطورية كانت بالحقيقة مطلقة ، ولم يكن هناك اي مجلس من الاعيان او من ممثلي الشعب ، ليضع مراقبة او مقاييس حكيمة امام هذه السلطة . وحتى الكنيسة ذاتها ... كانت تخضع للامبراطور وتعترف بسلطانه ، اذ كان يقرر العقائد كما يقرر الحرب والسلم . ولم يكن يخضع للقانون ، لانه هو مصدر القانون » [1] .

ب — الخلافات الدينية

اما فيما عدا الاخطار الخارجية التي كانت تتمثل بنوع خاص بغزوات البرابرة وبالحروب ضد الفرس ، فكانت هناك الازمات الداخلية الناشئة عن الخلافات الدينية ، وهي التي هزت العالم الشرقي وكانت تحركه بعمق وباستمرار ، ابتداءً

---

١) A. Bailly, **Byzance**, p .15, 16

من القرن الخامس ، فتهدد دائماً الوحدة السياسية للامبراطورية وتضعف من قواها الدفاعية .

النسطورية :

في سنة ٤٢٨ ، اقر « نسطوريوس » ، بطريرك القسطنطينية ، بطبيعتين مختلفتين في شخص المسيح ، معترفاً بأن الطبيعة الانسانية هي التي صلبت . دعي هذا المذهب « النسطورية » ، وقد قاومه « كيريلس » ، بطريرك الاسكندرية ، الذي تصدى له كخصم وفي الوقت ذاته كسلطة عليا . وانعقد مجمع مسكوني في « افسس » ، سنة ٤٣١ ، ادان نسطوريوس وعزله . وقد لجأ اتباع النسطورية الى « اديسا » و « نصيبين » والى بلاد فارس .

المونوفيزية (الطبيعة الواحدة) :

وفي سنة ٤٤٤ ، اعلن ديوسكور ، خليفة كيريلس في الاسكندرية ، المذهب المونوفيزي ، الذي لا يعتقد في شخص المسيح بسوى طبيعة واحدة ، فيرى ان الجوهر الالهي استوعب العنصر الانساني . وفي سنة ٤٥١ ،انعقد مجمع مسكوني في خلقيدونيا بامر من الامبراطور ، فادان المذهب المونوفيزي وعزل ديوسكور. واعلن المجتمعون تعميماً للصيغة الرومانية التي كانت تعتقد في المسيح شخصاً واحداً ذا طبيعتين . وفي هذا المجتمع حصلت كنيسة القسطنطينية على الامتيازات ذاتها التي لكنيسة روما .

لقد كان المنتصر الحقيقي في خلقيدونيا هو الحكم الامبراطوري ، اذ راح الامبراطور الكلي السلطة يحكم منذئذ الكنيسة الشرقية كسيد مطلق عليها . ولكن في سنة ٤٧٤ ، انتشر المونوفيزيون في سوريا وفي مصر ، بينما بقيت القسطنطينية مركزاً للاورثوذكسية الخلقيدونية . وفي هذه الحقبة بدأت التقاليد القومية ، الآرامية والقبطية ، تستيقظ في سوريا وفي مصر .

« قد نجد الآن صعوبة في فهم الاضطراب العميق الذي حملته للامبراطورية هذه الهرطقات الكبرى : كالآريانية ، والنسطورية ، والمونوفيزية ، حيث استسلم اللاهوتيون في الشرق للمجادلات في مثل هذه القضايا المعقدة بكل ما لهم من رهافة ميتافيزيقية ، حتى غدا جدلهم صيغاً شكلية فارغة من المضمون . وتحت هذه المظاهر الدينية ، كانت تختفي غالباً معارضة سياسية مثل : مناهضة سوريا ومصر للسلطة الهلينية ، والخصومة بين بطاركة الاسكندرية ، الذين يحلمون بأن يكونوا باباوات الشرق ، وبين بطاركة القسطنطينية » [1] .

وادت الازمة الدينية في القرن الخامس الى الانقسامات والخلافات الداخلية ، وبالتالي الى تصدع الوحدة الروحية للامبراطورية ، وشجعت الميول الانفصالية. وفي الشرق المتوسطي قادت المماحكات اللاهوتية ، التي كانت تستثير الجماهير ، الى تناسي « النفور القديم العميق بين مصر الحامية وسوريا السامية للوقوف ضد العالم الاغريقي وعاصمته القسطنطينية » .

ومن جهة ثانية ، كانت الخصومة بين الاساقفة او البطاركة في القسطنطينية وروما والاسكندرية وانطاكيا ، ذات اسباب حقيقية وعميقة ، وهي ظاهرياً في مسألة الرتب والمظاهر ، بينما تكمن في اعماقها الرغبة في الاستقلال عند البعض او الرغبة في السيطرة عند البعض الآخر . وكان بطريرك القسطنطينية يطمح لدور يماثل دور بابا روما . كما ان بطريرك الاسكندرية كان يطمح الى ذلك ايضاً وفي الوقت ذاته الى السيادة على بطريرك القسطنطينية ، الذي كانت مجابهته له تمثل مجابهة عالم الشرق المتوسطي للسيطرة الهلينية . وفي النهاية ، وبحجة الدفاع عن الافكار والعقائد الدينية المخالفة للسلطة المركزية ، راحت الاحزاب السياسية تناضل ضد الطغيان الامبراطوري . ومن اجل الحفاظ على الوحدة الروحية للامبراطورية ، هذه الوحدة التي كانت تضمن الوحدة السياسية راح الاباطرة من جهتهم يعاملون من لا يتفق مع افكارهم من الهراطقة وكأنهم عصاة او مجرمون .

(١ C. Diehl, Gr. **Memento Encycl. Larousse**, I, p. 220

أدت المجادلات والصراعات الدينية ، في ظل حكم جوستينيان (٥١٨ — ٥٦٥ م.) ، الى انفصال حقيقي بين انصار المذهبين اللاهوتيين : الخلقيدونيين والمونوفيزيين ، وقد خلق هذا الانشقاق في الامبراطورية ، وفي سوريا ومصر بنوع خاص ، جماعتين او كنيستين منفصلتين ، راحتا ، منذئذ ، تمثلان شعبين متباينين ومتخاصمين ، هما : الكنيسة الرسمية الخلقيدونية ، وكنيسة المنشقين المونوفيزيين ، المدعوين ايضاً اليعاقبة . والاولى تدعى الاورثوذكسية او الكاثوليكية ، وهي للمسيحيين الخاضعين لاوامر الامبراطور الذين قبلوا قرار مجمع خلقيدونيا (٤٥١) . وهذه الكنيسة تعرف ايضا باسم الملكية (الامبراطورية) ، من الكلمة السريانية (ملك) . وقد لازمها هذا الاسم حتى ايامنا هذه .

وبالنهاية فان الصراع الديني في القرن الخامس ، هذا الصراع الذي استعر بسبب الخصومة والاطماع بين بطاركة الاسكندرية وبطاركة القسطنطينية ، كان يخفي خلفه مشاكل سياسية مبطنة . « واذا شئنا معرفة ما افضت اليه خلافاتهم ، نرى في اعماق المظاهر الكنيسة الشرقية منقسمة على نفسها انقساماً لا التئام بعده ، والامبراطورية المسيحية مجزأة ، وقادة جيش خلفاء محمد يدوسون تحت اقدامهم سوريا ومصر . وهكذا كان ثمن هذه المجادلات الميتافيزيقية » (Mgr. Duchesne) . ومن المناسب ان نلاحظ ان المونوفيزية ، في نظر اتباعها في سوريا ومصر ، تتقارب كثيراً مع التوحيد الاسلامي ، اكثر من تقاربها مع المذهب الديوفيزي (الثنائي) ، اي الخلقيدوني ، الذي كان وضعه الطغيان الامبراطوري وحماه .

٥ — سوريا وفلسطين في الحقبة البيزنطية (٣٣٠ — ٦٤٠ م .)

أ — سوريا البيزنطية

انقسمت اراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية الى امارتين بريتوريتين ، كما

كانت في عهد الامبراطور ديوكليسيان (٢٨٥ — ٣٠٦م.) ، وهما : امـــارة « إليريا » ، للغرب ، وامارة الشرق . وكانت الامارتان تداران بواسطة اميرين بريتوريين ، هما نائبان عن الامبراطور ، يقيمان في القسطنطينية . وكانت الامارة منقسمة الى ابرشيات ، والابرشية الى ولايات .

وكانت امارة الشرق تشمل ابرشية الشرق وابرشية مصر. وكانت الاولى منقسمة الى خمس عشرة ولاية هي: سوريا، سوريا الممتازة (Salutaris) ، فينيقيا اللبنانية، فلسطين ، فلسطين الثانية ، فلسطين الممتازة ، العربية (شرق الاردن) ، الفراتية ، اوزرحين (اديسا) ، بلاد الرافدين ، كيليكيا ، كيليكيا الثانيـــة ، ايزوريا (جنوبي آسيا الصغرى) ، وقبرص . وكانت ابرشية مصر تقسم الى ست ولايات .

كان يدير هذه الابرشيات نواب عن الامراء البريتوريين . وكان نائب ابرشية الشرق يحمل لقب « كونت الشرق » ويقيم في انطاكيا . اما نائب ابرشية مصر فكان يحمل لقب « امير معظم » (Préfet Augustal) . وكان حكام الولايات تحت سلطة هؤلاء الامراء .

وقد بقيت انطاكيا ، عاصمة الولاية الرومانية السورية في الحقبة البيزنطيـــة ، العاصمة الادارية لابرشية الشرق ومقراً لكونت الشرق .

وكانت دمشق وحمص مدينتين اقليميتين بسيطتين . بينما استفادت حلب من « نشاط اقتصادي كبير ، في اثناء الحقبة البيزنطية » .

وفي ظل السلطة البيزنطية ، استيقظت الاسس الثقافية الآرامية القديمة في سوريا . وكانت روح المعارضة السياسية للقسطنطينية تعتمد على العواطف الدينية وتحقق النجاح للانشقاقات الكنسية في الشرق . وقد استعملت اللغة السريانية كلغـــة للطقوس الكنسية . وبعد ان اصبحت الارض الساميّة القديمة ارضاً مسيحية ، تذكر بطاركة انطاكيا والقدس الاصول الساميّة للكنيسة . وتميزت هذه النزعة في مدارس انطاكيا واديسا ونصيبين ، التي شاركت بنشاط ، منذ القرن الرابع حتى القرن السابع ، في ترسيخ العقيدة المسيحية .

وكما كانت سوريا عند الفتح الروماني ، قبيل سبعة قرون ، كذلك كانت عشية الفتح العربي : « فقد عادت آرامية وعربية » . وبعد ان يئست سوريا مـــن الاضطهادات الدينية ومن فوضى الضرائب البيزنطية وسوء توزيعها ، لم تبد أية مقاومة لصد العرب المسلمين (٦٣٤ — ٦٤٠ م.) .

ب — فلسطين البيزنطية

بعد ان تحول سكان فلسطين الى المسيحية ، في القرن الاول للميلاد ، تابعوا انشقاقاتهم ، على نهج اسلافهم الوثنيين . وقد انقسموا الى عدة طوائف دينية متخاصمة ، حافظت كل منها على خواصها الذاتية القديمة . ودامت خلافاتهم عدة قرون في فلسطين .

وفي عهد الامبراطورية المسيحية البيزنطية ، اصبحت القدس ، مسرح آلام المسيح ، مدينة الحج المفضلة ، وراح المسيحيون يتدفقون عليها لزيارة الاماكن المقدسة ، فأنشأ قسطنطين وخلفاؤه اول كنيسة مقدسة على قبر المسيح .

وفي سنة ٦١٤ غزت الامبراطورية الفارسية الساسانية اراضي الامبراطوريـــة البيزنطية ، فاحتلت سوريا وفلسطين ، وسقطت القدس ، واحرقت كنيسة القيامة . وقضي على عشرات الالوف من المسيحيين في قتال الشوارع او ارسلوا كاسراء الى بلاد فارس . «ان الغزوة الفارسية ... اتلفت الزراعة ، واقفرت المدن من سكانها ، وقضت على عدد كبير من الصوامع والاديرة ، واوقفت تطور التجارة ... ودخلت فلسطين في فترة مضطربة ، يمكن وصفها بالقرون الوسطى لو انها لم تطل حتى ايامنا هذه » [1] . وعندما استعادت الامبراطورية البيزنطية القدس ، سنة ٦٢٩ ، لم تكن قادرة على معالجة الشيخوخة والدمار الذاتي اللذين نكبت بهما .

---

١) N.P. Kondakov, cité par A. Bailly, **Byzance,** p. 126

ج – فينيقيا في ظل الامبراطورية البيزنطية (٣٣٠ – ٦٤٠ م.)

في العهد البيزنطي عرفت فينيقيا فترة ازدهار كبير في اعمالها التجارية . « وقد ظهرت قرى عديدة في كل مكان . واصبحت جبيل مركزاً لكرسي اسقفية ، واتسعت واكتظت بالسكان » (Dunand) .

وقد اتاح التوسع السكاني والتجاري للفينيقيين نحو الغرب ، مع نشاطاتهم الثقافية، فرصة لغزو اسواق اوروبا . وغدا اسمهم « السوري » مرادفاً لكلمة تاجر ، ويدل على جميع التجار الشرقيين في الغرب . « كانت سفنهم تجوب جميع انحاء المتوسط . وقد ملكوا مستعمرات هامة في المدن الرئيسية لاسبانيا وايطاليا وغاليا (فرنسا) ، حتى ليجدهم المرء على مرافىء البحر الاسود ، كما يجدهم على شواطىء مراكش . وقد تجددت تجارة الانسجة بعد ادخال دودة الحرير » الى بلادهم .

وفي روما كان الفينيقيون باعداد كبيرة . « وفي غاليا، حيث لم تتقاعس هجرتهم، غدا لهم نفوذ مرموق في المراكز الكبرى ، وبخاصة في باريس ، حيث انشأوا تحت اسم « سوريين » ، مستعمرة كثيرة السكان في العهد الميروفنجي (٤٨١ – ٧٥١ م.) » . و « في باريس كان اوزبيوس ، التاجر من اصل سوري ... ، وبفضل الذهب ، اشترى رتبة الاسقفية . ثم ، بعد ان ورث الحاشية من سلفه ، ملأ مراكز اعضائها بالسوريين ، وهذا يعني ان هؤلاء كانوا كثيري العدد هناك . ولكن الامر طبيعي ان يكثر تجمع هؤلاء في الجنوب ... ويشير بروكبيوس ، في زمن « بليزاريوس » (٤٩٤ – ٥٦٥) ، الى تاجر سوري يدعى انطيوخوس ، كان يتزعم الحزب الروماني . كما يعرف المرء من جهة اخرى بأن الكثيرين من هؤلاء السوريين كانوا يقيمون في ضواحي باريس » (١)

« في سنة ٥٩١ ، في ظل حكم كلوتير الثاني (٥٨٥ – ٦٢٨) ، كان احد السوريين اسقفاً لباريس ، بينما كان مواطنوه يشغلون العديد من المراكز

(١ H. Pirenne, **Mahomet et Charlemagne**, p. 44

الكهنوتية ، مما اثار نقمة رجال الدين من الوطنيين الاصليين . وذكر غريغوار التوري ان غونترام ، ملك بورغونيا واورليان (٥٦١ – ٥٩٣) ، عندما دخل الى اورليان سنة ٥٨٥ ، تلقى موعظة بالسريانية القاها عليه اسقف اورليان السوري . فالسوريون هم الذين ادخلوا الى غاليا صورة المسيح على الصليب . ولم يكن احد يجرؤ من قبل على اظهار هذا الاله على خشبة العقاب المهينة ، التي كانت خاصة بالعبيد » (١) .

في سنة ٥٥١ وسنة ٥٥٥ ، حدثت زلازل وموجات بحرية عالية وعنيفة ، بدرجة غير مألوفة ، فهزت جميع مدن الساحل اللبناني والسوري وقضت على اكثر من ٢٥٠ الف نسمة . وقد دمرت بيروت دماراً تاماً ، ومات تحت الانقاض اكثر من ثلاثين الف نسمة . فانتقلت مدرسة الحقوق الشهيرة عندئذ الى مدينة صيدا ، كما انتقلت مصانع الحرير ، مصدر ثراء المدينة ، الى بلاد اليونان . وفي سوريا الشمالية تهدمت انطاكيا خمس مرات في القرن السادس للميلاد .

٦ – سوريا وفينيقيا وفلسطين يحتلها العرب

في سنة ٦٤ قبل الميلاد ، رأينا ان الاغريق المقدونيين ، الذين شاخوا ووهنت قواهم بعد حوالي ثلاثة قرون من الحكم في الشرق المتوسطي ، تخلوا عن سلطانهم للرومان . وبعد سنة ٣٣٠ ، تخلى الرومان عن سيطرتهم للاغريق البيزنطيين . وهؤلاء الاخيرون ، بعد ان وهنوا بدورهم ، تخلّوا بين سنة ٦٣٥ و ٦٤٢ ، عن بلدان الشرق المتوسطي للفاتحين العرب الذين غزوها ، حاملين معهم ديناً سامياً جديداً ، هو الاسلام .

(١ Général Brémond, Berbères et Arabes, p. 54

القسم الثاني

الحقبة القارية او الاسلامية
من الفتح العربي حتى يومنا الحاضر
(٦٤٠ – ١٩٤٦ م.)

حل محل فينيقيا ، او بتعبير اصح محل لبنان البحري ، بعد الفتح العربي الاسلامي لبنان الجبلي ، المنعزل عن البحر والمتراجع الى حياة اقتصادية ريفية الاسس .

« فالعرب ، الذين كانوا يعيشون في السهول والصحاري الحارة ، كانوا يجهلون الجبل ... احاطوا به ... ونادراً ما اخضعوه لنفوذهم ... وكانت جبال الساحل المتوسطي ، لبنان وجبال العلويين وجبال البربر في الجزائر ، طوال العهد العربي ، تشكل حاجزاً منيعاً في وجه البداوة ، واحياناً في وجه العروبة ... أو الاسلام ايضاً ... وكان ابن خلدون لاحظ ان الاعراب (البدو) لا يستطيعون فرض نفوذهم الا في بلاد السهول »[1] .

(١ x. de Palmhol, Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, p. 41-43.

الفصل الحادي عشر

في عهد الخلفاء الراشدين في المدينة والأمويين في دمشق

(٦٣٥ ــ ٧٥٠ م.)

كسوف فينيقيا او لبنان البحري . ظهور لبنان الجبلي

١ ــ دولة الخلفاء الراشدين ، عاصمتها المدينة ، دولة عربية اسلامية محورها الحجاز (٦٣٥ ــ ٦٦١ م .)

أ ــ فتح الشرق المتوسطي (٦٣٥ ــ ٦٤٢ م .)

بعد انطلاق العرب المسلمين من شبه الجزيرة ، سنة ٦٣٥ ، انتزعوا من الامبراطورية البيزنطية سوريا وفينيقيا وفلسطين ومصر ، ومن دولة الفرس الساسانيين بلاد الرافدين . فبعد ان مزقت الخلافات الاجتماعية والدينية والقومية والسياسية الشعوب الاصلية لهذه البلدان ، وبعد ان ارهقت بالضرائب وبالاستغلال وبالتسلط الاجنبي ، طوال ما يزيد على الف سنة ، اصبحت مهيأة ، طبيعياً ، لتقبل فاتح جديد . وكما حدث في اكثر من مرة في الماضي البعيد ، لم تأبه هذه الشعوب لانتقالها الى ظل سيطرة جديدة أو لدفعها الضرائب الى جباة جدد . ومن جهة اخرى ، فان التوحيد الاسلامي ، من وجهة نظر المونوفيزيين المسيحيين ، الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى بين شعوب سوريا وفلسطين ومصر ، كان اقرب الى مذهبهم من المذهب الديوفيزي البيزنطي ، الذي يعتقد ان في المسيح طبيعتين ، إلهية وانسانية . واخيراً ان عرب الجزيرة وآرامي سوريا وبلاد

الرافدين ، وكنعانيي فينيقيا ، ينتمون الى عنصر واحد هو العنصر الساميّ ، ولغاتهم متقاربة فيما بينها .

في سنة ٦٣٥ ، حاصر العرب دمشق . وادت المفاوضات مع اسقف المدينة الى انسحاب الجنود البيزنطيين نحو الشمال . فضمن المسلمون للاهلين من المسيحيين بقاء ارضهم وبيوتهم وكنائسهم وحرية عقائدهم الدينية ، مقابل الالتزام بدفع ضريبة والتعهد بدفع جزية كان مبلغها اقل مما كان يدفعه هؤلاء للبيزنطيين . ومنذ ان تم هذا الاتفاق ، فتحت دمشق ابوابها للفاتحين الجدد سنة ٦٣٥ .

«كان سقوط دمشق حدثاً ذا اهمية كبرى. فهذا الفتحوضع نهاية لعهد دام ما يقارب الف سنة من السيطرة الغربية ، وقد عادت منذئذ المدينة الى مدارها الساميّ ، واتجهت من جديد نحو الشرق والصحراء . كانت اللغة والثقافة الساميّتان ، ومع المونوفيزية ، تشكل عناصر معادية للكنيسة الاورثوذكسية المتكلمةباليونانية. فاستقبل سكان دمشق الفاتحين بدون تحفظ ، لكونهم اقرب اليهم من البيزنطيين باصلهم وبلغتهم وبدينهم . بل هم لم يروا في الاسلام غير شيعة مسيحية منشقة ، املوا ان ينالوا حرية اكثر معها . وفي دمشق اكثر من اي مكان آخر ، ... لم تستقطب الهلينية سوى عدد قليل من الشعب ، الذي كان بمجموعه يتكلم للغة الآرامية . وقد بقيت انظمة الادارة البيزنطية سارية المفعول » [١] .

ب – التنظيم السياسي

قسم الفاتحون العرب ، الذين كان يرئسهم الخليفة المقيم في المدينة ، بلدان المشرق (سوريا وفلسطين ولبنان) الى عدة حكومات عسكرية سُمّيت « جند » ، كانت مراكزها بعيدة عن البحر وهي : دمشق ، وحمص ، وفلسطين ،

١) Elisséef, **Dimashk**, Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, II, p. 288.

والاردن ، وقنسرين . وقد الحقت مدن فينيقيا الساحلية بالحكومة العسكرية في دمشق ، اي « جند دمشق » .

ويحمل الزعيم السياسي والديني والعسكري والمدني للدولة التيوقراطية الاسلامية لقب الخليفة ، اي « خليفة رسول الله » ، وفي الوقت ذاته يحمل لقب « امام » ، اي « الرئيس الديني الاول » ، مع لقب « امير المؤمنين » . وكانت سلطته الروحية والزمنية مطلقة ، لا يحدها مبدئياً الا الشريعة الاسلامية . وكانت الادارة غير مركزية في الدولة ، حيث كان الخليفة يفوض سلطاته الى حكام الولايات ، الذين كانوا مطلقي السلطة تقريباً . وعدا عن تعيين الحاكم وعزله ، فان الخليفة لم يكن يتدخل مطلقاً في شؤون الولاية .

وفي سنة ٦٣٥ ، قام الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤ – ٦٤٤ م .) ، ثاني خلفاء النبي ، بتعيين عربي بارز حاكما لجند دمشق ، هو يزيد بن ابي سفيان ، الذي يلتقي نسباً بجد النبي الاعلى « عبد مناف » . وبعد موت يزيد سنة ٦٣٩ ، خلفه في الحكم على جند دمشق اخوه معاوية ، وكان أحد كتبة النبي . وقد اصبح معاوية نفسه ، فيما بعد ، خليفة (٦٦١ – ٦٨٠) الخلفاء الامويين (٦٦١ حتى سنة ٧٥٠) الذين اتخذوا دمشق مقراً لهم وعاصمة سياسية للامبراطورية العربية الاسلامية الفتية ، بدلاً من المدينة .

ويعود ميلاد امبراطورية الخلفاء الامويين في بلاد المشرق ، عملياً ، الى سنة ٦٣٥ م . ، اي الى تاريخ تعيين يزيد الاموي حاكماً واسع السلطات في سوريا . فالصلاحيات التي كانت ليزيد ، ثم لاخيه معاوية ، كممثلين للخليفة ، كانت تفوق سلطات الخليفة ، المقيم في المدينة .

دمشق :

« حصلت دمشق بسرعة كبيرة على طابع مقدس ، حيث كانت التقاليد تحفظ الشهرة لامكنة بارزة كان امها الانبياء ، فتزايدت حركة الحج اليها . وكان

الحجاج يأتون بشكل خاص الى جبل « قاسيون » ، الى مغارة آدم ، والى مغارة الدم ، حيث افترض مقتل « هابيل » ، ثم الى مغارة جبرائيل ، والى قريـة « برزه » ، حيث يُكرّم مكان ولادة ابراهيم . ويفترض كذلك مكان لقبر موسى (بن عمران) في حي « قدم » الحالي . ويذكر اسم يسوع ، عيسى بن مريم ، بين الانبياء الذين شرفوا المدينة : إذ اقام في « ربوة » ، فوق التلـة الهادئة ، ... وسينزل في نهاية العالم على المنارة البيضاء ... ، في الجامع الكبير ، ليحارب المسيح الدجال ... وقد دفع الامويون العاصمة الجديدة الى الاوج . وخلال قرن من الزمن ، غدت المركز المديني لعاصمة الخلافة والقلب لواحدة من الدول الكبرى التي عرفها العالم » (١) .

انطاكيا :

بعد ان ابعدت عن دورها ، الذي دام الف سنة ، كعاصمة لسوريا الاغريقية – الرومانية والبيزنطية ، « لم تذكر هذه المدينة الا نادراً في عهد الخلفاء المسلمين الاول . وقد كانت المركز العام لتنظيم جيش الحدود المدعوة «العواصم» . ويبدو انها بقيت مركزاً نشيطاً للحياة الفكرية (M. Streck) . ومنذ ذلك التاريخ بقيت مركزاً اقليميـاً .

حمص :

عند الفتح العربي قبلت حمص آماز الاغريقية – الرومانية ، دفع فدية للعرب ، الذين دخلوها بدون قتال سنة ٦٣٧ . وقد اختيرت كمركز رئيسي لجند حمص ، فغدت في عهد العرب مدينة هامة محصنة بقلعة منيعة .

ومنذ سنة ٤٥٢ ، كانت حمص عاصمة كنسيّة ، بعد ان رسخت فيها المسيحية.

(١ Elisséef, **Dimashk, op. cit.**, p. 288

« وبين القبائل العربية المقيمة في المنطقـة ، يجب ذكر بني تنوخ (التنوخيين)... وعند الفتح العربي ، جاءت من الجنوب قبائل عربية متعددة ، في حالة مزيج بين البداوة والاقامة ، للاستقرار في المنطقة . وقد غدت حمص عندئذ مركزاً هاماً لليمنيين ، ضمن منطقة بني كلب ، وهم من كبار مربي الخيول ... وفي وقعة صفين ، سنة ٦٥٧ ، وقف سكان حمص الى جانب علي ، وانتشر المذهب الشيعي وتفوّق نفوذه في المنطقة زمناً طويلاً » (١) .

حماه :

بعد ان سلمت « ابفاميا » القديمة (حماه) للعرب بموجب (اتفاقية) سنة ٦٣٦ – ٦٣٧ ، الحقت بجند حمص حتّى القرن العاشر .

حلب :

الحقت بجند حمص ، ثم بجند قنسرين ، « ولم تقم حلب باي دور اداري او سياسي في عهد الخلافة الاموية ... لم تتغير حياتها إلا ببطء بعد الفتح الاسلامي ، لان المسيحيين بقوا فيها كثيري العدد ويعانون من الخلافات نفسها التي كانت بينهم في الماضي ، ولان المنطقة ظلّت طوال قرن تقريباً حتّى اصبح عدد المسلمين فيها كافياً لبناء مسجد كبير بارز لهم » (٢) .

القدس ، اللد ، الرملة :

اصبحت القدس مركزاً دينياً محترماً للاسلام ، في عهد بني امية بنوع خاص ، وقد اعلنت فيها خلافة معاوية . وفي عهد الخليفة الاموي عبد الملك (٦٨٤ –

---

(١) Elisséef, **Hims, op. cit.**, p. 410

(٢) Sauvaget, **Haleb**, Encycl. de l'Islam, N.E., III, p. 88

٧٠٥) ، تم تشييد بناءين عظيمين في المدينة هما : قبة الصخرة والمسجد الاقصى . ولكن المركز الرسمي للولاية ، اي جند فلسطين ، في ظل الحكم الاموي ، كما بعد ذلك في ظل الحكم العباسي ، كان في « اللد » ثم بعد ذلك في « الرملة » .

وفي زمن دولة الخلفاء ، كان الفلسطينيون ، إن من اصل عربي ام من الاهلين الاصليين الذين استعربوا واسلموا ، كاسلافهم الذين تحولوا الى الآرامية والمسيحية ، يعانون من الخلافات الدينية او المذهبية ، التي كانت تقع مرة بين المسيحيين والمسلمين ، ومرة بين الطوائف المسيحية المختلفة او بين الطوائف الاسلامية المختلفة .

المدن الفينيقية :

الحقت مدن الشاطىء اللبناني الفينيقي ، مثل صور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وغيرها ، بالحكم العسكري لجند دمشق .

٢ – امبراطورية الخلفاء الامويين ، العاصمة دمشق ، دولة عربية اسلامية محورها سوريا ، واتجاهها نحو العالم المتوسطي (٦٦١ – ٥٧٠ م .)

كانت امبراطورية الخلفاء الامويين ، كسابقتها المباشرة دولة الخلفاء الراشدين ، دولة عربية اسلامية . ولكن ، بينما كانت دولة الراشدين تتخذ مدينة النبي (المدينة) عاصمة لها وترتكز على الحجاز ، مهد الاسلام ، بحيث تشكل دولة تيوقراطية اسلامية واقليمية ، كانت الامبراطورية الاموية تتخذ من دمشق عاصمة لها وترتكز على سوريا الآرامية المسيحية . فهي دولة عربية اكثر منها دينية ، وتتجه نحو العالم المتوسطي .

هكذا كانت امبراطورية الامويين : « مملكة عربية » . فالقبائل العربية التي خرجت من الجزيرة هي التي قامت بالفتوحات وكونت الدولة ، حاملة معها

العناصر المادية للحضارة الاسلامية . وقد اصاب من وصف « الاجيال الاسلامية الاولى بانها كانت تنظر الى الاسلام على انه دين عربي ، يضع الشعب العربي في مركز متميز ... » .

« ومن وجهة نظر الشعب العربي ، كان الخليفة الاموي ملكاً بدوياً ، يحكم دائماً بنفوذه الشخصي وبفضل الهبات التي كان يستطيع توزيعها . فبقي لذلك زعيماً للبدو حيث العرب لم يعدوا كونهم جيشاً يخيم في مناطق اخضعها لسلطته.. فالارستقراطية العربية لم تمد جذورها في الارض التي اصبحت لها ... ولهذا نجد الخليفة الاموي مشغولاً بالامور السياسية اكثر منه بالتوجيه الديني ، وكان الدنيوي لديه غالباً على الروحي ، ولكن اندماجهما بقي كاملاً ... وقد تابع الخليفة سياسة الحماية بالنسبة للمغلوبين ، ... فكان خضوع الرعايا له يقابله حماية الخليفة ... وبالمقابل كان (الرجل الخاضع والمحمي) يدفع ضريبة سنوية على ممتلكاته ، التي يتصرف بها بتسامح من الخليفة » [1] .

وفي هذه الامبراطورية العربية الاسلامية ، التي اتخذت عاصمة لها مدينة دمشق ، لعب سكان هذه المدينة ، الآراميون بلغتهم والمسيحيون بدينهم ، دوراً نافذاً في الادارة خلال عهد الخلفاء الامويين الاول . فقد اصبح سرجون بن منصور ، وهو سوري مسيحي ، المستشار الرئيسي لمعاوية ، ثم لابنه وخليفته يزيد الاول ، وقد انتقلت مسؤوليته بالوراثة إلى ابنائه . « وكانت الدواوين غاصة بالكتبة المسيحيين » (Mez) .

لقد بنت دولة بني امية قوتها السياسية والعسكرية على القبائل العربية ، أكانت هذه القبائل من البدو الرحل ام من الذين استوطنوا واقاموا في مكان معين . ولكن هذه القبائل العربية ، التي قامت بدورها كدعامة للخلافة ، لم تنس تقاليدها الخاصة وخصوماتها الوراثية ، فقادتها هذه الخصومات إلى صراع داخلي بين عرب الشمال (القيسيين) وعرب الجنوب (اليمنيين أو الكلبيين) . وقد دام

---

١) Gaudefroy-Demombynes, **Le monde musulman et byzantin**, p. 179-197

هذا الخلاف طوال عهد الدولة الاموية وكان السبب الرئيسي في دمارها ، سنة ٧٥٠ .

٣ – تغيير اللغة والدين في البلدان المفتوحة

« لم يؤد تسلط الفاتحين ، في البدء ، إلى اي تغيير ، اذ ان العنصر الاسلامي كان اقلية ضئيلة . وقد جرى التعريب ببطء ، وبقي المسيحيون يسيطرون في البلاط الاموي حتى خلافة عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥) . وعندئذ قاد تزايد عدد المسلمين إلى ردة فعل كان من نتائجها احلال اللغة العربية محل اللغة اليونانية كلغة رسمية للادارة » [1]

ولكون الفتح العربي من اعظم ملاحم المجد في التاريخ ، كان لا بد له من تأثير كبير على مصائر شعوب الشرق الادنى . فمن وجهة نظر التطور التاريخي لهذه الشعوب ، كان حدثاً جديداً في سلسلة الحوادث الكبرى التي تتالت في الماضي على شعوب الشرق الادنى ، فقلبت اوضاعها مراراً في القرون السابقة .

ومن وجهة النظر القومية والسياسية لبلدان المشرق ، فان الفتح العربي لم يحمل معه تحسينا للاوضاع السابقة . ففينيقيا وسوريا وفلسطين لم يحدث فيها سوى الانتقال من كونها ولايات ملحقة بالامبراطورية البيزنطية الهرمة المنهوكة القوى إلى مناطق خاضعة لدولة فتية في ذروة قوتها . فهذه البلدان السامية ، ذات اللغة الآرامية ، كانت تحتفظ ، كل واحدة منها ، بشخصيتها الجغرافية والقومية القديمة ، وهي لم تفعل سوى استبدال سيد بآخر ، حيث حل عرب الجزيرة العربية ، الساميون الشرقيون ، مكان البيزنطيين الاغريق ، الهندو – اوروبيين الغربيين . اما الاختفاء الظاهري للشخصية القومية الخاصة لكل من هذه البلدان ، في هذه الحقبة ، فكان نتيجة تقسيمها إلى مناطق ادارية ملتحقة مباشرة بالسلطة المركزية .

---

١) Elisséef, Dimashk, op. cit. p. 288

وبدون شك ، حلت اللغة العربية والدين الاسلامي محل اللغة الآرامية والدين المسيحي ، ولكن ذلك تم ببطء وبالتدريج . وفي الواقع ، ان الفتح العسكري لبلدان الشرق المتوسطي حدث في اقل من عشر سنوات ، بينما عملية التعريب ونشر الاسلام بين الاكثرية العظمى لهذه البلاد ، لم تتم الا خلال عدة قرون . ومن المهم هنا الاشارة إلى ان الاسلام هو دين سمح ، وكان الخلفاء الاولون أودّاء للحرية . فبقيت على شأنها سوريا وفلسطين وساحل لبنان ومصر وارض الرافدين ، إلى نهاية القرن العاشر تقريباً ، حتى غدت الاكثرية بين سكانها من المسلمين ، بينما اللغة العربية لم تصبح لغة شعوب هذه البلاد الا في اوائل القرن الثالث عشر .

وقد رأينا ان هناك تغييرات في اللغة والدين حدثت ، في الماضي ، في فينيقيا وفي بلدان الشرق الادنى ، كما في أوروبا . فاوروبا الغربية ، مثلاً ، حيث قضت السيطرة الرومانية على الحضارات الاصلية للسكان ، تبنت « غالباً » اللغة والحضارة اللاتينية ، وفي مرحلة لاحقة الدين المسيحي . وفي ظل سلطة الفرنك ، وهم من الغزاة الجرمان الذين جاؤوا من منطقة البلطيق حوالي نهاية القرن الخامس ، عرف الغاليون باسم « الفرنك » ، مع ان لغتهم كانت اصبحت اللاتينية . واعتقدوا طوال عدة قرون ، انهم من « سلالة الفاتحين الجرمان » . وقد بقوا إلى القرن التاسع عشر ، حتى « قبل الفرنسيون بالاصل الغالي لبلدهم ولقومهم » . وحدث الامر نفسه تقريباً بالنسبة للفتح العربي . ففي فينيقيا وسوريا وفلسطين وارض الرافدين ومصر وغيرها ، اعتقد السكان الذين تبنوا لغة الفاتحين ودينهم ، انهم من سلالتهم أيضاً ، في حين ان اولئك الفاتحين لم يكونوا سوى اقلية ضئيلة بالنسبة لسكان البلاد المفتوحة .

وكما حدث في الماضي ، حين اضمحلت اللغة الفينيقية في لبنان والامورية في سوريا والاشورية البابلية في ارض الرافدين ، امام اللغة الآرامية ، وكما تراجعت الوثنية امام المسيحية ، كذلك بعد الفتح العربي ، راحت اللغة العربية تحل بالتدريج محل الآرامية ، كما راح الاسلام بالتدريج يضم اليه قسماً هاماً من السكان . ولكن هذا التحول اللغوي والديني الذي حصل ، لا يختلف عن

التحولات التي سبقته في الزمان والمكان . فهذه كانت بجوهرها سطحية ولم تغير اعماق نفس السكان الاصليين . فالصفات الجوهرية التي كيفها الوسط الطبيعي للفينيقيين القدماء ، بقيت ، كصفات الشعوب الشرقية الاخرى ، متواصلة بعد الفتح العربي الاسلامي . وهي تسم بسماتها الخاصة ورثتهم وخلفاءهم الذين تعربوا وانضووا إلى الدين الاسلامي او بقوا على الدين المسيحي . وهذه الصفات لا تزال تحكم حركة تطور هذه الشعوب بوجه عام ، حتى يومنا . وهذا نفسه ما حدث بعد تحول هذه الشعوب إلى الآرامية ثم إلى المسيحية ، في القرون التي سبقت الاسلام . وبسبب تغيير هذا المظهر الخارجي في اللغة والدين ، تكوّن اعتقاد بان الفينيقيين والآراميين والبابليين وغيرهم ، قد اضمحلوا بعد الفتح العربي . اما الحقيقة فهي ان هذه الشعوب المختلفة ، بتحولاتها السطحية وفق هذا التغير الجديد ، بقيت في بلادها ذاتها بعد الفتح العربي ، كما بقيت بعد كل فتح سابق ، ودامت لها طباعها الجوهرية الاساسية .

٤ — الفينيقيون والعرب

من اجل تثبيت الفتح على السواحل الفينيقية . ولمقاومة خطر البحرية الرومية اي اليونانية ، قام معاوية ، حاكم جند دمشق ، بوضع خفراء غير عرب على الشواطىء اللبنانية ، جاء بهم من بعلبك وحمص وانطاكيا . وحوالي سنة ٦٦٣ ، جاءت جماعات من الاعوان الفرس فاقامت في صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة ، وذلك للدفاع عن البلاد ضد الغزوات البيزنطية .

ومن جهة اخرى ، وتحت ضغوط الاوساط الاقتصادية المسيحية لمدن الساحل ، وارثة التقاليد البحرية والتجارية الفينيقية ، صمّم معاوية ، وهو الممثل لشعب ليست له اية خبرة في البحر ، على مواجهة العدو في البحر ، اي في المجال المنيع لهذا العدو . وبهذا الدافع قام بانشاء اسطول بحري عربي ، كان ربابنته وملاحوه من الشعوب المسيحية . وفي سنة ٦٤٩ ، هاجم جزر قبرص ورودس وكريت . وفي سنة ٦٥٥ ، هزم الاسطول البيزنطي عند الساحل الجنوبي

للأناضول . « وهذا الاسطول الفتي ، الذي كان يعد ، كما يروي المؤرخون العرب ، الفاً وسبعمئة قطعة ، كان بقيادة لبنانيين وسوريين ، معظمهم من المسيحيين » (١) .

وعلينا ان نتذكر هنا ان العرب ، الفاتحين الجدد للبلاد ، لم يكونوا مجهولين لدى الفينيقيين . فمنذ الازمنة الموغلة في القدم كان الفينيقيون ، بقوافلهم التي كانت تجتاز الصحراء السورية — العربية ، يتعاملون ، كما رأينا ، مع سكان الجزيرة العربية ، فنشأت بينهم علاقات اقتصادية وتجارية على نطاق محدود . ثم ان التقارب بين اللغة الفينيقية واللغة العربية ، وهما ساميتان معاً ، سهل هذه العلاقات تسهيلاً كبيراً .

ومن جهة اخرى فان الفتح العربي الاسلامي ، الذي راعى المصالح الاقتصادية لشعوب فينيقيا المسيحية ، لاقى الترحيب من الفينيقيين المسيحيين . وقد اتاح لهم هذا الفتح تنمية نشاطهم البحري في المتوسط الشرقي ، الذي كان وقفاً على البيزنطيين ، كما اتاح لهم تنمية علاقات تجارية ، بطريق البر ، مع ايران وآسيا ، بعد ان اصبحوا ينتمون معاً لدولة واحدة ، هي الدولة العربية الاسلامية ، المتخذة من سوريا مركزاً لها . وكما رأينا ، كان الفينيقيون في الماضي ينسجمون دائماً مع المتسلطين الغرباء الذين يأتونهم من البر ويستفيدون من مؤهلاتهم البحرية كما حدث عندما اقترنت مصلحتهم مع مصلحة الفاتحين الفرس الاخمينيين (٥٣٩ — ٣٣٢ ق . م .) اعداء الاغريق ، منافسي الفينيقيين في البحار .

وهذه الحالة يجب اعتبارها ملازمة للسياق التاريخي في ذلك الزمن ، وليس على نور الحوادث التي ظهرت فيما بعد . ففي زمن الفتح ، ورغم ان العرب كانوا يمثلون رسالة دينية جديدة ، فهم لم يضطهدوا احداً لاسباب دينية . وهذا ما رافق عملية اخضاع البلاد المفتوحة ، وعلى الاخص في معاملتهم للشعوب التابعة ، تلك المعاملة التي سهلت تحول هذه إلى الاسلام بدون اكراه . فما دام الرعايا المحكومون يدفعون الضرائب ، فان حياتهم وممتلكاتهم مصونة ودينهم يحظى

(١ A. Ismaïl, **Le Liban : Histoire d'un peuple**, p. 45, 46

بالاحترام . فالدولة العربية – الاسلامية لم تكن تهتم الا قليلاً جداً بالمشاكل الداخلية . وفي المناطق المسيحية ، كان الاساقفة هم الذين يصرفون الامور المدنية لاتباعهم . ولم يحدث التمييز بين المسلمين وغير المسلمين الا في عهد دولة الخلفاء العباسيين ، بعد ما يقارب قرنين من الزمن . وهذه الدولة لم يكن لها من العروبة غير لغتها ، وقد عانى غير المسلمين من اجراءات مهينة وتنكيدية بحقهم في عهدها .

وكأسياد لسوريا وفينيقيا وفلسطين وارض الرافدين ومصر ، وكورثاء بعيدين للملوك الايرانيين : الاخمينيين والبارثيين والساسانيين ، نهج الامويون نهج هؤلاء الاخيرين بالعمل لفرض سيطرتهم على البحر ، الذي كان لا يزال تحت السيطرة البيزنطية . وكما فعلت سابقاً الامبراطورية الفارسية الاخمينية ، باعتمادها على مساندة الاسطول الفينيقي لاستلحاق اليونان بها والسيطرة على بحر ايجيه والبحر المتوسط الشرقي ، فعلت الدولة العربية الاسلامية ، بمناصرة البحارة اللبنانيين ورثاء التقاليد البحرية الفينيقية . فهؤلاء بنوا الاسطول العربي الذي قام بمهاجمة القسطنطينية ، وقد استعملوا لذلك موانىء طرابلس وصور وعكا ، وقدمت لهم غابات لبنان الخشب اللازم لتحقيق هذا المشروع . وكان ربابنة السفن وقادتها « من البحارة المسيحيين ، من عكا وصور وطرابلس ... وقد قادوا فوق الامواج (جموع العرب) الذين كانوا يخافون من البحر » .

٥ – تصدع الوحدة المتوسطية . الخلاف بين الشرق القاري الاسلامي والغرب البحري المسيحي

في سنة ٦٧٤ ، قام اسطول بحري عربي قوي بمحاصرة البوسفور وبتهديد القسطنطينية . ولم تنج العاصمة الاغريقية – الرومانية الا بفضل ابتكار « النار الاغريقية » . وعلى أثر محاولة جديدة من المسلمين انتهت بنكبة سنة ٦٧٧ ، انسحب الاسطول العربي . وفي سنة ٧١٨ ، كانت بيزنطيا اعادت بناء قوتها البحرية والعسكرية ، فدحرت الجيش والاسطول العربيين اللذين كانا عادا من

جديد لحصار القسطنطينية وتمكنت من اعادة سيطرتها على شواطىء آسيا الصغرى فتنازل العرب عن البحر وتركوه للبيزنطيين .

ولكن الحرب بين الدولتين لم تتوقف . وعندما سيطر البيزنطيون على البحر ، غدا هذا محظوراً على رعايا الدولة العربية ، الذين لم يعد بامكانهم الاتجار مع الاعداء . وكذلك حوالي هذا التاريخ (سنة ٧٠٠) انقطعت المواصلات البحرية بين الشرق والغرب انقطاعاً تاماً تقريباً . وبهذه العملية تم انفصال الشرق عن الغرب ، واصبح هناك حضارتان مختلفتان متباغضتان ، هما الاسلام والمسيحية . وقد كانت كل واحدة منهما مواجهة للاخرى على شواطىء المتوسط ، التي كانت مفتوحة قبل ذلك لجميع الامم والشعوب .

وغدا هذا التصدع في الوحدة المتوسطية هو القاعدة طوال القرون التي تلت ذلك. واصبحت الدول الاسلامية ، التي تتالت بعد ذلك التاريخ (الاموية والعباسية والسلجوقيين والاتراك والفاطميين والايوبيين والمماليك والاتراك العثمانيين) ، اصبحت هذه جميعاً تشكلات سياسية وعسكرية على اساس اقليمي ، ودائماً تقريباً في نزاع مع القوى الغربية ، التي كانت تسيطر بالتتالي على المتوسط الشرقي (كالامبراطورية البيزنطية ، والامارات الايطالية ، واوروبا الغربية) . وخلال القسم الاكبر من هذه الحقب التاريخية ، التي دامت حتى اوائل القرن العشرين ، وباستثناء فترة السيطرة الصليبية ، فان البحر المتوسط ، وهو ميدان منيع للمسيحيين الغربيين ، كان يعتبر منطقة معادية للدول القارية الاسلامية في الشرق الادنى ولاتباع هذه الدول . وكان محظوراً ، عملياً ، على تجارتهم واسفارهم . فقد كانت السفن الحربية وحدها ، او سفن القراصنة ، هي التي تقوم بالمخاطرة فيه .

٦ – انقطاع فينيقيا عن الغرب

قبل سنة ٧٠٠ كما رأينا ، كانت جماعات من التجار الفينيقيي الاصل قد اقامت في روما وفي غاليا ، حيث عرفوا هناك باسم « سوريين » . ولنذكر هنا انه

ومنذ الفتح الروماني ، غدا الغربيون يعرفون جميع سكان بلاد المشرق (الفينيقيين والسوريين والفلسطينيين) الذين كانوا يقيمون بينهم ، بالسوريين ، وذلك بسبب اندماج بلادهم في الولاية الرومانية السورية التي كانت عاصمتها انطاكيا . وفي حدود سنة ٧٠٠ ، وبعد حدوث الصدع بين الشرق والغرب ، هذا الصدع الذي قطع ما بينهما من علاقات اقتصادية وتجارية قطعاً تاماً تقريباً ، توقفت هجرة الفينيقيين والسوريين إلى الغرب للاقامة فيه .

« تحطمت الوحدة الاقتصادية القديمة للبحر المتوسط ، وقد بقيت حطاماً حتى الحقبة الصليبية ... وكانت روما ، بنوع خاص ، استقبلت عدداً من السوريين في السنوات الاولى التي تلت الفتح العربي لبلادهم . وكان عدد هؤلاء ونفوذهم كبيرين بحيث وصل اربعة منهم إلى كرسي البابوية ... ولكن ... هجرة العلماء والفنانين لا تعمل لايجاد علاقات تجارية بين بلادهم الاصلية والبلاد التي لجأوا اليها ... ونحن لا نعجز فقط عن العثور على نص واحد ، على الاقل ، يشير إلى وجود تجار سوريين او شرقيين في الغرب ، بل نذكر ان منذ القرن الثامن فقدت جميع المنتجات التي كانت تستورد إلى غاليا ... كالتوابل واوراق البردي . فهذه اختفت من النصوص بعد سنة ٧١٦ ، ... كما اختفت كذلك خمر غزة ... وبالمثل حدث لاستعمال الحرير الذي اصبح غير موجود في تلك الحقبة » [١] .

٧ — احتجاب فينيقيا البحرية

« فقدت موانىء البحر المتوسط نشاطها التجاري مع الغرب منذ الفتح العربي . وغدا الشاطىء المتوسطي للبرزخ السوري جبهة عسكرية بين الامبراطورية الاموية والامبراطورية الرومانية ، منذ فشل المحاولتين الامويتين لفتح القسطنطينية » (A. Toynbee) .

(١ H. Pirenne, **Mahomet et Charlemagne**, p. 103-106

خلال السنوات الالف من الحكم الاغريقي — الروماني ، رأينا ان النشاط البحري للتجارة الفينيقية قد تقهقر واصبح في الرتبة الثانية ، نسبة لتجارة الاغريق والرومان ثم البيزنطيين ، الذين ، بسيطرتهم على البحر ، احتكروا المغانم الكبرى فيه . ولكن في ظل السيطرة الاسلامية ، « كان البحر مقفلاً بوجه التجارة ، وغدت فينيقيا جبهة حرب بين الاسلام والمسيحية » . وهكذا شل النشاط التجاري تماماً ، منذ ذلك التاريخ . وغدت المدن الفينيقية مقفرة بائسة ، بعد ان نزح عنها اهلوها إلى الجبل ، تاركينها قرى خاملة الذكر . وقد بقيت المدن السورية الداخلية (دمشق وحلب وحمص) ، كمحطات للطريق البرية الكبرى بين العراق ومصر ، تتمتع بنشاط نسبي . ولكن ازدهارها تراجع مضطراً ، بسبب اضطراب الحياة الاقتصادية المتوسطية وخراب المدن البحرية اللبنانية ، التي كانت المدن السورية كوسيط لها على ابواب الصحراء . وكذلك اصبح البر ، منذ ذلك التاريخ ولعدة قرون ، باستثناء فترات موقتة متقطعة ، الميدان الرئيسي للحياة الاقتصادية ، وبرزت الاقطاعية كنتيجة حتمية للتقهقر الاقتصادي ، فاستقرت في كل مكان ، في فينيقيا وفي بلاد الشرق الادنى .

ومن المناسب لنا هنا تذكر ان فقدان فينيقيا لمركزها وتقاليدها البحرية ، بعد الفتح العربي الاسلامي ، وفقدانها لشخصيتها القومية المميزة ، حدثا بسبب فشل العرب بانتزاع السيادة على البحر من البيزنطيين ، اكثر منه بسبب الفتح العربي ذاته . ولو ان العرب نجحوا بتحويل البحر الروماني إلى بحر عربي ، لكان من المؤكد ان ورثاء الفينيقيين وخلفاءهم ، بفضل ما لديهم من تأهيل بحري وبسبب موقع بلدهم الجغرافي ، كانوا سيجنون المغانم الرئيسية ، تماماً كما حدث لهم في ظل حكم الفرس الاخمينيين .

وكان هذا الانقطاع الكامل تقريباً للنشاط التجاري والبحري ، مع تفوق الجبل على المدن الساحلية التي تقهقرت إلى منزلة القرى ، بالاضافة إلى ما حدث في استبدال اللغة والدين ، هو ما حمل على الاعتقاد اخيراً بان الفينيقيين قد اضمحلوا بعد الفتح العربي ، دون ان يتركوا عقباً لهم من سلالتهم . ولكن الحقيقة هي

ما نكرره ، من ان الفينيقيين قد بقوا في بلادهم ، وبخاصة في المنطقة الجبلية ، وإن استبدلوا اللغة والدين ونوع العمل .

٨ — ظهور لبنان الجبلي على المسرح التاريخي

« ان حركة المد البدوي التي كانت تغمر الصحاري والهضاب (العربية) ، وصلت فاصطدمت بسفح المرتفعات الجبلية دون ان تستطيع اكتساحها اكتساحاً حقيقياً ... وهكذا بقيت المرتفعات الاكثر اهمية منتصبة فوق الصحاري ومنيعة بوجه عام » . (Plamhol op. cit. p. 42) .

كان جبل لبنان ، قبل الفتح العربي ، موطناً لبعض الجماعات المسيحية التي كان يرئسها زعماء وطنيون يخضعون للامبراطور البيزنطي . وقد تركهم العرب على هذه الحالة ، مكتفين منهم بتبعية اسمية رأوها افضل لهم من الفتح العسكري لبلاد هؤلاء الجبليين الشديدي المراس .

وعندما حرمت المدن الفينيقية من نشاطها البحري ، بعد الفتح العربي ، تقهقرت إلى مستوى قرى عادية ، واتجهت لاستثمار القسم الجبلي من البلاد . ولما وجد السكان انفسهم في الجبل يعيشون في بيئة مقفلة ، مجبرين على الاعتماد على النفس بينما عددهم كان يتكاثر بسبب النزوح الكبير من المدن نحوهم، بدأوا يعملون لزيادة انتاجهم الزراعي بالاعتماد على الزراعة الكثيفة . ولضيق الاراضي الزراعية في الجبل ، اضطر عدد كبير منهم إلى البحث عن الثروة في البلاد الغربية . كما ان الغابات التي كانت تغطي ارض البلاد راحت تختفي شيئاً فشيئاً .

وتحت ضغط هذه الفواعل الاقتصادية والسياسية ، بدأت عملية تهجين كبرى تفرض نفسها في البلاد الكنعانية الفينيقية ، فتغير معها الدور التاريخي القديم والميزات التقليدية التي كانت لها . وبدل النشاط الاقتصادي التجاري البحري الذي كان العمل الرئيسي لفينيقيا طوال معظم الازمنة القديمة ، اصبح النشاط الاقتصادي الريفي هو ما يستوعب اهتمام الاهلين طوال القرون التي تلت .

وفي هذه الحقبة تحول اللبناني بالنتيجة إلى قروي فلاح او راع ، وفي الوقت ذاته إلى محارب جبلي ، ليحمي ارضه وحرياته . وكخليفة ووارث لفينيقيا البحرية العالمية ، اصبح لبنان ، الجبلي والريفي هذا ، الجد البعيد للبنان الازمنة الحاضرة .

ومع ان سكان لبنان اضطروا إلى الحياة الزراعية ، فهم لم يكونوا ، مع ذلك ، غرباء عن هذه الحرفة . فاجدادهم واسلافهم الفينيقيون ، في اوج توسعهم البحري والاستعماري ، « لم يتركوا اقل جزء من الارض قابلاً للزراعة بدون استثمار . وقد علقوا زراعاتهم على مصاطب تتصاعد فوق منحدرات جبل لبنان ، فاستثمر الفينيقيون من الارض جميع الموارد التي يمكن ان تقدمها لهم ... كما سار القرطاجيون على النهج الفينيقي نفسه ، والف اثنان ، هما هملقار وماغون (القرن الخامس قبل الميلاد) ، مؤلفات زراعية كان لها في زمنها شهرة كبرى ... وقد بقي صيت ماغون حتى سقوط قرطاجة مدوياً ، فحفز مجلس الشيوخ الروماني على ترجمة مؤلفاته إلى اللاتينية » [1] . « ونحن نجد في الادب السامي للازمنة القديمة مقالات من نوع « الزراعة النبطية » ... وقد استمرت هذه المقالات ، حتى ازمنة متأخرة ، فكانت عملية اتصال بين الادب العربي وذاك الادب السامي القديم ، الذي كان الفينيقيون طبعوه بطابعهم ، ككل الاشياء التي مارسوا فيها نشاطهم » [2] .

٩ — جبل لبنان ملجأ الاقليات

« الجبل ، هو اساس وجود البلد اللبناني . فهو الذي اعطى هذا البلد السمة الجوهرية لذاتيته ، وهو الحصن السياسي والعسكري الذي يولّد الاستقلال والذي اصبح ، بتطور طبيعي ، ملجأً دينياً » .

---

١) Contenau, **La civilisation phénicienne**, p. 223, 225

٢) Ph. Berger, **Phénicie**, La Grande Encyclopédie, 26, p. 623

أ ـ اسم لبنان

مع ان اسم لبنان هو لفظ سامي يعني « البياض » ، وقد استعمل منذ الالف الثالث قبل الميلاد ليدل على مجموعة القمم الجبلية العالية التي تنحدر نحو الشاطىء المتوسطي الشرقي ، فاسم جبل لبنان لم يعد يعني ، منذ الفتح العربي ، الا المناطق الجبلية في الشمال ثم في الوسط ، التي كان يسكنها المسيحيون الموارنة . فالمنطقة الوسطى التي اقام فيها الدروز كانت تحمل ، في القرن الحادي عشر ، اسم « جبل الدروز » او الشوف . ولم تحمل مجموعة المناطق الجبلية في شمال البلاد وفي وسطها اسم لبنان رسمياً الا بعد الاستقلال الذاتي لجبل لبنان سنة ١٨٦١ . اما الجزء الجنوبي من الجبل ، حيث يقيم المتاولة (الشيعة) ، فقد كان يعرف باسم « بلاد بشاره » او « جبل عامل » .

رأينا خلال آلاف السنين التي انطوت ، منذ البدء حتى الفتح العربي ، العوامل الفيزيائية والاقتصادية والتاريخية التي فرضت تكوّن فينيقيا ووجّهت تطورها ورسالتها ، وبخاصة في المجال التجاري والبحري والثقافي .

ومنذ الفتح العربي ، الذي تلاه تدهور اقتصاد المدن الساحلية اللبنانية نتيجة للشلل الذي اصاب الملاحة والنشاط البحري ، تحول كما رأينا ، مركز الثقل الاقتصادي والبشري والسياسي ، في لبنان ، عن مدن ساحله المقفرة الخربة إلى الجبل المجاور ، حيث اقام معظم سكان هذه المدن القدماء، وبدأت تنمو معهم الاهمية الاقتصادية والسياسية للجبل .

ب ـ ملجأ الاقليات

غدا جبل لبنان ملجأ للاقليات الباحثة عن الحرية والامن ، على اختلاف انواعها . وسواء كانت هذه الاقليات من المواطنين الاصليين ام من البلدان المجاورة ، فتلقى فيه ملاذاً لها . وبذلك اصبح لهذا الجبل شخصية متفردة سياسياً وقومياً ، ولا تزال له حتى الآن . وقد بدأ تطور هذه الشخصية الجماعية للبنان منذ الفتح

العربي ، واستمر بدون توقف ، بيسر وعسر ، خلال هذه الحقبة التاريخية .
فجبل لبنان ، بعد ان انقطع عن شاطئه وانعزل عن البحر ، انكفأ إلى حياة ريفية ورعوية ، فاتجه تطوره منذئذ نحو ، الزراعة وتربية الماشية ، خلال القرون التي تلت ، مغتنماً الفرصة بين وقت وآخر ليعيد انشاء فينيقيا في حدودها الطبيعية والتاريخية ، اي لبنان الحاضر ، وريث التقاليد التجارية والبحرية والثقافية لفينيقيا القديمة .

١٠ ـ الجبليون اللبنانيون يناهضون العرب . الجراجمة او المردة (٦٦٠ ـ ٦٩٠)

حوالي سنة ٦٦٠ ، بعد ان قام العرب بعدة حملات برية في آسيا الصغرى ، راحوا يستعدون لمهاجمة القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية الاغريقية ـ الرومانية . ولتلافي هذا الخطر ، قرر البيزنطيون خلق مشاكل لهم في السواحل السورية ، فاتجهوا نحوسكان جبل لبنان . وكانت الاهمية الحربية لبلاد هؤلاء ، المشابهة لقلعة جبلية ، قد جذبت انتباه معاوية ، الذي حاول الاستيلاء عليها بدون جدوى . وإذ رأى اللبنانيون المنعزلون في مرتفعاتهم ان التدخل العسكري من جانبهم ضد العرب يمكنه ان يفتح لهم مخرجاً إلى البحر ، استجابوا لدعوة بيزنطيا فارسلت لهم مدداً من المحاربين هم : الجراجمة او المردة .

هكذا يدعون نسبة إلى مدينة « جرجومة » ، الواقعة في جبل امانوس (طورس الشرقي) . وهم سكان الحدود العربية البيزنطية في شمال انطاكيا : قبائل مسيحية محاربة كان لها شبه استقلال في ظل البيزنطيين ، الذين كانوا يتخذون منها الجنود وفرق المساندة غير النظامية . وقد عرفهم المؤرخون البيزنطيون باسم « المردة » ، إذ لعبوا دوراً هاماً في الحروب بين العرب والبيزنطيين .

وحوالي سنة ٦٦٦ ، كان الجراجمة يسيطرون على جميع النقاط الحربية في لبنان . وقد تعززت صفوفهم بانضمام عدد كبير اليهم من سكان جبل لبنان والبلدان المجاورة ، الذين كانوا يناهضون الدولة العربية ، يضاف إلى ذلك

آلاف من الفارين الاغريق ومن العبيد او اسرى الحرب ، الذين كانوا يصلون إلى سوريا مع حملات الغزو .

« خلال خلافة معاوية (٦٦١ — ٦٨٠) ، دفع الامبراطور قسطنطين بوغونا المردة (الجراجمة) إلى سوريا ... فاحتلت عصاباتهم جميع المنطقة الممتدة من الجبل الاسود (امانوس) حتى المدينة المقدسة (اورشليم) ، وسيطرت على جميع قمم جبل لبنان . فانضمت للجراجمة جماعات كثيرة من العبيد الآبقين ، اليونانيي الاصل ، ومن سكان جبال البلد (لبنان) ، الذين التقوا في غاية مشتركة معهم . وفي وقت قليل بلغت مجموعتهم عدة آلاف من الرجال . ولكي يوقف معاوية هذه الحركة الخطرة ، دخل في محادثات مع الامبراطور . وبعد مباحثات طويلة ، قبل بمعاهدة صلح باهظة (ضريبة سنوية قدرها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية ، وتحرير ثمانية آلاف اسير ، وتقديم خمسين جواداً من اصائل الخيل) ... »

« وفي زمن الخليفة عبد الملك (٦٨٨ — ٦٨٩) ، دفع الامبراطور جوستنيان الثاني... الجراجمة إلى سوريا... ولكي يضع الخليفة حداً لغزو هؤلاء المغامرين، اضطر إلى عقد اتفاق معهم يدفع لهم بموجبه الف دينار في الاسبوع . ومن ثم عرض على الامبراطور الصلح بالشروط نفسها التي كانت مع معاوية ... وقد رفع الامبراطور مطالبه ... فاضطر الخليفة للتخلي عن نصف خراج قبرص وارمينيا وايبيريا للامبراطور. وبهذا الثمن قبل جوستنيان سحب المردة. فاستدعى منهم اثني عشر الفاً واسكنهم في الاراضي البيزنطية ... وقد انضمت جماعة من مردة لبنان إلى جيش الامبراطور في ارمينيا ... فعاد القرويون الذين اشتركوا معهم إلى قراهم ، كما عاد العبيد الفارون إلى اسيادهم . ودخل بعض هؤلاء المغامرين في خدمة الخليفة » [1] .

وقد اندمجت جماعات المردة التي بقيت في لبنان بالسكان المسيحيين ، وبنوع خاص بالموارنة، الذين كانوا وصلوا حديثاً من شمال سوريا . وفي زمن المردة

(١ M. Canard, **Djaradjima.**, Encycl. de l'Islam, N.E., II, p. 468, 469

هؤلاء (٦٦٠ — ٦٩٠) ، بدأ دور لبنان يبرز كملجأ للاقليات الطائفية شبه المستقلة ، التي راحت تظهر على المسرح التاريخي والسياسي للشرق الاسلامي . وقد دام ذلك خلال القرون التي تلت بعدئذ .

١١ — موارنة لبنان

أ — الموارنة وبلادهم الاصلية

ظهر أول مجتمع للموارنة في وادي العاصي ، في سوريا الشمالية .

قبل الفتح العربي :

كانت بلدان الهلال الخصيب جميعاً مسيحية تقريباً،وكانت تشمل اربع كنائس كبرى متميزة ، مع مجتمعاتها من المؤمنين ،وتنظيماتها الاكليريكية الخاصة(بطاركة واساقفة وكهنة وغيرهم) . وهذه الكنائس هي : الكنيسة الملكية او الاورثوذكسية وهي كنيسة رسمية تقريباً تخضع للتوجيهات الامبراطورية البيزنطية (ومنها جاء اسمها : ملكية ، من ملك اي امبراطور) ، ثم الكنيسة النسطورية، والكنيسة المونوفيزية او اليعقوبية ؛ والكنيسة المورانية . وكانت اللغة الدينية والادبية لهذه الكنائس الاربع هي اللغة الآرامية او السريانية ، وهي اللغة الدارجة لبلدان الهلال الخصيب آنذاك . وفي الكنيسة الملكية ، كانت اللغة الآرامية كلغة للطقوس الكنسية ، فحلت محلها بعدئذٍ اللغة اليونانية .

كانت الكنيسة الملكية ، التي يرئسها البطريرك الملكي الانطاكي ، تضم سوريا ولبنان وفلسطين ، بينما كانت الكنيسة النسطورية ، التي يقيم رئيسها في اديسا (اورفا الحديثة ، او الرها قديماً) ، تشمل ارض الرافدين وايران . وكان رئيس الكنيسة المونوفيزية يقيم في شرق سوريا ، ورئيس الكنيسة المارونية ، اي البطريرك الماروني لانطاكيا ، يقيم في دير القديس مارون ، قرب افاميا ،

على نهر العاصي . وقد توزعت فيما بعد الطائفة المونوفيزية (اليعقوبية) حسب البلدان ، فكان منها: سريان اورثوذكس، وارمن اورثوذكس ، واقباط اورثوذكس. والملكيون ، بدورهم ، اصبح منهم روم كاثوليك ، وروم اورثوذكس ، بينما حافظ الموارنة على اسمهم الاصلي .

في نهاية القرن الرابع ، كان حبيس قديس ، يدعى « مارون » ، ويلفظ اسمه « موران » او « مران » ، يعيش في ضواحي افاميا على العاصي ، حيث كانت هذه المدينة مركزاً اقليمياً في سوريا الثانية ، في شمال غربي حماه . كما هناك ترجمة اخرى لحياته تذكر انه عاش في جبل « وابو » او « يامبو»، المعروف اليوم بجبل سمعان ، في غرب حلب . وجذبت قسوة حياته وخشوعه وصلاته الجماهير والتلاميذ الذين اعتنقوا مذهبه . وبعد موته (حوالي ٤١٠) ، اسس تلامذته مركزاً لنشاطهم هو دير القديس مارون ، في ضواحي افاميا على العاصي ،لشرقي مدينة حماه ، وذلك احياء لذكرى معلمهم . وهكذا كونوا النواة الاولى للكنيسة المارونية .

في البدء ، كان تلامذة القديس مارون مندمجين بمسيحيي سوريا الآخرين ، الذين كانوا يعيشون بينهم . وعند انشقاق المونوفيزيين (سنة ٤٥١) ، على اثر انعقاد مجمع خلقيدونيا ، وجدوا الفرصة مناسبة للانفصال عن باقي مسيحيي سوريا وتأسيس مجتمع طائفي متميز . وقد تكاثرت اديرتهم على ضفاف العاصي ، وكان اشهرها دير القديس مارون ، حيث اصبح المركز المسيحي الاكثر اهمية في سوريا ، فكانت له الاولية على جميع المؤسسات الدينية للمنطقة . وهو اعطى اسمه ، ليس فقط للرهبان ، بل للمؤمنين الذين تبعوهم ، اي للشعب الماروني .

وكان تعلق رهبان القديس مارون بتعاليم مجمع خلقيدونيا يسبب لهم متاعب قاسية ، وبخاصة من جانب المونوفيزيين ، الذين كانوا كثيري العدد، ونافذين. وفي السنوات الاولى للقرن السادس ، لاقى ٣٥٠ راهباً مارونياً حتفهم واحرق عدد من اديرتهم .

بعد الفتح العربي (٦٣٥ – ٦٤٢) :

راح الموارنة يعانون في سوريا عناء مضاعفاً من اعدائهم الطائفيين ، وبنوع خاص من المونوفيزيين ، حيث غدا لهؤلاء نفوذ لدى العرب، اذ انهم رحبوا بهم عندما جاؤوهم كفاتحين ، وذلك بسبب كرههم للبيزنطيين .

وكانت الصراعات الدينية والسياسية التي قادها الموارنة ضد اعدائهم قد انمت لديهم حس المجتمع الخاص ، وجعلتهم يشعرون بالحاجة إلى رئيس واحد ينتخب من بينهم ، وذلك لتوحيد جهودهم توحيداً افضل ولتنسيق نشاطهم . وهكذا ، عندما خلت الكرسي البطريركية في انطاكيا لوقت طويل (٦٠٩ – ٧٤٢) ، حيث كانت القسطنطينية تعين من يشغل هذا المنصب ، قام الموارنة ، سنة ٦٨٧ ، كما يؤكد بعض المؤرخين ، باعلان المطران يوحنا مارون ، اسقف البترون في لبنان ، منذ سنة ٦٧٦ ، بطريركاً عليهم ، وقد حمل لقب بطريرك انطاكيا ، وهو اللقب الذي حمله خلفاؤه حتى هذا اليوم . ولحؤول الحوادث السياسية والدينية دون اقامة رؤساء الكنيسة المارونية في انطاكيا ، اتخذ هؤلاء من دير القديس مارون ، على العاصي ، كرسياً لبطريركيتهم . واصبح الاخلاص للبطريرك عند الموارنة ، وسيلة للتعبير عن العاطفة الوطنية . وفي الواقع ، « طالما ان الفكرة الدينية هي التي قام على اساسها الشعب الماروني ، فاصبح من الطبيعي ان يكون البطريرك جامع شملهم وفي الوقت ذاته المحور السياسي والاكليريكي. وقد تعزز هذا الوضع بالحقوق الزمنية التي اقرها العرب للرؤساء الزوحيين للطوائف المسيحية ، والتي وافق عليها الصليبيون والمماليك والاتراك العثمانيون»[1] .

ب – موارنة لبنان

في اواسط القرن السابع ، كان الموارنة قد انتشروا انتشاراً واسعاً في جميع مناطق سوريا الشمالية . ولكي يتخلصوا من اضطهاد خصومهم ، فضل عدد

١) Mgr. P. Dib., **L'Eglise Maronite**, p. 158, 159

منهم التخلي عن السهول السورية الخصبة ، فأخذ البعض يتجه نحو قبرص والآخرون يتجهون نحو المنحدرات شبه القاحلة لجبل لبنان ، حيث كونوا مجتمعاً طائفياً ووطنياً يعيشون فيه كما يشاؤون ، بقيادة رؤسائهم الروحيين . وقد التف الموارنة الذين بقوا في سوريا الشمالية حول أساقفتهم وكهنتهم، في مناطق حمص وحماه ومعرة النعمان وحلب وانطاكيا وغيرها .

وتوالت هجرة الموارنة إلى لبنان من سوريا الشمالية بنشاط ، بعد ان بدأت في نهاية القرن السادس .« فأقام هؤلاء في منطقة الشمال في اول الامر، وبخاصة عند سفح الكتلة الجبلية التي يعلوها الارز ، ثم اندفعوا نحو الوسط والجنوب . وهكذا شيئاً فشيئاً غطى هذا الشعب العامل النشيط ارض لبنان . وقد بقي القسم الشمالي كمركز لتجمعه ... وحيث كانوا مضطرين للحياة في وسط هذه البيئة الجافية الصعبة نحتوا الصخور بصبر لا يكل ، فاوجدوا فيها جلولاً للزراعة وبساتين معلقة وجنائن شرحة ... لقد اصبح للشعب الماروني منذئذ وطن نهائي ... » .

« كان هم الموارنة الاول ، عند وصولهم إلى لبنان ، تنظيم امور العبادة . ومنذ اواسط القرن الثامن نجد كنائس مارونية ، مثل كنيسة « سار — ماما » في اهدن ، وهي بنيت سنة ٧٤٩ . وكان القادمون الجدد على اتصال بالسكان المحليين ، من بينهم عناصر غريبة كالجراجمة (المردة) ، فدمجوهم بهم ، بحيث أضحوا شعباً واحداً » [1] .

وقد نتج عن اندماج الموارنة والمردة والمسيحيين المحليين حوالي سنة ٧٠٠ ، ظهور الطائفة المارونية ودورها التاريخي على مسرح الاحداث في لبنان . وغدت اللغة السريانية وهي لغة آرامية مسيحية ، اللغة الدينية والادبية والشائعة لهذه الطائفة .

---

١) P. Dib, op. cit., p. 170, 172

ج — الموارنة والخلفاء الامويون

قبيل الفتح العربي — الاسلامي ، كما رأينا ، انشأ المسيحيون المونوفيزيون (اليعقوبيون) ، في سوريا وفلسطين وفينيقيا ومصر ، كنيسة منشقة ، منافسة للكنيسة الملكية الرسمية الخاضعة للامبراطور ، ومضطهدة من السلطات البيزنطية . فلما اقبل الفاتحون العرب ، استقبلهم المونوفيزيون بمودة ، ونالوا حظوة كبيرة لديهم .

كما ان الموارنة ، الذين اسسوا ، منذ القرن السابع ، في سوريا ، كنيسة خاصة مستقلة عن بيزنطيا ، كانوا يعاملون بمراعاة من قبل الامويين ، بحيث ان عدة خلفاء اقاموا في مؤسسات رهبانية مارونية . ومنذ ما قبل سنة ٧٠٠ ، كانت دمشق ، « التي تحولت إلى الاسلام بغالبيتها ، غير منسجمة مع سادتها الجدد » . ولذلك ترك الكثيرون من هؤلاء السادة عاصمتهم واقاموا في اماكن منعزلة نوعاً ما : في الاديرة المارونية في سوريا ، او في قصور بنوها على حدود الصحراء السورية — الفلسطينية : مشتى ، قصير ، عمره ، وغيرها .

وقد ذكر ابن عساكر ، في كتابه « تاريخ دمشق »، ان « عدة خلفاء امضوا قسماً من حياتهم وتوفوا في اديرة مارونية . فالخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) كان ينزل خلال سنوات خلافته في دير مار سمعان الماروني ، قرب معرة النعمان (جنوبي حلب) ، حيث لا يزال هناك قبره . كما ان الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥) كان يمضي فصل الربيع في دير المران (مارون) ، الواقع في جوار دمشق . والخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥) توفي في دير مارون هذا ، ودفن فيه ... وفي هذا الدير نفسه اقيمت احتفالات اعراس بعض (امراء) بني مروان ... (والخليفة) يزيد بن معاوية (٦٨٠ — ٦٨٣) (والخلفاء العباسيون) هارون الرشيد (٧٨٦ —

٨٠٩) والمأمون (٨١٣ – ٨٣٣ م.)، كانوا كذلك يقيمون للاستجمام في دير مارون . وقد بنى المأمون القبة التي تقوم فوق جبل دير المران (مارون) »[1] .

١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مطبعة روضة الشام ، دمشق ١٣٢٩ هـ ، ص ٢١٠ و ٢٥١ .

الفصل الثاني عشر

من بدء الخلافة العباسية حتى مجيء الصليبيين

(٧٥٠ – ١٠٩٩ م.)

فوضى واقطاعية في بلدان المشرق

منذ بدء الخلافة العباسية (٧٥٠) حتى مجيء الصليبيين (١٠٩٩) ، انتقلت السلطة في بلاد المشرق بالتتالي ، واحياناً معاً ، من الخلفاء العباسيين في بغداد الى الحكام الاتراك في مصر (الطولونيين ثم الاخشيديين) ، الى الخلفاء الفاطميين في القاهرة ، ثم الى سلاطين الاتراك السلجوقيين في العراق وإيران .

١ – دولة الخلفاء العباسيين.العاصمة بغداد ، دولة اسلامية محورها العراق واتجاهها نحو ايران والقارة الآسيوية (٧٥٠ – ١٢٥٨)

أ – الدولة العباسية ، دولة قارية آسيوية

عندما فشلت محاولات الخلفاء الامويين في السيطرة البحرية على المتوسط الشرقي ، قضت الثورة الايرانية على السلالة الاموية في دمشق ، سنة ٧٥٠ . واقامت مكانها سلالة الخلفاء العباسيين ، الذين جعلوا من العراق مركز الثقل في دولتهم الاسلامية الواسعة . وقد حلت هكذا بغداد محل دمشق ، كعاصمة للخلافة .

وكان الذي قاد ثورة الايرانيين المسلمين ضد السلطة الاموية في دمشق ومن

تبعها من قبائل عربية في البادية السورية – العربية ، كان رجلاً ايرانياً من خراسان ، هو ابو مسلم الخراساني . وقد فاز بالخلافة مرشح الخراسانيين ، ابو العباس ، من احفاد العباس عم النبي ، فاعلنت خلافته في الكوفة ، في العراق (سنة ٧٤٩) . « ولم يكن نجاح ابي مسلم لمهارته باغتنام اخطاء خصومه وحسب ، ولكن كان كذلك لعجز هؤلاء عن الاتحاد ... فبسبب التنافر الكبير بينهم اكبّ الزعماء العرب على الدسائس، فكانت المصالح الخاصة والغرور تنقلهم من هذا المعسكر الى المعسكر الآخر » (١)

« بعد ان قضى عبد الله بن علي ، عم الخليفة الجديد ، على الدولة الاموية ، احتل دمشق ... في سنة ٧٥٠ ، واصبح اول حاكم عباسي لها . وقد هدم الابنية الاموية والتحصينات الدفاعية وانتهك القبور . ومنذئذ بدأت حقبة قاتمة في تاريخ دمشق ، فانتقلت الى رتبة مدينة اقليمية ، بينما اصبحت عاصمة الخلافة في العراق (الكوفة ، ثم بغداد) . وقد سيطرت حالة تمرد كامن في العاصمة السورية ... وكانت سلطة الحكام العباسيين تصطدم بها بلا انقطاع » (٢) .
« انتهت « المملكة العربية » مع انتهاء الخلافة الاموية ، وفي الوقت ذاته ، فقدت سوريا سيطرتها التي مارستها طوال قرن على الشرق الاسلامي ... وهذا التغير ... كان واضحاً بسبب انتقال العاصمة من دمشق إلى العراق . فقد كان الخلفاء الامويون يهتمون بأمور البحر المتوسط ... فتحولت الخلافة العباسية للتطلع نحو الشرق ، وغدت بذلك خلافة آسيوية كاملة . كانت تجارتها تنمو نحو الخليج الفارسي والبحر الهندي ، ونحو آسيا الوسطى حيث اتسعت سيطرتها ... وقد غدت بغداد ... سوقاً رائعة على طريق الهند » (٣) .

وهكذا ، بعد اقفال البحر وامتداد الدولة الاسلامية نحو آسيا ، انتقل مركز الثقل الاقتصادي للشرق الادنى نحو موقعه الطبيعي : السهول التاريخية لبلاد الرافدين . ولنذكر انه ، حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، كان توسع التجارة

(١ G. Demombynes, **Le Monde Musulman et Byzantin,** p. 264

(٢ Elisséef, **Dimashk, op. cit.,** p. 289

(٣ G. Demombynes, **op. cit.,** p. 269, 271, 272

والامبراطورية البحرية الفينيقية نحو المتوسط الغربي ، ادى الى انتقال مركز الثقل الاقتصادي ، في هذه الحقبة ، من بابل ، قلب آسيا الغربية سابقاً ، إلى الشاطىء اللبناني ، في فينيقيا البحرية .

وعندما اتخذت الدولة العباسية ارض الرافدين محوراً لها واتجهت نحو ايران ، اصبحت دولة قارية في اساسها ، عراقية – ايرانية واسلامية اكثر منها عربية . وفي هذه الفترة ، « توقف اندفاع الفتح العسكري توقفاً تاماً » . وككل الامبراطوريات القارية التي سبقتها في هذه المنطقة (المتانية ، والحثية ، والكلدانية ، والفارسية الاخمينية ، وغيرها) ، توقفت عند البحر الذي كان يسيطر عليه العدو البيزنطي ، والذي كان مصدر خوفها .

« منذئذ بدأ التصدع يزداد في الدولة الاسلامية بين الولايات البحرية والولايات القارية ، كما حدث في الماضي للامبراطورية الفارسية (٥٤٠ – ٣٣٠ ق. م.) ... وتسبب تصدع الوحدة المتوسطية بانتزاع الاسبقية الاقتصادية التي كانت للبحر منذ فتوحات الاسكندر الكبير (٣٣٠ ق. م.) ... فالعواصم الكبرى التي كانت ، قبل الف عام ، انتقلت إلى شاطىء البحر ، عادت إلى داخل البر . فازاحت بغداد انطاكيا عن عرشها ، وازاحت القاهرة الاسكندرية عن اوليتها ... اما روما والعالم اللاتيني ، فقد اصيبا بكسوف كامل تقريباً . وغدا الاسلام ، ووريث العالم الشرقي والفينيقي ، والقسطنطينية ، التي تابعت رسالة الهلينية المتدهورة في الامكنة الاخرى ، مركزي الاشعاع الحضاري لبضعة قرون » (١) .

وهكذا ، ومنذ وجودها ، كانت الدولة العباسية ، كسابقتها البعيدة الامبراطورية الفارسية الاخمينية ، التي اتخذت بابل احدى عواصمها ، كانت ترى ولاياتها البحرية تتداعى وتستعد للانفصال عنها ، بينما كانت ولاياتها القارية تغوص شيئاً فشيئاً في النظام الاقطاعي . وفي سنة ٨٧٢ استعادت مصر ، بدون ثورة ، شخصيتها واستقلالها السياسي في عهد الاتراك الطولونيين .

(١ J. Pirenne, **Les Grands Courants de l'Histoire Universelle, II,** p. 12, 14

وبالنتيجة ، فان دولة الخلفاء العباسيين ، التي كان محورها العراق واتجاهها نحو ايران ، كانت تشكلاً سياسياً قارياً ، آسيوياً في جوهره ، وهو عراقي — إيراني أكثر منه عربياً ، بيما كانت امبراطورية الخلفاء الامويين ، على عكس ذلك ، تشكلاً سياسياً عربياً ، محوره سوريا واتجاهه نحو المتوسط . وعدا عن ذلك فان العناصر العربية ابعدت عن الادارة والجيش بعد وصول العباسيين الى الحكم . ولم يبق من التراث الذي حمله عرب الجزيرة معهم سوى اللغة العربية والدين الاسلامي . ولهذا « كان الفتح العربي قصيراً جداً ... ولم يبق احد في الجزيرة وراء موجة الهجوم الاولى لكي تخلفها . فالصحاري العربية ليست أمكنة احتياط لتصدير الرجال للخارج »[1] .

« كانت طبقة المسلمين المستجدين ، التي التفت حول عناصر عربية قليلة العدد ، هي التي حملت العباسيين إلى السلطة ، وكان وضعهم ، على الاقل في الولايات الوسطى للدولة ، وضعاً ثابتاً مضموناً في حضن المجتمع الاسلامي . ومن بين العناصر المستجدة هذه ، كان الخلفاء يختارون اصحاب الرتب العالية في الدولة ... الذين كانوا محاطين بكثرة بالذميين ، من اليهود والمسيحيين ، سواء تحول هؤلاء الى الاسلام ام لم يتحولوا بعد »[2] .

« لم يكن الجيش العباسي يعتمد على التنظيم القبلي . فقد كان جيشاً من المأجورين ، وبوجه عام ، كانت تؤخذ عناصره من غير العرب»، من المرتزقة الايرانيين والاتراك والبربر ، وفيما بعد من السلاف والزنوج .

وكانت دولة خلفاء بغداد كدولة خلفاء المدينة ودمشق ، ليس لها دستور او انظمة سياسية . وبينما كانت قوة الخلفاء الامويين تقوم على قوة ومعاضدة القبائل العربية ، كانت قـــوة الخلفاء العباسيين تقوم على كونهم من سلالة العباس ، عم النبي . وكان الوزير ، اي رئيس الوزراء ، يمارس ، بتفويض من الخليفة ، سلطة مطلقة . وفي خارج العاصمة ، كانت سلطة

(١ E.F. Gautier, Mœurs Coutumes des Musulmans, p. 224, 225

(٢ G. Demombynes, **op. cit.**, p. 273, 274

الخليفة تفوض الى شخصيات بارزة يحكمون ولاياتهم وكأنهم ملوك اقطاعات مقلّدون بسلطات واسعة جداً . وكانت الدولة العباسية ، كسالفتها الاموية ، دولة لا مركزية واقطاعية تقريباً .

ب — الدولة العباسية ، دولة اسلامية

ومن جهة اخرى ، وبخلاف الدولة الاموية ، حيث « طغى الزمني على الروحي » ، فان الدولة العباسية كانت سلطنة آسيوية اسلامية ، تشدد على السلطة الروحية للخليفة .

« حكَمَ أمويو دمشق كما كان يحكم امراء الجزيرة العربية القدماء، مما أثار استنكار العناصر التقوية في المدينة الذين كانوا يطبقون بصرامة احكام الشريعة ، بينما كان الامويون يفصلون بين السلطتين الروحية والزمنية ... ولكن بعد تسلم العباسيين زمام الحكم ، نشأ تغيّر في الظاهر على الاقل : كان الامويون حكاماً زمنيين بدرجة اولى ، بينما ظهر العباسيون كحكام روحيين وزمنيين . وخالف هؤلاء منهاج اسلافهم الامويين ، فضموا اليهم الحزب الديني ، الذي كانوا يحتاجون اليه لاضفاء الشرعية على سلطتهم. وقد انتصرت بواسطتهم الفكرة الايرانية ، الداعية للاتحاد التام بين الدين والدولة »[1] . وبالتأكيد ، « كان اتباع الخليفة العباسي عرباً ، بالدين واللغة ، ولكنهم لم يكونوا من عرب الجزيرة العربية. بل من الموالي القدماء المستعربين .... اي المتمدنين القدماء في البلاد المفتوحة »[2]. وكما كانت شعوب الشرق الادنى المختلفة ، قبل الاسلام ، تتحدد بروابط دين مشترك ، غدا المجتمع العباسي متحداً كذلك بالاسلام .

« ان جميع الشرق الادنى هو بلد التجسدات الالهية . فهناك الظاهرات البطولية ،

(١ H. Massé, **l'Islam**, p. 91

(٢ Gautier, **op. cit.**, p. 227

والاشخاص الذين ، بوحي مباشر أو بصفة وراثية ، يتحدثون باسم الله ... ولكي تعاد السلطة لهذه العائلة المقدسة (عائلة النبي) رفضت الولايات الشرقية الخضوع للامويين ... ومن جهة اخرى ، فان بعض الذين قبلوا بسلطة العباسيين، ادعوا بانهم وجدوا في نفوسهم الشعاع الالهي الذي كانوا الفوا وجوده في ملوكهم ... وكانت بلاد الفرس لا تزال أرض الخياليات الاجتماعية ، حيث كان الناس ينتظرون ظهور كائن فوق الطبيعة لكي يحققها ... وقد اعطى المسلمون الجدد دافعاً جديداً للاسلام ... فكانوا للدولة العباسية البيئة المناسبة لانتشار المذاهب التي كان يبتكرها الأئمة الكبار » [1] .

لقد غدا الطابع الديني او الاجتماعي لسلطة الخلفاء العباسيين طابع جميع رؤساء الدول المسلمين (الخلفاء والسلاطين والملوك وغيرهم) ، الذين توالوا على السلطة او حكموا في آن واحد بلاد الشرق المتوسطي في هذه الحقبة . وحيث كانوا جميعاً ، تقريباً ، مسلمين سنيين ومن اصل غير عربي (ايرانيون ، اتراك ، وغيرهم) ، كانوا يبحثون باستمرار عن كسب ود المسلمين العرب ، الذين كانوا بغالبيتهم من السنة ، وذلك بابراز الصفة الروحية للسلطة وبانتداب انفسهم كحماة للسنة ضد المناهضين لها من المسلمين وغير المسلمين . وهذه السياسة دعت ، كما سنرى ، إلى تجمع العناصر غير السنية في مجتمعات مختلفة ، سياسية – طائفية متينة التنظيم ، من اجل الدفاع عن معتقداتها وحقوقها وحرياتها .

٢ – لبنان في عهد الخلفاء العباسيين (٧٥٠ – ٨٧٢)

عامل العباسيون لبنان ، كما عاملوا سوريا وفلسطين ومصر ، معتبرين اياها بلاداً مفتوحة بالحرب .

(١) G. Demombynes, **op. cit.**, p. 272-274

ورغم اقفال البحر ، الذي اعتبره الخلفاء منطقة حرب ، فان مدن الشاطىء اللبناني ، حيث كانت تقوم عدة مصانع تنتج سلعاً للتصدير ، كانت تستقبل ، بين آن وآخر ، السفن البيزنطية ، وكان الولاة العباسيون يتسامحون إزاء هذه التجارة ، حيث كانوا يجدون فيها مسوغاً لزيادة جباياتهم المالية . ولكن الاضطرابات السياسية والحروب والثورات والقراصنة ، اجبرت مراراً هذه المنتجات الصناعية على التوقف ، او على تخفيض انتاجها وتصديرها .

في سنة ٩٥٧ « بسبب الطغيان وظلم الولاة العباسيين ، اضطر مسيحيو لبنان الى حمل السلاح ، منتهزين فرصة وجود قوة بيزنطية في منطقة طرابلس . وقد انتخب جبليو منطقة المنيطرة (شرقي جبيل) زعيماً لهم ورفعوا « راية الصليب » واستولوا على قرى البقاع ، ثم زحفوا على بعلبك . وقد وقعوا في كمين فتكبدوا خسائر كبيرة ، وعندما دحروا الى الجبل فقدوا حصنهم في المنيطرة . وقبض على العصاة في قراهم وتم تشريد معظم اللبنانيين في الاراضي السورية . فأثارت الاعمال الجائرة هذه احتجاجات الامام الاوزاعي ، فقيه بيروت الشهير » [1] .

ولمواجهة غارات سكان جبال لبنان والبيزنطيين ، نقل الخليفة المنصور (٧٥٤ – ٧٧٥) الى الشاطىء اللبناني قبائل عربية من منطقة حلب . وكانت ابرز هذه القبائل قبيلة التنوخيين ، التي نزلت في منطقة الغرب ، على المرتفعات المجاورة لبيروت . وسنرى فيما بعد ان هذه القبائل المهاجرة إلى لبنان ، مع القبائل التي تلتها بعد ذلك ، اصبحت مع الزمن ذات شخصية لبنانية اصيلة ، تناضل بشجاعة من اجل استقلال الجبل .

ولكن ذكر الخلفاء الامويين كان لا يزال حياً في سوريا ، وذلك بسبب الظلم الذي كانت ترزح تحته هذه المنطقة . « فكان الخوف من عودة الامويين يمنع العباسيين من النوم » . وفي عهد الخليفة المأمون (٨١٣ – ٨٣٣) ، تم القضاء على ثورة انفصالية في شوارع دمشق ، كان قام بها احد الذين إدعوا

(١) Lammens, **op. cit.**, I, p. 131, 132

النسب للامويين . ومن جهة ثانية لم يستطع العباسيون احراز مكاسب كبيرة في صراعهم ضد البيزنطيين ، فبقوا في وضع الدفاع تقريباً .

وقد رأينا أنه بعد وفاة المأمون ، سنة ٨٣٣ ، احس الخلفاء العباسيون « ان السلطة الزمنية بدأت تفلت من يدهم شيئاً فشيئاً ، فراحوا يركزون نفوذهم على السلطة الروحية » . وقد اضحت مملكتهم ، منذئذ ، نسيجاً من الفجور والطغيان والتعصب الديني . « وتحول بلاط بغداد الى حفلات التهتك (الاورجي وسادته حماقات الخلفاء المستسلمين للخمر ... وهدرت موارد الدولة في حفلات الاعياد الفخمة التي كانت تقام لارضاء رغبات العسكريين الاتراك ، التي كان يرتجف امامها الخليفة ... ومن اجل صرف النظر عن حفلات التهتك في البلاط ، اظهر العباسيون غيرة على الدين ، فبدأ التعصب ينتشر . وقد اجبر المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) غير المسلمين على ارتداء ثياب ذات لون اصفر ... وامر بهدم الكنائس التي بنيت بعد الفتح العربي ... كما سرح الموظفين المسيحيين ... وامر بهدم قبور المسيحيين وتسويتها بالأرض ... ومنع غير المسلمين من امتطاء دواب ، سوى الحمير والبغال » [١] .

وكانت نتائج هذه الاجراءات التعسفية ، التي كانت تتجدد في الازمنة التالية ، ان انقصت تدريجيا عدد الرعايا المسيحيين ، الذين بمعظمهم راحوا يعتنقون الدين الاسلامي جماعة بعد جماعة .

وفي عهد الخلفاء العباسيين ظهر لبناني كبير ، هو الامام الاوزاعي ، الفقيه المسلم الشهير الذي ذكرنا تدخله الجريء من اجل مسيحيي لبنان ، سنة ٧٦٠ ، وقد كان غرة مجد في زمنه . فهو مشترع وعالم ، ولد في بعلبك ، وعاش ومات في بيروت (٧٠٧ — ٧٧٤) . وقد انتشر اسمه وفاضت شهرته في جميع انحاء العالم الاسلامي . وقد تميز ، ليس فقط بمعارفه الاسلامية الواسعة ، ولكن ايضاً بسمو اخلاقه وفضائله الانسانية ، وبهيبته وبساطة

(١ Lammens, op. cit., I, p. 132, 137

حياته . وكما تبع مسلمو لبنان وسوريا مذهب الاوزاعي المتحرر ، تبعه ايضاً مسلمو المغرب واسبانيا .

٣ — تفكك الدولة العباسية . نشؤ الدويلات الوريثة

في القرن التاسع بدأت الدولة العباسية الواسعة تتفتت . « فلقد عادت أراضي دولة الخلفاء إلى الحالة التي كانت عليها قبل الاسلام . واستيقظت الشخصية الذاتية القديمة للسلالات العرقية ضمن حدودها الطبيعية ، فشكلت من جديد دولا مستقلة . عاد العالم الاسلامي إلى التركيب القديم الذي كان له طوال مجرى تاريخ الشرق ، مع بعض الاستثناءات النادرة ، وقد تم هذا التفكك سنة ٣٢٤ للهجرة ، ٩٣٥ للميلاد » (A. Mez) .

فمنذ سنة ٨٢٢ في ايران الشرقية ، انفصلت خراسان عن بغداد ، وتلتها ، سنة ٨٦٠ ، سجستان . وفي سنة ٨٧٢ ، استقلت مصر ، ثم استولت على فلسطين ولبنان وسوريا . وفي سنة ٩٣٥ ، استولى زعيم ايراني على جميع المناطق الفارسية الغربية وحكمها ، وهو « بويه » ، مؤسس اسرة بني بويه . وفي بغداد ذاتها اتخذ رئيس الحرس التركي للخليفة لقب « امير الامراء » ، اي الرئيس الرسمي الاعلى للجيش ولجميع اجهزة الادارة . ولكي يتحرر الخليفة من الوصاية الخانقة التي فرضها عليه الامير التركي ، استدعى لنجدته احمد بن بويه ، ابن الزعيم الايراني سيد بلاد فارس . وعند دخول احمد هذا إلى بغداد ، سنة ٩٤٥ ، مُنح رتبة امير الامراء . ولكي يحل سلطته الخاصة محل سلطة الخليفة ، اتخذ لنفسه لقب « سلطان » . وقد استأثر بالحكم الوراثي المطلق ، وأسس الدولة البويهية (٩٤٥ — ١٠٥٥) . ولم يكن الخليفة سوى ظل ، والخلافة غدت اسماً فقط . « وكان البويهيون من الشيعة ، فانتصرت ايران من جديد » (Huart) .

وهكذا « فان الدولة الكبرى الموحدة ، التي كانت تمتد بالامس من تركستان حتى مصر ... راحت منذئذ تتوزع في عدد من الولايات الصغيرة تعادي

الواحدة منها الآخريات » (Grousset) وكان النزاع ، بنوع خاص ، بين العراق ومصر ، حيث ظهر الصراع ، كما كان في الآلاف الماضية ، لاجل امتلاك المناطق السورية ولاعادة بناء الدولة الاسلامية المجزأة .

٤ – الدولة المصرية – السورية . الاتراك الطولونيون والاخشيديون (٨٧٢ – ٩٦٩)

عهد الطولونيين (٨٧٢ – ٩٠٥) :

في سنة ٨٧٢ نال احد الضباط الاتراك حاكم الفسطاط (القاهرة القديمة) ، من الخليفة في بغداد ، ولاية الحكم في مصر . وهذا الضابط هو احمد بن طولون ، ابن احد العبيد المحررين . وقد جمع السلطات المدنية والعسكرية وراح يتصرف بالحكم كسيد ، مع اعترافه بالتبعية للخليفة .

واستطاع احمد هذا ان يكوّن جيشاً قوياً من العبيد والمحررين والغرباء ، حيث كانت العناصر اليونانية تتزايد فيه . « وكان هذا الامير ، السابق لزمنه ، الاول الذي رسم لمصر سياسة مستقلة ، يمكن وصفها بالوطنية » (Wiet) . وعلى خطى السياسة المصرية التقليدية ، التي كانت تدفع الفراعنة والبطالسة لافتتاح بلاد المشرق ، قام احمد ، سنة ٨٧٧ ، باقتطاع فلسطين وفينيقيا وسوريا من حكومة بغداد والحقها بسلطته .

وفي ظل حكم الطولونيين أصبحت مصر ثرية ، قادرة ، وذات قوة ووجود خاصين بها . فقد أصبحت لها بحرية مرموقة . وتم تشجيع الزراعة والفنون والعلوم ، ونال الادب حظوة جيدة . ولكن ، لسوء الحظ ، اغتيل « خمارويه » بن احمد وخليفته ، في دمشق سنة ٨٩٦ ، تاركاً العرش لأولاد صغار ، عزلوا عنه سنة ٩٠٥ م . فعادت مصر وسوريا إلى الخضوع لبغداد .

في عهد الاخشيديين (٩٣٥ – ٩٦٩ م.) :

في سنة ٩٣٥ ، نال ضابط تركي آخر ولاية مصر من الخليفة ، هو محمد بن طغج ، مؤسس الدولة والسلالة الاخشيدية (٩٣٥ – ٩٦٩) . كان لبقاً وشجاعاً في الادارة ، فسانده الشعب المصري ، الذي تذوق الاستقلال في عهد الطولونيين . نجح محمد هذا ، خلال سنتين ، بترسيخ قوته وسلطانه ، فمنحه الخليفة لقباً أميرياً ، هو « اخشيد » . وبين سنة ٩٣٧ و ٩٣٨ ، اقتطع بدوره ، من حكومة بغداد ، فلسطين ولبنان وسوريا حتّى دمشق . وفي هذه الفترة كانت مصر الاخشيدية « القوة الكبرى للاسلام » . وفي سنة ٩٦٩ ، قضي على الدولة الاخشيدية المصرية ، وحلت محلها دولة الخلفاء الفاطميين .

٥ – حلب ، امارة عربية مستقلة (٩٤٤ – ١٠٠٢)

في سنة ٩٤٤ ، استولى الامير الحمداني العربي الشهير سيف الدولة « ٩٤٤ – ٩٦٧) على حلب واستقل بها . « وبذلك اصبحت حلب ، للمرة الاولى منذ بدء الاسلام ، عاصمة دولة ومقراً لحاكم . وغدت حلب تشارك الامير الحمداني الاعجاب الذي تحفظه له التقاليد التاريخية ، بسبب نجاح الحملات العسكرية التي كان يقودها في حروبه ضد البيزنطيين ، وبسبب النشاط الأدبي البارز الذي كان يدور في قصره ، الذي بناه خارج الاسوار . وقد حفظ له دوراً لامعاً فريداً في هذه الحقبة رجال أمثال المتنبي وأبي فراس الحمداني والوأواء وابن نباته وابن خالويه ومن دونهم بروزاً . وبالمقابل فان الادارة كانت ، على ما يبدو ، قليلة الاهتمام بالنشاط الاقتصادي ... وزيادة على ذلك ... قام (الامبراطور) نيسيفور فوكاس ... بالاستيلاء على المدينة بالقوة ، سنة ٩٦٢ ، ... وتركها في حالة خراب قفر ... ولم تنهض حلب من هذه النكبة حتّى وقت طويل . وعندما تركها سيف الدولة وانتقل إلى ميافارقين ،

سارت نحو موتها في عهد ابنه سعد الدولة ... فكانت هذه الحادثة فاتحة حقبة التاريخ القاتمة للمدينة منذ الفتح الاسلامي » [١] .

وبعد ما يقارب نصف قرن من الفوضى وحركات العنف ، قام الخلفاء الفاطميون بفتح حلب ، سنة ١٠٠٢ ، وبذلك وضعوا نهاية للحكم الحمداني في المنطقة .

٦ – الدولة المصرية – السورية للخلفاء الفاطميين (٩٦٩ – ١١٧١)

في سنة ٩٦٩ ، جاء جيش فاطمي من افريقيا الشمالية ، بقيادة القائد الشهير جوهر ، واستولى على دلتا النيل . وكان الجيش مؤلفاً من مرتزقة من البربر واليونان والارمن والاكراد والاتراك والزنوج . وقد فتح النصر الحاسم لجوهر على الاخشيديين ابواب الفسطاط (القاهرة القديمة) ، فاستسلمت وادي النيل دون مقاومة لاسيادها الجدد .

ودون ان يضيع وقتا قام جوهر باخضاع فلسطين والشواطىء اللبنانية ودمشق (٩٦٩ – ٩٧٠) ، ثم ارسل بعد ذلك جيشاً لفتح حلب ، فاعترف الامير الحمداني فيها بسلطة الفاطميين . وفي سنة ١٠٠٢ ، ضمت حلب الى الممتلكات الفاطمية « ادرك الفاطميون بالغريزة ان مصر المستقلة يجب ان تكون حدودها بعيدة في سوريا : وهو إدراك كانت أصوله في التاريخ البعيد ، وقد ارتبط في التاريخ الاسلامي باسم ابن طولون وصلاح الدين وسلاطين المماليك ، ولا يمكن اعتباره ادعاء طائشاً لا روية فيه » [٢]

في ظل حكم الخلفاء الفاطميين « كانت دمشق في وضع صعب ، إذ كان الحمدانيون يضغطون عليها من الشمال والفاطميون من الجنوب . هذا اذا لم نذكر الغارات البيزنطية ونشاط القرامطة وغزوات التركمان ... جاء حكم

(١ J. Sauvaget, **Halab**, Encyclopédie de l'Islam, N.E., III, p. 88

(٢ G. Wiet, **L'Egypte Arabe**, p. 189

الفاطميين ليزيد الوضع صعوبة في المدينة ، فكان الجنود المغاربة العاملون لحساب القاهرة يسيئون معاملة الاهالي . هو قرن من الفوضى السياسية والتدهور . وكانت الفتن أحياناً تتحول الى فواجع » [١] .

وفي سنة ٩٧٣ ، تحول مخيم الفسطاط الصغير إلى مدينة سميت « القاهرة » اي « المنتصرة » ، وكان قد انتهى بناء جامع الازهر الشهير ، مع بناء القصر للعاهل الجديد . وعندئذ ، ترك الخليفة الفاطمي المعز (٩٥٣ – ٩٧٥) عاصمته في شمال افريقيا (المهدية في تونس) واتجه نحو مصر . وبعد ان جرى استقباله في القاهرة ، سنة ٩٧٣ ، اتخذ هذه المدينة الجديدة مقراً له ونقل اليها عرش الخلافة الفاطمية ، الذي كان حتى ذلك الحين في افريقيا الشمالية .

وكان من نتائج اقامة الخلافة الفاطمية في القاهرة ان انتقل مركز القوة السياسية للاسلام من وادي الفرات الى وادي النيل . وحيث ان الخلافة الفاطمية كانت تشكلا سياسياً ودينياً مستقلاً ، في مواجهة الامبراطورية المسيحية البيزنطية ، غدت هي الممثلة للشرق والاسلام ، بدلاً من الخلافة العباسية في بغداد ، التي اصبحت ضعيفة مجزأة وخاضعة للسيطرة الايرانية المتنامية بيد السلاطين البويهيين . وكذلك انضم جزء كبير من مصر للمذهب الديني للسادة الجدد ، الشيعة الاسماعيلية ، اي الفاطمية .

ومنذ سيادة الخلافة الفاطمية على مصر ، بدأ الصراع المذهبي بين خلفاء القاهرة ، الذين ينتمون للعقيدة الاسماعيلية الفاطمية ، وهم طائفة من الشيعة ، وبين الخلفاء السنّة في بغداد . وفي الحقيقة كانت هذه الخصومة استمراراً لما كان ، خلال آلاف السنين ، بين بلدي النيل والفرات ، من اجل السيادة على مناطق الممر السوري – اللبناني – الفلسطيني . وهذه المعطيات في الشرق الاسلامي تذكرنا بالشرق الهلنستي ، حيث كان الاغريق اللاجيديون (البطالسة) في الاسكندرية ، والاغريق السلوقيون في انطاكيا ، والفريقان هما خلفاء للاسكندر الكبير ، في صراع دائم من اجل السيطرة على فلسطين وفينيقيا .

(١ Elisséef, **Damas, op. cit.**, II, p. 290

وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١) ، كان مسيحيو القدس ضحية اجراءات قاسية اتخذها ضدهم هذا العاهل . وتوج قمة المآسي بهدم كنيسة القيامة ، سنة ١٠٠٩ ، هذا العمل الذي كان من الاسباب البعيدة للحملة الصليبية الاولى على سوريا ولبنان وفلسطين ، سنة ١٠٩٨ .

٧ – الاتراك السلجوقيون يحتلون العراق وسوريا (١٠٥٥ – ١٠٥٨)

بعد حكم قرن من الزمن أصبح السلاطين البويهيون الفرس ، المسيطرون على الدولة العباسية في بغداد ، اكثر ضعفاً من الخليفة ، العاهل الروحي ، الذي كانوا يحمونه . وأخذت الخلافات الطائفية بين الشيعة والسنّة تتحول إلى أعمال سلب ونهب وحرائق في العاصمة . ففي سنة ١٠٥٤ ، نهب المجندون الاتراك بغداد ، بينما كان الاكراد والعرب يعيشون في الضواحي .

وعندما عجز الخليفة العباسي ، القائم بأمر الله ، عن الصمود في وجه هذه الموجة ، استنجد بطغرل بك ، زعيم الاتراك السلجوقيين ، الذين كانت قبائلهم قد انتشرت فطغت على ايران وآسيا الصغرى . وفي سنة ١٠٥٥ ، دخل طغرل بك (١٠٥٥ – ١٠٦٣) الى بغداد دون اية مقاومة ، فاستقبل باحتفاء عام . وبعد ان تولى الحاكم الجديد جميع المسؤوليات الزمنية ووضع نهاية للتسلط الايراني البويهي ، جعله الخليفة كسلطان أكبر ومنحه القاباً شرفية منها « عاهل الشرق والغرب » ، اي ايران والعراق ، و « ملك الفرس والعرب » .

وكأسلافهم من الآسيويين الذين كانوا ، منذ الالف الرابع قبل الميلاد ، يسيطرون مرة بعد اخرى على ارض الرافدين ، اراد الاتراك السلجوقيون ، القادمون الجدد من آسيا الوسطى ، ان يقيموا في البلاد ، ليس كمرتزقة مستأجرين من قبل خليفة بغداد ، كما كانت حالة من جاء قبلهم من الاتراك ، ولكن كأسياد حقيقيين لدولة أرض الرافدين . وبعد ان احاط هؤلاء الفاتحون الجدد بالخليفة ، الذي لم يكن في زمنهم غير ظل لرئيس ديني ، ولكونهم من المسلمين

المستجدين ، انتزعوا السيطرة من العرب والفرس المنهوكي القوى ، واضحوا المدافعين البارزين عن الاسلام . ومنذ هذا الاحتلال بدأ الدور التاريخي للاتراك ، في مصير الشرق الادنى ، ينمو ويتطور .

كانت اصفهان عاصمة دولة طغرل بك ومركزها ، بينما محورها كان بلاد فارس ، وهي تضم إيران ، وقسماً من تركستان ، وبعد سنة ١٠٥٥ شملت ارض الرافدين حتى الموصل . وبعد ان منح الخليفة العباسي طغرل بك السلطة الزمنية مع لقب سلطان ، اصبح هذا سيداً وحاكماً أعلى لهذه الدولة التي كان الخليفة يعتبر الزعيم الروحي لها . وقد ساد عنصر السنة في هذه الدولة ، بسبب حماية السلجوقيين السنيين له ، فطغى على العنصر الشيعي الذي كانت له حظوة في عهد السلاطين البويهيين ، الايرانيين الشيعة .

وفي سنة ١٠٧١ ، انتزع السلطان السلجوقي « الب ارسلان » القدس وفلسطين من الفاطميين . وفي سنة ١٠٧٦ ، استولى على دمشق ومنطقتها . وفي سنة ١٠٧٩ ، اضحى الامير السلجوقي « تتش » الحاكم لسوريا الجنوبية ، متخذاً دمشق عاصمة له . وفي سنة ١٠٨٦ ، انتزع السلجوقيون حلب وسوريا الشمالية من الامراء المرداسيين العرب ، الذين كانوا يحكمونها منذ ما يقارب نصف قرن . وفي سنة ١٠٩٦ ، تقاسم ابنا تتش سوريا بينهما ، فكانت حلب من نصيب « رضوان » ودمشق من نصيب « دقاق » ، في ظل تبعية اسمية لعمهما السلطان « بركياروق » . ومن اجل توسيع ممتلكاتهما اشتبك الاخوان معاً في حروب دامية استنزفت قواهما ، واتاحت الفرصة للخلفاء الفاطميين ، الذين كانوا يسيطرون على الشواطىء اللبنانية ، فانتزعوا القدس والقسم الاكبر من فلسطين من الاتراك سنة ١٠٩٨ . كما قامت بالمقابل مدينة طرابلس ، التي كانت مستقلة عن القاهرة منذ ١٠٧٠ ، باعلان نفسها امارة مستقلة يحكمها ابن عمار ، احد قضاة الفاطميين القدماء .

« يجب ان نعتبر وصول السلجوقيين إلى بغداد نقطة تحول حاسمة في تاريخ الاسلام ... فبفضل مفاهيم السلجوقيين للبناء والسلطة ، دفعوا في الاسلام دماً جديداً وبنوا لصالحهم دولة ارتدت الطابع العام الذي كان للسلطة الاموية

في قمة ازدهارها ، بل تفوقت عليها بتنظيمها المتين ... فقد جاء الاتراك في الوقت المناسب لانقاذ السيادة السنية ، والعالم الاسلامي على الأغلب ؛ حيث سرعان ما أصبحوا ابطال الحرب ضد المسيحية . وبفضلهم وبفضل ولاتهم الجريئين ، فشل الجزء الاكبر من الحملات الصليبية » [1] .

٨ ـ الفوضى والاقطاع في سوريا ولبنان وفلسطين (٧٥٠ ـ ١٠٩٨)

أ ـ التجزؤ وانعدام الأمن والفوضى

في جميع العهود التي تعاقبت في بلدان المشرق ، منذ استيلاء العباسيين على السلطة حتى مطلع الحروب الصليبية ، اي طوال ثلاثة قرون ونصف القرن (٧٥٠ ـ ١٠٩٨) ، كانت بلدان لبنان وسوريا وفلسطين خاضعة ومستغلة من قبل حكام طغاة غرباء . وقد عاشت دائماً ، تقريباً، في حالة تجزوء وفوضى وانعدام للامن . فاستقلال الولايات عن الدولة الاسلامية كان تاماً . وكان ممثلو الخليفة ، من الامراء والحكام ، كمصائب حقيقية لهذه البلدان . « لم يكونوا مستقرين ، بل عابرين ، يندفعون إلى جمع الثروة ، مهدّدين بالمصادرة وغالباً بالاغتيال . كانوا يفكرون قبل كل شيء بالنهب ... كل واحد من هؤلاء المتسلطين الموقتين كان يعيش في ظل نزوة من نزوات الحاكم الاعلى » [2] .

« وفي سوريا ، في العهد الفاطمي ، اصبحت الفوضى مستعصية ، فبرز المغامرون من جميع الجهات ، وراحت المدن ترى حكامها يتغيرون بسرعة . كما راح السكان يدفعون فدية عن حياتهم ويعيشون في رعب مستمر ، ولا يجرؤون على اظهار ميولهم ... وجاء خطر هذا الوضع من كون اي امير من الامراء كان اضعف من ان يقيم سلطة مضمونة حتى الغد . وامام ذلك كان مجبراً على القيام بغزوات متواصلة لجيرانه ، كي يخفي بها ضعفه ، وعندما

١) Wiet, **L'Egypte Arabe**, p. 236, 237

٢) G. Demombynes, **op. cit.**, p. 332, 333

يتعرض للهجوم ، كان يبحث عن احلاف له ، مهما يكن جنسهم ، حتى ولو كانوا احياناً من أعدائه الصليبيين . كذا كانت الفوضى : الامراء الصغار يلعبون الدور الذي يناسبهم ، سواء مع الفاطميين ام مع العباسيين ، وكانوا يخونون الاسلام باتفاقات عابرة مع البيزنطيين ، وهي طريقة نجدها بعد ذلك اثناء الاحتلال الافرنجي ...

« كان البربر (مرتزقة افريقيون) مكروهين في دمشق . وهذا الامر لم يكن قليل الاثر في عدم استقرار السلطة الفاطمية في سوريا . فقد كانوا ينهبون بلا حياء ، يوقفون المسافرين المطمئنين من اجل سلبهم ، ويغيرون على قرى الضواحي يسلبونها بالقوة ، كما يقطعون طرق القوافل ليأخذوا الفدية ... وكان سكان دمشق يأخذون على الافريقيين النقص في تهذيبهم ، ويتذمرون من أخلاقهم الجافية وعقائدهم الشيعية » [1] .

ب ـ الاقطاع في سوريا

كان من الطبيعي ان ينمو النظام الاقطاعي ، بعد ان جزأت الفوضى وحالة انعدام الامن السيادة في بلدان المشرق ووزعتها بين ايدي العديد من الطغاة الغرباء . فهذا النظام السياسي والاجتماعي ، الذي بدأت خطوطه منذ عهد الدولة الأموية في دمشق ، يوافق تسلط طبقة المحاربين ، بما له من لامركزية سياسية في تكوينه ، ويلغي معالم السلطة العامة . وكانت الارض ، بين ايدي المحظوظين الذين يتقاسمونها ، مورداً للثروة وآلة للتسلط في وقت واحد . وفي مجتمع زراعي بكامله تقريباً ، تكون ظروف الاشخاص وملكيات الارض خاضعة للقوة والاغتصاب . « فكل قسم من البشر كان يشكل ، في هذا المجتمع ، دولة صغيرة مجهزة بحكومة خاصة » ، يتزعمها السيد الاقطاعي ، يساعده أتباع آخرون .

١) Wiet, **op. cit.**, p. 189, 190

وهذا النظام الذي يشبه نظام اوروبا الغربية في القرون الوسطى ، كان يختلف عنه اختلافاً عميقاً . ففي المقام الاول ، كان السادة الاقطاعيون في الغرب مالكين لاقطاعاتهم ، اي انهم يملكون الارض التي كان الملوك يعطونها او يبيحون استعمالها لاتباعهم . ولكن الامر كان بخلاف ذلك في الشرق ، حيث كان الرئيس الاقطاعي ، وهو محارب من اصل غريب ، ليس له سوى وقف عقاري (اقطاع) اي تصرف موقت ، يمنحه الحق باستيفاء الضريبة عن الارض ... فكان ينوب عن العاهل بجباية هذه » . فهو هكذا جامع للضرائب ولا يقيم عادة في اقطاعه كما لا يعتمد على غير رجاله الخلصاء ، الذين يكونون جميعاً من الغرباء تقريباً (اتراك وبربر وغيرهم) . وبنتيجة ذلك كانت تنقصه دائماً رابطة ملكية الارض ، اي الاتحاد الشخصي الذي كان ، في الغرب ، بين الاقطاعي الحاكم واتباعه . وبالنهاية ، فان الوقف العقاري للسيد الشرقي كان ، مبدئياً ، وقفاً شخصياً ، قابلاً للالغاء ، وليس وراثياً . ولذلك كان المستفيد منه ، وهو يواجه النفقات التي يتطلبها اتباعه المحاربون ويتطلبها رفاه بيته ، يستأثر بأكبر قسم ممكن من مدخول الأرض ، على حساب القرويين الفلاحين ، الذين لم يكن يترك لهم شيئاً تقريباً من اجل مؤونتهم .

وبعد ممارسة هذا النظام الجائر طوال قرون عديدة ، كانت نهايته الخراب الكامل لبلدان المشرق ، التي كانت الزراعة موردها الاقتصادي بالدرجة الاولى . وقد اقفرت شيئاً فشيئاً مناطق سورية وفلسطينية ، فغدا السكان ، حوالي نهاية القرن الثامن عشر ، لا يعدون سوى ربع ما كانوا يعدون في عهد البيزنطيين والخلفاء الامويين ، حين كان عددهم يراوح بين سبعة وثمانية ملايين نسمة . وفي بدء القرن التاسع عشر « لم تكن قرى « البكاليك » التابعة لحلب ، والتي كانت تعد ٣٢٠٠ قرية ، كما كانت مسجلة في سجل الضرائب ، سوى ٤٠٠ قرية فقط » (1) .

---

١) Lammens, op. cit., II, p. 118

ج – النظام الاقطاعي في لبنان

وفي جبل لبنان ، الذي كان ينجو باستمرار تقريباً من الاحتلال العسكري ومن الخضوع مباشرة لادارة المتسلطين الغرباء ، كان النظام الاقطاعي يقوم بشكل مخالف للشكل الذي قام عليه في سوريا وفلسطين ، إذ اعتمد نظام « السيادة الريفية » . وكما هو الشأن في الغرب ، كان السيد في لبنان هو المالك والمتصرف بملكه ، يقيم بين فلاحيه ، الذين لم يكونوا كالعبيد المسخرين لمشيئته وضرائبه ، بل كانوا مزارعين يشتغلون في الأرض ويحصلون مقابل ذلك على جزء من مواسمها ، ويجري تحديد حصتهم بعقد ضمني . لقد كان يتم بينهم اتفاق مشاركة ، حيث لا تزال الكلمة العربية « شريك » تطلق على القروي اللبناني ، الذي يزرع أرض احد السادة المالكين .

ولكن الطابع المميز للاقطاعية اللبنانية ، كما سنرى في الفصل التالي ، هو كون الجماعة الاقطاعية كانت مؤلفة من مجتمع اقليمي وطائفي منظم ، يحكمه عادة زعيم طائفي من المواطنين ، وهو شبه مستقل ، يسيطر على بعض الاقطاعات الصغيرة ولكنه بدوره تابع للرئيس الأعلى للدولة (الخليفة او السلطان او الملك وغيرهم) ، او من يمثله في المنطقة .

وهذا الفرق بين النظام الاقطاعي اللبناني وبين نظام البلدان الشرقية الاخرى ، كان يبرز في النتائج المختلفة لكل منهما في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسكاني والسياسي . اذ بينما كانت المناطق المجاورة تحكم مباشرة من الطغاة الغرباء ، فخربت واقفرت من السكان بسبب جور هؤلاء الطغاة وظلمهم ، بقي جبل لبنان ، حيث كان ينعم كل واحد بالأمن ويتمتع بممتلكاته وحياته ، بلداً مزدهراً وحراً نسبياً ، كما بقيت كثافة السكان ظاهرة فيه . ومن المناسب هنا ذكر الاحصاءات التي جمعها « فولني » ، العالم والفيلسوف الفرنسي ، سنة ١٧٨٣ ، حيث أقام عدة اشهر في لبنان . ففي لبنان الاوسط ، كسروان الموارنة ، كما قال ، كان يعيش ١١٥ الفاً من السكان ، وفي الشوف الدرزي ١٢٠ الفاً ، وكل منطقة من هاتين كان فيها ضعف ما في فلسطين مجتمعة التي

لم تكن تعد سوى ٥٠ الفاً [١] .

ونوافق مع فولني على ان « معنويات الشعب ، كمعنويات الافراد ، تتوقف بنوع خاص ، على الوضع الاجتماعي الذي يعيشون فيه ... فالناس الذين لا يتمتعون بحقوقهم الطبيعية وتكون علاقاتهم موجهة من قبل سادتهم ... لا يستطيعون أن يكونوا ذوي رغبة شديدة في القتال ... اما الذين يقاتلون من اجل قضيتهم الخاصة ... فلا تنقصهم الشجاعة » [٢] .

ولقد امتد نظام الاقطاع ، في الشرق الاسلامي ، فشمل معظم المناطق حتى القرن العشرين .

---

١) Volney, **Voyage en Egypte et en Syrie**, ed. 1859, p. 357, 358

٢) Volney, **op. cit.**, p. 405

الفصل الثالث عشر

من بدء الخلافة العباسية حتى مجيء الصليبيين (تابع)

تكوين المجتمعات الطائفية

كتكتلات اجتماعية ذات تنظيم اقطاعي

١ – الظاهرات الاجتماعية

ان كلمات مثل : جماعة ، طائفة ، فرقة ، هي مرادفة لتكتل اجتماعي وسياسي منظم ، يشكله أشخاص لهم مذهب معين في ظل دين رئيسي ، او يتبنون مذهباً مختلفاً ، منفصلاً او مفترقاً عن ذلك الدين .

« ان التفكك العميق في السلطة العامة ... يكون من نتائجه الملازمة نمو التكتلات الاجتماعية . فالتكتل الاجتماعي هو الخصم الطبيعي للمجتمع ، اذ عندما تكون الدولة ضعيفة تتكاثر ضمنها الدول». فسنرى ان، مع نمو النظام الاقطاعي في الشرق الاسلامي ، الذي كان المستفيدون منه غالباً الغرباء ، نشأ نظام التكتلات او التجمعات الطائفية ، التي كان افرادها يرتبطون بعقيدة دينية واحدة ، وقد ظهر ذلك في لبنان وبعض الاقاليم المجاورة .

وحيث ان الناس لا يستطيعون العيش الا في مجتمع ، فهم يتكتلون في وحدات جماعية تختلف أهميتها حسب مجاري التاريخ وحقباته والامكنة والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . « فهم يكونون احياناً عشيرة او قبيلة او طائفة ، واحياناً مدينة او امة». وفي الشرق الاسلامي، في القرنين التاسع والعاشر ، وبعد انتشار الخراب والاقطاع ، اعاد التدهور المادي والخلقي

التنظيم الاجتماعي إلى المرحلة البدائية ، العائلة او العشيرة او الطائفة الدينية .
وفي مختلف بلدان هذا الشرق ، حيث عوامل الفوضى والاضطرابات وانعدام الامن جعلت كل مقاطعة وكل قرية بل وكل عائلة تعيش بالاعتماد على ذاتها ، نجد فكرة الامّة ، بمعناها الحديث ، غير قابلة للفهم . فلقد كانت الحياة والافكار محدودة في افق ضيق . ولم يكن الناس يستطيعون مطلقاً التعبير عن ارادتهم او رغبتهم في ان يجتمعوا في اتحاد اجتماعي واسع ، اي ، بتحديد آخر ، ان يشكلوا امّة .

فقد كانت الجماعات اللبنانية ، في هذه الحقبة ، تجد في العقائد الدينية ، نقطة ارتكاز ورابطة سياسية من اجل انتظامها في تكتلات او اتحادات اجتماعية وثقافية متماسكة ، تقيم في مناطق لبنان المختلفة . ولم تكن هذه التكتلات العقائدية في البدء الا اقليات دينية وجماعات ينتظمها اتفاق روحي تعبدي يجمعها في عقيدة واحدة بادارة زعيم او راع ديني . وقد تحولت ، شيئاً فشيئاً ، مع ضغط الحوادث ، إلى تكتلات اجتماعية وسياسية ، منظمة تصاعدياً، وتؤلف ، في اطرها الجغرافية الخاصة ، تجمعات وطنية شبه مستقلة ، اي امماً صغيرة الحجم .

وكبنية عضوية ، كانت هذه الجماعات الخاصة تمثل بنفسها نوعاً من القبلية ذات التكون الذاتي ، تنظمت من اجل الدفاع عن معتقدات اعضائها ، وتقاليدهم وحرياتهم ومصالحهم العامة . وقد كان لها ميزة على القبيلة السلالية ، وهي انها تستطيع جمع عدد اكبر من الاتباع . اذ ان الايمان الديني ، المنفتح امام جميع الناس ، يمكنه ان يضم اعداداً لا حدود لها من الافراد ، بينما عدد اعضاء القبيلة ، المكونة من تجمع عائلات متحدرة من جد واحد ، يبقى محدوداً بالضرورة .

ومن جهة اخرى ، فان التجمع العقائدي الذي يربط اعضاءه برباط روحي وعاطفي وبتقاليد عامة ، يكوّن كتلة اجتماعية متجانسة ومتحدة نوعاً ما . كما يكوّن أيضاً تجمعاً او مجتمعاً وطنياً اقليمياً ، يرتبط بوطن جغرافي هو

العامل الاساسي لكل عاطفة قومية ، بينما نجد القبيلة البدوية او شبه البدوية ، المستقلة عن كل وجود اقليمي ، « تعمل بعلائق القرابة وليس بعلائق الجيرة ، وبروابط الدم وليس بروابط الأرض » .

وهكذا ، بينما كان كل فريق اقطاعي يشكل دولة شبه مستقلة ، كان كل فريق عقائدي يشكل امة صغيرة ، احياناً اقطاعية وشبه مستقلة . وبينما كان الفريق الاقطاعي ، كدولة صغيرة غير متجانسة تشمل غالباً تكتلات عقائدية مختلفة تخضع لرئيس غير وطني ، كان الفريق العقائدي ، كدولة قومية صغيرة متجانسة ، يحكمها رئيس اقطاعي منبثق من الفريق نفسه وله المذهب الديني ذاته .

٢ — الاصول التاريخية

من اجل فهم افضل لاسباب تحول هذه الاقليات الدينية ، التي كانت في الاصل ذات طابع روحي تعبدي ، إلى تكتلات اجتماعية وسياسية منظمة بمتانة ، يجدر بنا ان نعود الى الظروف التاريخية التي حددت وساندت ، خلال قرون ، هذا التحول الوظيفي .

ففي بلدان الشرق الادنى القديم والوسيط — وفي بعض هذه البلدان حتى فترة حديثة نسبياً — كان مصدر السلطة السياسية ثيوقراطياً ، الهياً ، في جوهره . وكان التعبير عن ذلك يتم بخلق دول مركزية ، في ظل حكم عاهل مطلق، رئيس أعلى للدولة والدين . ولكون السلطات العامة كانت تعارض كل فكرة اتحادية على الصعيد السياسي والعقائدي ، اعتبرت الطوائف المخالفة لرأيها كأعداء متكتمين او كرعايا في حالة ثورة كامنة . وهكذا ، وفي كل مرة كانت تضعف فيها السلطة السياسية ، كان الحكام يعمدون الى تنمية السلطة الروحية ، بانتداب أنفسهم ليكونوا نصراء للدين الصحيح ومضطهدي اصحاب البدع ، الذين يتهمون بالهرطقة او بالالحاد (ندعوها اليوم أفكاراً هدامة) .
ولكن هذه الرغبة في السيطرة وهذا الحكم الثيوقراطي هما من الامور المتناقضة

عند الساميّين وخلفائهم العرب ، بسبب طابعهم الفردي المتحرر، الموروث من أسلافهم البدو ومن الروح القبلية والعنصرية السلالية ، التي لا ترتبط بوطن اقليمي اي في إطار جغرافي ثابت ، يضمن تشكلات سياسية ودفاعاً فعالاً . ولهذا كان الساميّون والعرب يستندون على العقائد الايمانية والتعاليم الدينية كنقطة ارتكاز ورابطة سياسية . فقد كانت العاطفة القومية ترتدي شكلاً دينياً ، والمواطن ليس الجار المباشر حتى وان يكن من جنسهم ، اذا ما كان هذا يخالفهم في العقائد الدينية ، بل هو المشارك لهم في الدين ، حتى ولو كان بعيداً عنهم . ومن هنا جاءت الاسباب الرئيسية لضعف تماسك الدول الشرقية القديمة ، التي كانت تنفجر دائماً بقوى جانبية ، تتمثل بتجمعات المنشقين او ذوي البدع (الاقليات الدينية) ، الذين كانوا باستمرار يعملون لتقوية استقلالهم الداخلي الخاص ، ثم ليحصلوا على الاستقلال الذاتي الكامل .

وفي عهد الخلفاء الامويين ، الذين كانوا حكاماً زمنيين أكثر منهم روحيين ، لم يكن الفاتحون ، كما رأينا ، ينتقمون من احد لأسباب دينية . وما دام غير المسلمين يدفعون الجزية بانتظام ، كانت حياتهم وممتلكاتهم مصانة ودينهم محترماً . وفي عهد الخلفاء العباسيين ، الذين كانوا حكاماً آسيويين أكثر مما هم عرب ، وحكموا بالسلطة الروحية أكثر منهم بالسلطة الزمنية ، غدا الاسلام آسيويا ، فادار ظهره للعالم غير الاسلامي . « فالوحدة المتينة بين الدين والحكم ، هي فكرة ايرانية ، وقد انتصرت » . وبعد حكم المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) ، غدا خلفاؤه ، « وقد أحسوا ان السلطة الزمنية بدأت تفلت من قبضتهم شيئاً فشيئاً ، مضطرين إلى التوكيد على السلطة الروحية ، كما رأينا ، مما قادهم الى ردود فعل دينية بعيدة عن التسامح » : فالخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) وقد أساء الظن بالمحيطين بـه من العرب والفرس المستعربين ، انشأ حرساً خاصاً من الارقاء الاتراك ، الذين لم يتباطأوا بتنمية نفوذهم في الدولة .

وعندما وصل إلى الحكم الخليفة المتوكل (٨٤٧— ٨٦١) الذي سماه أحد المؤرخين « نيرون العرب » ، اتخذ التعصب الديني شكل نظام سياسي . ولكي يظهر المتوكل غيرته على الدين ، استند على السنة ، الذين كانوا يشكلون الاكثرية بين مسلمي الدولة وذلك لمقاومة غير السنة ، وبنوع خاص العلويين

اي الشيعة . فامر باضطهاد عام ضد هؤلاء الاخيرين امتد ، كما رأينا ، إلى غير المسلمين : فقد اتخذت اجراءات مهينة وجائرة ضد المسيحيين واليهود . وفي سنة ٨٦١ ، عندما اعتقد المتوكل ان له من القوة ما يجعله يستقل عن جنوده الأتراك ، قُتل بأيدي هؤلاء الجنود ، الذين تابعوا لعبة تعيين الخلفاء وابعادهم عن العرش كما يشاؤون . وفي اواسط القرن العاشر ، اصبح رؤساء هؤلاء الجند (امراء الامراء) الاسياد الحقيقيين للدولة .

ومنذ اواسط القرن الحادي عشر وحتى اوائل القرن العشرين ، تعاقب فاتحون مسلمون مختلفون ، من اصول آسيوية (اتراك سلاجقة ، اكراد أيوبيون ، مماليك اتراك وشركس ، اتراك عثمانيون) ، تعاقبوا على السلطة او حكموا في آن معاً في بلدان الشرق المتوسطي . ولكي يسيطر هؤلاء الاسياد الآسيويون السنة ، الغرباء بالاصل واللغة ، على شعوب هذا الشرق ، انتدبوا ذواتهم حماة للاسلام السني ضد الطوائف الاسلامية غير السنية وضد المجتمعات غير المسلمة ، التي كانوا يعتبرون اعضاءها اتباعاً من رتبة ادنى . وكان المسلمون السنة انفسهم خاضعين ايضاً للعصبة الغريبة عينها . ولكن ، بفضل انتمائهم للعقيدة الدينية ذاتها التي ينتمي لها هؤلاء ، كانوا يفاخرون المواطنين الآخرين ، من غير السنة ، بالشرف والمرتبة .

وحيث ان كل فعل يدعو إلى رد عليه ، فان موقف الحكام السنيين وممثليهم في المناطق ، هذا الموقف المعادي لاتباعهم من غير السنة وغير المسلمين ، كان من الطبيعي ان يقود هؤلاء الأخيرين إلى الانتظام في تكتلات اجتماعية وسياسية منظمة ، متكاتفة ومتحدة ، ومتمسكة بمعتقداتها وبطقوسها الدينية وبتقاليدها الخاصة واستقلالها الداخلي ، مع التصميم على الدفاع عن جميع ذلك . وهذا الوضع الذي امتد حتى سقوط الدولة العثمانية سنة ١٩١٨ ، ساند بحيوية ، طوال ما يقارب الف سنة ، نظام المجتمعات العقائدية . ومنه جاء التعلق الكبير بالشخصية الجماعية وبالتقاليد القديمة ، هذا التعلق الذي لا نزال نلاحظه ، في أيامنا هذه ، لدى التكتلات الطائفية المختلفة في لبنان وفي بلدان الشرق الادنى .

ومن جهة أخرى ، وفي الشرق الاسلامي المجزأ الذي كان خاضعاً للاقطاع وللعبودية في هذه الحقبة ، كانت الانقسامات والخلافات الدينية تمثّل بالحقيقة الخصومات السياسية والميول الاقليمية والرغبات الانفصالية والامنيات الاستقلالية . ولم يكن التدخل المتحيز والجائر من قبل السلطة السياسية في هذه الخلافات الا لتقويتها أكثر وجعلها أشد عنفاً .

ويجدر بنا ان نذكر ، في هذه الحقبات القديمة ، ان سلطة الحكام المسلمين الثيوقراطية المطلقة وتدخلاتهم ضد من لا يوافقونهم في العقيدة ، لم تكن مختصة بالاسلام فقط . فقبل الفتح العربي ، وفي الامبراطورية الاغريقية — الرومانية الشرقية ، حيث كانت المسيحية اصبحت دين الدولة وحيث أضحى الامبراطور ، منذ القرن الرابع ، الرئيس الزمني ونائب الله على الارض في وقت واحد ، كانت تندمج السياسة بالدين . فقد برزت الخلافات الداخلية والميول القومية تكتلات طائفية ، تؤكد على ميولها الاستقلالية تحت شكل مذاهب دينية معارضة للمذاهب الرسمية التي كانت تتبناها بيزنطيا وتعمل بها . وكان المخالفون يعتبرون هراطقة ويعاملون ، كما رأينا ، كعصاة ويعاقبون كأشرار . وقد تكونت كنائس منشقة (المونوفيزية اليعقوبية وغيرها) ، ذات ميول انفصالية تامة ، في مصر وفي سوريا . ولما سيطر العرب المسلمون على هذين البلدين (٦٣٤— ٦٤٢) استسلمت الجماعات المسيحية المنشقة باختيارها للفاتحين الجدد ، بعد ان يئست من سياسة الاباطرة الدينية .

وكان الافضل للحكام المسلمين وللاباطرة البيزنطيين ، لو انهم ، بعد ان جمعوا بيدهم سلطة الملك والحبر ، تركوا لاتباعهم حرية فهم الله كما يرتأون ، لكانت الهرطقات ، على الارجح ، اقل عدداً ، وردود الفعل من المخالفين اقل عنفاً واقل عداء للسلطة . « ففي اية حكومة ، حيث تكون الدولة والكنيسة تشكلان قوتين متميزتين ، تكون الخلافات العقائدية اقل ميلاً للتحول إلى انشقاقات سياسية » (Bailly) .

ففي العالم الحديث ، وضعت البلدان التي فصلت الميدان الديني عن الميدان السياسي نهاية للانشقاقات الداخلية بسبب الدين ، ومن ثم لمشكلة الأقليات

الدينية الحسّاسة . وفي هذه البلدان المختلفة ، تحولت الميول الانسانية والخصومات التي تولدها هذه الميول إلى مفاهيم اخرى ، كالآراء والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية ، التي تتخذ منها الاحزاب السياسية المختلفة مبادىء لها .

٣ — الاصول العرقية

يجدر بنا ان نذكر هنا ان الخلافات التي كانت تميز البعض من البعض الآخر وتفصل بين الفرقاء العقائديين او الطوائف المذهبية في لبنان بعد الفتح العربي ، هي عموماً ذات طابع ديني وشعائري . فمن الناحية العرقية او العنصرية ، كان الفرقاء ، كما رأينا ، متقاربين تقريباً واحدهم من الآخر . وبالنتيجة ، فان الافراد الذين كانوا يشكلون هذه الفرق هم بمعظمهم من اصل ساميّ محلي ، وكان اسلافهم الفينيقيون او الآراميون ، قبل الاسلام ، تخلوا عن الوثنية واعتنقوا مذاهب دينية تفرعت عن المسيحية التي هي دين ساميّ ولد في فلسطين . وبعد انتشار الاسلام ، حافظ البعض على ايمانهم المسيحي ، بينما اعتنق البعض الآخر المذاهب الدينية الاسلامية .

وبالاضافة إلى ذلك ، فان هذه التكتلات الاجتماعية الوطنية المختلفة ، سواء اكانت من الفينيقيين ام من الآراميين المستعربين ام من العناصر العربية المهاجرة بعد انتشار الاسلام ، تنتمي الى اسرة عرقية ولغوية وثقافية واحدة ، هي الاسرة الساميّة الكبرى ، التي تشكل الاسرة العربية جزءاً هاماً منها . وعلينا ان نتذكر ايضاً ان الخلافات التي تفرق بين الفرقاء والفروع المختلفة للاسرة السامية (الكنعانيين ، الفينيقيين ، الآراميين ، اللبنانيين ، السوريين ، الفلسطينيين ، العرب ، وغيرهم) انما نشأت ، بدرجة اولى ، من اختلاف الاوساط الجغرافية الاقليمية ، التي كانت تطبع سكانها بطوابع جسدية ونفسية مختلفة .

وكانت الجماعات المهاجرة التي أقامت ، منذ الفتح العربي ، في بلاد لبنان وسوريا وفلسطين ، تندمج وتختلط ، على مر الاجيال ، مع مجموعة الشعوب

الوطنية، او انها كونت نوى تجمع حولها قسم من هذه الشعوب بعد ذلك. ولكن هذه العناصر المهاجرة كانت بمعظمها عربية ، اي من اصل ساميّ ، ومن ثم فهي متقاربة مع السكان الاصليين .

ومن جهة اخرى ، فان عدد هؤلاء المهاجرين كان طفيفاً بالنسبة للسكان الاصليين ، حيث انتهوا بالاندماج الكلي فيهم . وبالنتيجة ، فان هذه العناصر المختلفة السلالة ذابت بالتدرج ، متكيفة مع مقرها الجديد ، تحت تأثير العوامل الطبيعية المحلية ، التي جعلت منها ، مع مجرى الزمن ، وحدات لبنانية وسورية وفلسطينية وغيرها .

٤ ــ الذاتية المذهبية او الطائفية

ان هذا التوزع لسكان لبنان في تكتلات طائفية متميزة ، ليس وقفاً على الحقبة التي تبتدىء مع الاسلام . فخلال الآلاف الفينيقية التي سبقت المسيحية ، كما رأينا ، كان الكنعانيون والفينيقيون يشكلون تكتلات طائفية تقدس كل واحدة منها واحداً من آلهة البلد الفينيقي المتنوعة . كما ان شعوب فينيقيا المسيحية كانت مجزأة كذلك إلى عدة طوائف من التي انبثقت عن المسيحية . وهذه الظاهرة نجدها احدى الصفات الدائمة والثابتة لتاريخ لبنان الطويل ، وهي لا تزال حتى أيامنا هذه ، لكونها من فعل العوامل الجغرافية للبلد (الجبل ، البحر ، المناخ ، الوضع ، وغيرها) ، هذه العوامل التي تنمي باستمرار ، في السكان ، الميل للاستقلال والحرية ، ومن ثم تهبهم روحاً متحررة ومتسامحة ، تحمل الناس إلى تبني الافكار الدينية وغير الدينية كما يرتأون ويحترمونها عند الآخرين .

وكما مر معنا ، نجد ان التكتلات الطائفية في لبنان ، في اعماقها وفي الماضي مثلها في الحاضر ، تمثل ، بشكل من الاشكال ، تكتلات قبلية ، اي انها بُقيا للقبائل البدوية من الاسلاف . وهي تشكل بالفعل نوعاً من الاتحاد السياسي الديني ، (Fédération) على غرار التجمعات الاوروبية في القرون الوسطى

والاقاليم الاتحادية في سويسرا ، يكون لكل جماعة منها استقلالها الداخلي الخاص ، وفرديتها الجماعية ، وميولها الذاتية ، وذلك في اطار المجتمع القومي والسياسي والاقليمي الجغرافي .

ان جبل لبنان ، بتكوينه الطبيعي المقسم إلى مناطق قد قدّم لهذه الجماعات السياسية الطائفية المختلفة ، ملاجىء أمن منيعة ، حيث كانت تعيش ، رغم تقاربها في المكان ، منعزلة تقريباً الواحدة عن الاخرى ، وموالية ، على الارجح ، لسيد اجنبي . وكانت العلاقات بينها محصورة بالتبادل التجاري بشكل عام ، حتى ان هذه كذلك تقلصت في العصور الوسطى . وكانت خلافات الجوار تجعل هذه الجماعات تتجابه في أحيان كثيرة ، فتقف الواحدة ضد الاخرى . ولكن غريزة البقاء والدفاع كانت تقودها غالباً الى الاتحاد مع بعضها لمكافحة الاخطار المشتركة .

٥ ــ الاستمرارية اللبنانية

بعد الفتح العربي ، وفي الفترة العباسية وبنوع خاص ، تابع البلد الفينيقي القديم ، بشكل تكتلات طائفية منظمة ، وطوال القرون التي تلت ، تطوره التاريخي الذي كان له قبل آلاف السنين . فقد استعرب اللبنانيون لغوياً ، وتحول قسم كبير منهم إلى الاسلام في هذه الفترة ، فاندفعوا بحيوية إيمانية متميزة وبمشاعر اقليمية حادة فسحت المجال بينهم للعاطفة الوطنية . ونذكر هنا ان المجتمعات القومية في الشرق وفي هذه الفترة ، كانت تقوم بجوهرها على الاسس الدينية .

كانت احيانا تصارع الجماعة منها الاخريات من اجل السيطرة على مجموع البلد ؛ واحياناً اخرى كانت تتحد وتتعصب للدفاع المشترك ، ولكنها كتكتلات طائفية ، او كشعوب صغيرة يتعلق كل منها بالوطن الاقليمي المتمثل بالجبل ، كانت ترمز للوحدة الوطنية . وهذا الشعور الجماعي نجح بعد ذلك بالتفوق على المفهوم الديني ، فاضحى يقود التجمعات الطائفية المختلفة إلى الاتحاد ، من وقت لآخر ، في مجتمع سياسي ودولة واحدة.

وكذلك ، فان هذه الفترات التاريخية ، التي دامت عدة قرون في العصور الوسطى ، كانت حلقة اتصال تابعت خلالها بلاد لبنان مسيرتها التاريخية من جميع جوانبها ، مع ما في ذلك من تأخر وتقدم ، هذه المسيرة التطورية التي دامت منذ نهاية عهد الفينيقيين حتى الازمنة الحاضرة .

واننا نعرف ، من ناحية اخرى ، ان العناصر الأساسية التي تكون مبدأ الوجود للمجتمع القومي ، أي الامة بالمعنى الحديث ، هي « ارادة العيش معاً ، في إطار اقليمي محدد » . فالارتباط بالارض والتعاون الذي يتطلبه هذا الارتباط تكون نتيجتهما اندماج الانسان أكثر في جماعته ، من اجل تكامل ثابت بين الجماعة والمنطقة الارضية التي تعيش فيها .

ويضاف إلى هذين العنصرين الاساسيين ، اي « ارادة العيش معاً ، والمنطقة المحددة » ، عدد من العناصر الثانوية ، كالعرق واللغة والدين وغيرها ، التي قد ينقص واحد منها دون ان تتأثر الوحدة القومية به . وكذلك يمكن للقومية ان تشمل عدداً من العروق واللغات والاديان المختلفة . كما يمكن ان تحيا مجزأة او خاضعة للغرباء كلياً او جزئياً او تابعة لدولة أجنبية ، ولكنها تبقى موجودة ما دامت تحتفظ بوعي لوحدتها وتتوق للوحدة والاستقلال . « ألا يبقى الجسم الانساني كما هو برغم النمو والهزال وبتر الاعضاء ؟ » . وبالنتيجة ، فان فكرة الوطن اللبناني والعاطفة الوطنية او القومية والنزوع الى الاستقلال ، وبخاصة الارادة الصادقة لتحقيق الوحدة الوطنية والسياسية للبلد اللبناني نمت وترعرعت ضمن المجتمعات الطائفية المختلفة ، التي كانت تنزع باستمرار ، متحدة او متفرقة ، وخلال عدة قرون ، لتحقيق وحدتها السياسية . وخلال هذا التطور الطويل ، لم يكن الصراع والقتال الاخوي ، الذي كان يجعل بعض هذه العائلات اللبنانية يقف ضد البعض الآخر احياناً ، الا تعبيراً عن رغبة كل فريق في توحيد مجموع مناطق لبنان تحت ادارته الخاصة .

ولنكرر هنا ان الامة الحديثة انما هي اتحاد ضمني بين عدة فرقاء اجتماعيين ، متجانسين احياناً وغير متجانسين احياناً اخرى ، يرتضون بحياة مشتركة ضمن اطار اقليمي محدد ، فيتعاونون معاً في صراعهم من اجل البقاء .

الفصل الرابع عشر

من بدء الخلافة العباسية حتى مجيء الصليبيين (تابع)

المجتمعات الطائفية المختلفة في لبنان

جماعات شبه مستقلة

بعد الفتح العربي (٦٣٥ – ٦٣٧) كان سكان فينيقيا او لبنان المستقبل يتألفون من جماعات طائفية مسيحية ، وكان معظمها ، كما رأينا ، ترك مدن الساحل ، التي خربت بعد توقف الملاحة والنشاط التجار البحري ، ونزح إلى جبل لبنان للاقامة فيه . وقد تحول قسم كبير من هؤلاء ، بالتدريج ، إلى المذاهب الاسلامية المختلفة . فنتج عن ذلك منذئذٍ انقسام اللبنانيين إلى مسيحيين ومسلمين ، ثم انقسام كل فريق من الاثنين بدوره الى عدة شيع طائفية وسياسية متميزة ، ذات نظام اقطاعي . وهذه الطوائف هي التالية : السنّة ، الشيعة ، النصيريون اي العلويون ، الاسماعيليون الفاطميون ، الدروز ، الموارنة ، الملكيون ، المونوفيزيون اي اليعقوبيون وغيرهم .

وبعد ان استقرت هذه التجمعات الطائفية والسياسية في المناطق اللبنانية المختلفة جنباً إلى جنب ، مشكلة قوميات صغيرة شبه مستقلة ، راحت تقاتل الواحدة منها الاخرى احياناً من اجل الاستئثار بالوحدة السياسية لجميع مناطق الجبل ، ولكنها غالباً ما كانت تتعاضد ضد المستبدين الغرباء الذين كانوا يستثمرونها . وفي حدود القرن التاسع ، غدا دور بعض هذه الجماعات الطائفية بارزاً ، طغى على ما تلاه من قرون ، فتابعت خطها دون انكفاء حتى ايامنا هذه .

١ ــ السنيون

السنّة في الاسلام هم المؤمنون بالقرآن وبالسنّة معه ، اي بالتقاليد التي ورثوها في « مجموعة الاعمال والاحاديث التي نقلها الصحابة عن النبي » . وفي المفهوم القويم ، يتعارض السنة مع الشيعة والطوائف الاسلامية الاخرى ، فيعتبر السنة اتباع هذه المذاهب كمنشقين .

والسبب الجوهري في التعارض بين السنة والشيعة هو سياسي أكثر منه دينياً . فهناك مشكلة خلافة النبي التي يعتبرها السنة حقاً مشاعاً دون تمييز ، وما الخليفة الا الرئيس الأعلى للمجتمع الاسلامي وهو ليس الا حاكماً ، وظيفته إقامة صرح العدل وحماية الدين . كما يعتبر السنة ، كخلفاء شرعيين للنبي ، الخلفاء الراشدين الاربعة الأول ، ثم الخلفاء الامويين والعباسيين .

وفي الاسلام المعاصر يمثل السنة ٩٠ بالمئة تقريباً ، والشيعة ٩ بالمئة ، في حين تتقاسم الطوائف الاسلامية الاخرى النسب الباقية من المئة .

٢ ــ الشيعة والخوارج والطوائف الاسلامية الاولى

بعد موت الخليفة عثمان بن عفان (٦٥٦) ، وجد متنافسان على خلافته فراحا يتنازعانها : فمن جهة كان علي ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ، وهو من صحابته ، ومن جهة اخرى ، معاوية حاكم جند دمشق ، وقريب بعيد من اقرباء النبي محمد . وبعد معركة صفين (٦٥٧) على الفرات حدث انشقاق كبير بين اتباع علي ، فانقسموا إلى فريقين متعاديين : الفريق الاول هو الشيعة ، اي الاتباع المخلصون لعلي ، والفريق الثاني هو الخوارج ، اي الذين خرجوا عليه . وقد اصبحت هاتان الفرقتان المتضادتان طائفتين سياسيتين متعاديتين ، كانتا اولى طوائف الاسلام .

في المرتبة او في السلالة . وكل خليفة لا يكون اهلاً لمثل هذه المسؤولية يجب ان يعزل . ومن وجهة دينية ، رفض الخوارج التزكية بالايمان دون الافعال ، واعلنوا تكفير جميع المسلمين الذين لا يتبعون مذهبهم . ويتناقض موقفهم هذا غير المتسامح من المسلمين الآخرين مع موقفهم المتسامح من ذوي الكتاب (المسيحيين واليهود) . وقد ابدى الخوارج صرامة شديدة فيما يخص الاخلاق والطقوس الدينية .

وكان تمرد الخوارج المزمن ضد الخلفاء الامويين والعباسيين ، في الاقاليم المختلفة ، تمرداً دامياً ، شكل خطراً على سلطة هؤلاء .

٣ ــ الشيعة

أ ــ المعتقدات الدينية

بخلاف السنّة ، الذين لا يرون حصر الخلافة بأسرة ، فان الشيعة ، وهم دعاة الخلافة الوراثية بموجب الحق الالهي ، يرفضون مبدأ الانتخاب ويعتبرون ان حق حكم مجتمع المؤمنين يعود لعلي ، زوج ابنة النبي ، وبعد موته الى أبنائه وأحفاده . ويستعمل العلويون كلمة « امام » ، اي الرئيس القائد والمرشد ، « لتعريف خلفاء علي ، الذين يتخذونهم رؤساء لمجتمعهم » . وهم يرون ، لذلك ، ان الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين ليسوا شرعيين .

يضاف الى هذا الخلاف المبدئي بين السنة والشيعة ، حول الحق بالسلطة العليا في المجتمع ، بعض الخلافات ذات الطابع الديني . اذ بينما يكون الخليفة ، بالنسبة للسنة ، الحاكم الزمني المسؤول عن حماية الدين ، « فان الامام عند الشيعة ، بخلاف ذلك ، فهو ممنوح علماً فوق علم البشر ، ولتعاليمه قيمة

نهائية ... وله صفة العصمة . وبهذا المعنى يجري التحدث عن الامام الشيعي كمقابل للخليفة السني » [1] .

« وكما يتميز الشيعة عن السنة في الاساس السياسي (اصل سلطات الخليفة او الامام وامتدادها) ، كذلك يختلفون في بعض تفاصيل العبادة على الاساس الديني ، وبخاصة في كونهم ادخلوا إلى الاسلام موضوع الآلام (استشهاد الحسين بن علي وآخرين من العلويين) ، مع فكرة الطابع شبه الالهي للامام ، والقول بالرجعة ، أي عودة الامام الميت او المستتر (مذهب الامام المستتر الذي يأخذ به الشيعة الاماميون) . واخيراً فان الشيعة رفعوا علياً إلى منزلة النبي » .

ويمارس الشيعة مبدأ « التقيّة » اي الحذر والكتمان ، حيث انهم يخفون عقائدهم الدينية ، في حالة قوة قاهرة او لاغراض احتراسية . وهذا المبدأ ليس وقفاً للشيعة وحدهم ، اذ هو مسموح به لدى عدة طوائف اسلامية .

« وبين جميع اعياد الشيعة ، نجد اشهرها عيد العاشر من شهر محرم ، ... اذ فيه يقيمون ذكرى الموت المأسوي للحسين بن علي ، في كربلاء ... والشيعة هم كسائر المسلمين يؤدون فريضة الحج الى مكة ويزورون قبر النبي في المدينة ... كما لهم ايضاً مزارات خاصة يقصدون اليها ، وهي تضم قبور أئمتهم ... وفي العراق تقوم مراكز اربعة كبرى لزيارة الشيعة وهي : النجف وكربلاء والكاظمية وسامّرا . وفي بلاد الفرس ، تجذب مدينة « مشهد » (حيث قبر الامام الرضا) ، العدد الاكبر من الزوار ... وليس يعدل قبر علي من حيث الحرمة ، اذا امكن القولُ ، قبر ابنه الحسين في كربلاء » [2] .

وبينما كان السنّة دائماً كتلة متماسكة ، نجد ان الشيعة منقسمون إلى عدة جماعات او طوائف ، بعضها معتدل (كالزيديين في اليمن ، والاماميين في فارس) ، والبعض الآخر متطرف . وبين المتطرفين يأتي النصيرية اي العلويون ،

(١ Pareja, **Islamologie**, p. 819

(٢ Pareja, **op. cit.**, p. 827-829

والاسماعيليون الذين خرج منهم القرامطة والفاطميون والدروز وعدد من الطوائف الاخرى .

ومنذ وفاة علي ، سنة ٦٦١ ، كانت الخصومة بين السنة والشيعة لا تخلو من عنف متطرف .

ب – الشيعة في لبنان

في عهد الخلفاء الفاطميين (٩٦٩ – ١٠٧٥) ، حيث كان المذهب الرسمي للدولة المذهب الاسماعيلي الشيعي المتطرف ، اصبح الشيعة كثيري العدد وذوي نفوذ كبير في لبنان وسوريا وفلسطين . وفي القرن الحادي عشر ، كانوا يسيطرون على جميع المناطق اللبنانية ، بما في ذلك مدن السواحل ، باستثناء لبنان الشمالي ، موئل الموارنة ، والشوف ووادي التيم ، حيث بدأ الدروز ينتشرون فيهما منذ سنة ١٠٢١ . وبعد اجلاء الصليبيين ، وفي عهود الايوبيين والمماليك والعثمانيين المتعاقبة (١١٨٠ – ١٩١٨) وجميع هؤلاء من السنة ، راح الشيعة في طرابلس وبيروت وصيدا يتخلون شيئاً فشيئاً عن نفوذهم للسنة المحليين ، الذين كانوا يتعززون باستمرار بعناصر سنية مهاجرة ، كالتركمان والاكراد .

٤ – النصيرية أو العلويون

النصيرية او العلويون ، طائفة من الشيعة المتطرفين الذين سموا بعلي فوق مستوى البشر .

« ان علياً للنصيرية هو تجسيد للالوهية ، وهو خالد بطبيعته الالهية : لقد ظهر كامام فيما مضى . وهم يقولون بثالوث الهي يتألف من « المعنى » ، اي الجوهر الالهي ، واقنومين آخرين هما « الاسم » و « الباب » ... فعلي هو المعنى ، ومحمد هو الاسم ، وسلمان هو الباب ... وهذا الثالوث لا يفترق ،

ولكن فيه درجات تفوّق ، اذ علي خلق محمداً ، ومحمد خلق سلمان ،و هذا الاخير بدوره خلق كائنات اخرى ، هي الخمسة الذين لا مثيل لهم ويعود اليهم خلق العالم ...

« يؤمن النصيريون بالتقمص ، ويدعون ان مجرة « درب التبانة » هي من نفوس المؤمنين التي تحولت إلى نجوم . والتقمص عندهم يتضمن سبعة دركات متتالية في الهبوط معادلة الجحيم ، وسبع درجات متوالية للارتفاع مماثلة الجنة ... (وكعقاب للكبرياء) ان النفوس منفية في هذا العالم ومسجونة في الاجساد . كما لا يسلمون بأن للنساء روحاً ... » .

« وينقسم مجتمع النصيرية إلى العارفين والجهلاء ، وتستثنى النساء من ذلك . ليس لهم اماكن للعبادة . ويقوم الشعب بالحج إلى « القبة » ، اي إلى قبور الاولياء . وينقسم العرفان الى ثلاث درجات هي : النجيب ، والنقيب ، والامام . ففي الدرجة الاولى ، يكون ملزماً بحفظ السر تحت طائلة عقاب الموت ... وللقرآن عندهم اهمية تقل عن اهمية كتابهم المقدس الخاص ، « كتاب المجموع » ، الذي تشرح فصوله الستة عشر طقوس تعبدهم . وتتضمن تنظيماتهم الدينية طقوساً سنية وشيعية ومسيحية ... وفي اعيادهم الرئيسية ، يحتفلون بعباداتهم في امكنة خاصة ، يستخدمون فيها البخور والشموع ويكرسون فيها الخمر ... » .

« منذ اوائل وجود الطائفة النصيرية كانت تتمتع بحظوة لدى الامراء الحمدانيين (في القرن العاشر) . ولكنها بعد ذلك اخذت ، باستمرار ، تعاني من اضطهاد الصليبيين والمماليك والعثمانيين . وكانت ، لهذا السبب ، مضطرة دائماً ان تلجأ إلى « التقية » والمداراة ، وبقيت كذلك حتى نهاية السيطرة العثمانية ، بعد الحرب العالمية الاولى . ويعيش ابناء هذه الطائفة الآن في المنطقة الساحلية للمتوسط الشرقي ، بين طرابلس وانطاكيا » [١] . وفي زمن الانتداب الفرنسي

١) F.M. Pareja, **op. cit.**, p. 844, 845

على سوريا ، دعيت هذه المنطقة « دولة العلويين » ، عندما اعطيت حكماً ذاتياً ، سنة ١٩٢٢ .

٥ – الاسماعيليون ، القرامطة ، الفاطميون

أ – الاسماعيليون

الاسماعيليون هم طائفة شيعية متطرفة ، تعتقد بالامام السابع والاخير ، اسماعيل بن جعفر الصادق ، الامام العلوي السادس . وهذا الاخير كان قد اختار اسماعيل خلفاً له ثم الغى هذا التعيين واختار ابنه الآخر ، موسى . وعندما توفي اسماعيل (٧٦٢) ، اعتبر بعض الشيعة انه كان الامام الاخير ، السابع ، الذي سيظهر في نهاية الازمنة . ومن هنا جاء اسمهم الآخر : « السبعية » .

« وكما يعتقد الاسماعيليون فان الله هو « الغايب تعالى » ، المختفي ، دون اوصاف وبعيد المنال ، ... والنفس الانسانية ... تخص العالم العلوي ، ولكي تعود اليه ، عليها ان تحصل على المعرفة بواسطة الامام وتخضع لادارته ... و«نور الامام» خالد وضروري في كل لحظة لوجود العالم...فالالوهية تستقر في الامام ، وتنتقل بالتعيين من الأب إلى الابن . والامام هو انسان قابل الموت»[١] .
« الامام ، كحارس للاسلام ، اختاره الله ومنحه السلطة ، يتولى بين الناس مركزاً يتجاوب مع المبدأ الكوني « للعقل الفعال » (مصدر الالهام) ، وهو الرئيس بلا منازع في سلسلة الرتب الاسماعيلية الدينية » [٢] .

« والتاريخ الطويل للاسماعيليين معقد جداً . فمنهم خرج « الحشاشون » ، الذين كان يطلقهم شيخ الجبل على اعدائه ، والمفكرون الصوفيون الذين كتبوا

١) Pareja, **op. cit.**, p. 838

٢) Hodgson, **Duruz,** Encycl. de l'Islam, N.E., II, p. 647

روائع في الفلسفة الاسلامية»[1] .

وقد انشعبت عن هذه الباطنية الاسماعيلية عدة طوائف كان اهمها : القرامطة ، الفاطميون ، والدروز .

ب ــ القرامطة

حوالي سنة ٨٩٠ ، قام رجل يدعى حمدان بن اشعث ، الملقب بقرمط ، بتأسيس طائفة دينية جديدة ، بثت في الاسماعيلية نبضاً جديداً ، بعد ان حول حمدان قرمط نشاط اتباعه نحو غايات سياسية . وكان اتباع قرمط يعتقدون بسلطة الامام المستور وممثليه .

« ويبدو ان نهجهم الاجتماعي كان يتضمن نظاماً للمساواة ذا ملامح شيوعية ، كفيلة بأن تجذب اليها الناقمين والاعداء للدولة العباسية . وحيث كانت النقمة عامة ، اتسعت الحركة القرمطية بسرعة مدهشة ، وحملت الاشتباكات الدامية التي نتجت عنها جميع اعمال العنف التي ترافق الحرب الاهلية . وبعد زمن قصير من الازدهار والبروز ، دخل القرامطة في مرحلة تدهور سريع »[2] .

ج ــ الفاطميون

وهناك طائفة اخرى من الباطنية الاسماعيلية ، هي الفاطميون ، وقد نشأت ، سنة ٩٠٠ ، على يد رجل يدعى محمد ، كان يقيم في بلدة « سلمية » ، قرب حماه ، ويدعي انه من سلالة علي وفاطمة ، التي اتخذ الفاطميون تسميتهم من النسبة اليها . وقد جمع اتباعاً حول اسم « المهدي » (الامام المستتر) ، الذي سيخرج من سلالته .

---

١) Rondot, **l'Islam**, p. 69, 70

٢) F.M. Pareja, **Islamologie**, p. 839

وفي سنة ٩١٠ ، انتقل زعيم الطائفة الاسماعيلية ، عبيد الله ، بن محمد وخليفته ، من سلمية إلى افريقيا (تونس) ، حيث تسمى المهدي ، واعلن نفسه خليفة مع لقب امام الاسماعيليين . ولكونه فاطمياً ، ادعى انه الوريث الشرعي للنبي ، وامتد سلطانه من طرابلس الغرب حتى تخوم مراكش . وخلال حكم خلفائه ، شملت السيطرة الفاطمية مراكش ، وفي سنة ٩٦٩ ، ضمت اليها مصر . وفي سنة ٩٧٢ ، جاء الخليفة الفاطمي الرابع ، المعز ، ليقيم في القاهرة ، عاصمته الجديدة ، التي اسسها آنذاك وانشأ فيها جامعة الازهر . وقد امتدت الدولة الفاطمية ، كما رأينا ، فشملت مصر وافريقيا الشمالية وفلسطين ولبنان وسوريا الوسطى . ثم خلف الدولة الفاطمية ، سنة ١١٧١ ، السلطان صلاح الدين ابن ايوب ، وهو كردي سنيّ ، فأعاد المذهب السني الى مصر .

٦ ــ الدروز

أ ــ المعتقدات الدينية

الدروز طائفة ذات صلة بالمذهب الرسمي الذي ساد في دولة الخلفاء الفاطميين .

وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢١) قام بعض من نصرائه بانشاء نظام لاهوتي جديد . وكان الاول من بين هؤلاء ، نشتكين الدرزي ، وهو من اصل ايراني او تركي ، وقد حمل المذهب الجديد اسمه « الدرزية » ، وسمي اتباعه « الدروز » . وكان يعتقد الدرزي بأن الخليفة الحاكم بأمر الله ، بصفته اماماً ، « هو ذو وضع فوق الطبيعة ، اذ هو تجسد للعقل الكلي ، اي الكوني » (Hodgson) . ولكن الواضع الحقيقي للنظام الديني الدرزي ، كان حمزة بن علي ، من « زوزن » ، في ايران . ومذهب حمزة « كان أكثر اصالة من مذهب الدرزي ، فقد كان كالمذهب الاسماعيلي بوجه عام ، من مصدر كوني ، من « الواحد » ويعود للواحد ، بطريق المعرفة الاشراقية (الغنوصية) الانسانية.ولكنه كان يبدو متفرداً بتشديده الخاص على

الحضور المباشر « للواحد » الكوني ... ولهذا السبب دعا حمزة اتباعه الخاصين « الموحدين » ، لتمييزهم ... وحمزة ذاته ... هو الامام ، الهادي ، والعقل الكلي ، والمبدأ الكوني الاول ، بينما كان الحاكم بأمر الله التجسد للواحد النهائي ، ... المقام الحاضر للخالق . والخلاصة ، ان تعاليم حمزة لم تكن تعاليم اسماعيلية متطرفة بالمعنى الكامل ، بل مذهب مستقل ، يقوم مقام الايمان بالتنزيل السني والتأويل الاسماعيلي » [1] .

ولكي ينشر حمزة مذهبه بصفته اماماً ، قام بوضع تنظيمه الخاص ، المتضمن عدة درجات ، حيث « كان معظمها مرتبطاً بالالقاب او بالمفاهيم التي كانت تسود النظام الاسماعيلي المعقد » (Hodgson) .

ب – دروز لبنان

في سنة ١٠٢٠ ، جاء الدرزي إلى سوريا ، حيث راح يبشر بمذهبه الجديد في وادي التيم ، عند اسفل جبل حرمون . وصار له هناك عدة تلاميذ ، فأسس النواة الأولى للطائفة الدرزية . وكان الشيعة في هذه الفترة ذوي نفوذ وكثيري العدد في لبنان وسوريا وفلسطين ، وهذه البلدان كانت جزءاً من الدولة الفاطمية ، التي يتقارب مذهبها مع مذهبهم ، بينما تقع وادي التيم في منطقة متوسطة من البلدان المذكورة . ولم يتوان الدروز عن نشر مذهبهم عندئذٍ في لبنان الاوسط (الشوف والمتن) وفي سوريا (حوران) وفي فلسطين .

ج – المجتمع الدرزي

خلال القرون ، « غدا الدروز مجتمعاً مغلقاً ، يحتفظون بمذهبهم سراً ، محافظين في التزاوج ، لا يسمحون بالدخول إلى مذهبهم او بالارتداد عنه ، ويحكمون

١) Hodgson, **op. cit.**, p. 647, 648

انفسهم بقدر الامكان ، في الملاجيء الجبلية التي استولوا عليها ، وبخاصة في وادي تيم الله (جبل حرمون) . وهؤلاء المتحولون للمذهب الدرزي من الريف السوري ، كانوا ، حسب تقاليدهم ، ينقادون لبعض العائلات التي تنتسب للقبائل العربية القديمة . وقد الفوا شعباً متجانساً ذا سمات طبيعية وعادات اجتماعية متميزة ، تحكمه وتدير شؤونه ارستقراطية عائلية خاصة به . وتتميز العائلات الارستقراطية في الوقت نفسه ... بالضيافة وباستقامة السلوك والاخلاق ... » .

« وخلال هذه الفترة الطويلة من العيش الجماعي المغلق والمستقل ، ظهر نظام جديد لممارسة الطقوس الدينية ، يختلف كل الاختلاف عن نظام الرتب الدينية الذي انقرض ... وهذا النظام يقسم المجتمع إلى « عقال » ، مطلعين على حقائق الايمان ، وإلى « جهال » ، غير مطلعين ، ولكنهم اعضاء في المجتمع . والارستقراطيون البارزون ، غير المطلعين ، يمكن تمييزهم من الجهال العاديين بصفتهم « امراء » ... والاكثر تقى وعلم من « العقال » تصبح لهم في المجتمع سلطة خاصة بصفة « شيوخ » ... وبعد تثقفهم في مدرسة خاصة ... يصبح لهم وحدهم حق قراءة الكتب الاكثر سرية حول الدين والاشتراك بالطقس الديني السري او بمعرفته ... وقبل كل شيء يجب ان يكونوا مخلصين نحو المؤمنين ... والوصية الاولى تنطبق على كل عمل ، مثل السرقة ، فهي تقود إلى الكذب . والوصية الثانية تنص على التعاون ودفاع البعض عن البعض الآخر . ويبدو انها تنطبق على حمل السلاح في مضمونها ... وكان حمزة نص على قواعد اخرى خاصة بالعدالة وبالحقوق الشخصية ... وبصورة خاصة ألح على المساواة ، في حالة الزواج ، بين الرجل والمرأة » [1] .

وخلاصة القول ، ان الدروز يؤلفون جماعة مغلقة ، سرية ، فلا يقومون بأعمال تبشير ولا يقبلون اشياعاً جدداً . والعقال هم الموجهون الروحيون لجماعة الجهال (اي غير المطلعين على الدين) في المجتمع الدرزي . وهم يترأسون

١) Hodgson, **op. cit.**, p. 648, 649

مراسم الزواج والدفن . والحقيقة المطلقة مفروضة في العلاقات بين ابناء الطائفة ، وحتى مع الغرباء . ومع هؤلاء تكون التقية والكتمان مسموحاً بهما اذا ما كان الامر يتعلق بحماية سر الايمان او مصالح الطائفة . وحيث ان عدد النفوس الموجود محدود جداً ، فان الدروز يعتقدون بأن جميع النفوس تعود لتتجسد بعد الموت مباشرة ، بطريق الانتقال من جسد إلى آخر . ليس لهم امكنة خاصة للعبادة . ولكن لهم « الخلوة » ، وهي بيوت للنسك الديني انشئت في اماكن منعزلة ، حيث يختلي فيها العقال معاً .

وبفضل ما لديهم من شجاعة وتماسك . ولوعورة جبالهم ، حفظ الدروز ، طوال تاريخهم ، معتقدهم وخواصهم واستقلالهم . استمروا ينتخبون رؤساءهم ويدبرون امورهم حسب عاداتهم ، محتفظين بنظامهم الاقطاعي . والتحالف الذي يجمعهم ، غالباً ، مع الموارنة ، امّن اكثر من مرة حرية مجموع سكان جبل لبنان ، واحياناً استقلالهم الفعلي . ولكن ، لسوء الحظ ، حدثت خصومات ومعارك اثارها الغرباء ، فيما بعد ، بين الدروز والموارنة ، فتحولت بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ ، إلى قتال واشتباكات دامية ، مما أخر مسيرة تطور لبنان نحو الوحدة الاقليمية ونحو الاستقلال الكامل .

٧ – موارنة لبنان في القرن العاشر والقرن الحادي عشر

رأينا سابقاً ان الموارنة ، لعهد ما قبل الفتح العربي ، بدأوا ينزحون من سوريا الشمالية ، واندمجوا مع المردة ومع مسيحيي لبنان ، حوالي سنة ٧٠٠ ، وألفوا معاً ، في الجزء الشمالي من الجبل ، مجتمعاً طائفياً وسياسياً ، ذا نظام اقطاعي ، برعاية عليا من البطريرك ، رئيس الكنيسة المارونية ، الذي كان يقيم في دير مار مارون ، قرب افاميا ، على العاصي .

وفي اواسط القرن العاشر ، وعلى اثر دمار دير مار مارون على العاصي ، انتقلت الكرسي البطريركية المارونية إلى لبنان (سنة ٩٤٥) . وغدا البطريرك ، الذي لا يزال يحمل لقب « بطريرك انطاكيا » ، يقيم منذئذ في مختلف اديرة جبل

لبنان ، حيث يسهر على تطور الموارنة في لبنان ، وفي سوريا الشمالية (حمص ، حماه ، معرة النعمان ، حلب ، وغيرها) ، وفي قبرص .

« وعندما تحصّن الموارنة في سلسلة جبال لبنان الوعرة ، حيث يتجاوز بعض قممها ثلاثة آلاف متر ، شكلوا جمعاً قومياً صغيراً ، مستقلاً نسبياً ... ومع الزمن ، اضطروا إلى الخضوع للفاتحين الذين كانوا يحيطون بهم من جميع الجهات ، ولكنهم ظلوا ، نوعاً ما ، محتفظين بنظامهم الخاص ذي الوجه الاقطاعي ... وفي اوقات الشدة كانوا يلجأون إلى أعلى الجبل ، فجعلوا من منطقة الارز ومن بشري مركزاً لقوميتهم ، وهناك كانوا يستطيعون الاستمرار بممارسة نوع من الاستقلال . ومع انهم اضطروا ، في عهد العباسيين ، إلى دفع الجزية ، ومع ان لبنان غدا مندمجاً باقليم دمشق ، فانهم تابعوا على هذه الحال حياتهم الخاصة ، ونجحوا نجاحاً كبيراً بالحفاظ على وجودهم القومي . وبتوجيه من كهنتهم ومن كبار مالكي الارض ، انتظموا بقوة في شعب اقطاعي صغير ، عاش في ملاذات جباله ، خلال عدة قرون ، في شبه عزلة » ...

« هكذا كان اصل الاقطاعية التي استمرت في لبنان . فكل منطقة وكل مكان له حياته الخاصة . ولمناعته الشديدة ، كان يشكل وطناً محلياً ، عظيم النشاط ، وفي الوقت ذاته مواطنية قومية ، تجد التعبير الكامل لها في تعلقها بشخص البطريرك ، ولا تتردد بالوقوف بعنف لمجابهة العدو المشترك » [1] .

ومنذ سقوط الخلفاء الامويين (سنة ٧٥٠) الذين كانت دمشق ، في عهدهم ، المركز السياسي للدولة العربية – الاسلامية العالمية ، وحتى وصول اول حملة صليبية (سنة ١٠٩٨) كانت بلدان المشرق التي الحقت بخلافة بغداد ، مسرحاً لجميع انواع الدسائس وجميع انواع الاضطرابات . وطوال ثلاثة قرون ونصف القرن ، كانت هذه البلدان كما رأينا ، فريسة تتنازعها الدول المحلية ، كأباطرة البيزنطيين والاتراك السلجوقيين والخلفاء الفاطميين ، وكانوا يتصارعون ، كل بدوره عليها . وهي بدون انقطاع كانت تؤخذ وتستردّ ،

(١) Ristelhueber, **Les Traditions Françaises au Liban**, p. 15 , 17

وتجزأ أحياناً واحياناً اخرى توحد . وكثيراً ما كانت تضطرم بالنار وتغرق بالدماء ، ويتغير اسيادها عدة مرات . ولكن ، دائماً ، كان الفاتحون الموقتون يقيمون فيها كمحاربين ، وليس كمستوطنين معمّرين .

« وفي هذه الحالة من الصراع المتواصل ، قوى الموارنة تنظيمهم العسكري ، بحيث تمكنوا اخيراً من الاحتفاظ باستقلالهم النسبي بواسطته . وهكذا اصبح ملاكو الارض الكبار في لبنان مدفوعين لأن يكون لهم ، شيئاً فشيئاً ، طابع الزعماء القادة ، يحاربون على رأس مزارعيهم الذين اصبحوا جنوداً لهم : فقد تحولت ارستقراطية مالكي الارض الى ارستقراطية الامراء والشيوخ العسكرية . وهذا التطور لم يكن ، بالنهاية ، الا تبنياً للعادات الاقطاعية والعائلية تحت ضغط الظروف العصبية في تلك الازمنة المتفردة باضطراباتها . ولكي يحافظ مسيحيو لبنان على ما تبقى لهم من استقلال بطريقة النضال ، احسوا بضرورة توحيد جهودهم أكثر وأوثق بتجمعهم وانتخابهم احياناً لرئيس واحد من اجل تنسيق دفاعهم » [١] .

وقد بقيت السريانية ، اي اللغة الآرامية المسيحية ، التي خلفت الفينيقية في القرن الاول ، لغة للدين والادب ولمعاملات الشعب لدى موارنة لبنان . وحتى القرن الخامس عشر ، كان هؤلاء لا يزالون يستعملون السريانية لغة للدين والمحادثة ، جنباً إلى جنب مع العربية . فالاناجيل كانت مكتوبة باللغة السريانية ، مع ترجمة عربية لها بالحروف السريانية (الكرشوني) .

وحوالي سنوات ١٧٠٠ و ١٨٠٠ ، كانت عدة قرى مارونية لا تزال تتكلم السريانية ، وبخاصة في لبنان الشمالي . والآن تستخدم السريانية لغة دينية للموارنة ، والعربية لغة للأدب والتخاطب .

(١ Ristelhueber, op. cit., p. 19, 20

٨ – طوائف مسيحية أخرى : المونوفيزيون اي اليعقوبيون ، والملكيون ، وغيرهم

بالاضافة إلى الموارنة الذين اقاموا في لبنان الشمالي ، مع بعض الجماعات المونوفيزية او اليعقوبية ، فان طوائف لبنان المسيحية الاخرى تتمثل بدرجة رئيسية بالملكيين ، اتباع الكنيسة الملكية في القسطنطينية ، منها جاء اسم ملكيين ، اي اتباع الملك او الامبراطور . وهؤلاء انتشروا في المدن والقرى الكبيرة ، حيث كانوا يشتغلون بالتجارة او يتعاطون حرفاً متنوعة . ولكن مراكزهم الرئيسية في لبنان ، كانت في مناطق الكورة في الشمال ، والمتن في الوسط . فبعد الانشقاق الكبير الذي احدث ، سنة ١٠٥٤ ، الصدع الديني بين القسطنطينية وروما ، تبعت الكنيسة الملكية بيزنطيا . وفي سنة ١٦٨٤ ، انفصل جزء من الملكيين عن القسطنطينية ليعود للالتحاق بروما ويؤسس ، سنة ١٧٠١ ، كنيسة مستقلة . ومن هذا التاريخ ، بدأ يوجد في الشرق ، إلى جانب الكنيسة المارونية ، كنيسة ملكية للروم الاورثوذكس ، وكنيسة ملكية للروم الكاثوليك . ويحمل بطاركة هذه الكنائس الثلاث لقب « بطريرك انطاكيا وسائر المشرق » . ومثلما كان النضال السياسي والديني الذي يقوم به الموارنة ، مع العوامل الطبيعية التي يقدمها لهم مقرهم الجبلي ، يؤمن لهم استقلالاً فعلياً ، كان « يؤمن لبطاركتهم وأساقفتهم استقلالاً وحرية في العمل ، لم يكونوا لأي من رؤساء الطوائف المسيحية الاخرى في الشرق » (P. Dib) .

٩ – طرابلس امارة شيعية مستقلة (١٠٧٠ – ١١٠٩ م .)

بعد ان تخلصت طرابلس من السيطرة الفاطمية ، كونت ، منذ سنة ١٠٧٠ ، مع مدينة جبيل في الجنوب وجبلة في الشمال ، امارة شيعية مستقلة ، بادارة ابن عمار ، القاضي الفاطمي السابق . وكان بنو عمار ذوي حكمة وثقافة ، فحكموا هذه الامارة قرابة ٤٠ سنة (١٠٧٠ – ١١٠٩) حيث جعلوا من

عاصمتهم مدينة مزدهرة ومركزاً ثقافياً من الطراز الاول ، مزوداً بمكتبة من اغنى المكتبات الاسلامية .

وكان بنو عمار يترجحون بين فاطميي مصر وسلجوقيي سوريا . وقد نجح حاكم هذه الاسرة ، الذي تولى الحكم سنة ١٠٩٩ ، بالصمود امام الصليبيين عدة سنوات . لكن في سنة ١١٠٩ ، سقطت طرابلس بيد هؤلاء .

الفصل الخامس عشر

في عهد الامارات الفرنجية في المشرق

(١٠٩٨ – ١٢٩١ م.)

عودة لبنان الفينيقي او البحري

١ – الفتح الفرنجي

من اجل فهم افضل للسهولة النسبية التي استطاعت بها الحملات الصليبية الاولى ، غير المتجانسة وغير المنظمة ، السيطرة على سوريا الشمالية ولبنان وفلسطين والبقاء في الواجهة البحرية لهذه البلدان طوال قرنين تقريباً ، علينا ان نتذكر الظروف العامة للبيئة التاريخية في المنطقة قبيل مجيء الصليبيين .

ففي هذا الصراع الجديد بين الشرق والغرب ، بين الاسلام والمسيحية ، كان يقف ، من جهة ، الاتراك السلجوقيون والفاطميون سادة بلدان المشرق، ومن جهة اخرى ، الصليبيون ، الذين كانوا يطمعون بهذه البلدان ، مدفوعين « بحمية ايديولوجية » قائمة على الايمان الذي « يرفع الجبال » . ففي البلدان التي جاؤوا فسيطروا عليها كانت القوى السياسية والعسكرية مجزأة بين امراء مختلفين اتراك سلجوقيين وفاطميين وبربر . اما السكان الوطنيون ، المستعبدون والمظلومون والمستثمرون منذ عدة قرون على يد الطغاة الغرباء ، فلم يكونوا ليبالوا بمن يكون سادتهم او حتى بمصير بلادهم .

« ان التجزئة السياسية لسوريا وتعدد المذاهب الدينية ... قد فتحا الباب على

مصراعيه للغزو الاجنبي . وكان الشعب ، الذي عانى من الذل والفقر طوال عدة قرون من الجور العباسي والفاطمي والسلجوقي والتركي ، لا يبالي عند تبدل من يسوده . ففي تلك الحقبة التي انتهت آنذاك (نهاية القرن الحادي عشر) ، كان المغامرون الغرباء والمرتزقة الاتراك والبربر يحتلون المسرح ... وجميعهم ، في حرب بعضهم ضد البعض الآخر يحاولون التوسع على حساب جيرانهم ... كانت الارض الصالحة للزراعة تخص الاقطاعيين العسكريين من الاتراك السلجوقيين ومن امراء التركمان ، الذين كانت قبائلهم تنتشر آنذاك في سوريا ... وفينيقيا ولبنان . وكان السلطان والامراء المحليون يمنحونهم هبات من الارض كاقطاعات لهم ، لكي يدفعوا اجور الفرق العسكرية التي كان عليهم ان يعيلوها . وبهذه الطريقة ، انتقلت افضل الممتلكات السورية إلى أيدي المغامرين الغرباء ، الذين كانوا يتدافعون لجني الثروة على حساب البلاد ومواطنيها الاساسيين » [1] .

ومن جهة اخرى ، في هذه الفترة التي نحن بصددها ، كان الدين ، كما رأينا ، يمثل القومية والوطن . وكان المجتمع الطائفي السياسي قد حل محل المجتمع القومي العنصري . وكانت الجماعات الطائفية المختلفة لاي بلد من البلدان تعتبر نفسها غريبة عن الاخرى ، بل عدوة لها . كما كانت كل فئة تسعى للسيطرة على الفئات المخالفة لها بالرأي ، واذا كانت لم تصل إلى حد ابادتها او طردها حين تقدر على ذلك ، فلأن الفئات المغلوبة والخاضعة للغالب كانت تشكل مصدر ثراء ، فتكون قطيعاً من العبيد او عمال الارض ، يقومون بدفع الضرائب وبأعمال السخرة .

وبالاضافة الى الطوائف المسيحية ، التي كانت تشكل في سوريا ولبنان وفلسطين اقليات هامة ، ان الشعوب الاسلامية في هذه البلدان كانت بأغلبيتها الكبرى ، كما رأينا ، مؤلفة من عناصر شيعية ، خاضعة ومستغلة من قبل متسلطين سنيين غرباء الاصل ، هم الاتراك السلجوقيون الذين أتوا حديثاً

(١ Lammens, **op. cit.**, I, p. 208, 209, 242

من آسيا الوسطى فاعتنقوا الاسلام وتبنوا المذهب السني . وحسبما يروي الرحالة العربي الاندلسي ابن جبير ، الذي تجول في سوريا الفرنجية وفي سوريا الاسلامية ، بين سنة ١١٨٢ وسنة ١١٨٥ ، كان عدد الشيعة في هاتين المنطقتين يفوق عدد السنة . وكان الشيعة ، بطوائفهم المختلفة ، يقيمون في الهضاب الجبلية اللبنانية وجبال العلويين بنوع خاص ، بدءا من ارض الجليل حتى انطاكيا . كما نعرف ايضاً ان الخلاف بين الشيعة والاتراك السلجوقيين الذين يحكمونهم كان متفاقماً بسبب الاختلاف بين المذهبين الشيعي والسني .

وخلاصة القول ، فان العداء الذي كان يحمله المواطنون الشيعة للسنة وللسلطة الجائرة التي كان يمارسها الاتراك السلجوقيون ، السنة الغرباء ، تنامى بحيث كانت نتيجته حمل الشيعة المحليين الى عدم مشاركة السلجوقيين في مقاومتهم ضد الغزاة المسيحيين .

أما المسيحيون المواطنون ، بتجمعاتهم الطائفية والسياسية المنتشرة في البلاد ، فهم كانوا رعايا للسلطان السلجوقي ، ولكن كانوا ايضاً ، بسبب دينهم ، « رعايا من الدرجة الثانية ، ومستعبدين سياسياً » . « والفوضى التي كانت تتخبط فيها البلاد كانت تعرضهم إلى استبداد الحكام المحليين ، وإلى تعديات البدو الذين كانوا يقتحمون الاديرة والكنائس لسلبها » (Lammens) . وفوق ذلك ، فان الدين المسيحي قرب بين المواطنين المسيحيين وبين الفرنج ، نظرائهم في الدين ، اكثر مما كانت القربى بينهم وبين ابناء قومهم او ابناء جنسهم من غير المسيحيين ، الذين لم يكونوا يكنون لهم غير الكره والازدراء . فعندما امتدت الموجة الصليبية الاولى نحو الجنوب ، بعد انتزاع انطاكيا من ايدي الامراء الاتراك السلجوقيين (١٠٩٨) ، استقبلت في البلاد التي اكتسحتها بلامبالاة من جانب الشيعة وبعطف من جانب المسيحيين .

وقد ادان بعض المؤرخين العرب العلاقات التي نشأت ، في هذه الفترة (سنة ١٠٩٧) ، بين الفاطميين والصليبيين . « فقد ذكر ابن الاثير ، ان الفاطميين كانوا قلقين من قوة جيرانهم السلجوقيين ، الذين تركوا لهم في فلسطين

مناطق لا قيمة لها ، فاستحثوا الفرنج للتدخل ، داعين اياهم لاقامة امارة بين الدولتين » [1] .

فاعتقادا « من القاهرة بان غزوة الفرنج » توقف تقدم الاتراك نحو مصر ، ... تلقى الحكام الفاطميون في فينيقيا اوامر بعدم الاشتباك مع الصليبيين . ولم يفكر احد بالتعرض لهم ... فرغبة في ابعاد الفرنج (عن عاصمته) ، قام امير طرابلس (الفاطمي) ابن عمار بارسال هدايا ومؤن لهم ، وقد سار على خطاه امير بيروت . كما اضافوا لذلك وعداً بأن يبحثوا أمر الخضوع لهم بعد استيلائهم على القدس » [2] . « ولم تكن الحالة افضل في المعسكر السني ، وسنرى ان الامراء المسلمين الصغار ، كانوا يسالمون الفرنج من اجل مؤامرات يحوكها البعض منهم ضد الآخرين » (Wiet) .

وهكذا ، من طرابلس حتى أبواب القدس ، مروراً ببيروت. وصيدا وصور وعكا وقيصرية ، فان الطريق لم يكن فيها من يعترض الفرنج . وعلاوة على ذلك ، فان سكان الجبل المسيحيين كانوا سعداء بانفتاح الملاحة الحرة امام موانئهم ، التي كانت مقفلة تقريباً منذ قرون . ولذا فقد ايدوا الفاتحين الجدد .

وفي سنة ١٠٩٨ ، سقطت القدس بعد شهر من الحصار ، وفي ١١٠٠ ، خضعت بيروت ، وفي سنة ١١٠٩ ، سقطت طرابلس ، عاصمة امارة بني عمار و « الميناء الاكثر نشاطاً في سوريا » ، وكانت صمدت بمقاومتهم طوال عشر سنوات ، واحترقت مكتبتها الشهيرة اثناء نهب المدينة . وفي سنة ١١١٠ ، استسلمت صيدا بعد حوالي ستة أشهر من الحصار ، وفي سنة ١١٢٤ ، سقطت صور ، « المكان الاكثر حصانة في سوريا » ، بعد حصار دام حوالي خمسة اشهر .

---

١) G. Wiet, **L'Egypte Arabe,** Histoire de la Nation Egyptienne, IV, p. 59
وابن الأثير ، والكامل في التاريخ ، أخبار سنة ٤٩١ هـ ، ج ٨ .

٢) Lammens, **op. cit.,** I, p. 209, 212

٢ – التنظيم السياسي والاجتماعي لدول الفرنج في المشرق

على غرار الاسلوب الاقطاعي السائد في اوروبا في هذه الفترة ، تم تقسيم البلدان المحتلة إلى اربع دول فرنجية : مملكة القدس ، كدولة رئيسية ذات سيادة وثلاث دول اقطاعية تابعة : كونتية طرابلس وامارة انطاكيا وكونتية اديسا (الرها) على ضفتي الفرات .

« كان الملك على رأس البناء الاقطاعي . فكان له بلاطه واصحاب الرتب وأعضاء حاشيته الكبيرة ... وكان يبدو محصوراً في مملكته المباشرة في فلسطين وفينيقيا الجنوبية . وهو لا يخرج منها الا للقيام برسالته كعاهل اقطاعي ، من اصلاح للأخطاء ولتهوّر ولاته الاقطاعيين ... وحيث كانت السلطة الملكية محدودة بسلطة الولاة الاقطاعيين ، كانت كذلك محدودة بسلطة البطريرك (في القدس) والمؤسسات الاكليريكية ... وكانت سلطة الاقطاعيين الكبار في اماراتهم الخاصة محدودة على النمط نفسه تقريباً » .

« كانت سلطة الملك تنفذ بواسطة النبلاء الاقطاعيين ... فهؤلاء السادة كانوا يشكلون هيئة تراقب سلطة الملك ، هي « المجلس الأعلى » . وبدون موافقة هذا المجلس الأعلى لم يكن اي أمر ملكي يحصل على قوة قانونية ... وبعد المجلس الأعلى ، كان يوجد مجالس للبورجوازيين . وكانت صلاحياتهم ، المماثلة لصلاحيات السادة النبلاء ، تشمل جميع البورجوازيين ولها سلطة على الحياة والموت ... وإلى جانب هؤلاء البورجوازيين ، تجدر الاشارة إلى جاليات التجار ، التي اقيمت في مدن الشاطىء من قبل الجمهوريات الايطالية : بيزا وجنوى وفينيسيا ، ... ومدن جنوبي فرنسا : مرسيليا ومونبيلييه . فهذه الجاليات كانت تساهم في الازدهار التجاري للمملكة ، كما عاونت على الفتح بتقديمها بحريتها . ومقابل ذلك أصبحت تتمتع بحريات واسعة ... ومن الاكيد ان بعض السوريين نالوا مراكز نبالة في صفوف اللاتين ... فهناك اميرات ارمنيات برزن في بلاط القدس وانطاكيا » [1] .

---

١) Lammens, op. cit., I, p. 237-241

كان الجيش الصليبي مؤلفاً من الطبقات العسكرية والدينية الثلاث : الاسبتالية (رهبان الضيافة) ، والتامبلية (فرسان الهيكل) والشفاليه (الفرسان) ، يضاف اليه جيش مؤلف من الفرنج والارمن والموارنة ومن المرتزقة المسلمين. كانت اللغات المتداولة عديدة في مدة سيطرة الفرنج . فالى جانب اللاتينية، اللغة الرسمية للكنيسة والدولة ، كانت اللغة الفرنسية لغة البارونات، والايطالية لغة البحارة والتجار . اما السكان الوطنيون فكانت لغتهم العربية . وكان الكثيرون من الصليبيين يفهمون العربية والآرامية ويتكلمونها.وكانت السريانية كذلك ، وهي لهجة آرامية مسيحية ، متداولة في جبل لبنان ، وبنوع خاص في الشمال .

ونلاحظ هنا ان جميع الدول الشرقية التي أسسها الفرنج ، الذين جاؤوا من اوروبا ، لم تكن مستعمرات تخضع لعاصمة غربية. فهي ، من الوجهة الجغرافية والسياسية ، كانت دولة فلسطينية – لبنانية – سورية مستقلة، اقطاعية واتحادية ، محورها القدس ، وتحكمها عائلة مالكةوطبقة حاكمة من اصل اوروبي .

ومن جهة اخرى ، فان الفرنج ، تحت تأثير العوامل الطبيعية في مقرهم الجديد ، انتهى وجودهم ، مع الزمن ، كمستعمرين جاؤوا من الغرب ، واصبحوا شرقيين نوعاً ما . « لقد أصبحنا شرقيين ، كما قال ف . دي شارتر ، الكاهن الخاص لبدوين الاول (١١٠٠ – ١١١٨) فقد تحول الروماني والفرنسي ، في امكنتهم ، الى جليليين وصوريين ... ولم نتزوج نساء من بلادنا ، ولكن تزوجنا سورية او ارمنية ... وذوو نسائنا وابناؤهم يقيمون معنا . وغدت اللغات مألوفة وعامة لمواطني القوميتين . والذي كان غريباً تبدل إلى مواطن ، واصبح الضيف العابر مالكاً للارض » [1] .

١) Lammens, op. cit., I, p. 241, 242

٣ – الفرنج والسكان الأصليون

عند وصول الحملة الصليبية الاولى ، التي أسست المملكة اللاتينية في القدس (سنة ١٠٩٨) كان مواطنو فلسطين ، بغالبيتهم الكبرى ، من المسلمين ، مع نسبة قليلة من غير المسلمين (مسيحيين ويهود وسامريين وغيرهم) . وقد شملت « مملكة القدس اللاتينية » ، التي كانت عاصمتها المدينة المقدسة . المنطقة الممتدة من بيروت حتى عسقلان ، وفي الداخل حتى نهر الاردن .

أ – المسيحيون المحليون

كان الفرنج يعتبرون جميع الذين يحترمون الصليب مسيحيين ، دون تمييز في الطوائف الدينية . وقد شملت التسمية العامة « سوريين » : الملكيين والموارنة والارمن والمونوفيزيين اليعقوبيين وغيرهم .

« وكما كان الامر في العهد الاسلامي ، فان مسيحيي البلاد جهزوا الادارة المحلية بالعديد من الموظفين ... فهم كانوا العملاء الرسميين والممثلين للدولة لدى امراء الداخل ، الذين انشأ اللاتين معهم علاقات متواصلة ... وكان المسيحيون يقومون بتدريس العلوم والفلسفة والرياضيات والتنجيم ؛ وهناك احتكار آخر كان يختص به الكهنة اليعقوبيون ، هو ممارسة الطب ... وكانت طرابلس قد بقيت ، بنوع خاص ، مركزاً علمياً هاماً ، تجاوز شعاعه « دار العلم » التي انشأها ابن عمار » [1] .

« وكان الوئام العظيم يسود دائماً الموارنة والفرنج » (Lammens) . فقد كان هناك مكان ممتاز محفوظاً للموارنة في نظام الدولة اللاتينية . « فهم يأتون، مباشرة بعد الفرنج ، وقبل اليعاقبة والارمن ، الذين كانوايتقدمون على الاغريق والنساطرة والاحباش . وقد قبلوا في صفوفالبورجوازية ، وهو امتياز يبيح لهم امتلاك الأرض والتمتع ببعض الامتيازات التي كان يتمتع

١) Lammens, op. cit., p. 244-246

بها البورجوازيون الفرنج »[1] . وحسب وثائق هذه الفترة ، فان « الموارنة ، كان بامكانهم تجنيد أربعين الف مقاتل » .

وفي عهد الفرنج ، عادت المواصلات العادية مع الغرب ، بعد ان كانت مقطوعة منذ قرون ، كما نشأت العلاقات بين البطريركية المارونية وبابوية روما . وكان هناك ، من جهة اخرى ، تبادل في البعثات . وفي اثناء هذه الحقبة ، عرفت الكنيسة المارونية نهضة حقيقية ، يقدم الفن الديني لنا البرهان عليها .

ب – الصليبيون والمسلمون

« في الحقبة الصليبية ، غدت فلسطين مسرح الصراع ، الذي كان يتوقف غالباً بهدنات تتثبت بمعاهدات ... ولكن هذا الوضع ، الذي اصبح اقل اضطراباً بعد استيلاء صلاح الدين على القدس (سنة ١١٨٨) ، لم يحل دون مواصلة التبادل الاقتصادي بين مصر وسوريا – فقد كانت القوافل تخضع الى « رسوم العبور » التي يجبيها الفرنج ، او تكون ضحايا لبعض حالات الغزو المعادية – كما انه لم يمنع من التنظيم التجاري المثمر ... بين التجار الاوروبيين .. المقيمين بنوع خاص في عكا ، والمدن الاسلامية في الداخل »[2] .

وكان مسلمو المناطق التي خضعت للفرنج يكونون الاغلبية بين سكان المدن ويتمتعون بحرية دينية كاملة ، حسب شهادة كتاب العرب في تلك الحقبة . وفي رحلة ابن جبير ، الذي لم يكن مطلقاً يعطف على الفرنج ، الكفار ومغتصبي الارض الاسلامية ، نقرأ التسهيلات للمسلمين ، «كي يستقروا ويقيموا في أراضي الكفار » . وقد ذكر ان المسلمين والمسيحيين « كانوا يتمتعون بالطمأنينة التامة على أشخاصهم وممتلكاتهم » ...

---

١) Ristelhueber op. cit., p. 58

٢) Sourdel, Filastin, Encycl. de l'Islam, N.E. II, p. 933

ويتابع ابن جبير : « واجتزنا قرى ومزارع متتابعة ، سكانها كلها مسلمون . وهم يعيشون ، في ظل الافرنج ، في رفاهية ، نعوذ بالله من هكذا اغراء . يؤدون لهم نصف الغلة ، عند اوان ضمها ، وجزية ، على كل رأس ، دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضاً . ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المقاطعات في ساحل سوريا هي للمسلمين. وكثيرون منهم يقارنون بين حالتهم وحالة اخوانهم في المناطق الخاضعة للمسلمين، وهي بعيدة عن الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان يشتكوا من جور حكامهم ويمدحوا تصرف الافرنج ، اعداءهم الطبيعيين. فالى الله المشتكى من هذه الحال »[1] .

« وفي زمن رحلة ابن جبير ، كان المسلمون والفرنج يتبادلون ضرب السيوف منذ أكثر من قرن . وقد ذكر هذا بدهشة « ان قوافل المسلمين تدخل إلى أراضي الافرنج وتتلاقى مع قوافل الاسرى المسيحيين المقتادين إلى بلاد الاسلام ... وبمحاذاة الحدود ... حيث تتحابك املاك المسلمين والمسيحيين ، فان قسمة الغلال تجري بانصاف ، والمواشي ترعى سوية في توافق ، دون نزاع او عنف »[2] .

ولكي نفهم هذا الموقف السلبي والمسالم من جانب المسلمين الوطنيين ، علينا ان نقيسه ، ليس على المفهوم العاطفي القومي لأيامنا نحن ، بل على ضوء الوضع التاريخي للبلاد في تلك الحقبة . ولنتذكر ، مرة اخرى ، من خلال الحقبة التي سبقت الصليبيين ، الشعوب الوطنية في لبنان وسوريا وفلسطين . فهذه الشعوب ، بغالبيتها المسلمة ، كانت مستعبدة ومضطهدة ومستغلة من قبل اتباع دينها الغرباء عنها ، (الاتراك ، الاكراد ، البربر ، وغيرهم) والمغامرين الجائرين ، « المندفعين إلى جمع الثروة على حساب البلاد ومواطنيها

---

١) Lammens, op. cit., I, p. 249, 251 ، ورحلة ابن جبير « ذكر مدينة بانياس » .

٢) Lammens, op. cit., I, p. 250

الاساسيين » . وكانوا قد امتلكوا افضل اراضي المنطقة . ومن هنا ، لم يأبه المواطنون لمصير أسيادهم القدماء او لتنظيمات السياسة ، بل سالموا الفرنج المسيحيين الذين ، ان لم تكن سيطرتهم افضل ، فهي بالتأكيد ليست اسوأ من السيطرة التي كانت قبلها .

٤ ـ فينيقيا القديمة ولبنان المستقبل

في عهد الفرنج ، قسمت فينيقيا القديمة إلى قسمين متساويين تقريباً : القسم الجنوبي ، الذي يبدأ من شمال بيروت حتى الحدود الفلسطينية ، كان يتبع ملك القدس ، والقسم الشمالي ، الذي يمتد من شمال بيروت حتى طرطوس ، كان يؤلف ، مع عاصمته طرابلس منطقة « كونتية طرابلس » الفرنجية . أعاد الفرنج « فتح الموانىء للتجارة الأوروبية ... وكان هذا الحدث بدء ازدهار كبير دام قرنين ... وقد انتشرت على الشواطىء الحصون والكنائس ، وعلى القمم الابراج العالية لمراقبة السواحل ... وصارت بيبلوس ، التي كانت تدعى عندئذ « جبلة » ، نقطة ارتكاز هامة في تنظيم المنطقة » [١] . « لقد كانت الفترة الرومانية وحدها هي التي تذكر بمثل هذه الصورة للازدهار الاقتصادي » . وكما كانت الحالة خلال السنوات الالف للحكم الاغريقي الروماني ، كذلك كانت الملاحة بيد الجاليات التجارية الغربية ، وعلى الأخص الايطالية . « فلقد حمل السلم الثروة بنسبة لم يسمع بمثلها لموانىء طرابلس وصور وعكا ، فعادت ، وكأنها في العهد الفينيقي ، مخازن لجميع تجارة الشرق » . وهذا الازدهار عم جميع سكان البلاد ، الفرنج اولاً ، ثم المواطنين الاصليين من مسلمين ومسيحيين على السواء . وقد عرف المسيحيون ، كما رأينا ، بتسمية عامة هي « السريان » .

وجدير ان نذكر هنا ان من بين الدول الفرنجية الشرقية الاربع ، كانت كونتية طرابلس ، خليفة فينيقيا القديمة في تقاليدها البحرية والتجارية

(١ Dunand, **Byblos**, p. 40, 41

والتمثيل المسبق للبنان الحديث ، هي التي دام وجودها اطول نسبة من الزمن ، اي قرابة قرنين .

« فبينما اضمحلت مملكة القدس عملياً سنة ١١٨٧ ، وامارة انطاكيا سنة ١٢٦٨ ، بقيت كونتية طرابلس حتى ١٢٩١ » (Grousset) ، حيث قضى عليها سلاطين المماليك وألحقوها بامبراطوريتهم المصرية ـ السورية .

٥ ـ سوريا المسلمة في حقبة الفرنج (١٠٩٨ ـ ١٢٩١)

كان مقابل المشرق البحري (فلسطين ولبنان وشواطىء الشمال السوري) ممتلكات الامراء الفرنج ، سوريا الداخلية او المسلمة في الشرق ، التي لم يستطع الفرنج اخضاعها ، فبقي فيها الاتابكة والاتراك السلاجقة شبه مستقلين .

أ ـ دمشق وحلب

دمشق :

في دمشق ، كان التركي طغتكين ، اتابك (عامل) الامير التركي السلجوقي دقاق، ثم خليفته سنة ١١٠٤ ، قد حكم البلد اكثر من ثلاثين سنة . « وقبل ان يتمكن طغتكين من اعادة النظام ، كانت دمشق عرفت ثلاثة قرون من الفوضى . والشعب استسلم لتعسف الحكام الموقتين ووكلائهم ، فعاش في ظل الرعب والبؤس » (Elisséef) . وبفضل طغتكين ، حدث في دمشق اصلاح اقتصادي واخلاقي مرموق . وبعد موته ، سنة ١١٢٨ ، عادت المدينة فانزلقت في الفوضى .

حلب :

بعد سنوات من عدم الاستقرار والفوضى ، استلم الحكم في حلب ،

سنة ١١٢٩ ، الاتابك الشهير عماد الدين زنكي ، وهو امير تركي — ساجوقي من الموصل ، فخلفه ، سنة ١١٤٦ ، ابنه الشهير نور الدين (١١٤٦ — ١١٧٤) ، الذي أكمل فتح كونتية الرها (اديسا) الفرنجية سنة ١١٥٠ . « وكحاكم اداري عادل تمكن نور الدين ان يفرض على السكان احترام سلطة الحكومة . واليه يعود فضل تأسيس المدارس الاولى في حلب ، التي راحت تساند جهوده الرامية إلى احياء المذهب السني الصحيح » ، لمواجهة المذهب الشيعي الامامي ، الذي كان مذهب أكثرية السكان منذ زمن الامراء الحمدانيين . وقد انشأ نور الدين في حلب مستشفى وداراً للعدل .

ب — نور الدين ، سيد دمشق وحلب (١١٥٤ م .)

في سنة ١١٥٤ ، استولى نور الدين على مدينة دمشق وجعل فيها مقره . وهكذا تحققت الوحدة السياسية لسوريا المسلمة ، بإدارة زعيم بارز ، جمع في شخصه شجاعة المحارب مع الترفع الديني للزاهد الصوفي .

« بدأ عهد جديد في دمشق عند وصول نور الدين ... الذي ... كرس وحدة سوريا ، من جبال كيليكيا حتى روابي الجليل . ولاول مرة منذ عهد الامويين ، عادت دمشق لتكون عاصمة دولة مسلمة واسعة ، موحدة ومستقلة . وقد طبعت سياسة نور الدين المدينة بطابعها ، فتكفلت بدور الحماية للمذهب السني الصحيح في وجه الهراطقة الفاطميين والفرنج الكفار ... واصبح الهدف الاوحد هو انتصار الاسلام السني ، وجميع الجهود تركزت على الجهاد (الحرب المقدسة) . وكعاصمة للسنة ... وجدت دمشق عندئذ أهميتها العسكرية ونفوذها الديني » [1] .

وفي سنة ١١٦٩ ، استولى ضابط من ضباط نور الدين ، هو القائد التركي شيركويه ، على مصر وسيطر على القاهرة باسم رئيسه . وبعد شهرين من هذا

---

١) Elisséef , **Dimashk,** op. cit., II, p. 291

الانتصار مات شيركويه . وكان قد اصطحب إلى مصر ابن اخيه صلاح الدين ابن ايوب ، وهو متحدر من عائلة كردية كبيرة ، فخلفه في السلطة كوزير ونائب عن نور الدين ، إلى جانب العاهل الفاطمي الخليفة العاضد .

ج — صلاح الدين حاكم مصر (١١٧١) وسوريا الاسلامية (١١٧٤)

في سنة ١١٧١ ، الغى صلاح الدين (١١٧١ — ١١٩٣) الخلافة الفاطمية ، وحكم مصر باسم نور الدين . وعند موت هذا ، سنة ١١٧٤ ، اصبح صلاح الدين وحده سيد وادي النيل . ودون ان يضيع الوقت أسرع نحو سوريا ، حيث ظهر كبطل حام للاسلام ضد مسيحية الفرنج . فاستولى على دمشق وحمص وحماه ، واعلن نفسه سلطاناً سنة ١١٧٤ . فلجأ الملك الصالح ، الابن الاصغر لنور الدين وخليفته ، إلى حلب ، التي قاومت مقاومة عنيدة (١١٧٤) . ولكن ، في سنة ١١٨٣ ، انتزع صلاح الدين حلب ، وفي سنة ١١٨٥ ، استولى على الموصل ، فحقق وحدة مصر وسوريا الداخلية . « وعندما توحدت سوريا المسلمة ومصر ، تحت سلطة الرجل العظيم صلاح الدين ... غدت الدول الفرنجية ، ليست فقط مطوقة ، لكن في حالة تدهور دائم ... فمنذ اليوم الذي وجد العالم الاسلامي فيه وحدته السياسية ، ... اضحت أيام الشرق اللاتيني معدودة » (Grousset) .

د — صلاح الدين يسحق الفرنج في حطين (١١٨٧)

في سنة ١١٨٧ ، شن صلاح الدين على الفرنج ، في حطين ، قرب طبريا ، اكبر معركة حدثت في جميع الحروب الصليبية . فبعد ان طوق جيش الفرنج سحقه وقتل زعماءه او أسرهم . « وادت نكبة حطين إلى الاضمحلال المباشر لسوريا الفرنجية ... فالمستعمرة التي نزفت دماؤها اصبحت خالية من المستعمرين ولم يبق على صلاح الدين الا ان يستولي على جميع مدن الفرنج » (Grousset) .

وكان جيشه مؤلفاً من اثني عشر إلف مقاتل ، رَبعهم تقريباً اكراد والباقون اتراك .

وفي بضعة اشهر استسلمت لصلاح الدين : عكا ، الناصرة ، قيصرية ، حيفا ، نابلس ، يافا ، صلخد ، صيدا ، بيروت ، جبيل ، الرملة ، حبرون ، بيت لحم ، عسقلان والقدس (١١٨٧) . وفي السنة التالية ، فتح صلاح الدين طرطوس ، جبلة ، اللاذقية ، قلعة صهيون ومدن شرقي الاردن . فمملكة القدس دمرت وامحت عن الخريطة .

وهكذا ، باستثناء صور وطرابلس وحصن الاكراد وقلعة المرقب ومدينة انطاكيا ، انتقلت جميع ممتلكات الفرنج إلى المسلمين خلال ثمانية عشر شهراً .

دخل صلاح الدين إلى القدس في مظاهرة تاريخية شهيرة . وقد رفض طلب بعض المتعصبين تدمير كنيسة القيامة وكنيسة الصليب ، قائلا : « لنقلد الفاتحين المسلمين الاوائل الذين احترموا هذه الكنائس » (Grousset) .

وكان ريكاردوس قلب الاسد ، ملك انكلترا ، الذي جاء على رأس حملة صليبية ثالثة ، عقد مع صلاح الدين صلحاً بالتراضي ، بعد ان حقق انتصارين كبيرين عليه سنة ١١٩١ و ١١٩٢ . فبقي الشاطىء الفلسطيني من صور حتى يافا ، مع هاتين المدينتين للعاهل الفرنجي . اما الداخل ، بما فيه القدس ، فكان لصلاح الدين ، الذي اباح للمسيحيين حرية الحج إلى المدينة المقدسة (١١٩٢) .

ومع ان دولة الفرنج في فلسطين تقلصت إلى الشاطىء الصغير الممتد من يافا الى صور ، فهي تابعت حمل اسم « مملكة القدس » . ولكن بدلاً من هذه المدينة المقدسة ، التي بقيت في ايدي المسلمين ، اصبحت منذئذ العاصمة الفعلية لها مدينة عكا .

٥ – موت صلاح الدين وتقسيم دولته . النزاعات والقتال بين خلفائه (١١٩٣ – ١٢٥٠)

في سنة ١١٩٣ ، مات صلاح الدين ، بعد ان أرهق واستنزفه الجهد ، وكان عمره ٥٥ عاماً ، فدفن في مدينة دمشق حيث لا يزال قبره إلى اليوم . كان صلاح الدين ، قبل موته ، يتوقع النزاعات التي ستنشأ بين ورثته العديدين ، فقسم بنفسه بينهم أراضي مملكته الواسعة . وعند وفاته ، كانت مصر تؤلف وحدها مملكة يحكمها ابنه الملك العزيز ، بينما عادت سوريا المسلمة إلى تقسيم جديد ، نتج عنه عدة ممالك ، يحكم كلاً منها ملك من الايوبيين ، وهي : دمشق ، حمص ، حماه ، حلب ، الموصل ، بعلبك ، الكرك .

« منذ سنة ١١٩٣ ، سنة وفاة صلاح الدين ، حتى سنة ١٢٥٠ ، التي شهدت هلاك آخر عاهل مصري من هذه السلالة ، لم يكن تاريخ الايوبيين الا سجلاً مؤلماً من الدسائس والصراع بين امراء هذه العائلة ، إذ كان لكل منهم اطماع توسعية اقليمية تعادل اطماع جاره . وجميع الامراء السوريين اتفقوا على عدم الاعتراف بسلطة سلطان مصر ، الذي كان يريد فرضها عليهم . كما طمح جلّهم ، بشكل خاص ، إلى امتلاك دمشق . وعاصمة سوريا هذه ، بعد ان غدت موضوع الصراع الذي امتد طوال أكثر من ستين عاماً ، اصبحت المركز السياسي لمصر وسوريا وأرض الرافدين ... وانتقلت المعارك القليلة التي كانت تقع احياناً مع الصليبيين إلى الدرجة الثانية » [1] .

بعد سنة من وفاة صلاح الدين ، اي سنة ١١٩٤ ، انفجر الخلاف بين ابنيه ، عاهل مصر وعاهل دمشق . وفي سنة ١٢٠٠ ، نجح الملك العادل ، عم هذين ، الذي كان يملك في ارض الرافدين العليا ، بالحلول محل الاثنين . فاستقر كسلطان في القاهرة واعترف الامير الايوبي في حلب بسلطته وفي سنة ١٢٠١ ، اعترف به جميع الامراء الايوبيين الآخرين .

(١ Wiet, op. cit., p. 281, 282

وعلى غرار ما فعل صلاح الدين ، قام الملك العادل ، في حياته ، بتقسيم امبراطوريته بين ابنائه الاربعة : فنال الكامل مصر ، والمعظم دمشق، والابنان الآخران ممتلكات في حلب وأرض الرافدين العليا . وعند وفاة العادل سنة ١٢١٧، ادعى ابنه الكامل ، الذي خلفه سلطاناً في القاهرة (١٢١٧ — ١٢٤٠)، السيادة على الامراء الآخرين في العائلة . وكان أهم هؤلاء الامراء : أخوا الكامل ، المعظم ، امير دمشق ، والاشرف ، امير أرض الرافدين العليا ، ثم ابن اخيه ، العزيز ابن صلاح الدين ، حاكم حلب . وقد وجد الملك الكامل اقوى المصاعب في اخيه المعظم ، حاكم دمشق ، الذي كان يطمح للسيطرة على امارتي حمص وحماه . وذلك عندما اراد « ان يفرض على أقاربه ما يدعى بالتوازن السوري » (Wiet) .

وبدلاً من ان يجمعوا جهودهم معاً ضد العدو المشترك ، الفرنجي المحتل ، استمر الامراء الايوبيون « بمؤامراتهم المعتادة ، تارة بالصراع من اجل حق الصدارة في مكة ، وطوراً من اجل المطامع الاقليمية . وكان بعضهم ، كالبعض الآخر ، يستنجد بالعدو . ونتيجة لهذا الشقاق ، قام الفرنج والخوارزميون بتخريب سوريا وفلسطين » [1] . وإذ كان هؤلاء الامراء يستعدي واحدهم على الآخرين ويستدعي الفرنج لمساعدته ، سواء في ذلك امراء مصر ودمشق وحلب وحماه وحمص والكرك وغيرها ، فان الفرنج كانوا يحصلون على مغانم جوهرية بسبب هذا التصرف (منها استعادة القدس ، سنة ١٢٢٩ وسنة ١٢٤٣).

و — الامارات الايوبية في دمشق وحلب

امارة دمشق :

حيث كانت دمشق عاصمة دولة ومركزاً لبلاط امارة ، عرفت تزايداً كبيراً

١) Wiet, **op. cit.**, p. 350

في السكان خلال حكم الايوبيين ، مما ترك انعكاسات محسوسة في حياة المدينة . « مع اصلاح النشاط الاقتصادي نمت العلاقات التجارية . ومنذ هذا التاريخ ، بدأ تجار ايطاليون يفدون إلى دمشق ، وعرفت الصناعة انطلاقاً خاصاً ... وأصبحت دمشق ، ليس فقط مركزاً كبيراً للحياة الثقافية الاسلامية ، بل أيضاً مركزاً دينياً هاماً . فسياسة الدولة السنيّة كانت تبرز بالتشجيع الذي يظهره رؤساؤها السلاجقة والزنكيون لنشر العقيدة الاسلامية السنيّة . وقد تحققت نهضة في الهندسة المدنية ، فراح الامراء والاميرات والموظفون الكبار والضباط الرفيعو الرتب يتنافسون لبناء المنشآت التقوية . واصبحت دمشق بسرعة مدينة المدارس ... كان القرن الثالث عشر ألمع حقبات التاريخ في حياة مدينة دمشق ، التي عادت لتكون مركزاً سياسياً وتجارياً وصناعياً واستراتيجياً وثقافياً ودينياً . وإلى هذه الحقبة يعود تاريخ معظم المنشآت التي لا تزال تزين دمشق » [1] .

امارة حلب الايوبية :

احتفظ الايوبيون الذين تعاقبوا على الحكم في حلب، بعد موت صلاح الدين، بهذه الامارة للاحفاد المباشرين لهذا الاخير. وقد امتدت سلطتهم على جميع أراضي سوريا الشمالية، وجعلوا من عاصمتهم مركز دولة قوياً مزدهراً . « كان عهدهم القمة في حلب القرون الوسطى . فقد اتسعت من جديد الضواحي التي كان يقيم فيها الخيّالة الاتراك للعاهل الايوبي . ونشطت صناعاتها بوجود البلاط الملكي ، واثرت بواسطة العلاقات التجارية مع مدينة البندقية ... واعيد بناء تحصيناتها من جديد وفق الفنون الحديثة . كما اعيد بناء قلعتها بكاملها ... واصبحت حلب عندئذ واحدة من أجمل المدن وأنشطها في جميع بلدان الشرق الاسلامي . واستمر انشاء المدارس » [2] .

١) Elisséef , **Dimashk, op. cit.**, II, p. 292

٢) J. Sauvaget, **Halab**, op. cit., III, p. 90

ز – المماليك يخلعون الايوبيين

في سنة ١٢٥٠ ، قُتل طوران شاه ، آخر سلاطين مصر الايوبيين ، بيد رئيس حرسه التركي « ايبك » ، احد امراء المماليك الاتراك ، وقد اتخذ لنفسه لقب سلطان .

وفي سنة ١٢٥٨ ، استولى المغول على بغداد ، فاستسلمت المدينة للنهب والمذابح . قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله ، والغيت الخلافة العباسية في بغداد نهائياً . وفي الموصل ، اعلن العاهل الايوبي خضوعه . وفي حلب ، بعد شهر من المقاومة ، سقطت المدينة ونهبها المغول (سنة ١٢٥٩) . واستسلمت دمشق للفاتحين دون مقاومة وهرب اميرها نحو الجنوب ، ثم اندفع الفاتحون حتى غزة (سنة ١٢٥٩) .

وبينما كان الايوبيون يتنافسون فيما بينهم على الاستذلال المهين امام « المغول » ، اتخذ المماليك الاتراك في مصر المبادرة ، وعزموا على مجابهة هؤلاء الاخيرين . وبعد معركتين وقعتا في فلسطين ، اندحر المغول على يد سلطان المماليك « قُطُز » وارجعوا إلى ما وراء نهر الفرات (سنة ١٢٦٠) . وقد دخل قطز باحتفال إلى دمشق حيث استقبل كمحرر .

وبعد ثلاثين سنة تقريباً من دخول المماليك الاتراك إلى سوريا ، قضوا نهائياً على الوجود الصليبي في هذه المنطقة . ففي سنة ١٢٨٩ ، استولوا على طرابلس ، وفي سنة ١٢٩١ ، على جميع الاماكن المسيحية في سوريا الفرنجية .
وهكذا ، كما حل الاكراد الايوبيون في مصر وسوريا محل الاتراك السلجوقيين في سنة ١١٧٤ وسنة ١١٨٣ ، حل المماليك الاتراك محل الايوبيين ، في سنتي ١٢٥٠ و ١٢٦٠ . وبعد حوالي قرنين ونصف القرن من ظهور المماليك على المسرح ، قضى عليهم الاتراك العثمانيون في سنة ١٥١٧ ، وحلوا محلهم في السيطرة على جميع بلدان الشرق المتوسطي ، طوال أربعة قرون (١٥١٧ – ١٩١٨) .

الفصل السادس عشر

في عهد دولة المماليك المصرية السورية

(١٢٦٠ – ١٥١٦ م.)

اختفاء جديد للبنان الفينيقي او البحري

عودة لبنان الجبلي الى المسرح

١ – دولة المماليك

أ – ارتقاء السلاطين المماليك إلى الحكم

خلفت دولة المماليك سيطرة الفرنج على لبنان . والمماليك هم عبيد ، كما يشير إلى ذلك اسمهم ، يتحدرون من اصول اجنبية . كانوا يجندون بصفة دائمة بطريق الاختيار او الشراء ، فيؤتى بهم من شمال البحر الاسود والقوقاز ومنطقة بحر قزوين . كان معظمهم من الاتراك والشركس المسلمين او الذين يعتنقون الاسلام في سن مبكرة ، فيربون بعناية ويصنفون في مراتب منظمة . كان المماليك في اول الامر ، يخدمون في الحرس الخاص للسلطان الايوبي في مصر . ولكنهم سرعان ما أصبحوا جيشاً شديد السطوة . وفي سنة ١٢٥٠ ، كما رأينا ، انقلب المملوك التركي « ايبك » ، زعيم المماليك ، على أسياده ووضع نهاية للسلالة الايوبية . استولى على السلطة واصبح اول سلاطين المماليك الاتراك ، الذين دعوا بالبحريين (١٢٥٠ – ١٣٨٢) ، وقد بقي هؤلاء في السلطة حتى خلفهم المماليك الشراكسة او البرجيون (١٣٨٢ – ١٥١٧) .

وبعد ان سيطر سلاطين المماليك على مصر ، سنة ١٢٥٠ ، ثم على فلسطين ،

سنة ١٢٥٣ ، وعلى سوريا الداخلية ، سنة ١٢٦٠ ، قاموا بالاستيلاء على آخر حصون الفرنجة في الشرق ، ما بين ١٢٨٩ و ١٢٩١ وهي : طرابلس ، بيروت ، صيدا ، صور ، حيفا ، طرطوس وغيرها . وهكذا وضعوا النهاية لمغامرة الصليبيين .

كانت سيطرة المماليك السياسية والعسكرية فاتحة عهد العنصر الطوراني ، الذي بدأ بالاتراك الطولونيين ثم الاخشيديين في مصر وسوريا (٨٦٨ — ٩٦٩) ، بينما تمثل في العراق بالاتراك السلجوقيين (١٠٥٥ — ١٠٩٧) ، واخيراً انتقلت السيطرة الطورانية من المماليك الى الاتراك العثمانيين ، في سنة ١٥١٧ ، فدامت في العالم الشرقي حتى أوائل القرن العشرين .

ب — التنظيم السياسي والاداري لدولة المماليك

ان النصوص التالية تساعدنا على معرفة التنظيم العام لدولة المماليك ، وهي مأخوذة من كتاب غودفروى ديمومبين (Gaudefroy-De mombynes) ، المعنون « سوريا في عهد المماليك من خلال المؤلفين العرب » .

« بصورة عامة ، ... ان دولة المماليك هي وريثة الخلافة العباسية . ففي الماضي ، كان خلفاء بغداد يفوضون السلطة الفعلية إلى أمير الامراء ... وفي سنة ١٢٥٨ ، عندما سقطت بغداد بأيدي المغول ، لجأ الخليفة العباسي إلى القاهرة حيث ركز ، في حماية سلاطين المماليك ، كامام ، امير المؤمنين ورأس الامة الاسلامية . وكان خطباء المساجد يدعون باسمه صلاة الجمعة . كما كانت له شعارات رسمية لم تكن للسلاطين ... فقد بقيت شكليات الخلافة تامة : الخليفة يولي السلطان من المماليك السلطة على البلاد الاسلامية . وكانت هذه التولية تتجدد مع كل سلطان جديد ... » .

« وكان الامراء (المماليك) يختارون السلطان بالهتاف له ... وهذا الانتخاب ، المتفق مع التقاليد التركية ، كان يحفظ للامة الاسلامية الحق الشكلي بمبايعة

الخليفة . فكان الخليفة يوافق على اختيار الامراء ويقلد السلطة للسلطان ... ولكن غالباً ما كان الخليفة يوافق بحضوره على اعمال لا تمت اليه بصلة ... فالسلطان هو صاحب الدولة ... اذ هو سلطان الاسلام والمسلمين ، بحكم كونه المفوض العام للخليفة ... انه الامام الاعظم ... ولكن ليس الامام . فالخليفة (الامام) هو دائماً « امير المؤمنين » دون سواه ... فبينما يملك الخليفة ، كانت السلطة الفعلية بيد السلطان الذي يحكم . وهذا الامر لم يكن جديداً في تاريخ الخلافة ... فالسلطان المملوكي كان له تفويض عام من الخليفة ... » .
« والطريف في نظام الحكم المملوكي كان يبدو في العلاقات التي تشد السلطان الى الجيش ، الذي هو أساس الحكم الحقيقي . فالامراء والجنود كانت لهم عائدات عقارية تجعل من الجيش طبقة ارستقراطية اقطاعية . وكانت تمنح لهم هذه العائدات لمدى الحياة ، بالاضافة إلى بعض مظاهر الوراثة ... ومن خصائص هذا الجيش انه كان ، بصغاره وكباره ، مؤلفاً من عبيد سابقين ، او من أبناء عبيد معتقين ... فقد كان اذاً متعدد الاصول . وفي جميع الحالات ، كان مؤلفاً من غرباء لا تربطهم بسكان مصر وسوريا سوى رابطة دين معتنق حديثاً ... فالامراء الطولونيون جمعوا واشتروا اتراكاً وزنوجاً ، والفاطميون بربراً وسلافيين ويونانيين من آسيا الصغرى واتراكاً ، ... وجمع صلاح الدين حوله اتراكاً واكراداً ، وهؤلاء العبيد المماليك هم الذين استولوا على السلطة من خلفائه ... »

« يرتكز بناء الجيش المملوكي برمته على اعطاء كل أمير وكل جندي ... اقطاعة تؤمن له عيشه ، ان في السلم او في الحرب ... وكان الاقطاع ، في دولة المماليك ، يبدو غريباً عن مفاهيم القانون القديم ، ... اذ لم يكن يعني تملك الارض تملكاً فعلياً ، بل جباية الضرائب العقارية العائدة للامة الاسلامية ... ولم يلبث هذا الاقطاع حتى شمل جميع انواع العائدات ، كما كانت الحال في الغرب ... »

« وكان الامراء هم الذين يؤلفون الاطار الاساسي في ادارة الدولة المملوكية . فيتولون احد مناصب البلاط او احدى الوظائف الادارية العالية في القاهرة او

في الاقاليم ... ومقابل « رجال السيف » ، الأعراب والدخلاء الحديثي العهد بالحضارة الاسلامية ، ... كانت نخبة من اهل « القلم والعلم » (الموظفون المدنيون والدينيون) تمد حياة الدولة اليومية بخدمات لا غنى لها عنها ، مع ان هذه النخبة كانت في مكانة اجتماعية دون مكانة « اهل السيف » ... وهي تتألف من اهل البلاد ، مصريين وسوريين، مسلمين بوجه عام ، ويضمون مسيحيين ، واحياناً يهوداً ... وكان يؤلف المسيحيون واليهود ، وبخاصة المسيحيين ، الأكثر عدداً وحيوية ، طبقة « الذميين » التقليدية ... واما السكان المحليون ، ومعظمهم من المزارعين ، فكانوا قد انحدروا إلى وضع بائس ، لان ما كانوا يؤدونه من ضرائب لاصحاب الاقطاعات لم يترك لهم الا الضروري الذي يكاد يكفي لمعيشتهم ... »

« وكان يمتد الحكم ، الذي عددنا مقوماته الرئيسية ، إلى سوريا ... وتقسيمها الجغرافي لم يكن يختلف كثيراً عن التقسيم الذي اقامته الامبراطورية البيزنطية ، والذي تبناه الامويون مع بعض التعديلات ، بعد الفتح الاسلامي . فعندما تفككت الخلافة العباسية ، تجزأت سوريا الى دويلات صغيرة ، مستقلة نوعاً ما ، نظير حلب وحمص ودمشق الخ . واتى الفرنجة ، فابقوا التقسيمات السابقة على ما كانت عليه ... الى ان جاء ابناء صلاح الدين وقسموا الدولة فيما بينهم اقساماً استعملت كمخطط نهائي لتقسيم سوريا الاداري ... ثم سقطت آخر حصون الفرنجة . اما المنطقة الساحلية ، التي برزت سابقاً في عهد الفينيقيين بالدور الذي هيأته لها الطبيعة ، فقد احتفظت بأهمية سياسية خاصة ، ظهرت نتائجها في التنظيم الاداري . وكان طيف سفن الغرب ، وهي في طريقها إلى صليبية جديدة او الى حملة سلب ، لا زال يتوارد في أذهان المسلمين ... »

« في سوريا ، كان السلطان يخشى من الميول الاستقلالية ويتحسب لها ، فكان يراقبها ويتجسس عليها . وهو لم يفوض سلطاته إلى امرائه ... حتى ان النائب عنه ، في كل ولاية ، لم يكن الممثل الوحيد للسلطان ... لان العاهل كان يعين مباشرة قسماً من الموظفين السوريين ... وفي المدينتين الكبيرتين ، دمشق وحلب ، كانت القلعة حصناً ملكياً ينتصب مجابهاً لقصر نائب السلطان ،

وكأنه تحذير او تهديد ... وفي سوريا كما في مصر ، كانت الاقطاعات في أساس عهد المماليك ... »

« في سوريا ، ان الاقليات الدينية ، ولا سيما المسيحيين والمسلمين من غير السنة ، وجدت نفسها منغمسة في الشؤون السياسية ، أكان ذلك بارادتها ام بغير ارادتها . وكان هناك خوف من ان تقوم الجماعات المسيحية القديمة والمسلمون الجدد وخليط الشعوب التي خلفها الفرنجة وراءهم ، وكانوا متهمين بذلك ... وفي ظل حكم المماليك ، كانت سوريا تلعب دورها كجبهة امامية وكحصن في وجه الغزوات الآسيوية . ولكنها كانت ، بالنسبة للامراء بنوع خاص ، ارضاً ينمون عليها ثرواتهم ... فدمشق تبدو وكأنها اولى درجات العرش (عرش القاهرة) ... ولا يبدو ان النظام المملوكي كان ملائماً لثراء سوريا ... »
« ترك العهد ... آثاراً في غاية العظمة والاناقة . واكتسب المماليك ، في مصر وفي سوريا ، ذوق انشاء الابنية الفخمة والظريفة ... اما نشاطهم الادبي فكان أقل حظاً ... وكان العلم محصوراً في امناء سر الديوان وفي رجال الفقه » .
« وكانوا في الحقيقة لا يزالون في عهد المعارف الموسوعية ، التي تُجمع في مجلدات ضخمة وتحفظ غيباً ... فقد كان لامناء المكاتب ثقافة أدبية متينة ومعرفة واسعة بدقائق اللغة ... وفي هذا العصر ، نشأ أدب تاريخي واجتماعي له عندنا تقدير كبير ويرفع كثيراً من قيمة المجتمع الذي انتجه . وخلاصة القول ، ان طبقة الامراء الارستقراطية عاشت على هامش المجتمعين المصري والسوري المعاصرين لها . فقد كانت تشكل فيهما عنصراً عرضياً ، دون جذور ودون تأثير اجتماعي » [1] .

٢ – سوريا في عهد المماليك

في عهد السلاطين المماليك ، الذين كانوا يقيمون في القاهرة ، غدت ممالك

(1 G. De mombynes, **La Syrie à l'Epoque des Mameluks, d'après les Auteurs Arabes,** introduction, p. XX-CXIX.

الايوبيين القديمة ، في سوريا ولبنان وفلسطين ، مراكز « نيابة » ، تؤلف كل منها دولة متميّزة نوعاً ما ، رئيسها « النائب » (نائب السلطان) ، المعيّن من قبل السلطان تابعاً له . وقد قسمت هذه البلاد إلى ست نيابات هي : دمشق وحلب وحماه ، في سوريا ، صفد والكرك في فلسطين ، طرابلس على الشاطىء اللبناني . وكانت تسمية « الشام » تعني أحياناً دمشق ومنطقتها ، واحياناً تعني مجموعة النيابات الست في هذه البلاد ، اي مجموع البلدان التي تؤلف سوريا الجغرافية .

وكان السلطان يعين ، إلى جانب النواب ، ضباطاً من المماليك للاشراف عليهم ومراقبتهم . وكان جيش كل نيابة يتألف ، كما كان في عهد الايوبيين ، « من الاتراك ومن شعوب مماثلة » . وكانت كل نيابة تقسم إلى ولايات ، يحكم كلا منها والٍ .

فالحكم المركزي الذي اتبعه المماليك ضمن لبلاد المشرق قرنين من الاستقرار ، تخللتهما الاعمال الوحشية التي رافقت غزوة تيمورلنك ، سنة ١٤٠٠ و ١٤٠١ .

أ ـ نيابة دمشق

في عهد المماليك ، كانت نيابة دمشق أهم المراكز النيابية وأعلاها رتبة في سوريا . ففيها كان يقيم السلاطين المماليك بين وقت وآخر ، اذ كانت ثاني مدينة في الدولة ومركزاً لنائب كان يتم اختياره من المماليك البارزين . وكان التنافس ما بين نائب دمشق وحاكم القلعة العسكري ، « مع طموح الامراء المحيطين بهما ، عربوناً كافياً لضمان السلطة السلطانية . وتغيير السلطان في القاهرة كان يثير عادة عصيان حاكم دمشق ... »

« عرفت دمشق ، في حدود سنة ١٣١٢ ، حاكماً ذا شأن ، هو النائب « تنكز » ، الذي اقر الامراء في سوريا بسلطته . وكنائب فعلي للسلطان في سوريا ، فرض نفسه على سيده قرابة ربع قرن . وقد مهد الازدهار ، الذي ظهر في هذه

الفترة ، للحياة الفكرية كي تتفتح . كان هذا العصر هو الذي عاش فيه المصلح الاسلامي ابن تيميّة والمؤرخ الصفدي ... وفي ١٣٤٠ ، فقد تنكز حظوته فجأة والقي القبض عليه ، ثم سجن في الاسكندرية ، حيث مات مسموماً . ومن عام ١٣٤٠ حتى ١٣٨٢ ، وهو الزمن الذي زار فيه ابن بطوطة المشرق ، تعاقب على القاهرة اثنا عشر سلطاناً من المماليك البحريين ... وفي الوقت ذاته شغل ما يقارب الاثني عشر حاكماً منصب « النائب » في دمشق ... فقد كان الصراع مستمراً وكانت نيرانه تستعر بطموح هذا او ذاك ... »

« باتت سوريا ، التي مزقتها خصومات الأمراء المماليك ونزاعاتهم ، فريسة سهلة المنال لتيمورلنك الذي ... وصل دمشق عام ١٤٠١ . ففي معسكره المرابط بالقرب من المدينة ، استقبل ابن خلدون (المؤرخ الاسلامي الشهير) في زيارته الخالدة الذكر ... وما أن سلمت اليه المدينة حتى أعمل فيها السلب والنهب ... وقد خلفت الحرائق ضحايا عديدة وأحدثت أضراراً فادحة ... وعندما غادر تيمورلنك دمشق، في السنة ذاتها، اصطحب معه، إلى عاصمته سمرقند ، ما تبقى في المدينة من محترفين ومن عمال مهرة . ويعتبر هذا الاجلاء الجماعي من أكبر الكوارث في تاريخ دمشق ...وكان على البلاد التي أهرقت دماؤها ان تواجه آلاف المصاعب ... كانت الحروب الاهلية تولد حاجات كبرى إلى المال ، ولم يكن الامراء يترددون بمضاعفة الضرائب على الأملاك حتى ان السلطان ذاته كان يلجأ إلى وسائل عنيفة ليحصل على المال الذي لا تؤمنه له الضرائب . فلم يكن يتردد في خلع حكام لكي يضع يده على ثروتهم . حتى ان الفساد في عهد المماليك الأخيرين وصل إلى « القضاة » ، الذين كانوا يحكمون ببعض القضايا خلافاً للقانون ، مقابل اموال تدفع لهم » [1] .

---

١) N. Elisséef , **Dimashk**, op. cit., II, p. 293, 294

ب – نيابة حلب

لم يكن مصير نيابة حلب ، التي يحتل نائبها المرتبة الثانية بعد دمشق ، أكثر حظاً من مصير جارتها في الجنوب . فقد رأينا سابقاً ان مدينة حلب ، التي دمّرها المغول تدميراً وحشياً عام ١٢٦٠ ، احتلها في السنة ذاتها المماليك المصريون ، بعد أن استولوا على دمشق . تعود مكانة حلب « الى موقعها الجغرافي على الحدود الشمالية للدولة ، حيث كانت تؤمن الحماية لها . ولكنها مع ذلك لم تنهض الا ببطء من تحت أنقاض الكارثة التي حلت بها عام ١٢٦٠ . وقد أبقاها الخوف المتواصل من حملة جديدة يقوم بها المغول شبه مقفرة ما يقارب نصف قرن ... وبعد أن استتب الأمن فيها ، لم تمكنها ثورات حكامها ونزوات جيوشهم وجور نظام الضرائب فيها من استعادة نشاطها . وقد فتك فيها « الطاعون لأسود » ، عام ١٣٤٨ ، وتبعه على الأثر الدمار الذي خلفه تيمورلنك (١٤٠٠) فأكملا شللها » [1] .

ومنذ مطلع القرن الخامس عشر ، وبعد أن أصبحت حلب ملتقى للقوافل التي كانت تنقل التجارة ما بين أوروبا وبلاد الفرس ، غدت مركزاً اقتصاديا شديد الحيوية ، فازدهرت بسرعة .

٣ – لبنان في عهد المماليك : فسيفساء من التجمعات الطائفية والعرقية شبه المستقلة

في سوريا المملوكية ، ظل لبنان ، الذي لم يحتله عسكرياً الفاتحون الجدد ، ملجأ كما في الماضي ، لمختلف الأقليات في المنطقة . وكان له نظام خاص . وقد بقيت جماعاته السياسية – الطائفية المختلفة تحتفظ ، كل منها ، برئيسها المحلي المستقل تقريباً والتابع لنائب طرابلس أو دمشق المملوكي .

١) J. Sauvaget, **Haleb**, op. cit., III, p. 90

أ – قبل القرن الرابع عشر

التسلل العربي :

خلال القرن العاشر ، « تسللت إلى لبنان الجنوبي بعض الجماعات البدوية (العربية) ، مستغلة ضعف السلطة العباسية المتزايد . وكانت هذه القبائل القاطنة في فلسطين ... جاءت سعياً وراء مراع جديدة لمواشيها . ووصلت من الشمال قبائل عربية أخرى ، تسللت من المضايق التي تنفتح على مستنقعات سهل البقاع ، المتروكة آنذاك لقطعان البدو . وقد غدت هذه القبائل كعناصر صالحة لنشر العقائد الدرزية والشيعية . وبانتظار هذا ، كانت هذه القبائل تحمل معها بذور انقسامها الى قيسية ويمنية . وهذا الانقسام لا يزال قائماً حتى أيامنا هذه في لبنان . وكانت قبائل عربية أخرى تنتقل بقطعانها في المراعي بين السهل والجبل . ونذكر منها بني تغلب ، ومركزهم الرئيسي في مشغرة (في البقاع الجنوبي) ... وقبل مجيء الفرنجة ، توغلت في لبنان المتوسط قبائل عربية من التنوخيين ... وأشهرها « بنو بحتر » ، وهم قبيلة أمراء الغرب ، الذين استقروا في الاقليم الواقع في شرق بيروت . وهذه القبائل كانت تأتي من شمال سوريا ... »

« بنو بحتر –

... كان أبو الأمير بحتر ، المعاصر للحملة الصليبية الأولى ، يملك إقطاع الغرب ، الذي كان منحه اياه سلاجقة دمشق . فاعتبر خلفاؤه انفسهم فيه كأنهم في بلادهم . أما معتقداتهم الدينية فمن الصعب تحديدها ، ... اذ يبدو أن سكان الشوف ، منذ القرن الحادي عشر للميلاد ، كما هي الحالة الآن ، كانوا من الدروز . وقد أقام بينهم بنو بحتر . ولم يكن هناك وجود للمنشآت أو الاحتفالات الاسلامية . لكن الامراء ، لعلاقاتهم بالشام وبالقاهرة ، كانوا يعرّفون أنفسهم كمسلمين ... وكانوا بنّائين بعزيمة لا تعرف الوهن ،

فشيّدوا البيوت والحمامات ومجاري المياه . لكن لم توجد مساجد قط في محيطهم ، باستثناء بيروت حيث كانوا يعيشون في بيئة إسلامية لا بد من مسايرتها ...

وعندما احتل الصليبيون الشاطىء اللبناني (١١٠٠ – ١١٢٥) ، دشّن أمراء الغرب السياسة المرنة التي تبنّاها منذئذ جميع خلفائهم ، حتى فخر الدين والأمير بشير . ولم يكن اقليمهم يبعد الا بضعة كيلومترات عن بيروت ... ولذلك تحاشوا دائماً المجازفة ، فكانوا يترجحون بين الفرنجة والمسلمين ... وقد جلبت هذه السياسة المتقلبة الكوارث على رأس الأمراء الذين كانوا يمارسونها » ...

« ب – لبنان في القرن الرابع عشر ...

في الجنوب ، ان الشعوب البدوية التي اجتازت مضيق الليطاني كانت منضوية إلى العقيدة الشيعية ، التي جاءت بها من الجليل ثم نشرتها في منطقة الشقيف ...»

« توغل الدروز والمتاولة –

في ايام الصليبيين ، كان الدروز قد توغلوا تدريجياً نحو الشمال ، فاحتلوا المتن وقسماً من كسروان ، دامجين بالقوة أو بالرضى جماعات منعزلة من الشيعة . وفي القرن الرابع عشر ، كان المتاولة (الشيعة) ، المنتشرون كثيراً اليوم في سهل بيروت ، كثيري العدد فيه على ما يبدو . ولذا ، فإنهم في فترة من الفترات احتلوا قسماً من المدينة ... أما في كسروان ، حيث توقف توغل الدروز ، فقد سيطر الشيعة » .

« الجماعات المسيحية –

في بلاد جبيل ، التي كانت مزدهرة جداً ومأهولة في عهد الفرنجة ، ثم في

منطقة البترون ومنها صعوداً باتجاه الأرز ، كان يقيم الموارنة . وكانوا قد اندمجوا بتجمعات مسيحية لطوائف أخرى ، كالملكيين واليعاقبة . وكان لليعاقبة ، القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح ، أديرة وأنظمة اكليريكية بجميع مراتبها ، خصوصا في جونيه . وكان يحيط بهذه الجزر المسيحية ، من الشمال ومن الشرق ، مسلمون منشقون ، شيعيون صعدوا من سهل بعلبك ، ونصيرية هبطوا من منطقة عكار ... » .

« عداء للاسلام –

لم تكن هذه الشيع ، الثائر بعضها على بعض ، تحمل عداء أقل للاسلام الرسمي . فقد كانت تصفق لحملات الفرنجة والتتار عليه ... وكانت المقاومة ضد الصليبيين والمغول قد أبعدت هذه الشيع عن الأنظار ، فأتيح لها أن تعزز دعوتها وأن تتحصن في قلعة لبنان الطبيعية وأن تستعيد استقلالها . وكانت حركة التمرد قد وصلت ، في الشمال ، إلى مناطق عكار والضنية وكسروان ، وفي الوسط ، إلى الأقاليم الأكثر ارتفاعاً والأصعب منالا ، إلى الجرد ... ولا شيء يدل على أن المسيحيين في لبنان اشتركوا في حركة العصيان ... »

« حملة كسروان (١٣٠٥) –

... في عام ١٣٠٥ ، تحرك نواب دمشق وطرابلس وصفد ، كل من ناحيته ويقال انهم جمعوا جيشاً يزيد على خمسين ألف رجل . فقد كانت عملية تطويق ، حاصرت الجبل من جميع الجهات . وقد كتب صالح بن يحيى عن ذلك فقال : « طوق الجنود العصاة وسيطروا على جبال كان الأهلون يعتبرونها منيعة ، فخرّبوا المنازل والكروم ، وأفنوا العدد الأكبر من العصاة ، ثم ألحقوا القسم الباقي من هؤلاء بجيوش طرابلس . إلا أن البعض تمكن من الاختباء أو الحصول على الأمان ... »

« تقدم الموارنة —

ان هذه الهزيمة ، مع عملية القمع التي تبعتها ، افادت الموارنة ... فالنصيرية والمتاولة والدروز خسروا معركة عام ١٣٠٥ ، وادت المذابح وعمليات الاجلاء والانضواء إلى جيش المماليك إلى اقفار منطقة كسروان من سكانها . فاستغل المسيحيون ، وبخاصة الموارنة ، هذه الفرصة ليملأوا الفراغ في هذا الاقليم ، اذ هم ، منذ القرن الخامس عشر ، ابتدأوا يحتلون كسروان . وكان الموارنة قد نزحوا إلى لبنان الشمالي ، قبل المردة بوقت قليل ، في القرن الثامن ، حيث كانوا يعيشون حياة غير مستقرة ، بسبب اضطهاد العباسيين واهلاك قسم كبير منهم سنة (٧٥٩ — ٧٦٠) ، حتى مجيء الصليبيين ... وقد سمح لهم اتفاقهم مع الفرنجة بأن يتنظموا ويستقروا بثبات في أعالي لبنان بانتظار مصير أفضل ... وبتقتيل النصيرية وإبعادهم عن لبنان ، وبإيقاف توسع المتاولة والدروز ، هيأ الحكم المملوكي ، من غير قصد منه ، السيطرة للعنصر المسيحي في لبنان » .

ج — « في القرن الخامس عشر ...

لم يكن (الموارنة) قد اجتازوا نهر ابراهيم ، اذ كانت هجرتهم فضلت الاتجاه نحو رودس وقبرص . ولا بد من أن يكون عددهم قد ازداد في لبنان الشمالي ، بحسب قول رحالة معاصر : « فيه عدد كبير من القصبات والقرى يقطنها جميعاً عدد غفير من المسيحيين » . وكان مقر البطريرك الماروني في قنوبين (وادي الأرز) . وفي القضايا الزمنية ، كانوا يخضعون لرؤساء يحملون لقب « مقدم » وكانوا تابعين رسمياً لنيابة طرابلس . ويبدو أن مقدم بشري ، أول المقدمين ، استغل الفوضى التي مرت بها مصر ، في القسم الثاني من القرن الخامس عشر ، ليؤمن لبلاده استقلالاً جزئياً ...

« نزل الموارنة من جبالهم واستقروا في جبيل وفي المنطقة المجاورة . فأعادوا

بناء البترون ، التي وجدها بولونير (Poloner) ، عام ١٤٢٢ ، « مدمّرة تدميرا تاماً ... ويذكر هذا الرحّالة اسم الموارنة بين الطوائف المسيحية في طرابلس ... وبما أنهم كانوا يعتنون بزراعة التوت ، جذبتهم الى طرابلس صناعة الحرير ، التي كانت مزدهرة كثيراً في هذه المدينة » [1] .

التركمان ، والاكراد ، والبحتريون ، على الساحل —

تلافياً لعصيان محتمل من اللبنانيين ، ولتأمين حماية الساحل من غزوات الفرنجة ، الذين كانوا يروحون ويغدون في البحر ، نظم المماليك حراسة البلاد بواسطة جماعات متحركة من الأنصار ، أدخلوا فيها تركماناً وجماعات طورانية مختلطة ، كانت تعيش على السلب والنهب ، إنما كانت تربطهم بها صلات الدم ، واوكلوا اليها رقابة لبنان . ثم أضافوا الى التركمان فيما بعد فرقاً من الاكراد لحراسة المنطقة الشمالية من الساحل ، الواقعة بين بيروت وطرابلس . أما الدفاع عن بيروت والساحل الجنوبي ، لغاية صيدا ، فأوكلوه إلى أمراء الغرب البحتريين ، الذين كانت وظيفتهم تقتصر على إنذار السلطات المملوكية في دمشق حال ظهور سفن معادية قريباً من الساحل . فالفرنجة والاغريق ، الذين غدوا قراصنة ، كانوا يرسون بين وقت وآخر في بيروت وصيدا والاسكندرية الخ . ، حيث كانت مراكبهم تعود محملة بالغنائم وبالأسرى . وعلى حد قول ابن سباط ، المؤرخ اللبناني المولود في عاليه ، « مدّ أمراء الغرب أيضاً سلطتهم من طرابلس حتى صيدا » (Lammens) .

٤ — الحياة الاقتصادية

في عهد سلاطين المماليك ، تدهورت مدن الساحل اللبناني بفعل الحروب

١) Lammens, op. cit., II, p. 8, 17, et 38

والدمار وعمليات التخريب التي أدّت إلى طرد الفرنجة النهائي ، فعمها انحطاط تام . « وخوفاً من عودة عدائية يقوم بها اللاتين ، ... تم تخريب الساحل اللبناني بصورة منظمة ، فدمرت الحصون وأجلي السكان الى الداخل ، أو هاجروا إلى قبرص » (Lammens) .

ورمّمت قلعتا صيدا وبيروت ، اللتان شيّدهما الفرنجة ، وأصبحتا مراكز عسكرية . هُدم مرفأ صور . اما المدن الساحلية ، التي كانت مزدهرة في عهد الفرنجة ، فباتت قرى كبيرة يتعذر القيام فيها بأي نشاط تجاري بحري . وقد حلت الطرق البرية محل الطرق البحرية ، التي أصبح العدو يسيطر عليها . « فكانت طرق القوافل الكبرى ، التي تبعث الحياة في البلاد ، تنطلق من حلب إلى بغداد ، ومن دمشق إلى القاهرة » (Dunand) ، دون ان تمرّ بساحل المتوسط .

ومن ناحية أخرى ، كانت مطامع المماليك وقصر نظرهم وخلافاتهم بسبب التزاحم على السلطنة ، قد عجلت بمسيرة البلاد نحو الفقر والانحطاط . وقد قضى جشع هذه الارستقراطية الجائرة على الرؤساء المحليين . وباتت زراعة التوت وصناعة الحرير مورداً اقتصادياً رئيسياً لسكان لبنان .

لكن العلاقات التجارية بين الشرق المسلم والغرب المسيحي ، التي كانت منقطعة تماماً منذ اجلاء الفرنجة ، ما لبثت أن توطدت من جديد . فالمماليك كانوا واقعين بحاجة الى مال ، فاهتموا ، قبل كل شيء ، بألا تنضب ينابيع ازدهار دولتهم . وقد بدأ إيطاليون من بيزا وجنوى ، وفرنسيون من مرسيليا وبروفنسيا ، وأسبان من قطلونا ، يعودون بالتدريج للتعامل مع بلاد الشرق . وكانت بيروت والاسكندرية مركزين لهذا النشاط التجاري . فعادت السفن الأوروبية تتردد إلى ميناءيهما . وقام الأمراء البحتريون ، الذين كانوا يحكمون بيروت باسم السلاطين المماليك ، بالتمهيد لأقامة الفرنجة في هذه المدينة ثم عاد التمثيل القنصلي ، الذي أدخله الصليبيون في الماضي ، إلى الظهور . ومنح المماليك القناصل امتياز القضاء بين مواطنيهم .

وفي القرن الخامس عشر ، أصبحت بيروت ، التي خلفت صور وطرابلس في عهد المماليك ، ملتقى لشعوب المتوسط . التي « دفعتها نحو هذه البقعة من الساحل الفينيقي حاجات أقوى من فوارق الجنس والدين » . فراحت تشتغل بالتجارة بين آسيا المسلمة وأوروبا المسيحية .

٥ – نهاية دولة المماليك (١٥١٦ – ١٥١٧)

خلافاً للدول الشرقية السابقة ، التي دُمّرت بعد أن هرمت ووهنت قواها فخلفتها قوات أكثر فتوة ، كانت دولة المماليك ، التي خلفت الدولة الايوبية في منتصف القرن الثالث عشر ، لا تزال ، في أوائل القرن السادس عشر ، قوية بالمقدار الكافي كي لا تخاف من مصير مماثل . فهي قد لاقت حتفها في موت عنيف . فإن الجيش المملوكي ، المؤلف من جنود من أصل آسيوي (أتراك وشراكسة وغيرهم) ، انكسر وأبيد سنة (١٥١٦ – ١٥١٧) في معركة ضارية مع جيش تركي – آسيوي آخر ، هو انكشارية السلاطين العثمانيين .

الفصل السابع عشر

في عهد الامبراطورية العثمانية

(الحقبة الأولى ١٥١٦ — ١٨٤٠ م.)

معالم لبنان الحديث . إمارة لبنان المعنية والشهابية

١ — الامبراطورية العثمانية (١٢٨٨ — ١٩١٨)

كانت الامبراطورية العثمانية آخر الامبراطوريات الكبرى في الشرق الادنى . فهي نشأت في القرن الرابع عشر ودامت حتى أوائل القرن العشرين . فخلفت الامبراطورية المسيحية للاباطرة الاغريقيين اي البيزنطيين وورثت دولة الخلفاء الاسلامية .

امبراطورية السلاطين العثمانيين حتى فتح سوريا ومصر (١٢٨٨ — ١٥١٦)

في الجيل الثالث عشر ، رحل من بلاد تركستان رئيس عشيرة تركية صغيرة ، متجهاً نحو بلاد الاناضول التي كان يسيطر على القسم الاكبر منها سلطان الاتراك السلجوقيين الملقب « بسلطان الروم » ، وعاصمته مدينة قونيا . فنال ارطغرل من العاهل السلجوقي اقطاعة صغيرة تقع في اقصى الشمال الغربي من منطقة السلجوقيين . ومن هناك بدأ يشن غاراته على البيزنطيين .

عثمان الاول (١٢٨٨ – ١٣٢٦)

ابن ارطغرل وخليفته ، اعتنق الاسلام ووسع أراضيه بفتوحاته ، ثم تحرر من وصاية سيّده السلجوقي ، سلطان قونيا ، فأسس السلالة والدولة اللتين حملتا اسمه بعد ذلك (عثمانلي بالتّركية ، وعثماني بالعربية) . وعند موته ، احتلت جيوشه مدينة بروسا (Brousse) ، بالقرب من بحر مرمره ، التي أصبحت العاصمة الاولى للدولة العثمانية الفتية .

اورخان (١٣٢٦ – ١٣٦٠)

ابن عثمان وخليفته ، استولى على نيقيا وعلى شبه جزيرة غاليبولي الاوروبة . وأسس جيش الانكشارية المشهور .

مراد الاول (١٣٦٠ – ١٣٨٩)

خليفة اورخان ، احتل اندرينوبل (ادرنه) ، غربي القسطنطينية ، فجعل فيها مقره واتخذ لقب « سلطان » . وبعد ان أصبح سيد شبه جزيرة البلقان والقسم الاكبر من آسيا الصغرى ، استولى على مقدونيا وبلغاريا وصربيا . واصبحت بيزنطيا مطوقة وتابعة له ، فشيدت فيها المساجد وراحت تدفع ضرائب وتقدم من مواطنيها جنوداً للجيش العثماني .

بايزيد (١٣٨٩ – ١٤٠٢)

ابن اورخان ، توسع في آسيا واوروبا بحدود امبراطوريته ، التي دمرها تيمورلنك عام ١٤٠٢ .

محمد الاول (١٤١٣ – ١٤٢١)

ابن بايزيد ، وابنه مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥٠) اعادا بناء الامبراطورية واستأنفا الفتوحات في اوروبا .

محمد الثاني (١٤٥٠ – ١٤٨١)

الملقب بالفاتح ، ابن مراد الثاني وخليفته ، استولى ، عام ١٤٥٣ ، على القسطنطينية ، التي أمست ، بعد ان حوصرت طوال ثلاثين عاماً تقريباً ، دولة صغيرة تابعة تنتظر حتفها . وبعد دمار عاصمة الامبراطورية البيزنطية الهرمة ، اصبحت هذه المدينة عاصمة الدولة العثمانية الفتية . واصبح محمد الثاني ، في أواخر أيامه ، سيد اوروبا الشرقية وآسيا الصغرى برمتها .

استيلاء الصفويين على الدولة الايرانية :

في عام ١٥٠٢ ، خلفت السلالة الصفوية الايرانية الشيعية (١٥٠٢ – ١٧٣٦) سلالة تركمانية في حكم بلاد الفرس . فاحتل الشاه اسماعيل (١٥٠٢ – ١٥٢٤)، مؤسس السلالة الفارسية الجديدة والمنتسب إلى موسى الكاظم ، الامام الشيعي السابع ، ديار بكر والموصل وبغداد وخراسان واصبح سيد دولة واسعة تمتد من نهر الفرات إلى نهر اوكسس (اموداريا) في آسيا الوسطى . « وقد اتخذت السلالة الجديدة مذهبها الشيعي اداة للحكم » (Huart) .

وهكذا ، في اوائل القرن السادس عشر ، كانت ثلاث دول اسلامية كبيرة تقتسم منطقة الشرق الادنى : الامبراطورية العثمانية ، ودولة المماليك ، وكلاهما من السنّة ، والدولة الفارسية الصفوية ، وهي من الشيعة .

العثمانيون اسياد الشرق المتوسطي :

في عام ١٥١٤ ، امر السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) بقتل عدة آلاف من رعاياه الشيعيين ، الذين كانت الدولة الفارسية قد حرضتهم على الثورة . ثم انتصر على الشاه اسماعيل (١٥١٤) وانتزع منه كردستان وديار بكر وشمالي بلاد الرافدين ، مع الموصل . ثم توجه السلطان العثماني نحو الجنوب فسحق المماليك وقوض دولتهم وضم أراضيها (سوريا ومصر) إلى امبراطوريته (١٥١٦ — ١٥١٧) .

أ — الدولة العثمانية واجهزتها الاساسية

الدولة العثمانية :

بينما كانت دولة الخلفاء الامويين والعباسيين تتصف باللغة العربية وبالدين الاسلامي ، والامبراطورية البيزنطية تتميز باللغة اليونانية وبالدين المسيحي ، نجد الامبراطورية العثمانية تعتمد أساسياً على السلطان والجيش . ولم يكن الدين الاسلامي أكثر من سند للدولة .

وبحكم تكوينها الخاص ، كانت الامبراطورية العثمانية « تشكل طبقة عليا ، تستمر في ظلها جميع العناصر الاصلية : ديانات متنوعة ، وثقافات ولغات متعددة ، وتجمعات عرقية سليمة ... فرجال الدين هم من العرب ، والتجار ورجال المال من الاغريق او من الارمن او من اليهود . وكان جزء من الجيش من الالبانيين وإلى جانب جماعة الفاتحين ، كانت تقوم جماعات عنصرية وثقافية اخرى » [1] .

---

١) J.P. La Turquie, p. 81-83

السلطان :

كان السلطان ذا صفة مزدوجة . فهو ، كسليل للسلف عثمان وكسيد مطلق للجيش ، اساس الدولة العثمانية وتجسدها . فسلطته مطلقة ، هو السيد الذي يدين له الناس بكل شيء ، حتى بحياتهم .

وفي القرن السابع عشر ، اتبعت قاعدة تقضي بأن يكون العرش لاكبر اعقاب عثمان سناً ، وذلك تلافياً للاضرار التي يمكن ان تحصل من جراء وجود سلطان صغير السن على العرش .

وفي البدء ، كان السلاطين يتزوجون من اميرات ، حتى من بنات او اخوات الملوك المسيحيين (يونانيين وصرب وبلغاريين الخ .) ، وهؤلاء كن يحتفظن بدينهن . ومنذ أواسط القرن السابع عشر ، امسى « الحريم » السلطاني لا يتضمن سوى الرقيق من النساء ، الكثيرات العدد غالباً . فكان السلطان خاضعاً لهذه الحاشية النسائية ، حيث راح يتمتع الخصيان والمحظيات بأعظم نفوذ .

الجيش :

وبعد السلطان يأتي الجيش « الذي هو خادم له ... والجيش هو الدولة بالذات ، وليس الحكم الا وظيفة من وظائفه . وكان السلطان يدير البلاد بالتعاون معه ... فلا فرق بين وظائف الحرب ووظائف الادارة ... وبكلمة مختصرة ، الكل (من قواد ووزراء وحكام الخ)، هم عسكريون في القتال كما هم مدنيون في الحياة العادية » [1] .

الدين :

وعدا عن العائلة المالكة والجيش ، كان الدين الاسلامي سنداً للدولة العثمانية

---

١) F. Grenard, **Grandeur et Décadence de l'Asie**, p. 108, 109

و اداة بيد السلطة . واذ كان السلطان هو الذي يعين الرؤساء الدينيين ويقيلهم ، فلم يكن لهؤلاء سلطة تتميز عن سلطة الدولة ، ولم يكونوا يشكلون بالنسبة لها اية قوة خطرة .

الحكم :

ان الحكم العثماني ، وهو عسكري ومدني معاً ، والذي لم يكن الا وظيفة من وظائف الجيش ، إنما « كان مثالاً للدولة البوليسية . فتقسيم العمل واضح : البعض يقوم بأعمال البوليس والحرب ويستفيد منها ، والآخرون يدفعون ولا يحاربون » (Grenard) . والدولة العثمانية كانت تدعى غالباً « الباب العالي » ، اذ كانت هذه العبارة تدل ، اولاً ، على قصر السلطان ، وفيما بعد على مقر الحكومة . وكان الديوان يقوم بدور مجلس الوزراء ومجلس الدولة ومجلس القضاء الاعلى . وكانت سلطة السلطان الفعلية بيد « الصدر الاعظم » ، اي الوزير الاكبر او رئيس الوزراء .

ويلي الوزير الاكبر « مفتي » العاصمة ، وهو ثاني شخصية في الدولة ، مفسّر الشريعة الدينية . وبعد احتلال القسطنطينية (١٤٥٣) ، تقدم مفتي العاصمة في الشرق على زملائه في الولايات ، فاصبح يلقب « شيخ الاسلام » . — لكن سلطته كانت ، كسلطة الوزير الاكبر ، غير ثابتة في جوهرها ، لان السلطان كان يستطيع في اي وقت ان يضع حداً لها بالعزل او بالاعدام . وكان اجتهاد القضاة يرتكز على الشريعة الدينية الاسلامية ، بعد فتوى المفتي .

الرعايا :

كان رعايا السلطان ، جميعهم ، بمن فيهم أعظم أصحاب المقامات في الدولة ، يعتبرون عبيداً له ، ويعرفون رسمياً بهذا الاسم . والشخصيات الرسمية جميعاً ،

ابتداء من الوزير الاكبر ، كانوا معرضين لفقد حظوتهم وللموت ، نتيجة لغضب السلطان او لاحدى نزواته .

البطاركة المسيحيون :

كانت الدولة العثمانية ، الاسلامية الثيوقراطية بجوهرها ، تميز المسلمين عن غير المسلمين من رعاياها . ومع ان هؤلاء الاخيرين كانوا من رعايا السلطان ، اعتبروا من الدرجة الثانية ، لا يستطيعون ان يصبحوا مواطنين بكامل الشروط ما لم يتحولوا إلى الاسلام . كان وجودهم مجرد امر مقبول به . لكن عقائدهم وحقوقهم كانت تصان لقاء الضرائب القانونية التي كانوا يدفعونها .

كان العثمانيون يصنفون الرعايا المسيحيين بحسب الكنائس التي ينتمون اليها ، بصرف النظر عن قومياتهم . وهكذا كان المسيحيون من اتباع الطقس الاغريقي (من بلغاريين وصربيين ورومانيين والبانيين اورثوذكس واغريقيين ، وحتّى من العرب الملكيين في سوريا) ، يعتبرون من الاروام (ملة الروم) . وكانت لفظة روم ، بالنسبة للاتراك الذين لا يميزون ما بين العنصر والدين ، تدل على الروم — الاغريق او البيزنطيين ، وهم الرعايا المسيحيون القدامى للاباطرة البيزنطيين . وأصبح بطريرك الروم الاورثوذكس ، في القسطنطينية ، « الرئيس المدني لجميع المسيحيين من اتباع الطقس اليوناني ، الذين يؤلفون « ملة الروم » . وأصبح المطارنة الاغريق الرؤساء المحليين لابناء ابرشياتهم والممثلين لهم لدى السلطات التركية ... ونالوا ايضاً بعض الامتيازات في حقل القضاء الجزائي والمدني ... وفيما بعد ، استفاد بطاركة الكنائس المختلفة ... ورؤساء الطوائف الاسرائيلية من الامتيازات نفسها » [1] .

(١ Lamouche, **Histoire de la Turquie**, p. 192, 193

حكام الولايات :

في القرن السادس عشر ، قسمت الامبراطورية إلى « ايالات » ، وفيما بعد الى « ولايات » ؛ والولاية إلى قائمقاميات (سنجقات) ، والسنجقات إلى « اقضية » ؛ والاقضية إلى نواح . وكانت الولايات والقائمقاميات بادارة « باشوات » ، يمارسون سلطة مطلقة ، لكنهم لا يعينون عادة الا لسنة واحدة . وكان عدد منهم ينعم بعائدات بعض الاقطاعات . اما من دونهم رتبة من الموظفين ، فكان يلقب كل منهم بلقب « بك » ، وهي لفظة تركية قديمة (بغ) تعني الرئيس .

٢ — سوريا ومصر ، ولايتان عثمانيتان

في عام ١٥١٦ ، كما ذكرنا ، سحق السلطان العثماني سليم الاول ، في موقعة مرج دابق ، بالقرب من حلب ، جيوش المماليك التي كان يقودها السلطان الغوري بنفسه وقتل في المعركة . وكان سليم الاول ، قبل ذلك بقليل ، قد تغلب ، كما رأينا ، على شاه الفرس .

وفي عام ١٥١٧ ، وبعد انتصار آخر على المماليك بالقرب من القاهرة ، استسلمت مصر للغالب ، فأدت له مدن الاسلام المقدسة ، مكة والمدينة ، الطاعة وأعلن نفسه « خليفة رسول الله واميراً للمؤمنين » .

ومما ساعد في الانتصار العثماني ، فجعله يتم بسرعة ، انضمام معظم النواب اي الحكام المماليك إلى الغالب . اما السوريون والمصريون ، فكانوا يتفرجون غير مبالين بالمعركة التي كانوا رهاناً لها . « وكما كانوا (في الماضي) استقبلوا العرب ، لانهم سئموا الاغريق ... كذلك شهدوا قدوم العثمانيين بدون انزعاج ، لأنهم لم تبق لهم قدرة على تحمل المماليك » (G. Wiet) . ونذكر هنا ان منذ زوال دولة الخلفاء الامويين في دمشق (٧٥٠) كانت جميع العهود التي تداولت السيطرة على البلاد السورية — اللبنانية — الفلسطينية ، مثل :

العباسيين ، والسلجوقيين والطولونيين والاخشيديين والفاطميين والايوبيين والمماليك ، كانت ، كما رأينا ، قد دأبت على جعل كابوسها ثقيلاً على الشعوب المحلية . وبما ان هذه باتت غير مبالية بالتغييرات السياسية ، بدت وكأنها اصبحت مستسلمة ، خاضعة للطغيان . فقد تلاشت الحمية منذ زمن بعيد واصبحت النفوس في يأس تام .

لقد خضعت اذن بلدان شرقي المتوسط بهدوء إلى سيد غريب جديد . وعادت القاهرة ، التي كانت حتى ذلك الحين عاصمة الدول المتعاقبة التي ضمت اليها البلاد السورية — اللبنانية — الفلسطينية منذ استيلاء الاتراك الطولونيين على الحكم في مصر (٨٧٢م.) ، عادت ، بعد تدمير دولة المماليك المصرية السورية ، لتصبح مركز ولاية تابعة للقسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية التركية العثمانية الفتية ، التي سيطرت منذ ذلك التاريخ على جميع بلدان الشرق الادنى تقريباً زهاء اربعة قرون (١٥١٦ — ١٩١٨) .

وكما في ايام الدول المختلفة التي تعاقبت منذ عدة قرون ، كانت الطوائف الدينية غير السنية ، على اختلاف انواعها ، في العهد العثماني ، تعتبر رعايا من درجة ادنى ، كما قلنا سابقاً ، او حتى من الاعداء . اما السنيون المحليون ، « مع انهم كانوا مستعبدين مثل غيرهم للسلطة الاجنبية ذاتها ، فكانوا يفوقون غير السنيين رفعة وشرفاً » .

كان العهد العثماني ، بالنسبة للتطور التاريخي لبلدان شرقي المتوسط ، عهد انحطاط اقتصادي واجتماعي وثقافي وسياسي . « كان نسيجاً من المظالم والخيانات والمجازر والحروب ما بين الباشوات او مع جيش الانكشارية ... وتسرب هذا الفجور السياسي الاخلاقي من الباشوات الاتراك إلى الامراء والى العائلات الحاكمة المحلية ... ولما كان حكام الولايات (الاتراك) بعيدين جداً عن مراقبة الحكم المركزي — حيث كانوا يدبرون بمهارة عملاء لهم — ، ولما كانوا يتمتعون بسلطة غير محدودة ، لم يكن يقف اي حاجز في وجه غرائزهم الجامحة » [1] .

---

١) Lammens, op. cit., II, p. 61

وخلال هذا العهد العثماني المظلم ، بل منذ فجره ، ارتسمت الذاتية الجماعية للجبل اللبناني ، قومياً وسياسياً ، ونشأت امـارات المعنيين والشهابيين ، التي كانت المعالم الاولى لدولة لبنان الكبير (١٩٢٠) ، الخلف البعيد لفينيقيا القديمة والسلف المباشر للجمهورية اللبنانية الحالية .

٣ – لبنان في القرن السادس عشر (١٥١٦ – ١٥٨٥)

أ – الجماعات الجغرافية والطائفية والسياسية

في غدوة الفتح العثماني ، كانت بلدان المشرق (لبنانوسوريا وفلسطين) ، تقسم الى ثلاث باشويات يحكمها باشوات : دمشق ، حلب ، وطرابلس . اما مناطق الجبل اللبناني ، التي احتفظت برؤسائها المحليين ، فكانت تابعة ، بحسب مواقعها ، لباشوية طرابلس او دمشق . وفي عام ١٦٦٠ ، أنشئت باشوية جديدة في صيدا ، لتراقب القسم الجنوبي من الجبل بطريقة احسن .

وهكذا بقيت أراضي فينيقيا القديمة ، لبنان المستقبل ، اي مجموعة مناطق الساحل والجبل ، مقسمة ومجزأة ، كما كانت في عهد المماليك . فالمدن الساحلية ، التي كانت سابقاً خـاضعة لنواب طرابلس ودمشق المماليك ، راحت تخضع منذئذ للباشوات الاتراك في هاتين المدينتين ، التي اضيفت اليهما صيدا فيما بعد . اما الجبل ، سلسلة البلاد الفقرية ، الذي كان منذ الاحتلال العربي ، كما رأينا ، متفوّقاً على الساحل في سياسته وثقافته وعدد سكانه ، فقد بقي ، بعد الاحتلال العثماني ، مركزاً كثير السكان وكبير النشاط نسبياً ، حيث كانت تعيش فيه جماعات طائفية وسياسية يحكمها اقطاعيون محليون مستقلون نوعاً ما ، ويحاول كل منهم ان يسيطر على البلاد برمتها .

وكما في العهود السابقة ، كان الجبل لا يزال مقسما إلى ثلاث مناطق : الشمال ، بدءا من الارز وكسروان ضمنها ، ويسكنها الموارنة ؛ والوسط (الشوف

والغرب) ، ويسكنها الدروز ، والجنوب (بلاد بشاره او جبل عامل) ، ويسكنها المتاولة اي الشيعة . وكان يحكم هذه المناطق الثلاث ، المقسمة إلى عدة اقطاعات ، رؤساء محليون يخضعون لباشوات طرابلس ودمشق العثمانيين . وهنا نذكر ان المتاولة الشيعة ، الذين اعتزلوا في مناطق لبنان الجنوبي وبعلبك في العهد العثماني ، كانوا متفوقين بالعدد ، منذ تسلم الخلفاء الفاطميين الحكم (في القرن العاشر) ، في مجموع الاراضي اللبنانية ، باستثناء الشمال ، منطقة الموارنة ، والوسط ، منطقة الدروز منذ القرن الحادي عشر .

وفي عهد سيطرة المماليك والعثمانيين المتعاقبة ، الذين كانوا من السنّة ، تفوق عدد السنيين المحليين ، وبخاصة منذ القرن الثامن عشر ، في مدن صيدا وبيروت وطرابلس ، وفي بعض المناطق الاخرى من البلاد .

اما الموارنة ، الذين هاجروا بأعداد كبيرة جداً إلى قبرص ورودس وبلاد الغرب بعد رحيل الفرنجة (١٢٩١) ، فكانوا متجمعين بنوع خاص في لبنان الشمالي . وفي القرن السادس عشر ، كما رأينا ، احتلوا كسروان التي اخلاها الشيعيون بعد ان هزمهم المماليك واجلوهم (١٣٠٥) . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، راح الموارنة يتوغلون تدريجياً في مختلف مناطق الوسط ، حيث تفوقوا بالعدد على غيرهم ، باستثناء منطقة الشوف الدرزية .

وبخلاف تنظيم الدروز الاجتماعي ، حيث السلطة الاقطاعية ثابتة ومتينة ، كان تنظيم الموارنة الاجتماعي موزعاً بين عدة رؤساء اقطاعيين محليين ، يدعون « مقدمين » . وهؤلاء كانوا يرعون مصالح مرؤوسيهم ابان السلم ويقودون انصارهم إلى القتال ابان الحرب . ومن ناحية اخرى ، كانت وحدة هؤلاء الرؤساء السياسيين ومؤازرتهم بعضهم بعضاً وتعاونهم مع اعضاء الاكليروس او رجال الدين (كهنة وأساقفة وبطاركة) ضعيفة في أكثر الاحيان .

وبينما كانت المنطقة الجنوبية الشيعية تتابع تطورها على انفراد ، بدأت تؤلف المنطقتان الاخريان من الجبل ، الشمال الماروني والوسط الدرزي ، نواة امارة الاميرين فخر الدين الثاني المعني وبشير الثاني الشهابي ، وفيما بعد

متصرفية جبل لبنان شبه المستقلة (١٨٦١) . وكذلك الفت هاتان المنطقتان ، الشمالية والمتوسطة ، خلال القرن السادس عشر ، نوعاً من الاتحاد ، حيث اجتمع شمل الطائفتين المارونية والدرزية للحرب الدفاعية . وقد اجتمعت هاتان الطائفتان ، مراراً كثيرة ، لا سيما خلال القرن السابع عشر ، وذلك للتعاون معاً على الدفاع عن حرياتهما بوجه المطامع الخارجية . وعدا هذا التعاون في الحقل السياسي والعسكري ، فان كل طائفة عاشت منعزلة ، حاصرة ، بوجه عام ، علاقاتها بالاخرى في التبادلات التجارية ، التي كانت محدودة جداً في عهد عمّ فيه العوز والبؤس والجهل .

ب – الجبل – اللبناني ، ملجأ للسلام والحرية وفسيفساء من المجتمعات الطائفية شبه المستقلة

« كان الجبل يفتح صدره لكل من يثور على ظلم الباشوات . وقد اصبح الملجأ الأخير للاستقلال السوري . وكان الامراء المحليون يقاومون ، تارة بنجاح وطوراً بهزيمة ، فيحافظون على نوع من الاستقلال الذاتي تجاه السلطة المركزية » [1] .

وبينما « كانت الحياة تتأخر في سبات الولايات والباشويات » ، كان الجبل المجاور ، على خلاف ذلك ، « عهد لبنان الاقطاعي ، بمنازل رؤسائه المحليين الجميلة وببلاطاتهم الصغيرة ، وبالخلافات التي كانت تتفجر فيما بينهم ... وكثر عدد الاديرة وأراضيها الواسعة الخصبة في الجبل . والتف المسيحيون حولها ، ثم نزلوا إلى الساحل . وتطور التعليم وانشأ معلمون اوروبيون معاهد لهذه الغاية » [2] .

وكان هؤلاء الرؤساء الاقطاعيون ، مع التكتلات الاجتماعية التي يحكمونها ،

---

١) Lammens, **op. cit.**, II, p. 63

٢) Dunand, **Byblos**, p. 42

يؤلفون فسيفساء من الطوائف السياسية – الدينية ، شبه المستقلة تقريباً . وبعد الاحتلال العثماني (١٥١٦) ، « استطاعت العائلات الحاكمة المحلية والامارات الخاصة ان تحافظ على وجودها ... ولم يكلف العثمانيون انفسهم عناء القضاء على شبه الاستقلالات هذه ، لانهم لم يجدوا في انفسهم القوة الكافية لهذا العمل . وعلى غرار السلاجقة والمماليك ، فكروا بضمها اليهم عن طريق الاستتباع الاقطاعي وبروابط الضرائب . كالالتزام بدفع « الميرة » وبتقديم جنود للجيش وبعدم التعدي على الاراضي التي يستغلها مباشرة وكلاء الباب العالي . وطبقاً لهذه الشروط ، سمح لهم الديوان بافتداء اتباعهم الخاصين بالمال ، وبالقتال فيما بينهم ، وبالبقاء على حالة من الفوضى يكون من شأنها ان تسهل خضوع البلاد ... »

« بنو عساف (في كسروان وفي جبيل ، وبنو سيفا في طرابلس)

في لبنان الشمالي كان سليم الاول ، بسبب ميله الطبيعي نحو الطورانيين ، قد ميز عائلة بني عساف التركمانية . وشاء مكافأتهم لتأييدهم اياه ضد المماليك . ولما كان المماليك اوكلوا اليهم امر مراقبة كسروان ، رأى العثمانيون ان من المناسب منحهم سلطة اوسع ، فسلموهم بلاد جبيل ... وحوالي عام ١٥٧٢ ، بسط (الباب العالي) سلطة منصور عساف حتّى جوار اللاذقية . ثم غير فجأة رأيه ، فاعطى طرابلس إلى مناوئه (الكردي) « سيفا » ...

« المقدمون » اللبنانيون (في الشمال) :

في لبنان الشمالي ، كان المسيحيون ، ولا سيما الموارنة ، ... يتبعون سياسياً ، في مناطقهم الرئيسية ، دائرة طرابلس . وعند الفتح العثماني ، سمح لهم بألا يخضعوا مباشرة لباشا هذه المدينة ، فاحتفظوا بمقدمين من بني قومهم . وكانت المهمة الاولى لهؤلاء جباية الضرائب . كما كانوا يؤدون حساباً امام مسؤول

مالي مسلم ، يعينه الباب العالي [1] .

المتاولة الشيعة في جبل عامل ولبنان الجنوبي والبقاع :

في هذه المنطقة الاخيرة (البقاع) ، كان يخضع المتاولة لامراء بني حرفوش ، الذين كانوا يسيطرون على قطاع بعلبك .

الدروز في الشوف :

كان يخضع البعض من جماعاتهم للامراء البحتريين ، المقيمين في اقطاعهم في الغرب ، شرقي بيروت ، وكان مركزهم عرمون ، والبعض الآخر للامراء المعنيين ، الذين جاؤوا من منطقة حلب ، في القرن الثاني عشر ، وأقاموا شرقي البحتريين ، وكان مركزهم بعقلين ، بالقرب من دير القمر .

ج – انحطاط المدن الساحلية . ازدهار الجبل

لقد رأينا ، في اوائل عهد المماليك ، ان مدن الساحل اللبناني ، التي توقف نشاطها تقريباً ، اصبحت قرى كبيرة يعمها الخراب ومقفرة من السكان . وبعد وقت وجيز ، اصبحت بيروت من جديد مركزاً لنشاط البلاد البحري والتجاري . وكانت طرابلس وصور تلعبان هذا الدور خلال عهد الصليبيين . وبعد استيلاء العثمانيين على الحكم ، فقدت بيروت بعض أهميتها لصالح طرابلس ، التي اصبح مرفأها ملتقى للسفن الاوروبية . لكن ازدهار طرابلس التي كانت معرضة لجشع الامراء المحليين ، تحول بعد قليل إلى الاسكندرونة ، التي نزحت اليها التجارة الاجنبية . وسقطت بيروت وصيدا إلى منزلة قرى كبيرة بعد تأخر دمشق . وبالاضافة إلى هذا تجدر الاشارة إلى ان العثمانيين ، وهم بمعظمهم من العسكريين ، « لم يعززوا المدن ، التي كانت بنظرهم

١) Lammens, **op. cit.**, p. 65, 66, 67, 69

مراكز بسيطة للمكاتب الادارية وملاجىء موقتة للجيوش » .

واخيراً ازداد تدهور المدن الساحلية ابتداء من القرن السادس عشر ، وذلك اثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨) . ففي الواقع ، ادى هذا الحدث التاريخي إلى تحول طريق الهند والصين البحرية، التي كانت تمر منذ ازمنة بعيدة في القدم بالبحر الاحمر وبالخليج الفارسي وبطرق القوافل المارة في سوريا وأرض الرافدين ، إلى جنوب افريقيا . وقد تخلت منذ ذلك الحين اسكندرية مصر والمرافىء السورية اللبنانية عن تجارة الشرق الاقصى ، لصالح بلدان اوروبا الغربية ، مما دفع مدن الشرق الساحلية إلى احتضار بطيء . وكذلك حدث للمدن المقابلة لها في ايطاليا .

وختاماً ، كان الشلل الذي أصاب الحركة الملاحية والتجارية في مدن المرافىء على الساحل اللبناني ، بالاضافة إلى جور الباشوات الاتراك واضطراباتهم وطغيانهم ، السبب الاساسي للازدهار النسبي وللتطور اللبناني ، في الحقول الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقومية والسياسية . ففي صحراء واسعة من الخراب والعبودية ، كان هذا البلد الصغير الجبلي الريفي ، واحة سلام وحرية وملجأ للاستقلال القومي .

٤ – امارة فخر الدين المعني الثاني (١٥٨٥ – ١٦٣٥) . اعادة انشاء فينيقيا القديمة واول معالم لبنان الحالي

أ – الامير فخر الدين المعني الثاني يتولىّ الحكم

عند الفتح العثماني (١٥١٦) ، كما رأينا ، كان عدد لا يحصى من الامراء والعائلات الحاكمة الكردية والتركمانية والمحليين ، من السنة والشيعة والدروز والموارنة ، يتقاسمون الاراضي اللبنانية . وبعد ان كان هؤلاء خاضعين لنواب السلاطين المماليك ، اصبحوا في عهد السلاطين العثمانيين ، تابعين لباشوات دمشق وطرابلس ، ثم صيدا .

وفي لبنان المتوسط ، كانت عائلتان اقطاعيتان درزيتان تتنازعان الاولية :
بنو بحتر ، وهم فرع من قبيلة التنوخيين العربية الذين اقاموا منذ القرن الثامن
في الغرب ، شرقي بيروت . وبنو معن ، وهم قبيلة من اصل عربي أيضاً ،
استقروا منذ القرن الثاني عشر في الشوف لمحاربة الصليبيين .

فخر الدين المعني الاول

(المتوفى عام ١٥٤٤) ، امير درزي من الشوف ، كان يقيم في دير القمر .
وقد توصل بفضل حماية السلطان العثماني سليم الاول ، فاتح الشرق العربي ،
إلى اقصاء منافسيه المحليين ، البحتريين الذين وقفوا إلى جانب المماليك في
الحرب بينهم وبين العثمانيين . اما ابنه وخليفته الامير قرقماز (١٥٤٤ —
١٥٨٥) المعني ، فقد اثار غضب الباب العالي عليه فقتله باشا دمشق وخرب
امارته وذبح العديد من اقاربه ومن اشراف قومه الدروز (١٥٨٥) .

ترك قرقماز عند موته ابناً حديث السن ، هو فخر الدين الثاني (١٥٧٢ —
١٦٣٥) . ويذكر بعض المؤرخين ان والدته ربته سراً عند آل الخازن ، في
كسروان ، لتحميه من ملاحقات العثمانيين له . وعندما بلغ رشده ، عام
١٥٩٠ ، تسلم الامير المعني الشاب زمام الحكم على اقطاعه في الشوف .
وخلال ما يقارب نصف قرن ، استرعت شخصيته الحازمة اهتمام الشرق
والغرب . و « تختصر حياته بحرب تدور رحاها ، بلا مهادنة ، ضد اعداء
عائلته ، وبنضاله المستمر في سبيل استقلال لبنان ، هذا النضال الذي لم يقدر
على تثبيط عزيمته فيه النفي او الاخفاق » (Lammens) .

اختار فخر الدين ، كمستشارين ومعاونين له ، رجالاً اوفياء وذوي مؤهلات
من مختلف الطوائف الدينية في لبنان ، وبخاصة من الموارنة الذين نشأ بينهم
(خازن ، حبيش الخ .) .

ب — حقبة اولى (١٥٨٥ — ١٦١٣)

ولما كان فخر الدين الثاني قد وجد امارته الصغيرة ضيقة الحدود جداً ، راح
يفتش ، منذ تسلمه الحكم ، عن طريقة لتوسيعها . « كان ينوي اولاً استلحاق
المناطق المتاخمة للشوف بإمارته ، ثم جمع كل الطوائف اللبنانية في شعب
واحد ، وقد كانت إلى ذلك الحين متشتة ومتحصنة وراء حدودها الطائفية»
(اسماعيل) ، واخيراً تحرير لبنان من النير العثماني . مشروع جريء وطموح
بالنسبة لعصره !

تحاشى امير الشوف بادىء ذي بدء أن يهاجم المقاطعات التي يحكمها الباشوات
العثمانيون ، وبدأ بالإقطاعيين المجاورين . فانتصاره على يوسف سيفا ، سيّد
طرابلس ، أعطاه لبنان الشمالي بأسره ، وفي عام ١٥٩٣ ، أصبح سيّد البقاع .
وفي ١٦٠٣ ، احتل صور وهضاب لبنان الجنوبي . « وكان أبوه الأمير قرقماز
قد احتل صيدا وبيروت ، فجمّلهما فخر الدين وأنهضهما من الانحطاط الذي
كانتا فيه » (Lammens) ، وأصبحتا عاصمتي امارته .

كذلك حوالي ١٦٠٠ ، كان فخر الدين الثاني قد حقق القسم الأول من مخططه
الطموح ، القاضي بإعادة بناء الوحدة الجغرافية والسياسية لفينيقيا القديمة ،
المجزأة والممزقة منذ أجيال عديدة . وكانت إمارته تمثل المعالم الأولى للبنان
الكبير عام ١٩٢٠ ، وللبنان الحاضر .

ولكي يخفي مرامي طموحه ، كان الأمير المعني يدفع بدقة الضرائب على
فتوحاته الجديدة إلى الباب العالي، وكان يغذي صداقات له في بلاط القسطنطينية .
ثم ان خزينة السلطان ، الفارغة والرازحة تحت الديون والملتزمة بمتابعة الحرب
ضد الفرس والمجر ، لم تكن تترك للعاهل العثماني الوقت للتفكير بفخر الدين .
لكن سيادة السلطان ، ولو الاسمية ، بدأت تثقل على الأمير الشاب . فصمّم
على تحقيق القسم الثاني من مخططه السياسي الرامي إلى الاستقلال التام لدولته .

ولما كان ينقص فخر الدين جيش ثابت ومنظم ، عمل على تنظيم إمارته

تنظيماً عسكرياً متيناً فأضاف إلى جنوده اللبنانيين ، غير المنظمين وغير المدربين كما يجب ، جيشاً منظماً وثابتاً ، باستئجاره « السكمان » ، وهم مرتزقة أجانب وجنود محترفون . « فساعدوا على تشكيل نواة لجيش قوي من الجنود الوطنيين ، من دروز ومسيحيين مقيمين على أراضي الأمير . وكان يبلغ عددهم أربعين ألف رجل » [١] . وبعد أن وسّع الأمير اللبناني أراضيه حتى شرقي الأردن ، أراد أيضاً أن يحتل الجليل ، في فلسطين . لكن الدولة العثمانية كانت لا تزال في أوج قوتها . فقبل أن يرفع علم الثورة ، فكر فخر الدين بضرورة تأمين مساعدة أو محالفة من قوة غربية معادية للعثمانيين . ولما كان الاتجاه نحو فرنسا غير ممكن ، لأنها صديقة السلطان ، وجه نظره الى فلورنسا ، حيث كان يحكم أمير قوي وطموح ، هو فردينان الأول دي مديتشي ، دوق توسكانة الأكبر .

ففي عام ١٦٠٨ ، تم توقيع اتفاق سري بين فخر الدين وممثلين لفردينان الأول ، « جاء فيه أن الفريقين يلتزمان بالتحالف ضد العثمانيين . فوعد الأمير بالسماح للأسطول التوسكاني بالدخول إلى مرافئه وبتزويد هذا الأسطول ... ووعد مبعوثو فردينان بمساعدة فخر الدين على تحصين البلاد ، وبإمداده بالذخائر وبعمال لصناعة المدافع » [٢] .

ان نشر البنود السرية لاتفاقية ١٦٠٨ أظهر للباب العالي مدى الخطورة التي تتعرض لها الامبراطورية العثمانية ، نتيجة طموح الامير اللبناني المتجاوز الحد . لذلك ، كان رد فعل اسطنبول سريعاً وعنيفاً . فأعطي حافظ باشا ، حاكم دمشق ، كامل الصلاحيات . فاستغل استياء اللبنانيين الرازحين تحت عبء الضرائب واضرم حقد المجاورين او اصدقاء الامير القدامى ، المخلوعين او المهددين بالاندماج ، وهاجم فخر الدين براً وبحراً . وبعد ان تخلى عن الامير

١) Lammens, **op. cit.**, II, p. 75.

٢) A. Ismaîl, **op. cit.**, p. 90

اصدقاؤه وحلفاؤه ، الذين اعتبروا قضيته فاشلة ، تدارك العاصفة بابتعاده (١٦١٣) . فترك مصير امارته لابنه الأكبر علي ، وابحر على متن سفينة فرنسية اوصلته إلى ايطاليا ، وقد لقي في بلاد آل مديتشي استقبالاً ودياً للغاية .

ج – الحقبة الثانية (١٦١٨ – ١٦٣٥)

الازدهار والنجاح العسكري :

بعد ان قضى الامير خمس سنوات في المنفى ، سمح له ، بفضل وساطة اصحابه ، بالعودة إلى لبنان (١٦١٨) ، لقاء تعهده بهدم بعض القلاع . علّمت الامير حوادث ١٦١٣ ان الاستقلال يقضي بتكوين جيش قوي ومنظم ، تكون له موارد مالية للنفقة عليه . ولاجل رفع مستوى الدخل المالي ، قرر « ان لا تكون بقعة أرض ، مهما تكن صغيرة ، بوراً . فانعش زراعة التوت واوفد ، لهذه الغاية ، فلاحين موارنة وملكيين من الشمال الى لبنان الجنوبي ... وبفضل الضرائب التي كان يجبيها من مقاطعاته مع العائدات الجمركية لمرفأي بيروت وصيدا ، توصل بسهولة إلى اعداد جيش يقدّر بمئة الف رجل » [١] . وكان جنود الأمير « مختارين من جميع طبقات الشعب اللبناني ، يساندهم « السكمان » ... وعند اقتضاء الحاجة ، كان الامير يدعو جميع اللبنانيين إلى حمل السلاح » [٢] .

« وحينئذ ابتدأت سلسلة جديدة من الانتصارات العسكرية ، كان من شأنها ان تنسي انتصارات الحقبة الاولى من العهد ... وفي وقت وجيز استعاد ممتلكاته القديمة في جنوب لبنان وفي الجليل ... وكانت لديه مجموعة من القلاع

١) Lammens, **op. cit.**, II, p. 78

٢) A. Ismaîl, **op. cit.**, p. 96

للدفاع عن أراضيه » [١] .

ولقلق الباب العالي من القوة الجديدة للامير اللبناني ، قرر ان يضع حداً لها . ففي ١٦٢٣ دخل البقاع جيش عثماني بقيادة مصطفى باشا ، حاكم دمشق . وفي موقعة عنجر ، حيث انهزم الاتراك ، استطاع فخر الدين ان يلقي القبض على مصطفى باشا ، لكنه اظهر الاعتدال نحوه ، فاعاده الى دمشق ، غامراً اياه باحسانه . وفي عام ١٦٢٧ ، انتزع طرابلس من آل سيفا .

وبعد ان اعترف الباب العالي بفتوحات الامير ، ولكي يخفي شكوكه ، منحه لقباً طناناً هو « سلطان البر » ، « مع السلطة على جميع العرب ما بين حلب والقدس » . ويؤكد (المؤرخ) المحبّي ان فخر الدين « وصل إلى درجة سامية من القدرة ، حتى لم يبق له الا ان يطمع بالسلطنة » .

« دخلت سوريا في عهد من النهضة وبالاحرى هذا القسم من سوريا الذي يمكننا ان نسميه منذئذ لبنان الكبير ... فتم تشجيع الزراعة ، وكانت صناعة الحرير ، الذي كانت اوروبا تتنازعه ، مع زراعة الزيتون ، التي كانت تغذي معامل الصابون ، تعودان على الامير بأرباح كبيرة ... ويلي الزراعة اهتمامه باحياء التجارة ... ولم يكتفِ بالسهر على امن التجار (الاوروبيين) ، بل ذهب حتى التعويض عليهم من التعديات على حقوقهم ، وحتى بدفع بدل ما كان يسلبهم اياه القراصنة » [٢] .

واستعادت بيروت وصيدا ، حيث كان الامير يقيم بالتعاقب . دورهما القديم كعاصمتين تجاريتين وبحريتين . وبعد ان كان مرفأ صيدا خالياً عام ١٥٩٨ ، اصبح حينئذ « أكثر مرافىء سوريا ازدهاراً » .

وتحت وطأة نشوة المجد التي يصاب بها جميع الفاتحين الموفقين ، أراد فخر الدين ، مرة اخرى ، ان يؤمن مساعدة الغرب ضد حملة عسكرية جديدة قد

(١ Lammens, **op. cit.**, II, p. 78, 79

(٢ Lammens, **op. cit.**, II, p. 80-83

يقوم بها العثمانيون . فسمح للفلورنسيين ، بدون استئذان الباب العالي ، ان يفتحوا قنصلية لهم في صيدا ، مقابل امدادهم اياه بالمهندسين وبالذخائر الحربية . وباتخاذه هذا الاجراء ، ظهر كخارج على السلطان ، الذي كان يحق له وحده البت في القضايا الديبلوماسية والقنصلية .

ولسوء حظ الامير ، كان على عرش القسطنطينية آنذاك سلطان حازم ، هو مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) ، فقرر ان يتخلص منه . ففي عام ١٦٣٢ ، هاجم باشا دمشق ، على رأس جيوش عديدة ، الامارة اللبنانية من جهة الشرق ، بينما حاصرها من جهة البحر اسطول عثماني . ففهم فخر الدين انه خسر المعركة ، وكان قد نشر قواته في حصونه العديدة . وفوجىء ابنه علي في وادي التيم ، فسقط ببسالة . ثم استسلمت القلاع الواحدة تلو الاخرى . وبعد ان وجد الامير نفسه قد شاخ وأنهكت قواه وخانه او تركه بعض الشيوخ والضباط من حاشيته ، تراجع عن القتال وأسلم نفسه لعدوه الظافر (١٦٣٥) . وبعد ان اقتيد إلى دمشق ، نفي الى اسطنبول ، حيث مات مقتولاً .

د — شخصية فخر الدين الثاني واعماله

خلال حكم طويل دام نصف قرن ، لاحق فخر الدين ، بلا كلل ، تحقيق مخطط مزدوج ، هو اولاً : ان يجمع تحت سلطانه المطلق مجموعة المناطق اللبنانية ويحررها من كل ولاية او حماية عثمانية ، وثانياً : ان يضم الى امارته مناطق فلسطين وسوريا . وبعبارة اخرى ، لقد أراد ان يوجد ، تحت سلطانه السياسي ، اقاليم سوريا الجغرافية .

كان احد هذين الهدفين ممكن التحقيق ، وقد تحقق فعلاً . فدولة فخر الدين اللبنانية ، الخليفة البعيدة لفينيقيا القديمة والسلف القريب للبنان المعاصر ، انما هي في الواقع تكوين سياسي عضوي قابل للحياة تاريخياً . اما الحلم الثاني للامير الطموح ، القاضي ببناء دولة سوريا الجغرافية ، او الدولة اللبنانية — السورية — الفلسطينية ، فكان مشروعاً وهمياً ، وعلى كل حال ، غير عضوي

وغير قابل للبقاء طويلاً ، وكان السبب الرئيسي لهلاك الامير . ففي الواقع ، حورب فخر الدين بعنف ، ليس بصفته رئيساً لامارة لبنانية ، بل الاصح بسبب فتوحاته العسكرية خارج الحدود اللبنانية الطبيعية والتاريخية ، هذه الفتوحات التي أثارت ضده الباشوات ، مع الامراء المحليين ، الذين كانوا متمسكين بمصالحهم الشخصية ويغارون على امتيازاتهم الاقليمية في سوريا وفلسطين .

وقد اصبحت شخصية فخر الدين القوية ، في حياته وزماناً طويلاً بعد موته ، مادة اسطورية بتأثيرها في الناس . « ولا يزال اسمه ، حتى يومنا الحاضر ، يردد أكثر من اي اسم آخر ، لان احداً لم يحاول ان يحقق الخطة الكاملة للقومية اللبنانية ، كما فعل هو بمثابرة ونشاط . وعلاوة على ذلك ، فان الامير المعني يخص تاريخ سوريا بقدر ما يخص تاريخ لبنان . وتطغى شخصيته على جميع الوجوه الثانوية ... التي كانت تتحرك حوله . لكنه لم يفلح في توحيد عملها لصالح الاستقلال السوري . ان احداً لم يفهم عظمة هدفه . فنزعاتهم الاقليمية ، هذا الداء السوري القديم ، تسببت بهلاك الامير اللبناني ، أكثر بكثير من موهبة جيوش احمد باشا . فالذهنية الفردية هي التي أخرت استقلال سوريا عدة قرون . وفي هذه البلاد ، التي ناءت ، منذ ذلك التاريخ تحت النير العثماني ، بقي لبنان ، ولبنان وحده ، مخلصاً للقضية التي جسدها فخر الدين . وليس بالامر العجيب ان يكون تاريخ الجبل من بعده قد استوعب تاريخ سوريا » [١] .

---

(١) Lammens, op. cit., II, p. 89, 90

٥ – من موت فخر الدين المعني الثاني حتى مجيء بشير الثاني الشهابي إلى الحكم (١٦٣٥ – ١٧٨٣) . فوضى ومنازعات اقطاعية .

أ – في عهد آخر الامراء المعنيين (١٦٣٥ – ١٦٩٧)

بعد زوال فخر الدين الثاني ، سلم باشا دمشق حكم لبنان المتوسط ، او كما كان يقال آنذاك « جبل الدروز » ، إلى عائلة منافسة للمعنيين ، هي آل علم الدين . وما لبث هؤلاء ان ابعدوا ، فحل محلهم في الحكم احد المعنيين ، هو الامير ملحم (١٦٣٥ – ١٦٥٧) ، ابن اخ الامير فخر الدين . وفي عام ١٦٩٧ ، اضمحلت عائلة المعنيين بموت الامير احمد ، الذي لم يترك عقباً له . ومنذ وفاة الأمير فخر الدين الثاني حتى وفاة الامير احمد ، آخر الامراء المعنيين ، اي خلال ستين سنة تقريباً (١٦٣٥ – ١٦٩٧) ، غرق لبنان في فوضى تامة . فالامن كانت تعكره خلافات الزعماء المحليين ، والضرائب لم تكن تدفع إلى الباب العالي . والطوائف المختلفة لم تكن تتوصل الى التفاهم فيما بينها . فالشيعة والدروز والموارنة ، او بالاصح رؤساؤهم ، الذين كانوا في قتال مستمر بعضهم ضد بعض ، ارتضوا بتولي السلطان عليهم . وهذا كتفى بجباية الضرائب السنوية منهم ، دون ان يرغب في السيطرة مباشرة على هؤلاء التابعين الصعبي القياد . ولكن الباب العالي ، تخوفاً من حالة عدم الامن التي كانت تسود البلاد ، اعلن صيدا ومنطقتها ، سنة ١٦٦٠ ، باشوية مستقلة عن دمشق ، « لمراقبة الجبل بطريقة افضل » .

ب – عهد الامراء الشهابيين الاول (١٦٩٨ – ١٧٨٨) . ظهور احمد باشا الجزار على المسرح السياسي (١٧٧٢ – ١٨٠٤) .

في عام ١٦٩٨ ، اجتمع اعيان البلاد في السمقانية ، من بلاد الشوف ، لكي يختاروا خلفاً لآخر الامراء المعنيين . فوقع اختيارهم على أمير من الطائفة

السنية يدعى حيدر ، فأقاموه حاكماً (١٦٩٣ — ١٧٣٢) . وكان حيدر من آل شهاب ، الذين كانوا يحكمون منطقة وادي التيم ، وحفيداً من جهة امه لآخر الامراء المعنيين . ويتحدر الشهابيون من اصل عربي ، من قبيلة قريش التي ينتمي اليها النبي محمد . جاؤوا إلى لبنان من حوران واستقروا في وادي التيم ، في القرن الثالث عشر .

لم يمتد سلطان الامير حيدر وخلفائه ، حتى عام ١٧٧٠ ، الى اقاليم لبنان الجنوبي وطرابلس ولبنان الشمالي ، التي كانت تتطور على حدة منذ سقوط فخر الدين الثاني (١٦٣٥) . وكان لبنان الجنوبي خاضعاً مباشرة لحكم باشا صيدا العثماني ، وطرابلس لحكم باشا طرابلس ، ولبنان الشمالي لسيطرة رؤساء الاقطاع المحليين ، المقدمين الموارنة لبلدة بشري ، بالقرب من الارز .

اعاد الامير حيدر تنظيم الاقطاعات لصالح اشياعه ، فحكم امارته بمعاونة مرؤوسيه الاقطاعيين ، وحرص بنوع خاص على ان تبقى علاقاته طيبة بالباشوات العثمانيين ، لا سيما بباشا صيدا وباشا طرابلس . وكانت سلطته معتدلة ، يراقبها رؤساء الاقطاعات والاعيان . ولتعديل قاعدة الضرائب او لاعلان الحرب او عقد الصلح ، كان لا بد من موافقة مجلس الشعب . فقد كان هذا النظام السياسي ملكياً ارستقراطياً جمهورياً في الوقت ذاته .

وبفضل سياسة الشهابيين النشيطة والحكيمة ، نجحوا في الحفاظ على اتحاد الشعب اللبناني بمختلف عناصره ، ولا سيما الدروز والموارنة ، الذين كانوا يؤلفون الطائفتين الاساسيتين في البلاد . وقد حرصوا بغيرة على ابقاء الدور التاريخي للبنان كأرض لجوء وتسامح ديني . وبفضل مرونتهم وتأثيرهم على باشوات صيدا وطرابلس العثمانيين ، استطاعوا ان يصونوا جميع أراضيهم . كما استدركوا ميول مرؤوسيهم الاقطاعيين إلى الانشقاق . وقد اتبع لبنان الشهابيين هذه السياسة حتى سقوط الامير بشير الثاني ، عام ١٨٤٠ .

في عام ١٧١١ ، قضى الامير حيدر ، بمساعدة الحزب القيسي ، في عيندارا ،

على ثورة لاهبة كان أضرمها الحزب اليمني ضده في الشوف . وكان هذان الحزبان الدرزيان القديمان في خصومة عنيفة . وكانت تنقسم معهما البلاد الى معسكرين متعادين . وكما يدل اسماهما ، فالحزب اليمني يمثل عرب جنوب الجزيرة العربية (اليمن)، من حيث جاؤوا بعد الفتح العربي — الاسلامي ، والحزب القيسي يمثل عرب شمال الجزيرة العربية ، من حيث هاجروا قبل الاسلام . وقضى انهزام اليمنيين في موقعة عيندارا بزوال حزبهم من لبنان . فهاجر قسم كبير من الدروز المهزومين إلى سوريا ، حيث كونوا النواة الاولى للطائفة الدرزية في حوران وفي جبل الدروز . كما ان موقعة عيندارا كانت مناسبة مؤاتية استغلها الامير حيدر ليقوم بتعديل في اقطاعات الدروز في الجبل ، لصالح مناصريه .

ولم يكف بعد ذلك الامير ملحم (١٧٣٢ — ١٧٥٤) ، خليفة الامير حيدر ، عن زرع الشقاق بمختلف الوسائل في صفوف المشايخ الاقطاعيين ، الذين اضعفوا سلطة الامير بتمرداتهم . وبرغم هذه الصعوبات الداخلية ، توصل الامير حيدر الى تخفيض ثلثي الضرائب السنوية التي كانت تدفع للباب العالي . وثبت سلطته رسمياً على أراضي البقاع الخصبة ، ثم استعاد من باشوية صيدا مدينة بيروت ، التي كانت سقطت تحت نير الباشوات العثمانيين منذ زوال فخر الدين الثاني (١٦٣٥) . وعادت بيروت لتصبح مرفأ للبنان المتوسط ، الذي بواسطته كان الامراء يتصلون باوروبا ، كما انها اصبحت المقر الثاني للشهابيين ، بعد دير القمر .

وفي عهد الامير ملحم ، اعتنق بعض اولاده المذهب الكاثوليكي ؛ لكن الامراء الشهابيين كانوا بوجه عام من السنة . « في الجبل ، كان المسيحيون ، وهم آنذاك أكثر تناسلاً وحيوية ، متفوقين بعددهم وبتطورهم الفكري . ويعود الفضل بهذا التطور إلى جهود المرسلين وإلى علاقاتهم المستمرة باوروبا . وما لبث تحول الامراء إلى المسيحية ان وطد نفوذ المسيحيين السياسي واشركهم بالحكم في لبنان » [1] .

(١) Lammens, op. cit., II, p. 100

وبعد وفاة الامير ملحم (١٧٥٤) ، راح اخواه احمد ومنصور يتنازعان السلطة ، مستندين إلى حزبين درزيين متعارضين جديدين : الجنبلاطية واليزبكية ، اللذين خلفا حزبي القيسية واليمنية المتخاصمين . وانقسم موارنة كسروان أنفسهم ، ملتحقين بهذين الحزبين القبليين الدرزيين .

واغتنم الامير يوسف (١٧٧٠ – ١٧٨٨) ، ابن الامير ملحم ، هذه الخلافات ، مع مساندة باشا طرابلس وعطف موارنة لبنان الشمالي ومؤازرة حزب الجنبلاطية ، ففاز في مؤتمر الباروك الوطني (١٧٧٠) واصبح اميراً على جميع الجبل . وقد ثبت الباب العالي هذا الانتخاب .

وفي عام ١٧٧٢ ، ظهر على المسرح السياسي مغامر متفوق ، اصله من البشناق (البوسنه) في يوغوسلافيا حالياً ، يدعى أحمد ، ويلقب بـ « الجزار » ، (١٧٧٢ – ١٨٠٤) ، بسبب الاعدامات التي نفذها في مصر عندما كان « متسلماً » هناك ، واحتل بيروت . وفي عام ١٧٧٣ ، عينه الباب العالي باشا على صيدا . وفي عام ١٧٧٥ ، نقل عاصمة حكمه إلى عكا ، التي اعاد بناء تحصينها القديم ، وبنى اسطولاً بحرياً وعبأ جيشاً . فقضت نهضة عكا الاقتصادية في زمنه على ازدهار بيروت الناشىء . وفي عام ١٧٨٠ ، وبعد ان نال باشوية دمشق ، اصبح الجزار باشا سيداً على القسم الاكبر من سوريا وفلسطين . « ومنذ ذلك الحين رافقت ولايته سلسلة متواصلة من النجاحات . فهو رجل فريد من نوعه في تاريخ سوريا العثمانية . وقد ظل في الحكم ما يزيد على ربع قرن ، احياناً على خلاف واحياناً في قتال مسلح مع الباشوات المجاورين ... ولم يكن الباب العالي يتدخل الا ليرسله إلى دمشق او ليدعوه منها ، من دون ان يمس نشاطه في سائر باشوياته » [1] .

---

(١) Lammens, **op. cit.**, II, p. 115

٦ – لبنان في القرن الثامن عشر

التنظيم الاجتماعي والسياسي . معالم الامة اللبنانية الحديثة

في القرن الثامن عشر ، كان لا يزال الموارنة والدروز والشيعة او المتاولة يشكلون أهم التجمعات السياسية – الطائفية التي كانت تتقاسم لبنان . وقد وصلتنا معلومات واسعة عن الحالة الاجتماعية والسياسية لهذه الطوائف او الفئات الثلاث ، في ذلك العهد ، بفضل مؤلف فولني (Volney) ، « رحلة في مصر وسوريا » . وفولني عالم موسوعي وفيلسوف فرنسي جاء إلى لبنان عام ١٧٨٣ ، حيث مكث بضعة اشهر وتعلم اللغة العربية . ويقول عنه (J. Gaulmier) « ان روايته الموضوعية المحضة هي بمثابة تحقيق علمي مطابق للحقيقة » .

أ – الموارنة

يلاحظ فولني ان ، في منطقة الموارنة ، « طبيعة الارض ، التي توفر الدفاع في كل مكان ، اعطت كل قرية بل كل عائلة تقريباً ، وسيلة للمقاومة بقواها الخاصة ، وبالتالي لمنع سلطة واحدة من ازدياد نفوذها ... هذا المجتمع ، ... الذي كان يحيط به منذ نشأته اعداء أقوياء ، لم يستطع مقاومتهم الا بفضل وحدة ابنائه . ولم تقم هذه الوحدة ، كما نعلم ، الا على قدر ما امتنع الموارنة عن اضطهاد بعضهم بعضاً ، وانصرفوا بالتناوب إلى حماية أشخاصهم وممتلكاتهم . وهكذا ... صان الموارنة أنفسهم إلى هذا اليوم من الظلم والاستبداد والاضطرابات التي تنتج عن الفوضى » .

« ويمكننا اعتبار هذه الامة كأنها مقسومة إلى طبقتين : الشعب والمشايخ ... وكلهم يعيشون في الجبال ، موزعين في قرى وضياع وحتى في بيوت منفردة ، مما لم يكن له مجال في السهل . والامة برمتها تعيش من الزراعة ، ... واي منهم لا ينقصه شيء من الضروريات ... والملكية مقدسة على قدر ما هي في اوروبا ،

ولا نرى مطلقاً بينهم مثل تلك الاغتصابات والاذلالات المتواترة عند الاتراك (في الجوار) . والسفر ، في الليل أم في النهار ، يتم بأمن غير معروف في باقي أنحاء الامبراطورية (العثمانية) ... وهم ، طبقاً للمبادىء المسيحية ، لا يتزوجون الا امرأة واحدة ، غالباً ما يكونون قد شاهدوها من قبل ، ودائماً بدون معاشرة سابقة ... وطبقاً لعادة أساسها الحذر وأوضاع البلاد السياسية ، يمشي جميع الرجال ، شيوخاً وفلاحين ، مسلحين دائماً بالبنادق وبالمدى ...

« وفي الامور الدينية ، يخضع الموارنة لروما . ومع اعترافهم بسلطة البابا العليا ، فان الاكليروس عندهم لا يزال ، كما في الماضي ، ينتخب رئيساً يلقب بالبطريرك او بطريرك انطاكيا . وكهنتهم يتزوجون ، كما كان الحال في اوائل ايام الكنيسة . لكن امرأتهم يجب ان تكون عذراء لا ارملة ، ولا يستطيعون ان يتزوجوا مرة ثانية . ويحتفلون بذبيحة القداس باللغة السريانية ، التي لا يفهم معظمهم كلمة واحدة منها . ويتلى الانجيل وحده باللغة العربية ، لكي يسمعه الشعب ... وليس لهؤلاء الكهنة ، كما هي الحال عندنا ، مداخيل او اجور محددة ، بل يعيشون من حسنات قداديسهم ومن تبرعات رعاياهم ومن عمل ايديهم ، اذ بعضهم يمارس مهنة والبعض الآخر يزرع ارضاً صغيرة ... ويستعيضون قليلاً عن فاقتهم بالاعتبار الذي ينعمون به... وكل من يصادفهم ، غنياً كان ام فقيراً ، كبيراً ام صغيراً ، يسارع لتقبيل يدهم ... ولا يحتفل في اوروبا بالطقوس الدينية بتجمع وحرية اكثر مما في كسروان ... ويحافظ (الاساقفة) على التواضع الذي نشأوا عليه ، اذ غالباً ما نصادفهم على الطرقات راكبين بغلة ، يرافقهم خادم واحد (قندلفت) . ومعظمهم يعيش في الاديرة ، مثل الرهبان البسطاء في لباسهم وقوتهم ... وهم كالكهنة يؤخذون من صف الرهبان . ويراعى في اختيارهم عادة تفوقهم العلمي ، الذي لا يصعب الحصول عليه بالنسبة للرهبان والكهنة الذين لا يعرفون الا التعليم المسيحي والكتاب المقدس ...

« ونظراً لانضواء الموارنة الى روما ، اعطاهم البابا مقراً في مدينة روما ، حيث يستطيعون ارسال عدد من الشبان ليتلقوا تربية مجانية ... لكن طلاب هـذه

المدرسة ، الذين تنحصر تربيتهم بتنشئة رهبانية خالصة ، يعودون الى بلادهم مزودين بمعارف لاهوتية لا تنفعهم كثيراً ... والفائدة القصوى التي نتجت عن هذه الاعمال الرسولية ، هي ان فن الكتابة شاع عند الموارنة اكثر من غيرهم ، وبهذه الصفة شغلوا جميع مناصب الكتاب والنظار ... ، عند الاتراك ، وبخاصة عند الدروز ، حلفائهم وجيرانهم » [1] .

ب — الدروز

ويتابع فولني « ان الدروز شعب صغير يشبه كثيراً الموارنة في نمط حياته وبشكل حكمه وباللغة والعادات . والفرق الاساسي بينهم انما هو الدين ...

« ينقسم الدروز كالموارنة الى طبقتين : الشعب والاشراف الملقبين بالمشايخ وبالامراء ... ووضعهم العام هو العيش من الزراعة . وسواء أكانوا شركاء ام ملاكين ، يعيش كل واحد منهم على ارضه من زراعة التوت والكروم ... والاملاك الكبيرة التي لبعض العائلات تعطيها نفوذاً يؤثر في جميع حياة الامة ... فجميع الحروب الاهلية او الدولية ، التي عكرت صفو الامن في البلاد ، احدثتها مطامع بعض البيوت الرئيسية ووجهات نظرها الشخصية . واخيراً يتوصل مشايخ هذه البيوت ... الى جر سائر الدروز وتوريطهم معهم في خلافاتهم . وقد يعود حقاً فضل تجنيب الامة جميعها الخضوع لزعيم واحد يستبد بها ، الى هـذه الخلافات بين مختلف الاحزاب » .

« والرئيس ، المدعو «حاكماً» او «اميراً» ، هو بمثابة ملك او قائد ، يجمع في شخصه السلطات المدنية والعسكرية . وينتقل حكمه تارة من الاب الى ابنائه ، وطوراً من الاخ الى اخيه ، بحسب شريعة القوة اكثر مما هو بحسب الشرائع المعمول بها ... وفي حال انقراض الذكور من العائلة الحاكمة ، تنتقل السلطة الى الرجل الذي يجمع اكثر الاصوات والوسائل . لكن قبل كل شيء ، عليه ان

---

(1) Volney, **Voyage en Egypte et en Syrie,** 1959, p. 220, 223 et 226

يحظى برضى الاتراك ، الذين سيصبح خاضعاً لهم ومؤدياً للضريبة ...

« اما وظيفة الحاكم فقوامها الحفاظ على النظام العام ... وهو رئيس القضاء ويعين القضاة ... ويجمـع الضرائب ، التي يدفع منهـا كل سنة الى الباشا مبلغاً يحدد سنوياً . ويتغير هذا المبلغ على قدر ما تستطيع الامة ان تفرض هيبتها.. ولزيادة الضرائب ... ينبغي موافقة الاشراف الذين يحق لهم الاعتراض عليها . كما ان موافقتهم لازمة لاعلان الحرب او لعقد السلم . وفي هذه الحال يكون على الامير ان يدعو الى اجتماعات عامة لشرح الاوضاع . وكل شيخ ، او فلاح يحظى بمكانة لرجاحة عقله او لشجاعته ، يحق له الادلاء بصوته في هذه الاجتماعات . وهكذا ، باستطاعتنا اعتبار الحكم مزيجاً متوازناً من الارستقراطية والملكية والديمقراطية . فهذا كله يختلف بحسب الظروف : فان كان الحاكم ذا رأي تكون سلطته مطلقة واذا كان العكس فهو لا شيء ، وهذه الحال الشائعة في آسيا ، هي السبب الاساسي لجميع الاضطرابات في حكوماتها .

« لا الامير الاكبر ولا الامراء المحليون يحتفظون بجيوش ... وفي الحرب ، كل انسان بامكانه حمل السلاح يكون مدعواً للقتال ، شيخاً كان ام فلاحاً ... وفي الاحصاءات الاخيرة ، ارتفع عدد المسلحين الى اربعين الف رجل . وهذا يفرض ان مجموع عدد السكان يقارب مئة وعشرين الف نسمة ... وعنـد التساؤل عن علة هذا الازدحام في بقعة صغيرة الى هذا الحد ، لا اجد ، بعـد التحليل والتمحيص ، سبباً سوى شعاع الحرية التي تسطع في هذه البقعة . فهنا ، على خلاف البلاد التركية ، كل انسان ينعم آمناً بملكه وبحياته ... فيكون الامن الوسيلة الاولى لازدحام السكان ... اما الوسيلة الثانية التي لا تقل شأناً عنها ، فانما هي الزهد في المأكل عند الامة ، التي تستهلك القليل من كل شيء » (١) .

١) Volney, **op. cit.**, p. 227, 238, 239, 241

ج – الشيعة او المتاولة

يتابع فولني : « في شرق بلاد الدروز . وفي الوادي العميق (البقاع) الذي يفصل جبالهم عن جبال بلاد دمشق ، يعيش شعب آخر صغير يعرف في سوريا باسم المتاولة . والصفة التي تميزهم عن سكان سوريا الآخرين هي انهم من اتباع علي ...

« وهناك زعم بانهم يعيشون منذ زمن بعيد بشكل امة في هذه المنطقة ... وقبل اواسط هذا القرن ، لم يكونوا يملكون الا بعلبك ، عاصمتهم ، وبعض الاقضية في الوادي وفي جبال لبنان الشرقية ، التي يبدو ان اصلهم منها . وفي هذا العهد ، نجدهم يُحكمون كالدروز ، اي انهم ينقسمون تحت سلطة عدد من المشايخ ، يرئسهم زعيم اكبر من آل حرفوش . وبعد عام ١٧٥٠ ، امتدوا الى أعالي البقاع وتوغلوا في لبنان ، حيث احتلوا أراضي كانت للموارنة ، حتى جوار بشري ، وضايقوهم بغاراتهم المسلحة ، حتى اضطر الامير يوسف الى مهاجمتهم وطردهم . ومن ناحية اخرى ، تقدموا في توسعاتهم بمحاذاة نهرهم (الليطاني) حتى ضواحي صور ...

« وبعد وقت وجيز (حوالي عام ١٧٦٠) احتلوا صور ، وجعلوا من هذه القرية مستودعاً بحرياً . وفي عام ١٧٧١ ، دخلوا في خدمة علي بك (سيد مصر) وضاهر (سيد فلسطين) ، ضد العثمانيين ... ومنذ عام ١٧٧٧ ، لم يتوقف الجزار ، سيد عكا وصيدا ، عن العمل لافنائهم . حتى ان اضطهاده لهم أرغمهم ، عام ١٧٨٤ ، على مصالحة الدروز ومحالفة الامير يوسف لمقاومته . ومع انه لم يعد لديهم سوى اقل من سبعماية بندقية ، فانهم عملوا في هذه الحملة أكثر مما عمله خمسة عشر او عشرون الف درزي وماروني قرب دير القمر ... لكن شقاق الرؤساء الدروز اجهض جميع العمليات الحربية ، حتى انتهى الامر باستيلاء الباشا على الوادي بكليته وعلى مدينة بعلبك بالذات » (١) .

١) Volney, **op. cit.**, p. 245-247

د – معالم الامة اللبنانية الحديثة منذ عهد فخر الدين الثاني

كما ان امارة فخر الدين الثاني (١٥٨٥ – ١٦٣٥) اعادت انشاء فينيقيا القديمة ، وكانت تمثل المعالم الاولى للبنان الحاضر ، كذلك فان مجموعة التكتلات الطائفية التي كان يتألف منها سكان هذه الامارة ، كانت تمثل المعالم الاولى للمجتمع الوطني او للامة اللبنانية الحاضرة ، التي كان نموها قد بدأ منذ العهود الماضية . ومنذ ذلك العهد ، اخذت هذه الجماعات الطائفية المختلفة تتطور معاً ، تارة بتقدم وطوراً بتأخر ، باتجاه اتحاد فدرالي في الواقع ، ينشأ عنه تدريجياً مجتمع متضامن ومتماسك . والنزاعـــات التي قامت ، غالباً فيمـــا بعد ، بين هذه الجماعات الطائفية ، كالصراع الذي كان قائماً بين الاسياد الاقطاعيين في اوروبا القرون الوسطى ، لم يكن لها باعث سوى رغبة كـــل واحدة من هذه الطوائف في اعادة انشاء امارة فخر الدين الثاني لصالحها الخاص ، اي تحقيق الوحدة السياسية والجغرافية لجميع اقاليم البلاد تحت سلطتها .

ومنذ عهد فخر الدين الثاني ، بدأ المجتمع القومي اللبناني ، الذي يمكننا ان نسميه ضمنياً اتحاد مختلف طوائف البلاد ، بدأ يعي وحدة مصيره . اذ ان جميع هذه الطوائف ، المجمعة على الولاء للامير ، رئيس البلاد الاعلى ، انما هي متحالفة سياسياً واقتصادياً . فكل واحدة منها تحتفظ بذاتيتها الجغرافية والطائفية وبخواصها المحلية وبتنظيمها الاجتماعي والثقافي وبعاداتها وتقاليدها الخاصة . ومع هذا ، فانها تحتفظ فيما بينها بعلاقات طيبة وتحل ودياً المشاكل التي تعترضها ، وكثيراً ما تتحالف في القتال للدفاع عن حرياتها ومصالحها المشتركة ضد الاخطار الوافدة من الخارج . ومنذ ذلك الحين ، اخذت جميع هذه الطوائف تتطور في جو من الثقة والتفاهم المتبادلين . ثم ازداد تعاونها وتضامنها ثباتاً وقوة في القرون التي تلت . وأخيراً اصبحت هذه الطوائف مجتمعاً قومياً متعدد الطوائف هو : الامة اللبنانية الحالية .

ولنذكر ان هذا التجزؤ الطائفي والسياسي للبنانيين ، منذ عهد فخر الدين ، وحتى قبل هذا العهد ، انما هو نتيجة ظروف محلية طبيعية ، وهو احد الثوابت

التاريخية لهذا البلد . ففي العصور القديمة ، كما رأينا ، كانت فينيقيا ، تقريبا دائماً ، مقسومة إلى عدة مدن مستقلة ، لكل واحدة منها اسرتها المالكة وآلهتها الخاصة . كما نعرف ايضاً ان جميع سكان فينيقيا اللبنانية كانوا يقسمون إلى طائفتين كبيرتين : اتباع الاله ايل واتباع الاله بعل . واخيراً ، كانت هذه المدن المستقلة مجموعة في نوع من الاتحاد ، او في جامعة دول ، مركزها الدائم ، في بعض العهود ، مدينة حيادية ، هي طرابلس ، حيث كانوا يلتقون ويتشاورون في اهم القضايا التي تتعلق بمصالح المدن الاتحادية .

فهل بامكاننا القول ان الجماعات الطائفية في لبنان كانت ، خلال القرن الثامن عشر ، تؤلف بمجملها مجموعة قومية او امة ، بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ؟

يمكننا الجواب بالايجاب على هذا السؤال . ففيما كان مفهوم « الأمة » ، في العصور القديمة ، يختلط بمفهوم الدولة ، وفيما كانت الأمة تحدد أولاً بالنسبة الى العناصر العرقية التي تتألف منها الطبقة المسيطرة والحاكمة ، أو « بوحدة الحكم والادارة واللغة والدين فوق أرض واحدة » ، غدا مفهوم الأمة المعاصرة يعني ، منذ القرن الثامن عشر ، « مجموع الرعايا الذين يرغبون ، بملء إرادتهم ، في العيش معاً » ، على أرض معينة ، بصرف النظر عن فوارق الجنس واللغة والدين .

وعلى اي حال ، إن لم تكن الجماعات الطائفية في لبنان ، إبّان القرن الثامن عشر ، تؤلف مجتمعاً قومياً عضوياً متجانساً ، فهي بالتأكيد كانت البذرة وأصل الأمة اللبنانية الحالية . لم يكن باستطاعتهم ، في ذلك الزمن المظلم ، أن يتخطوا التعاون البدائي . وكما في العهود الاسلامية السابقة ، لم يكونوا يشعرون مطلقاً بالرغبة في تأسيس مجتمع قومي حقيقي ، وذلك لأن حياتهم وأفكارهم كانت تتوقف دائماً عند حدود القرية أو المنطقة الصغيرة . فلعدم وجود معاملات تجارية كبيرة ، في الداخل وفي الخارج ، وبسبب البطء والصعوبة في المواصلات ، كانت كل قرية وكل منطقة وكل كتلة اجتماعية أو جماعة ،

لا تزال تعيش منطوية على ذاتها ، « لا همّ لها سوى الحاجات المباشرة ، ولا أفكار لها سوى سد هذه الحاجات » .

لكن بالرغم من هذه العوائق ، فإن الوحدة السياسية والقومية ، او بالأحرى « اتحاد » الجماعات والكتل الاجتماعية المختلفة في لبنان ، قد تحققت نوعاً ما بسهولة في عهد فخر الدين الثاني ، ثم بعده بقليل في عهد الأمير بشير الثاني الشهابي . فهذان العاهلان ، اللذان ارتفعا فوق الخلافات القبلية وفوق المنازعات القائمة ، توصلا إلى تحقيق اتحاد سياسي وشبه قومي بين مختلف العناصر الطائفية في البلاد . وهذا الاتحاد الذي توطد بعد إنشاء متصرفية جبل لبنان ، عام ١٨٦١ ، بفعل العادة والمحن التي تكبدتها هذه الطوائف بصفة عامة وبدافع المصلحة التي تحدوها للعيش معاً ، انجب ، بعد استقلال لبنان الفدرالي عام ١٩٤٦ ، الأمة اللبنانية الحالية .

فالمجتمع اللبناني القومي انما هو حصيلة نوع من الاتحاد الفدرالي أو من شراكة بين مختلف العناصر الطائفية في البلاد ، وقد شدت اواصرها إرادة في العيش معاً في بلاد واحدة ورغبة في التعاون والنضال في سبيل البقاء . هذا الاتحاد المنشود او المقبول هو بالذات التحديد للأمة الحديثة ، وهو أكثر التحاماً عضوياً وثباتاً من الوحدة السياسية المفروضة بالقوة أو بالاكراه .

في المجتمعات القومية ، حيث « ليس من الضروري التشابه بين أعضاء المجتمع ، ... « يتجسد » المجتمع ... في الأرض ... و « يتشارك » (الأفراد) بدافع المنفعة والتعاون ، وبداعي تنمية الحياة ، هذه التنمية التي تنتج لهم عن هذه المشاركة » [1] . وعليه فان الاتحاد المقبول، الذي يقضي بعيش الجماعات المتحدة عيشاً متميزاً بين الواحدة والاخرى ، يؤلف مجموعة أصلب واقوى من الوحدة المفروضة بالقوة على اطراف غير متجانسين . فالوحدة المنشودة ، وبقول آخر « الاتفاق ووحدة الأهداف والأعمال ، » إنما هي التي تشكل

---

١) H. Berr, **En marge de l'Histoire Universelle**, p. 78, 108, 109

قوة الأمم . وينتج عن ذلك ، أن الوحدة السياسية ليست دائماً الوحدة القومية . بل إنها تكون بعكس هذه الأخيرة عندما تفرض بالقوة . « فالامبريالية ، ومبدأها الرغبة في التوسع ، هي على نقيض الوحدة في سبيل الحياة » (Berr) . ومن ناحية أخرى ، بينما تعتمد « الوحدة » على مبدأ التوازن وتدل على طابع ما ، نجد « الاتحاد » يعتمد على مبدأ الحركة ويدل على العلاقات الناتجة عن مسيرة وتطور .

٧ — لبنان في عهد الامير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ — ١٨٤٠)

أ — الامير بشير الثاني الشهابي يتولى الحكم

لكي يرضي الأمير يوسف مطامع أحمد باشا الجزار ، حاكم عكا (صفحة ٣٣١) ، أثقل كاهل اللبنانيين بالضرائب . فثار المتذمرون من قسوته (١٧٨٨) ، ساخطين على مطالبه غير المحقة . فاستغل هذه الصعوبات الأمير بشير قاسم ، أحد أقرباء الأمير يوسف الشبان ، واعد العدة اللازمة للنجاح في عكا . فقبله الجزار خلفاً للأمير يوسف . وفي عام ١٧٨٨ ، « تخلى هذا عن الحكم لبشير ، مؤملاً أن تدفع حداثة هذا الأخير وعدم نفوذه وخبرته الى الالتجاء اليه للصمود في مواجهة خصومه الأقوياء المشاغبين . لكن بشيراً ، الواثق من نفسه والداهية الطموح ، فرض سلطته حالاً بفضل شخصيته القوية فوشى بالأمير يوسف إلى الجزار ، ثم طلب رأسه مقابل ثمن باهظ ... فقبل الجزار العرض وأمر بشنق الأمير يوسف ... ، عام ١٧٩٠ ، في سجن قلعة عكا » [2] .

ب — بشير الثاني تبعاً لاحمد باشا الجزار (١٧٨٨ — ١٨٠٤)

كان الأمير بشير الثاني (١٧٨٨ — ١٨٤٠) ، منذ تسلمه زمام الحكم ، خاضعاً

---

١) A. Ismaîl, **op. cit.**, p. 114, 115

لأحمد باشا الجزار . وكان عمره يومذاك إحدى وعشرين سنة . وكان أبزه قاسم الذي تنصّر قد عمّده . ولكي يضمن طاغية عكا خضوع الأمير بشير له ولكي يستمر بابتزاز الأموال منه ، راح يشجع الفوضى والحرب الأهلية في لبنان .

« تلك كانت أوائل عهد الأمير الذي راح يحاول اعادة بناء دولة فخر الدين الكبير . فقد عمل لهذا الأمر زهاء نصف قرن ، كانت تتداوله خلاله حظوظ مختلفة . لقد أرغم أربع مرات على مغادرة لبنان . وكان في كل مرة منها يعود محاطاً بهالة جديدة من النفوذ . كان مرة قاسياً واخرى ليناً ، صارماً وداهية، ودائماً حكيماً وغالباً قليل الوفاء » (Ristelhueber) . « كان بشير صورة للعاهل الشرقي المثالي ، يفرض احترامه بفضل دهائه وهيبته ، وقد توصل بمداراته للأحزاب وبجعل واحدها ضد الآخر ، أن يضمن لنفسه في سوريا مركزاً متفوقاً » [1] .

وقرب نهاية القرن الثامن عشر ، بلغ التدهور الاقتصادي والثقافي في سوريا ومصر مداه ، بعد أن بدأ مع سيطرة الأتراك السلاجقة (في القرن الحادي عشر) . وبينما كانت مناطق شرقي المتوسط العثمانية قد آلت بكاملها خراباً تقريباً ومقفرة من السكان ، كان جبل لبنان ، حيث تسود الحرية والأمن ، مزدهراً يضيق بسكانه . « ففي لبنان المتوسط ، كان عدد سكان منطقة كسروان الوعرة يعادل ضعفي سكان فلسطين بالذات . وكانت ذات الكثافة في عدد السكان موجودة في باقي المناطق اللبنانية » [2] . وبالمقابل كانت مدن الساحل اللبناني (صيدا ، بيروت ، طرابلس) ، التي يحكمها الباشوات العثمانيون مباشرة ، تعيش في انحطاط تام . وتذكر أخبار رحّالة ذلك العهد أن عدد سكان صيدا وبيروت وطرابلس كان يبلغ في كل منها ما يقارب الخمسة آلاف ، وسكان دمشق خمسة عشر ألفاً ، ومثلها في حلب . وفي العهد ذاته ، يقدر فولني

(١ Lammens, op. cit., II, p. 118

(٢ Lammens, op. cit., II, p. 119

سكان مصر بمليونين وخمسماية ألف نسمة ، وسكان القاهرة بمئتين وخمسين ألفاً . أما الاسكندرية ، التي كانت تعدّ سابقاً أكثر من نصف مليون ، فأمست ، بحسب رأي سافاي (Savay) ، ضيعة صغيرة المساحة ، تعدّ بجهد ستة آلاف ساكن .

وفي عام ١٧٩٩ ، حاصر القائد الفرنسي بونابرت عكا ، التي كان يحميها أحمد باشا الجزار والأسطول الانكليزي . وما أن نجا الجزار من هذا الخطر الكبير ، حتّى صب غضبه على الأمير بشير . ولامه لعدم تلبية دعوته إلى نجدة عكا على رأس جنود لبنانيين . ولكي ينجو الأمير بشير من انتقام الطاغية ، سافر على متن بارجة انكليزية إلى معسكر الوزير العثماني ، القائم في مرفأ العريش ، منطقة سيناء ، على البحر المتوسط . ثم عاد من هناك بعد بضعة أشهر « كحليف للانكليز ، الذين يدين لهم الجزار بجزء كبير من انتصاره على بونابرت » . ولحسن حظ الأمير بشير ، توفي الجزار عام ١٨٠٤ .

ج – بشير الثاني ، الحكَم في القضايا السورية (١٨٠٤ – ١٨٣١)

بعد وفاة الجزار ، وبعد ان ازدادت خبرة الأمير بشير وحكمته ، استطاع أن يقيم علاقات طيبة مع ممثلي الباب العالي . وبفضل مرونته ، ظل حتّى عام ١٨٤٠ ، الشخصية الأكثر نفوذاً في القضايا السورية . وكان احياناً يتدخل في حكم الباشوات العثمانيين ليدافع عن مصالح اللبنانيين . وهكذا قاوم بيأس تطاول يوسف باشا ، حاكم دمشق ، على سهل البقاع . كما رفض محالفته ضد بربر آغا ، حاكم طرابلس (١٨٠٨ – ١٨٠٩) . وفي عام ١٨١٠ ، نقل الباب العالي يوسف باشا ووضع مكانه حاكماً على دمشق سليمان باشا ، حاكم عكا . وحيث توقع هذا أن لا يتنحى يوسف باشا إلا بالقوة ، استنجد بالأمير بشير ، الذي دخل دمشق على رأس خمسة عشر ألف لبناني ونصب فيها الحاكم الجديد.

وبالرغم من تنصّره المتكتّم ، احتفظ بشير الثاني بلقب « امير الدروز » ، مع أن هذا اللقب لم يكن يتفق مع الحقيقة . وبهذه الصفة ، طلب اليه دروز

منطقة حلب أن يتدخل في قضيتهم ، بعد أن اضطهدهم جيرانهم المسلمون . فاستجاب لطلبهم وانتصر لهم بقوة لدى السلطات المحلية . ثم ارسل اليهم حراساً لكي يعيدوهم إلى لبنان (١٨١١) .

وفيما كان بشير يناضل في سبيل استقلال لبنان ، كان في الوقت ذاته يسهر على أمن السكان وراحتهم . فحسّن طرق المواصلات عبر الجبل وسهر على تأمين العدالة للجميع ، بصرف النظر عن الفوارق في العقائد الدينية . وشيّد بالقرب من دير القمر قصر بيت الدين الجميل ، الذي رممته في أيامنا حكومة الجمهورية اللبنانية . لم يكن يرحم المشاغبين ، كما كان حقوداً . فقد أمر بفقء عيون ابناء سلفه الأمير يوسف . وكان يقمع كل مقاومة لسلطته بسفك الدماء . وفي عام ١٨٢٠ ، انحاز بشير إلى جانب باشا عكا في حربه ضد باشا دمشق وباشا حلب . وكان الباب العالي اعلن تأييده لهذين الأخيرين . فراحت معارضة لبنانية قوية ، برئاسة بشير جنبلاط ، تنادي بالأمير عباس شهاب حاكماً على لبنان . فوجد بشير الثاني الحل في اللجوء إلى القاهرة (١٨٢١) ، لدى محمد علي باشا ، حاكم مصر . وهذا الذي كان يطمع بسوريا ، كسائر اسلافه في وادي النيل منذ الفراعنة ، خصّ الأمير اللاجىء باستقبال حار ، وكسب تأييده سراً لمشاريعه المقبلة وتفاوض في مصالحته مع الباب العالي .

وفي عام ١٨٢٢ ، عاد بشير إلى لبنان ، وفي نفسه نهم الى الانتقام من الإقطاعيين الذين أسقطوه عن الحكم عام ١٨٢١ . وبفضل مساعدة المدافعين الأتراك ، الذين أرسلهم له باشا عكا ، سحق العصاة وقتل رئيسهم بشير جنبلاط (١٨٢٥). ثم وضع حداً ، كما يليق بمستبد عادل مثله ، لطغيان الرؤساء الاقطاعيين ، فقتل معظمهم أو ابعدهم إلى المنفى . وعاد الأمن الذي حققه للبلاد ليجعل لبنان ، من جديد ، أرض ملجأ مفتوحة لجميع المضطهدين في البلدان المجاورة وساعد على إعادة ازدهار مرفأ بيروت ، الذي كان أقفر في عهد أحمد باشا الجزار لصالح مرفأ عكا .

« وهكذا اصبحت بيروت ، منذ ذلك الحين ، مركزاً لهجرة السوريين ،

ومشت تدريجياً نحو الازدهار المتزايد الذي تنعم به اليوم والذي لا تكفي حسنات الموقع الجغرافي لتعليله » [1] . ولنذكر أنه ، في العهود الفينيقية ، كانت مدن صور وصيدا وارواد الساحلية ، عواصم البلاد اللبنانية التجارية الكبيرة ، لأنها كانت تتصل بسهولة أكبر بالبلاد السورية الداخلية .

عرض باشوات عكا وطرابلس ودمشق على بشير جميع أنواع المساعدات ، لكن أطيب العلاقات التي أقامها كانت مع عبد الله باشا ، حاكم عكا . وكانت مبالغ المال التي يطلبها هذا ، بكميات باهظة ، تقع طبعاً على كواهل الرعايا اللبنانيين .

د – بشير الثاني تَبَعاً لمحمد علي ، باشا مصر (١٨٣١ – ١٨٤٠)

في عام ١٨٣١ اجتاح ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، باشا مصر ، فلسطين وحاصر عكا . وكما فعل بونابرت قبل اثنتين وثلاثين سنة ، دعا الأمير بشير إلى الانضمام اليه . فلبّى الأمير النداء هذه المرة . فسقطت يافا وحيفا وأخذت عكا عنوة . فانفتحت طريق سوريا للمصريين (١٨٣٢) . وبعد تورطه في هذه المغامرة ، « استسلم محمد علي إلى المصير الذي كان ، منذ الفراعنة ، يدفع بقوات مصر الغزيرة نحو سوريا » .

وفيما كان أبناء بشير يضبطون الساحل اللبناني ، بعد أن احتلوا صور وصيدا وبيروت وطرابلس ، احتل ابراهيم باشا ، برفقة الأمير بشير ، دمشق وحمص وحلب . ثم انتزع قونية في آسيا الصغرى . وقد رحبت شعوب هذه البلاد بالغالب ، سيد سوريا بأسرها ، واستقبلته كمحرر لها ، اعتقها من نير العثمانيين (١٨٣٢) . فاستنجد السلطان محمود الثاني ، الذي ارعبته هذه الكوارث ، بالقوات الأوروبية . وفي عام ١٨٣٣ ، رضي محمد علي بنصيحة فرنسا القاضية بإخلاء آسيا الصغرى . ثم تَسلّم من السلطان الحكم على سوريا وعلى منطقة أضنه (كيليكيا) ، مقابل دفع فريضة سنوية كبيرة .

(١) Lammens, op. cit., II, p. 149.

« وكان لبنان في ظل السيطرة المصرية ينعم بنظام خاص، بإدارة اميره، حليف مصر . أما سوريا فأصبحت ولاية مصرية ، وتنظيمها غدا نسخة عن تنظيم وادي النيل . لكن دور لبنان المستقل انتهى ، كما يبدو . فالمدن الساحلية ، صور وصيدا وبيروت وطرابلس ، التي كانت في البدء قد الحقت بإدارة الأمير بشير ، ما فتئت أن ألحقت بادارة سليمان باشا »[1]، مستشار ابراهيم باشا العسكري ، الذي اتخذ بيروت مقراً له .

ومن ناحية أخرى ، فان مشاريع ابراهيم باشا الكبيرة كانت تتطلب المزيد من المال ومن الجنود . وبشير ، الذي كان أداة هذه السياسة الجائرة ، بدأ ينال نصيبه من نقمة الشعب . فالوحشية في جمع الضرائب وارغام الأهلين على السخرة والتجنيد الاجباري والمطالب الظالمة ، وحدت في مقاومة مشتركة المسيحيين والدروز ، الذين كان العملاء المصريون قد توصلوا في وقت ما الى زرع الشقاق فيما بينهم . وقام رؤساء من الموارنة والدروز ، من صفوف الشعب ، برفع لواء الثورة ، في محاولة لمنع الجيوش المصرية ، المحتشدة في صيدا وطرابلس ، من الدخول إلى الجبل . وبقصد تشجيع العصاة ، توجه اسطول انكليزي نحو بيروت واتصل بهم .

أما إبراهيم باشا المتعود على سلبية الفلاحين المصريين ، فلم يفهم هذا العصيان من جانب اللبنانيين ، الذين يعتبرون الحرية أمراً مقدساً لا بديل عنه . وعندما اراد أن يصلح الحال ، كان الأوان قد فات . وهذه الثورة ، التي امتدت إلى مجموعة المناطق اللبنانية والسورية ، أقلقت باشا مصر أكثر بكثير من التدخل الانكليزي . « اني اضع القوات الأوروبية في علبة سعوطي . أما الذين يزعجونني إنما هم الملاعين السوريون . إنهم سبب جميع مصائبي . يقال ان هذا الكلام قد أفضى به محمد علي إلى أحد مستشاريه »[2] .

---

١) Suleyman Pasha, l'ancien colonel Français Sèves, devenu musulman.

٢) A. Ismaîl, op. cit., p. 137

هـ – سقوط بشير الثاني ونفيه (١٨٤٠)

في عام ١٨٣٩ ، انتصر ابراهيم باشا في موقعة « نصيبين » ، في الشمال الغربي للموصل ، انتصاراً ساحقاً على العثمانيين . وكردة فعل ، ضرب الأسطول الانكليزي بيروت وطرابلس (١٨٤٠) ، واندلعت في كل مكان نيران فتن أشعلها عملاء الانكليز . عندها اجتمع الدروز والمسيحيون والشيعة والسنّة في انطلياس ، بالقرب من بيروت ، وتعاهدوا مقسمين بأن يناضلوا معاً إلى ان يستعيدوا استقلالهم (١٨٤٠) . ثم رست جيوش انكليزية – عثمانية في خليج جونية ، حيث وزع عملاء البريطانيين مالاً وأسلحة . ثم احتلت جبيل والبترون وصيدا ، بمساعدة المتمردين اللبنانيين بقيادة الامير بشير قاسم ، المعروف بالصغير أو ببشير الثالث ، الذي اعلنه الانكليز والعثمانيون اميراً على الجبل ، محل بشير الثاني الذي أُقيل (١٨٤٠) . وعندما علم ابراهيم باشا بسقوط بشير الثاني ، فترت همته ، فغادر لبنان ، ثم سوريا (١٨٤٠) .

أما بشير الثاني ، الذي حطمته الثورة ، فقد استقال ولجأ إلى مالطه (١٨٤٠) ، ثم إلى القسطنطينية (١٨٤٠) ، حيث توفي عام ١٨٥٠ ، وكان عمره أربعاً وثمانين سنة . فيكون هكذا تولى الحكم على الجبل مدة ثلاث وخمسين سنة .

بعد فخر الدين الثاني الكبير (١٥٨٥ – ١٦٣٥) ، كان بشير الثاني ، الملقب بالكبير ، ثاني من أعاد للبنان حدوده الطبيعية والتاريخية .

٨ – سوريا وفلسطين في عهد العثمانيين من ١٥١٦ إلى ١٨٤٠

أ – سوريا (١٥١٦ – ١٨٤٠)

في عهد العثمانيين ، كانت سوريا مقسومة إلى مقاطعتين تدعى كل منهما « إيالة » أو « باشوية » ، وفيما بعد « ولاية » ، وكانت الولاية تقسم إلى « سنجقات » . والولايتان هما : ولاية دمشق وولاية حلب . وكان يحكم كل

واحدة منهما باشا أو والٍ عثماني . ولم يكن لهؤلاء الولاة صلاحية سوى تنفيذ أوامر السلطان المقيم في اسطنبول (القسطنطينية) .

ولاية دمشق :

« لم يعتبر سكان دمشق وصول العثمانيين سوى حادث عارض طرأ على الحياة المحلية ، وليس كحدث بارز يفتتح صفحة جديدة في التاريخ . فالحكم قد انتقل من المماليك ، القادمين من القاهرة ، إلى طبقة أخرى من الشعوب الأجنبية صاحبة الامتيازات : الانكشارية ، القادمين من تركيا ... ولم تعد دمشق سوى مركز لباشوية وضيعة في الامبراطورية الواسعة التي تنشر السلطنة فوقها ظلها . فلم يبق لها ، في حركة الدسائس السياسية الدور اللامع الذي كانت ساحته في عهد الشراكسة (المماليك) . ثم تعاقب عليها الباشوات بسرعة كبيرة ، يرافقهم « قاض » من المذهب الحنفي ومدير للمالية ، ولم يكن لهم أية سلطة على الجنود . فبين عامي ١٥١٧ و ١٦٩٧ ، عرفت دمشق ١٣٣ والياً » ...

« في ذلك العهد كانت الوظائف الحكومية تشترى بالمال . لذلك كان الموظفون ، ولا سيما الولاة ، يثقلون كواهل السكان بالضرائب ، ليستعيدوا بسرعة ثمن وظيفتهم . وفوق ذلك أصبح الفساد قاعدة ، والفوضى عادة . لكن مع هذا ، عرفت دمشق نوعاً من الازدهار بفضل عاملين : التجارة والحج إلى مكة » .

« ومنذ عام ١٥٣٥ ، وقّعت فرنسا مع الباب العالي نظام الامتيازات الاجنبية ، التي فتحت لتجارها المرافىء التركية وسمحت لهم بالتجارة مع جميع أنحاء الشرق المتوسطي . كان التجار الأوروبيون ... يستوردون مواد مصنوعة ويصدرون موادّ أولية وتوابل . وبالرغم من الرسوم المالية المرتفعة جداً ، ظلت التجارة الخارجية تعود بأرباح كبيرة ، ولم تتوصل مطلقاً الأحداث السياسية إلى وقف حركات التبادل التجاري الكبيرة » .

« وفي دمشق ، كما في الأماكن السورية الأخرى ، كان المسيحيون من ابناء البلد يلعبون دور الوسطاء ما بين الأوروبيين والادارة التركية والسكان الذين يتكلمون اللغة العربية ... ونتج عن اتساع التبادل التجاري بناء « الخانات » العديدة ، التي كان يستغلها التجار الأجانب كفنادق ومصارف ومستودعات لبضائعهم ... وكان تبادل التجارة مع أوروبا يتم بواسطة موانىء ولاية دمشق ، وأشهرها صيدا » .

« وبعد أن أصبح السلطان العثماني حامي المدن المقدسة ، أظهر عناية خاصة بالحج إلى مكة ، فأصبح من أهم موارد دمشق ، التي تعتبر بفضل موقعها ، آخر محطة على « درب الحج » في البلاد المأهولة . وقد أصبحت المدينة مركز تجمع سنوي لعشرات الألوف من الحجاج القادمين من شمال أرض الامبراطورية العثمانية . وكان هذا الاحتشاد الدوري يغذّي نشاطاً تجارياً عظيماً . فكان الناس يستفيدون من اقامتهم ليتجهزوا لعبور الصحراء ، ... وكانوا يتزودون بما يكفيهم لثلاثة أشهر ... وعلى طريق العودة ، كانت دمشق أولى المدن العامرة المهمة . فكان الحجاج يبيعون فيها ما جلبوه معهم من محاصيل الجزيرة العربية ، كالبنّ ، أو كالعبيد السود الافريقيين » (١) .

ومن عام ١٨٣٢ إلى عام ١٨٤٠ ، انتقلت سوريا ، كما رأينا ، إلى سيطرة مصر . فاستولى ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، على دمشق (١٨٣٢) ، وكانت الثورات ضد العثمانيين قد سبقت وصوله . ثم احتلت القوات المصرية حمص وحماه وحلب ، يساعدها السكان المحليون ، وردّت العثمانيين إلى ما وراء جبال طورس (١٨٣٢) . وعندما اصبحت سوريا ولاية مصرية ، قسمت ، كما في عهد العثمانيين ، إلى ولايتي دمشق وحلب ، بإدارة ضباط مصريين .

« ان السيطرة المصرية ، من عام ١٨٣٢ إلى عام ١٨٤٠ ، أحدثت ازدهاراً نسبياً في دمشق ، التي مكثت طوال قرون خارج التيارات السياسية الكبيرة ... والحكم المصري الذي دام ما يقارب عشر سنوات ، سمح بعودة الأوروبيين

(١ Elisséef , Dimashk, op. cit., II, p. 295

الذين ، إلى ذلك العهد ، لم يكونوا يستطيعون دخول المدينة بزيهم الغربي وكانوا يخضعون لمعاملات رسمية منفّرة ... ومنذ ذلك الحين ، أمّ دمشق ممثلون أجانب للاقامة فيها . وعلى الصعيد الديني ، كان إبراهيم باشا متسامحاً ومتساهلاً . فأسس في دمشق معهداً يتسع لستماية تلميذ ، كانوا يتلقون ، في بزة نظامية ثقافة عامة وعسكرية ... لكن أوروبا ، وبخاصة (وزير خارجية بريطانيا) بلمرستون ، تصدت لمطامع محمد علي ، فاستغلت الاستياء الذي أحدثه بإدخال الخدمة العسكرية ، وأثارت السكان على ابراهيم باشا ، الذي اضطر إلى مغادرة دمشق (١٨٤٠) . فانتهت محاولة ابراهيم باشا بالفشل ، وعاد الدمشقيون من جديد إلى ظل السيطرة العثمانية » [١] .

ولاية حلب :

منذ أواخر القرن السادس عشر ، كان لا بد لمدينة حلب ، كباقي العواصم الاقليمية ، من أن تعاني من جراء النشاطات السياسية والحزبية التي كانت تقوم بها القوات العسكرية المحلية (الانكشارية) وخصومهم الاشراف . ومن ناحية أخرى ، وبسبب وقوعها بجوار المناطق الصحراوية ، حيث كانت تقيم قبائل بدوية أو شبه بدوية (كالتركمان والأكراد والعرب) ، كانت حلب ، بنظر المتمردين على الدولة ، تشكل مركزاً له منافع عديدة .

بالرغم من هذه العوائق ، توصلت حلب ، ليس فقط لأن تحافظ على الأهمية التجارية التي كانت حازت عليها في أواخر عهد المماليك ، بل إلى تنمية هذا الازدهار حتى أنها أصبحت في وقت ما سوق الشرق الرئيسية ، بفضل موقعها الجغرافي ما بين البحر المتوسط وشرقي الأناضول وبلاد الفرس . ثم أن المعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية مع فرنسا (١٥٣٥) ، فتحت أبواب حلب للتجار الأوروبيين ، فنشأت فيها قنصليات ووكالات تجارية ومحالّ للبيع ، تولدت بينها منافسات حادة طوال القرن السابع عشر . وكانت

(١ Elisséef , Dimashk, op. cit., II, p. 296

تستورد من أوروبا ، مروراً بمرفأي اسكندرونة وطرابلس ، مواد مصنوعة ، ثم تصدرها من جديد إلى البلدان الآسيوية . وهكذا مكثت حلب في القرون الثلاثة : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، مركزاً تجارياً عالمي الأهمية .

لكن ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أخذت الحركة التجارية في حلب تتدهور بدون توقف ، وبخاصة بعد الأهمية التي أصبحت للطرق التجارية عبر بحار الجنوب ، منذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨) . فهذه الطرق توصلت لأن تستوعب تقريباً جميع التجارة المتبادلة ما بين الهند وأوروبا ، على حساب الطريق البرية عبر سوريا وبلاد الرافدين . وعلاوة على ذلك ، فان اكتشاف اميركا (منذ عام ١٤٩٢) كان قد قضى على قسم كبير من الأهمية التي كان ينعم بها الشرق في سالف الأيام . وأخيراً ، « إن الاحتلال المصري ما بين عام ١٨٣٢ — وعام ١٨٣٩ ، الذي انتزع حلب موقتاً من ادارة العثمانيين ، أثقل كواهل الشعب بسبب الضرائب والتكاليف المالية التي فرضها عليه » (Sauvaget) .

ب — فلسطين (١٥١٦ — ١٨٤٠) :

في فلسطين ، منذ أواخر القرن السادس عشر ، أدت عدة عوامل إلى خراب البلاد ، وأهمها : ضعف الادارة التركية المتزايد ، تغيير الحكام المتواتر ، ومحاولات التحرر التي قام بها بعض الرؤساء المحليين . ولغاية القرن التاسع عشر ، كان التدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي يسير من سيء إلى أسوأ في هذه المنطقة .

الفصل الثامن عشر

في عهد السلطنة العثمانية

(الحقبة الثانية ١٨٤٠ ـ ١٩١٨ م.)

لبنان المجزأ . ثم المصغر . منطقة شبه مستقلة

في تاريخ لبنان تُقسم الحقبة الثانية من السيطرة العثمانية ، ما بين ١٨٤٠ و ١٩١٨ ، إلى فترتين : الأولى ، من ١٨٤٠ إلى ١٨٦١ ، والثانية ، من ١٨٦١ إلى ١٩١٨ .

١ ـ لبنان ، من ١٨٤٠ إلى ١٨٦١ : فوضى ، تجزؤ ، نزاعات داخلية

في هذه الفترة الصغيرة ، التي لا تتجاوز عشرين سنة ، عرف لبنان طوراً من أكثر أطوار تاريخه ظلاماً وأسى : فقد عمته الفوضى والاضطرابات والخلافات الطائفية والحرب الأهلية والثورة الاجتماعية ، فتجزأت أراضيه وقاسى مصائب التدخلات العسكرية الأجنبية الخ .

أ ـ في عهد بشير الثالث الشهابي ، آخر امير حكم الجبل (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢)

« بعد جلاء المصريين (١٨٤٠) ، عاد لبنان ، في عهد بشير الثالث (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) ، إلى الفوضى والاضطرابات . فألحقت المدن الساحلية ، صور وصيدا وبيروت وطرابلس ، مباشرة بالباب العالي ، الذي اختار بيروت، خلفاً لصيدا

وعكا ، مركزاً لباشوية عثمانية ، لمراقبة الجبل بطريقة أفضل . وبهذا اصبحت بيروت المركز الرئيسي للسلطة العثمانية على الساحل اللبناني . « وهذا القرار ثبت رسمياً الاولوية التي حازت عليها هذه المدينة في سوريا المتوسطية ، وذلك بفضل مجاورتها للبنان » (Lammens) .

كان الاحتلال المصري قد غير الوضع الاجتماعي وعقلية مختلف الجماعات الطائفية في البلاد . فكان من نتيجة الظروف الجديدة أن تولّدت ، بعد جلاء المصريين ، تعقيدات داخلية جديدة .

ففي المقاطعات الدرزية ، رفض الفلاحون الموارنة القبول من جديد بمركز أدنى ، بعد أن كانوا ، أيام الحكم المصري ، تحرروا من صفة « الرعايا » المذلّة . ولكونهم كانوا يساوون الدروز بالعدد أو يزيدون عنهم ، ولكونهم أكثر تطوراً منهم ، كانوا يرغبون في لعب دور لا يقل عن دور مواطنيهم الدروز في إدارة البلاد .

لكن زعماء الدروز الاقطاعيين تجاهلوا هذه التغييرات . وللذل الذي عانوه في عهد بشير الثاني ، عزموا على ألا يسلموا من جديد بسلطة آل شهاب . ولأنهم كانوا لا يزالون يعتبرون أنفسهم الطبقة المسيطرة ، طالبوا باستعادة سلطتهم وأراضيهم التي صادرها بشير الثاني . اما الباب العالي ، الذي لم يكن يهتم باعادة الأمن إلى لبنان بقدر ما كان يصبو إلى تثبيت سلطته المباشرة ، فقد ترك هذه الخلافات تتأزم . ومن ثم راح عملاؤه يحوكون الدسائس لاثارة الحرب الأهلية في الجبل .

ومن ناحية أخرى ، كان الانكليز ، الحريصون كل الحرص على الاحتفاظ بطريق الهند تحت مراقبتهم المطلقة ، قد اعتمدوا على اللبنانيين المسيحيين لاقصاء المصريين . وعندما فشلت مساعيهم بعد جلاء ابراهيم باشا واتجه المسيحيون نحو فرنسا ، حاولوا ان يستميلوا الدروز اليهم لكي يوازنوا النفوذ الفرنسي .

وبما أن بشيرا الثالث كان اميراً قليل الذكاء والشعبية ، ضعيفاً ومحاطاً بمستشارين أغبياء ، أعطى أعداء لبنان ، بسبب سوء تصرفاته ، الفرصة للتدخل في شؤون

البلاد الداخلية . وحيث إنه لم يكن يملك عزم سلفه الكبير وهيبته ، فكر باعتماد طريقته الحازمة للحكم . ولما لم يفلح بمحاولته ، فقد جميع رصيده الشعبي .

وكان رد الفعل لدى زعماء الدروز ، الذين كانوا يرغبون في خلع الأمير بالقوة ، أن هاجموا دير القمر ، المدينة المسيحية (١٨٤١) ومقر الأمراء الشهابيين المألوف . و « استغل سليم باشا ، حاكم بيروت ، هذا الظرف ليثير الفتن فيما بين المسيحيين والدروز . فأرسل إلى الفريقين صناديق من البارود والرصاص لكي يشعل نار الفتنة . وقد ابتدأت أزمة عام ١٨٤١ بخلاف سياسي محض ، بل اقطاعي ، ثم تحولت إلى حرب طائفية . فتعصّب العامة وتحمسوا للخلافات القائمة بين الأشخاص أكثر منهم للمبادىء ، ودخلوا ، مع الأسف ، في الصراع ، خالطين بين مصالح الزعماء الاقطاعيين ومصالح الوطن . وهكذا اقتتل المسيحيون والدروز فيما بينهم إشباعاً لهوى الأتراك والاقطاعيين » [١] .

ب – عمر باشا ، ضابط عثماني ، حاكم للجبل (١٨٤٢)

عرف الباب العالي أن يستغل هذه الحال التاعسة ، التي أحدثها بدهاء ، لكي يقنع العواصم الأوروبية بعجز اللبنانيين عن حكم أنفسهم بأنفسهم ، وذلك بغية إخضاع اللبنانيين إلى إدارته المباشرة . فأعلن خلع بشير الثالث (١٨٤٢) وعين حاكماً على الجبل ضابطاً عثمانياً من أصل مجري ، هو عمر باشا ، الذي اعتنق الاسلام ودخل في خدمة السلطان . وبينما رحب الدروز بهذا الحل ، رفضه المسيحيون ، الذين أعلنوا أنهم لا يرضون الا بأمير وطني مسيحي . وبادر عمر باشا ، الذي اتخذ بيت الدين مقراً له ، إلى كسب تأييد رؤساء العائلات الاقطاعية ، من مسيحيين ودروز . لكن الاحتلال المصري ومقاومته

---

١) A. Ismaîl, op. cit., p. 144, 145

كانا قد خلقا عند عامة المسيحيين طموحاً إلى المساواة الديمقراطية ، بات من الصعب القضاء عليه . وشجع الحاكم العثماني الجديد هذه الميول الشعبية ، محرضاً الفلاحين على الأمراء والمشايخ وملاكي الأرض . وحاول هؤلاء من ناحيتهم قهر الفلاحين بالعنف . ثم ان مقاومة الفلاحين المسيحيين لشيوخ الدروز في المنطقة الدرزية ، حيث كان معظم الفلاحين من المسيحيين ، تحولت إلى حرب طائفية ، كان من نتيجتها ان احرقت قرى مسيحية بكاملها ، وامتدت الاضطرابات إلى جميع أنحاء الجبل .

وفي محاولة لاستغلال هذه الاضطرابات ، طلب عمر باشا من الدروز أن يشنوا حملة على موارنة كسروان ، وأوقف كثيرين من الزعماء الدروز لكونهم لم يذعنوا لرغبته . ولكن أشياعهم ، الذين رفعوا علم الثورة ، استنجدو بأبناء طائفتهم في حوران (سوريا) وطالبوا بخلع عمر باشا وبإرجاع الشهابيين إلى الحكم في بيت الدين .

ج – تقسيم الجبل إلى قائمقاميتين منفصلتين (١٨٤٢)

خوفاً من التقارب بين المسيحيين والدروز ، وعلى أثر احتجاج ممثلي الدول الاوروبية ، استدعى الباب العالي عمر باشا من لبنان (١٨٤٢) . ونجح مرة أخرى بحل القضية اللبنانية لصالحه ، اذ عمل على تقسيم البلاد إلى قائمقاميتين متميزتين ، الأولى مسيحية ، إلى شمال طريق بيروت – دمشق ، والأخرى درزية ، إلى جنوب هذه الطريق . وتولى الحكم على هاتين القائمقاميتين لبنانيان ، الأول ، ماروني في الشمال ، يخضع لباشا طرابلس العثماني ، والآخر ، درزي في الجنوب ، ويخضع لباشا صيدا (١٨٤٢) .

ولأسباب مختلفة ، وحتى متعارضة ، قبلت الدول الأوروبية الكبرى بتقسيم البلاد ما بين مسيحيين ودروز . أما العثمانيون ، فكانوا يرون في هذا العمل « الحرب الأهلية المنظمة . وفي الواقع ، زاد هذا التقسيم المشكلة تعقيداً ، لأن كلاً من القائمقاميتين كانت تضم مناطق آهلة بالمسيحيين وبالدروز معاً ،

ما لبثوا ان دار القتال بينهم .

« كانت الخلافات الشديدة القائمة ما بين الزعماء الاقطاعيين والقناصل والباشوات العثمانيين تغذي بتكتم هذه الاضطرابات . وما أكثر المصالح والتأثيرات التي كان لها علاقة بالموضوع ! وكانت العامة متأثرة بهذه الدسائس ، التي ايقظت التعصب الطائفي في قلوب المؤمنين وأظهرت للفريقين بأن ايمانهما في خطر . في حين ان الخلاف لم يكن ، في الواقع ، الا على مصالح شخصية تعود إلى امتيازات القائمقامين والاقطاعيين وصلاحياتهم ... وكانت الجماهير الأمية والمحرضة على التعصب تخلط بين مصالح الاقطاعيين ومصالح الأمة . فاندلعت نيران الأهواء وتحول هذا الخلاف السياسي – الاجتماعي إلى حرب دينية . وفي الثاني من أيار عام ١٨٤٥ ، اجتاح الجبل المنكود الحظ قتال أخوي دام ، ارتاح له العثمانيون والقناصل » [١] . وفي قائمقامية الجنوب ، دمّر الدروز عدداً كبيراً من القرى المسيحية .

واستجابة لطلب الدول الأوروبية ، أدخل الباب العالي تعديلاً على نظام القائمقاميتين . فأنشأ إلى جانب كل قائمقام مجلساً استشارياً منتخباً ، تتمثل فيه جميع الطوائف المحلية تمثيلاً عادلاً . وحُدّدت مهام القائمقامين والمجالس الادارية والقضائية ، كما حددت شروط الضرائب وكيفية توزيعها وجبايتها (١٨٤٥) .

وبينما ارتضى الشعب اللبناني المنكوب بهذا النظام ، كشر لا بد منه ، استقبله باستياء الزعماء الاقطاعيون ، لأنه حد من امتيازاتهم واستبدادهم وأصبح وسيلة جديدة لحرب أهلية . فاشتعلت الاحقاد الكامنة بين الدروز والموارنة في القائمقامية الدرزية ، وبين العامة والمشايخ المسيحيين في القائمقامية المارونية ، واثارت فوضى وهيجانا مفجعين .

وفي قائمقامية الشوف الدرزية وفي المناطق المختلفة ، التف الفلاحون المسيحيون حول زعماء جدد يدعون « شيخ الشباب » ، وهم من عامة الشعب ولا

---

١) A. Ismaîl, op. cit., p. 153

ينتمون للاقطاعيين ، وطالبوا بإصلاح زراعي كان من شأنه أن يحسن أوضاع معيشتهم . لكن معارضة الأسياد الأقطاعيين العنيدة دفعت الفلاحين إلى الثورة . ثم أخذ الفلاحون الدروز بدورهم يتحركون .

كان تحرك الشعب في القائمقامية المارونية أشد عنفاً . ففي كسروان والمتن ، هجم المزارعون الموارنة على المشايخ الموارنة ، الذين رفضوا التسليم لقيادة زعيم من الشعب يدعى طانيوس شاهين ، وكان بيطاراً من المنطقة . وبعد أن جُرِّد المشايخ بعنف من أملاكهم ، لم يروا سبيلاً إلى انقاذ حياتهم الا بلجوئهم إلى بيروت .

هذه الحركة الثورية أكملت نسف النظام الاقطاعي القديم ، الذي كان في الماضي ركيزة لبنان المسيحي . ولعدم وجود نظام جديد يحل محله ، عمّت الفوضى في القائمقامية المسيحية . أما في القائمقامية الدرزية ، حيث احتفظ الشعب بإطاراته التقليدية ، فظل الفلاحون يلتفون حول العائلات الاقطاعية الكبيرة .

د ـ فاجعة سنة ١٨٦٠ : المجازر والنهب والحرائق

لكي يزيد الوضع تأزماً ، ومن أجل اظهار ان اللبنانيين غير مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم ، وللتدليل على أن الحكم الذاتي لم يولِدّ ، منذ عام ١٨٤٠ ، سوى الخصومات والاضطرابات ، راح خورشيد باشا ، والي بيروت العثماني ، يثير غضب الفلاحين بطريقة غير مباشرة ، بينما يشجع الاقطاعيين على عدم التخلي عن امتيازاتهم . وساند القناصل الأجانب المقيمون في بيروت بدورهم عملاءهم من مسيحيين ودروز ، ومعظمهم كانوا من الزعماء الاقطاعيين . ثم ان احتداد التعصب ، الذي اعمى بصائر العامة ، حول النزاع السياسي والاجتماعي إلى حرب دينية .

إن النزاعات المستمرّة منذ عام ١٨٤٥ ، بين الدروز والمسيحيين ، انتهت ،

عام ١٨٦٠ ، بحرب أهلية ابتدأ فيها الدروز ، وهم أحسن تنظيماً وتسليحاً ، بهجومهم الكبير على المسيحيين المنقسمين ، الذين كانوا بلا تنظيم ولا رؤساء منذ حركة الثورة التي قضت على نفوذ المشايخ الاقطاعيين .

ابتدأ الهجوم في قرية بيت مري المختلطة ، في المتن ، ثم امتد إلى لبنان الوسطي . وفي حاصبيا وفي راشيا ، نزع القادة الأتراك الأسلحة من المسيحيين الذين لجأوا إلى السرايا وسلّموهم إلى مهاجميهم الدروز ، خاصةً القادمين من حوران ، في سوريا . وقد نُهبت مدينتا زحلة ودير القمر المسيحيتان وأحرقتا ، وجُرِّد من السلاح قسم من الأهلين الذين احتموا بالثكنة العسكرية ثم سلُمّوا إلى الجلاّدين .

ومن لبنان ، انتقلت النقمة على المسيحيين إلى دمشق ، حيث كانت تحاك دسائسها منذ أيام الاحتلال المصري ، الذي كان حرر ، نوعاً ما ، المسيحيين من صفة رعايا ذات رتبة ادنى . وبفعل الهياج الذي ولّدته الأنباء الآتية من لبنان ، هجم جمع هائج على الحي المسيحي ، حيث تتابع القتل والنهب والحرق طوال ثلاثة أيام ، تحت أنظار أحمد باشا ، الوالي التركي غير المبالي . وقد انضم إلى المهاجمين الحرس التركي ورجال الشرطة . وبالعكس نجح الأمير عبد القادر الجزائري ، الذي كان لجأ إلى دمشق بعد احتلال فرنسا للجزائر ، بإنقاذ حياة أكثر من ١٥٠٠ مسيحي من الموت .

بلغ عدد ضحايا هذه المجازر التي أوقفها الإنهاك ، ما يقارب ١٢٠٠٠ نسمة في لبنان ، واقل من ذلك بقليل في دمشق .

هـ ـ تدخل فرنسا العسكري (١٨٦٠ ـ ١٨٦١)

تحرك شعور دول اوروبا لهذه الفظائع ، فأرسلت بوارج حربية إلى مرفأ بيروت ، ونزل إلى البر فيلق فرنسي من ستة آلاف جندي ، « ليساعد السلطان على اعادة السلام » (١٨٦٠) .

لكن الباب العالي ، لكي يعارض تصرف فرنسا ويحول دون تحوّل تدخّلها العسكري الى احتلال للبنان وسوريا ، أرسل إلى بيروت فؤاد باشا ، وزير الشؤون الخارجية العثماني ، مزوّداً بكامل السلطات . وما أن وصل هذا إلى دمشق ، حتّى صدرت ونفذت أحكام وجيزة وسريعة بإعدام مئة وستين شخصاً اعتبروا مذنبين ، ومن ضمنهم الوالي التركي نفسه (١٨٦٠) .

« اما معظم الزعماء الدروز ، المسؤولين عن تلك المجازر ، فتمكنوا من القرار إلى حوران (سوريا) ، بمؤازرة السلطات العثمانية والقنصلية البريطانية في بيروت . ولم يبق منهم في لبنان الا الأبرياء والقليلو الخطر ... وحكمت المحاكم الخاصة ، التي اقيمت في بيروت وفي الجبل ، بالاعدام على بعض الزعماء الدروز .

لكن السلطان ، نزولاً عند رغبة انكلترا ، بدّل هذا العقاب بالنفي الدائم . ثم حُكم على ٢٤٥ شخصاً آخرين بالسجن مع الأشغال الشاقة وارسلوا الى طرابلس ، في ليبيا . فأوصى بهم اللورد دوفرّين باشا المدينة ، « لكي يخفف عقابهم ما أمكن » . وحُكم بالسجن على خورشيد باشا ، والي بيروت ، وعلى غيره من الضباط العثمانيين »[1] .

وفي الخامس من تشرين الأول عام ١٨٦٠ ، تألفت لجنة دولية تضم ممثلي الدول الأوروبية الكبرى الخمس : فرنسا ، انكلترا ، روسيا ، النمسا ، وبروسيا ، برئاسة ممثل السلطان . وكانت مهمتها أن تحقق في الحوادث وتعمل على الحؤول دون تجددها ، وتقترح نظاماً أساسياً جديداً للبنان . وتلبية لطلب هذه الدول نفسها ، التي اعتبرت أن الاحتلال الفرنسي بات بدون مبرر ، أبحرت الجيوش الفرنسية راجعة إلى بلادها في الثامن من حزيران ١٨٦١ .

١) A. Ismail, **op. cit.**, p. 159, 160

٢ – جبل لبنان ، منطقة شبه مستقلة (١٨٦١ – ١٩١٤)

أ – النظام الاساسي الصادر عام ١٨٦١

توصلت اللجنة الدولية عقب اجتماعها في بيروت ، ثم في القسطنطينية ، الى اتفاق تم تصديقه ببروتوكول التاسع من حزيران عام ١٨٦١ ، وهو يقضي بإنشاء حكم أو نظام أساسي للبنان . وعلى سبيل التجربة ، طبق هذا النظام ، الذي يعيد تنظيم إدارة الجبل ، طوال ثلاث سنوات ، ثم جرى تعديله جزئياً عام ١٨٦٤ .

وبموجب هذا النظام ، فقد لبنان نصف أراضيه ، اي وادي التيم والبقاع ، وأقاليم صور وصيدا ولبنان الجنوبي ، وطرابلس وعكار ، ومدينة بيروت ، حيث ضمت هذه جميعاً إلى الولايات العثمانية المجاورة . فتحولت امارة المعنيين والشهابيين القديمة ، التي راحت تدعى منذئذ متصرفية« جبل لبنان » ، الى منطقة شبه مستقلة يحكمها حاكم (متصرف) مسيحي . « وضمن هذه الحدود الضيقة ، التي اقيمت لتخنق كل نزعة إلى الاستقلال وكل نمو اقتصادي ، لم تكن المتصرفية الجديدة تشمل حتّى لبنان الجغرافي »[1] .

وهذا النظام الأساسي الجديد اعطى لبنان المصغّر استقلالاً ادارياً وقضائياً ومالياً تاماً تقريباً ، برئاسة حاكم او متصرف مسيحي كان يتم اختياره ، لمدة معينة ، من بين رعايا الدولة العثمانية غير اللبنانيين . واذ كان السلطان يعينه بموافقة الدول الأوروبية ، كان هذا الحاكم ، ورتبته « مشير » ، يرتبط مباشرة بالباب العالي ، جامعاً في شخصه جميع صلاحيات السلطة التنفيذية . وكان يساعده مجلس استشاري يدعى « مجلس الادارة » ، الذي كان يمثل جميع الطوائف في البلاد . وللمحافظة على النظام العام ، أنشىء فيلق من الدرك اللبناني ، بادارة مدربين فرنسيين .

١) Lammens, **op. cit.**, II, p. 188

ب — داود باشا ، حاكم جبل لبنان (١٨٦١ –١٨٦٨)

تعديل النظام الاساسي (١٨٦٤)

في التاسع من حزيران عام ١٨٦١ ، عيّن السلطان ، بموافقة ممثلي الدول الأوروبية ، داود باشا ، وهو من الأرمن الكاثوليك ، حاكماً على « جبل لبنان » ، لمدة ثلاث سنوات ، وهي المدة المحددة لاختبار تطبيق بروتوكول سنة ١٨٦١ . وعند انقضاء هذه السنوات الثلاث ، أعلن الباب العالي والدول الأوروبية نظاماً جديداً مؤلفاً من ثماني عشرة مادة ، كنظام نهائي لجبل لبنان (١٨٦٤) . ومددوا انتداب الحاكم داود باشا خمس سنوات اخرى .

استقبل اللبنانيون استقبالاً سيئاً نظام عام ١٨٦٤ الذي أقر اقتطاع اراضٍ من لبنان ، كما أقر تعيين حاكم أجنبي عليهم . فرفض الزعيم الماروني الشاب يوسف كرم ، شيخ بلدة اهدن ، في لبنان الشمالي ، الاعتراف بالنظام الجديد ، ورفع علم الثورة (١٨٦٦) . وبعد انتصارات لامعة أحرزها ضد الجيش العثماني والقوى اللبنانية التابعة للحكومة الجديدة (١٨٦٦) ، وتحت ضغط السلطات العثمانية والقنصليات الاوروبية في بيروت ، سلّم كرم نفسه للافرنسيين وأبعد من لبنان . كما ان قائد رجاله [1] أبعد إلى القسطنطينية . وكان يوسف كرم قد شغل ، عام ١٨٦٠ ، منصب قائمقام المسيحيين ، فأظهر فيه الكثير من الحزم .

كان داود باشا ادارياً بارزاً ، فخص لبنان بادارة منتظمة وأصلح المحاكم واعاد تنظيم السجلات العقارية . « وعمل ما في وسعه لازدهار لبنان والقضاء على شذوذات النظام الاساسي . كما طالب باعادة البقاع ومرافىء بيروت وصيدا وطرابلس إلى لبنان . لكن هذه السياسة ايقظت حذر دولة القسطنطينية ، التي رأت فيها مرحلة نحو استقلال لبنان ، فرفضت طلب داود باشا . فقدم

١) هو أسعد بولس مكاري ، جد واضع هذا الكتاب .

هذا استقالته (١٨٦٨) قبل سنة واحدة من انتهاء مدة ولايته » [1] .

ج — السلام والازدهار ، وازدياد عدد المهاجرين إلى بلدان ما وراء البحار

بالرغم من النقصان الذي اتصف به النظام الاساسي لسنة ١٨٦٤ ، كان يمثل دستور الاستقلال اللبناني ، ويحفظ لمختلف الطوائف اللبنانية حقوقها وحرياتها ومعتقداتها الخاصة ، ويسمح لها ، كما في العهود العادية السابقة ، بالتعايش السلمي وبالتعاون على النضال في سبيل البقاء وبالتضامن عند اللزوم ، لحماية البلاد التي تعتبر وطناً مشتركاً .

ومع الاسف ، لم يكن للبلدان المجاورة ، كسوريا وفلسطين ، الخ.، نظام أساسي مماثل لنظام عام ١٨٦٤ اللبناني . فظلت خاضعة لسلطة الباشوات العثمانيين ، الذين كانت تسيرهم الاهواء والنزوات . فبعد ١٨٦٨ ، كما قبلها ، لم يكن يوجد ، في سوريا وفي فلسطين العثمانيتين ، « أي عدل في توزيع الضرائب وجبايتها ، ولا اية حرية مدنية او سياسية ... وظل المسلمون يعتبرون أنفسهم الطبقة الحاكمة والمسيطرة ، بينما يعتبرون المسيحيين رعايا (اي مواطنين دونهم شأناً) . ولم يكن هناك اي اختلاط فيما بين الفريقين » [2] .

وظل نظام عام ١٨٦٤ الاساسي ساري المفعول في لبنان لغاية اوائل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) ، اي زهاء نصف قرن ، عرف لبنان خلاله ، بفضل نشاط سكانه ومبادراتهم ، عهداً امتاز بسلام وازدهار لم يكن ليعرفه منذ عدة اجيال مضت .

كان اللبنانيون يعيشون على أرض تضيق بهم ، لكونها تقتصر على جبل يكاد يكون مجدباً . واذ كانوا يزدادون عدداً وتقدماً ورفاهية باستمرار ، راحوا يبحثون في الغربة عن منافذ لتوسعهم الاقتصادي والبشري . فانصبت موجة من

١) A. Ismaîl, **op. cit.**, p. 165, 166

٢) Driault, **La Question d'Orient**, p. 451

المهاجرين في مصر والاميركتين وافريقيا الغربية واوستراليا ، حيث نشأت جاليات لبنانية غنية وذات نفوذ . وبقيت هذه الجاليات متعلقة بأرض الوطن . وتمكنت نخبة كبيرة منها من اعتلاء مناصب رفيعة في مختلف حقول النشاط الاجتماعي في البلدان التي استقبلتها . ولم تزل الجاليات اللبنانية في الخارج ، الى يومنا هذا ، وبخاصة في الاميركتين حيث يفوق عددها المليونين ، تشكل للبنان قوة معنوية ومادية رفيعة .

وحوالي عام ١٨٨٧ ، وبسبب النمو الذي وصلت اليه دمشق ، « ولتطورات بيروت المتزايدة ، حيث اصبحت المرفأ الأول وعاصمة سوريا الاقتصادية ، قرر الباب العالي ، عام ١٨٨٨ ، جعل بيروت مركز ولاية » . « وجعل التقدم ونشاط الصحافة والطباعة من بيروت مركزاً للمكتبة العربية ، بتأثير — المسيحيين » [1] .

« وهكذا وجد لبنان نفسه مهيأ ليعيش حياته القومية عندما حررت المعاهدات الدولية ، من الوصاية التركية بعد انتهاء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، جميع البلدان التي كانت تنعم باستقلال ذاتي صحيح » [2] .

د — لبنان خلال حرب ١٩١٤ — ١٩١٨

منذ بداية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، الغى العثمانيون ، بعد انحيازهم إلى جانب المانيا ، الاستقلال اللبناني الذي كانت ضمنته الاتفاقات الدولية الموقعة عامي ١٨٦١ و ١٨٦٤ . فاحتلوا لبنان عسكرياً وعين الباب العالي حاكماً تركيا على لبنان (١٩١٥) ، بدون موافقة حتّى حلفائه الالمان والنمساويين ، الذين كانوا بين من ضمن هذا الاستقلال .

ورغبة من الاتراك في تحطيم القوميات الاقليمية بالارهاب ، انشأوا ، في لبنان

١) Banse, cité par Lammens, **op. cit.**, II, p. 192

٢) Dunand, **Byblos**, p. 42.

وفي سوريا، محاكم عسكرية حكمت بشنق عدد من الزعماء اللبنانيين والسوريين. ومنذ السنة الثانية للحرب ، أحدث الضيق الذي نتج عن اهمال السلطات العثمانية من ناحية ، وعن الحصار البحري الذي ضربه الحلفاء الفرنسيون والانكليز من ناحية اخرى ، مجاعة مُريعة ذهبت بسكان مناطق بكاملها . وقضى انهزام الاتراك ، عام ١٩١٨ ، على الدولة العثمانية . فوضع الحلفا المنتصرون يدهم على أراضيها الشاسعة ، وقسموها بين عدة دول .

٣ — سوريا وفلسطين العثمانيتان ، من ١٨٦٠ إلى ١٩١٨

أ — سوريا (١٨٦٠ — ١٩١٨)

في دمشق :

منذ ١٨٦٠ ، بدأ التأثير الاوروبي يبدو في الحقلين الثقافي والاقتصادي ... (لكن) المركز الحقيقي للنشاط الفكري آنذاك ، كان القاهرة . فصحيفتاها : « المقتطف » و « المقطم » ، كانتا منتشرتين في دمشق . ولم تظهر الصحيفة العربية الاولى في دمشق واسمها « الشام » ، الا عام ١٨٩٧ . ثم تدريجياً ، اصبحت العاصمة السورية مركزاً من مراكز القومية العربية . واظهرت فيها الخلايا الثورية السرية ، كما في جميع المدن السورية الاخرى ، نشاطاً قوياً في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . فكانت ، بين وقت وآخر ، تحرض السكان على العصيان » ...

« وفي الفترة ذاتها ، اصبحت العلاقات الخارجية أكثر سهولة ... فمنذ عام١٨٦٣ ، تمكن(الاجانب)من المجيء من بيروت إلى دمشق في عربة جياد (Diligence) ، على الطريق التي انتهت من بنائها مؤخراً مؤسسة فرنسية . ثم تحقق تقدم آخر ، عام ١٨٩٤ ، عندما دشنت سكة الحديد التي انشأتها شركة فرنسية أيضاً ، بين بيروت ودمشق وحوران . وبعد ذلك مكّن الخط المتفرع من رياق باتجاه الشمال من الوصول إلى حمص وحماه ... وفي عام

١٩٠٨ ، دشنت سكة حديد الحجاز ، ذات الخط الضيق ، (وقد انشأتها مؤسسة المانية لتسهيل الحج الى مكة) ، مما مكّن من الوصول إلى المدينة المقدسة خلال خمسة ايام ، عوضاً من اربعين يوماً عن طريق القوافل » [1] .

في حلب :

« خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبفعل تأثير اوروبا ، حدثت تغييرات جذرية في الحياة الاجتماعية (مدارس ، جرائد) ، والادارية (القانون) والاقتصادية (ادخال البندوره ، والنفط ، والآلات) . فصممت احياء جديدة وشيدت على الطراز الغربي ، خارج المدينة القديمة ... وما ان اتصلت حلب ، بواسطة سكة الحديد ، بحماه وبدمشق (١٩٠٦) ، ثم باسطنبول وببغداد (١٩١٢) ، حتى كسبت هذه الاحياء الحديثة العهد ازدهاراً جديداً بفضل قرب المحطات منها » [2] .

ب – فلسطين (١٨٦٠ – ١٩١٨)

رأينا سابقاً ان فلسطين لم تزدد الا تدهوراً منذ الاحتلال العثماني (١٥١٦) .
« ومنذ القرن الثامن عشر ، اخذ توغل اوروبا الاقتصادي يزداد في فلسطين ، كما في غيرها من بلدان الشرق الادنى العربي ... في القرن التاسع عشر ، اسهمت ارساليات مسيحية ، كاثوليكية وبروتستانتية ، برفع المستوى العام للتعليم ، في فلسطين كما في لبنان ، فيما اخذ التجديد التقني العصري في الانتشار ، بفضل مساعدة الاوروبيين » ...

« وطوال مدة السيطرة العثمانية ، استقر في فلسطين عدد من المهاجرين اليهود ...

---

١) Elisséef , **Dimashk, op. cit.**, II, p. 296, 297
٢) Sauvaget, **Halab, op. cit.**, III, p. 91

وفي اواخر القرن التاسع عشر ، ابتدأ نوع جديد من الهجرة بعد تأسيس اولى المستعمرات الصهيونية الزراعية ، حوالي سنة ١٨٨٠ ... وقد وجدت هذه الهجرة عقيدتها في الصهيونية ، التي ابتدأت رسمياً عام ١٨٩٧ ، ... ثم ازدادت في اوائل القرن العشرين ، حتى انتقل عدد اليهود الذين استقروا في فلسطين من ٢٥٠٠٠ عام ١٨٨٠ إلى ٨٠٠٠٠ عام ١٩١٤ » [1] .

٤ – الحياة الفكرية في لبنان وفي الشرق العربي في العهد العثماني (١٥١٦ – ١٩١٨)

أ – لغاية آخر القرن الثامن عشر

ان الغزوات والسيطرات الاجنبية التي تعاقبت ، منذ القرن الحادي عشر ، على الشرق المتوسطي ، قضت على الازدهار الاقتصادي والثقافة والحضارة في هذا الشرق ، الذي انشأ وطوّر الحضارات الاولى في التاريخ . فبعد ان حمل الشرق ، في عهد الخلفاء الاولين ، مشعل الحضارة زهاء اربعة او خمسة قرون ، وبعد ان نقل الى الغرب ، عن طريق اسبانيا الاسلامية ، بذور النهضة الثقافية ، اخذت تنتابه ، منذ القرن الثاني عشر ، اعراض الانحطاط .

وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فترت الحركة الادبية ، وفي القرن الخامس عشر ، كان الادباء العرب يكتفون بدرس مؤلفات الاقدمين . ومن القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر ، « لم يعد الادب العربي ممثلاً الا بشروح الشروح لتفسيرات دينية اقدم منها ، او ببعض الاخبار التاريخية الخالية من النقد ومن جمال الاسلوب » .

وخلال هذا السقوط التدريجي نحو هاوية التدهور ، وفي هذه القرون الوسطى

---

١) Sourdel, **op. cit.**, II, p. 934

المظلمة التي جثمت فوق الشرق الاسلامي ، ظل لبنان ، الذي تجمّع في جباله ، ينعم بحياة من الحرية والطمأنينة والازدهار النسبي ، انعشت فيه الحياة الفكرية . فتحولت القرى الى تجمعات بشرية كبيرة ، ولم يتوقف عدد المدارس والاديرة والكنائس عن الازدياد . وقد اسهمت الارساليات الاوروبية ، من قبل كنيسة روما ، في تقدم الافكار .

في القرن السادس عشر ، تأسست في روما مدارس للموارنة . وفي لبنان بالذات ، انشئت مدارس اكليريكية لاعداد اكليروس مثقف وفتحت مدارس . أشهرها مدرسة عينطورة الفرنسية ، التي أسسها اليسوعيون عام ١٧٢٨ . ومنذ عام ١٦٩٦ ، تأسست مدارس كان الرهبان الموارنة يعلمون فيها ، في اهدن – زغرتا ، اللويزة ، طاميش ، رشميا ، بشري ، بكفيا ، بيت شباب ، تنورين ، بسكنتا ، وادي شحرور ، قرطبا ، بان ، المتين ، الخ .

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اخذ المسيحيون في لبنان يتلقنون العلوم العربية ، بعد ان تخلوا عن لغتهم القومية القديمة ، وهي الآرامية السريانية ، التي استمرت حتى القرن الثامن عشر في القرى المسيحية من لبنان الشمالي . وحوالي عام ١٦٠٠ ، انشئت مطبعة ، مشتراة من اوروبا ، في دير مار انطونيوس قزحيا الماروني ، في لبنان الشمالي ، حيث كانت تطبع مؤلفات سريانية وعربية . وبعد قرن من هذا التاريخ ، تأسست مطبعتان ، الاولى في حلب والثانية في دير الشوير ، من اعمال لبنان الوسطي . وفي مصر ، ان اولى المطابع العربية جاءت مع حملة بونابرت الفرنسية ، عام ١٧٩٨ .

ب – في القرن التاسع عشر

في القرن التاسع عشر ، دفعت نتاجات المفكرين اللبنانيين ومؤلفاتهم كثيرين من الشبان إلى الاقبال على حركة النهضة الفكرية ، هذه الحركة التي كانت اساس النهضة العربية الحديثة .

« بدافع من الارساليات الاجنبية : اليسوعيين واللعازاريين والاخوة المريميين والمرسلين الاميركان والانكليز . انشئت مدارس في كل مكان . في المدن الساحلية وفي الجبل . وكان للرهبانيات اللبنانية ولبعض العلماء المسلمين دور فعال في ذلك » [1] . وانشئت في بيروت جمعيات أدبية . اشترك فيها ادباء لبنانيون مشهورون . تثقفوا على ايدي المرسلين الاميركان والفرنسيين . ومن خلال القضايا الادبية والعلمية ، كانت هذه الجمعيات المختلفة ، التي كانت تتمثل فيها الطوائف الدينية بمفكريها ، تهتم سرّاً بقضايا سياسية .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، دأبت الشبيبة المسيحية على درس لغة القرآن المقدسة والآداب العربية . فبرزت في هذا الحقل اسماء مشهورة . وعدد آخر من اللبنانيين الذين هاجروا إلى مصر انشأوا الصحافة المصرية الحديثة ، باعثة ومرشدة جميع الصحافة المستقبلة في الشرق الادنى .

اما الذين بذروا فكرة القومية العربية ، فكانوا ، بنوع خاص ، المفكرين المسيحيين في لبنان وسوريا ، الذين تدرّبوا في مدارس الغرب . وهذه الفكرة مستمدة من مبدأ القوميات المؤسسة على وحدة اللغة . وكان هذا المبدأ كثير الانتشار في اوروبا في ذلك الوقت .

« **التعليم** – ...

... كانت بيروت مركز هذه الحركة ، بجامعتيها : الاميركية (التي انشئت عام ١٨٦٦) واليسوعية (التي انشئت عام ١٨٧٥) ، ثم بمدارسها الثانوية ، كمدرسة الاقمار الثلاثة (١٨٥٢) ، والمدرسة الوطنية لبطرس البستاني (١٨٦٣) ، والكلية البطريركية (١٨٦٥) ، ومدرسة الحكمة (١٨٧٢) ، ومدرسة المقاصد (١٨٨٠) ، وكلية الشيخ احمد عباس (١٨٩٧) . ولم نذكر هنا الا أشهر هذه المؤسسات » .

« أسهمت مراكز التعليم هذه في تكوين جماعة من المفكرين اللبنانيين ، الذين

١) A. Ismaîl, op. cit., p. 168

اعطوا اندفاعاً عظيماً لنهضة الآداب العربية ، بعد السبات والاهمال اللذين اعترياها خلال الاحتلال العثماني ... وقد نشأت حركة أدبية (عربية) لا تقل أهمية في اميركا وفي مصر ، بنشاط مهاجرين لبنانيين بارزين » ... .

« الطباعة والصحافة

ان تقدم التعليم وتكوين نخبة من المفكرين احدثا في لبنان حركة واسعة في الطباعة والصحافة . فكانت المطابع ، التي تتزايد عدداً يوماً بعد يوم في لبنان ، اهم مطابع الشرق الادنى . وأكثر هذه المطابع اتقاناً كانت المطبعة الكاثوليكية ، التي أنشأها اليسوعيون عام ١٨٤٨ . ولم تقل الصحافة نشاطاً عن الطباعة . فكانت الجرائد اليومية والمجلات السياسية والأدبية والعلمية تطبع في بيروت وفي الجبل ... لكن الرقابة التركية كانت حجر عثرة بوجه تقدم الصحافة هذا ... ولذلك آثر بعض اللبنانيين الرحيل إلى مصر ، حيث أسسوا حركة صحافية كانت أساس نهضة الصحافة الحالية في وادي النيل » .

« نهضة القومية العربية

هذا النشاط الأدبي والصحافي ، أبرز الشخصية العربية من ناحية اللغة والعرق والثقافة ، بتناقضها مع الشخصية التركية الطورانية ، التي كانت ثمرة حضارة لا تمت بصلة إلى حضارة الأمويين أو العباسيين . فاستبداد السلطان عبد الحميد ، والسياسة العنصرية الطورانية لحزب « الاتحاد والترقي » ... دفعا القوميين العرب ، من مسلمين ومسيحيين ، إلى جمع شملهم ، فانتظموا في أحزاب سرية ، قام أهمها في بيروت وفي دمشق ، وحتى في القسطنطينية »[1]

وكما أن فينيقيا ، بعد ١٢٠٠ ق. م. ، نقلت للعالم الاغريقي — الايجي ،

(١) A. Ismaîl, **op. cit.**, p. 168-197.

البربري آنذاك ، الأبجدية والثقافة الشرقية ، اللتين ساعدتا الحضارة الهلينية على ولادتها وعلى ازدهارها ، كذلك لبنان ، في القرن التاسع عشر للميلاد ، استعاد دوره القديم ، لكن باتجاه معاكس ، اذ نقل الى الشرق المتوسطي ، الذي كان سقط من جديد في الظلام ، العلم والثقافة اللذين نهلهما من العالم الغربي .

الفصل التاسع عشر

الزمن المعاصر (١٩١٨ – ١٩٤٦ م.)

١ – لبنان من ١٩١٨ إلى ١٩٤٦

الانتداب الفرنسي ، ثم الاستقلال

في عام ١٩١٨ ، تحرر لبنان من وصاية السلطنة العثمانية ، التي قضى عليها انتصار الحلفاء ، فاستعاد حدوده الطبيعية والتاريخية ، مع بيروت كعاصمة له . وفي عام ١٩٢٠ ، أعلن لبنان رسمياً دولة مستقلة باسم لبنان الكبير ، تحت وصاية فرنسا ، التي عيّنتها عصبة الأمم كدولة منتدبة على لبنان وسوريا (١٩٢٠) . وهذا الاعلان « أعاد بصيغة رسمية البناء السياسي الذي باشر به بنو بحتر ، واستأنفه فخر الدين والأمراء اللبنانيون : المعنيون والشهابيون » (Lammens) . وفي سنة ١٩٢٦ ، تحولت دولة لبنان الكبير إلى جمهورية تنعم بدستور ديمقراطي برلماني ، في ظل الانتداب الفرنسي .

وخلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ، نعم لبنان ، الذي بقي مفتوحاً على البحر ، بازدهار اقتصادي كبير . وسنة ١٩٤١ ، أعلنت حكومة فرنسا الحرّة استقلاله واعترفت به الدول الكبرى . وسنة ١٩٤٥ ، حصل لبنان على مقعد في هيئة الأمم المتحدة . وهو أحد الأعضاء المؤسسين لجامعة الدول

العربية . وسنة ١٩٤٦ ، تم جلاء قوات الاحتلال الأجنبية (الفرنسية والبريطانية) عن الأراضي اللبنانية .

وكما في سابق عهده ، القريب والبعيد ، لا يزال لبنان ، في أيامنا هذه ، يلعب دوراً متفوقاً في الحياة الفكرية في الشرق الأدنى . ولا تزال بيروت ، عاصمة لبنان السياسية والاقتصادية ، مركزاً نشيطاً في الحقل الثقافي العربي . وعلاوة على جامعاتها ومؤسساتها التعليمية وصحافتها ومعاهدها ومجامعها وجمعياتها الثقافية والعلمية والفنية ودور النشر فيها ومطابعها الحديثة ، الخ ، فبيروت هي أيضاً ، مركز إشعاع للثقافة ، حيث يكتب فيها وينشر ، بجميع اللغات ، أدباء وشعراء ومفكرون وفلاسفة ومؤرخون وعلماء .

وكما في الماضي أيضاً ، فان لبنان ، ولغته الوطنية هي العربية ، منفتح كل الانفتاح على جميع الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الغربية منها . وحياته الثقافية تقتبس من الغرب الكثير من عناصره ، لكنها مع هذا تحافظ على طابعها الخاص وعلى أصالتها العريقة . فاللغات الأجنبية إنما هي لغات ثقافة ووسائل لا غنى عنها للتطور والتقدم . فموقع لبنان ورسالته في الشرق الأدنى حملا دائماً اللبنانيين ، عبر تاريخهم الطويل ، على التكلم ، وحتى على التثقف ، بعدة لغات أجنبية . ولنتذكر أن فروض التلاميذ التي وجدت في أنقاض مدرسة في جبيل ، حوالي سنة ٢٣٠٠ ق . م . ، كانت مكتوبة باللغة الأم اي الفينيقية، وباللغة البابلية ، كما كانت اللغة المصرية تعلّم هناك أيضاً .

فالماضي يفسر الحاضر ويوضح المستقبل .

٢ – سوريا وفلسطين ، من ١٩١٨ إلى ١٩٤٦

أ – سوريا (١٩١٨ – ١٩٤٦)

على أثر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ، التي أدت الى تمزّق الامبراطورية العثمانية ، انعقد في دمشق مؤتمر قومي ، في آذار ١٩٢٠ ، أعلن

استقلال سوريا وانتخب الأمير فيصل ، بن الحسين ، عاهل الحجاز ، ملكاً عليها . وفي نيسان ١٩٢٠ ، وضعت معاهدة سان ريمو ، باسم عصبة الأمم ، سوريا تحت الانتداب الفرنسي . وفي السنة ذاتها ، دخلت القوات الفرنسية دمشق ، بعد معركة في ميسلون ، فغادر الملك فيصل البلاد وابتدأ الانتداب الفرنسي (١٩٢٠) .

وأول عمل باشرت به فرنسا ، سنة ١٩٢٠ ، لتنظيم انتدابها ، كان إنشاء دولتين في مقاطعتي دمشق وحلب ، اللتين كانتا تؤلفان في عهد العثمانيين ولايتين منفصلتين، ثم جمعتا، سنة ١٩٢٢ ، في اتحاد سوري. وسنة ١٩٢٥ ألغي هذا الاتحاد ، وحلّت محله دولة سوريا ، المؤلفة من اتحاد دمشق وحلب ولواء الاسكندرونة ومنطقتي العلويين وجبل الدروز المستقلتين . وسنة ١٩٣٠ ، حصلت سوريا على دستور جمهوري. وسنة ١٩٣٦ ، حدّ من استقلال حكومتي العلويين وجبل الدروز . وسنة ١٩٣٩ ، سلمت فرنسا تركيا لواء الاسكندرونة المستقل .

أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ، أعلنت حكومة فرنسا الحرة سنة ١٩٤١ ، استقلال سوريا . وسنة ١٩٤٢ ، ضمت حكومتا العلويين وجبل الدروز المستقلتان الى الجمهورية السورية . وسنة ١٩٤٤ ، ألغي الانتداب الفرنسي . لكن سوريا بقيت تحت حماية فرنسية – بريطانية حتى نهاية الحرب . وأخيراً سنة ١٩٤٥ – ١٩٤٦ ، كرس جلاء القوات الفرنسية والانكليزية عن سوريا استقلال البلاد التام .

ب – فلسطين (١٩١٨ – ١٩٤٩)

ان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ، التي أدت الى تفكك الامبراطورية العثمانية ، وضعت حداً للسيطرة العثمانية في فلسطين وفي جميع أنحاء الشرق المتوسطي .

وكما أن قورش (٥٦٠ – ٥٢٩ ق. م.) ، ملك الفرس وفاتح الهلال الخصيب،

الذي كان يرغب بضم مصر اليه ، قد سمح لليهود بالعودة الى بلاد اجدادهم التي كان الأشوريون والكلدانيون أجلوهم عنها ، كذلك فعلت بريطانيا العظمى ، سيدة وادي النيل . اذ طمعاً بفلسطين ، وعدت اليهود بإقامة « وطن قومي » لهم فيها (وعد بلفور ١٩١٧) . وكان الرومان قد طردوهم من هذه البلاد ، فتشتتوا في أنحاء العالم منذ ما يقارب ٢٠٠٠ سنة . فبعد أن احتلت بريطانيا العظمى فلسطين عام ١٩١٧ ، حصلت من عصبة الأمم ، عام ١٩٢٢ –١٩٢٣ ، على حق ادارة البلاد بشكل انتداب دولي .

« كانت السياسة الانتدابية البريطانية ملتزمة ، منذ البدء ، بالالتزامات التي تعاهدت عليها بريطانيا العظمى مع اليهود ، في سبيل اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ... وبمقابل هذه الالتزامات نحو المنظمة الصهيونية ، كانت بريطانيا العظمى مرتبطة بوعد للشريف حسين بالاستقلال، بغية دفعه الى الثورة على الاتراك (١٩١٥) . وعلى اثر ذلك ، اعلنت الحكومة البريطانية ان فلسطين مستثناة من الاراضي التي وعدت بها العرب لاقامة دولتهم المستقلة (١٩٢٢) ، ... واكدت لهم مراراً رغبتها في اقامة حكومة مستقلة في فلسطين . لكن العرب ، الذين خابت آمالهم وقلقوا من هجرة اليهود الضخمة ، الذين بلغوا ٤٠٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٣٩ ، رفضوا التعاون مع الادارة الفلسطينية ... وقاوموا بعنف عام ١٩٢٨ و ١٩٢٩ و ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، فنشبت اضطرابات دامية في القدس ويافا وحيفا . وبالرغم من المقاومة العربية ، تابع الصهاينة مخططهم بنجاح ... وازاء مقاومة عربية لا هوادة فيها ، ارغمت بريطانيا العظمى ، وكانت قد ضاعفت حملاتها لقمع الاضطرابات ، على تأويل وعد بلفور تأويلاً اكثر حصراً ... ففي عام ١٩٣٩، نشرت الحكومة البريطانية « كتاباً أبيض » يقضي بتقييد هجرة اليهود وشرائهم للاراضي وبالنظر في اقامة دولة فلسطينية ، في مهلة عشر سنوات، يشترك بالحكم فيها العرب واليهود . لقد رافق نشر « الكتاب الابيض » سيل من الهيجان والعنف » [1] .

١) Minganti, **Filastin**, Encycl. de l'Islam, N.E. p. 934, 935

اثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) تردت الحالة في فلسطين . ان المهاجرين اليهود الذين ازداد عددهم بسبب المجازر الهتلرية في اوروبا ، منعتهم السلطات البريطانية من الدخول ، فشنت عليها المنظمة اليهودية السرية حملة ارهابية (١٩٤٦) . وفي عام ١٩٤٧ ، صوتت الجمعية العامة للامم المتحدة على خطة تقسيم تقضي باقامة دولتين مستقلتين ، احداهما عربية والثانية يهودية ، بالاضافة الى منطقة دولية في القدس ، باشراف منظمة الامم المتحدة . وبينما قبل اليهود بهذا التقسيم ، رفضه العرب ، فعاد الفريقان المتنازعان الى القتال .

وعام ١٩٤٨ ، تخلّت بريطانيا العظمى عن انتدابها واجلت قواتها عن فلسطين . فاستولى اليهود ، بقوة السلاح ، على منطقة البلاد الساحلية ، واجلوا منها العرب المواطنين ، واعلنوا نشوء دولة قومية اسرائيلية (١٩٤٨) . وفي عام ١٩٤٩ ، امر مجلس الامن التابع لمنظمة الامم المتحدة بوقف القتال بين العرب واليهود ، فوقعت هدنة في رودس وضعت حداً للاعمال الحربية (١٩٤٩) .

وهكذا ، وبعد طرد اليهود من فلسطين وتشردهم في انحاء العالم طوال ما يقارب ٢٠٠٠ سنة ، اعادوا بالقوة ، في ايامنا ، على ارض فلسطين ، التي كانت انتقلت من آرامية الى مسيحية ثم الى عربية واسلامية منذ ذهابهم ، اعادوا اقامة دولة تضم تحت سلطتها قسماً كبيراً من اليهود المشتتين ، الآتين من جميع اقطار العالم .

وكما ان الاسرائيليين قديماً(حوالي ١٢٠٠ق.م.) كانوا قد تسللوا الى ارض كنعان (فلسطين) ، فاصطدموا طويلاً بالكنعانيين المحليين ، وبالفلسطينيين على الساحل ، وبالعمونيين والمؤابيين والايدوميين في شرق الاردن ، وبالآراميين في سوريا ، كذلك الاسرائيليون في ايامنا ، عندما جاؤوا ليستقروا في فلسطين ، واجهوا مقاومة عنيفة من الفلسطينيين العرب ، المسلمين والمسيحيين ، مع مقاومة البلدان العربية المجاورة : الاردن وسوريا ولبنان ومصر ، الخ . لا يعتبر العرب اسرائيليي فلسطين اليوم جماعة قومية او دينية استعادت استقلالها القديم المفقود في وطن الاجداد ، بل دخلاء ومستعمرين اجانب اغتصبوا البلاد ، ولا

شيء مشتركاً بينهم وبين العرب الفلسطينيين .

ومع ان الاسرائيليين والعرب يتحدرون في الاصل من ارومة سامية ، وفي الوقت ذاته من جد واحد – لان تقاليد كلا الشعبين تعترف بأن يعقوب ، الملقب باسرائيل ، هو حفيد لابراهيم ، كما ان اسماعيل ، جد العرب ، هو ابـن لابراهيم – ففي ايامنا هذه ، نجد العرب الفلسطينيين والاسرائيليين المهاجرين يختلفون في اللغة والدين والثقافة ، وينتمون في الواقع الى مجتمعين عرقيين مختلفين ، بل متضادين . وبين هذين الفريقين المتجابهين حالياً في فلسطين ، لا يرجى ان تزول العداوة في وقت قصير من الزمن ، لان الجسم العربي لا يبدو مطلقاً انه مهيأ لاستيعاب هذا العضو الدخيل الذي الصق في حُضنه .

وبالنتيجة ، فان دولة اسرائيل الحالية ، بنظر العرب ، لا تمثل في فلسطين اعادة ابناء دولة اسرائيل القديمة ، التي كان سكانها من هذه البلاد ، بل هي تكوين سياسي اجنبي ، ومغامرة استعمارية ، انشأته وتحميه «الامبريالية» الغربية . فدولة اسرائيل ، انما هي في الواقع طبعة معاصرة ، وبشكل جديد ، لعملية استعمار الفرنجة الصليبيين ، الذين قدموا من اوروبا الغربية واحتلوا فلسطين ولبنـان وقسماً من سوريا ، واستغلوها طوال ما يقارب القرنين (١٠٩٨ – ١٢٩١) .

كتب (R. Grousset) قائلاً : «ان الهجرة والاستعمار الصهيونيين يبدوان وكأنهما اعادة لعملية الصليبيين . فمنذ جلاء آخر صليبي عام ١٢٩١ ، وارض فلسطين القديمة هذه ، التي اهملها حكامها الغافلون من المماليك والعثمانيين ، تستغرق في سبات غريب . وفجأةً هبط آلاف من الغربيين في يافا ، قاصدين تـل ابيب : وهم مجهزون باحدث اساليب الاقتصاد والعلم ، اذ هم يشكلون غالباً العنصر الاكثر تطوراً في البلاد الآتين منها . اليس على هذا المنوال بالذات ، منذ عام ١٠٩٨ حتى ١٢٩١ ، كان البندقيون والجنويون والبيزيون والقطلونيون والبروفانسيون يصلون الى ارض عكا ؟ فهؤلاء ايضاً كانوا الغربيين الاكثر يقظة في عهدهم . وكما ان الحملات الصليبية كانت خاضعة لمثالية مضطرمة ، كذلك نجد فكرة نارية تقود اليوم المهاجرين الصهاينة الى تل ابيب ، هارعين من

كافة انحاء العالم . فالاقتصاد العام ، وحتى طبيعة الارض ، تتجدد كلياً اليوم ، كما في فلسطين الصليبية ... ففلسطين الغربية انفصلت اليوم عن آسيا لتنضم الى اوروبا ، كما كانت الحال في زمن الصليبيين » [1] .

---

١) R. Grousset, **La Face de l'Asie**, p. 47

الفصل العشرون

خاتمة – لبنان وليد الجغرافيا والتاريخ

جبل لبنان

« جبل لبنان هو أعلى جبل في بلدان الشرق الادنى ، اذ يتجاوز ٣٠٠٠ م. ، كما هو الاكثر حظوة بالثروات المائية ، ... ينعم ، علاوة على هذا ، باتصال مباشر بالبحر المتوسط ، اذ تعلو سفوحه الموعرة خلجان الشاطىء ومرافئه ... وهــذا الطابع المزدوج ، الذي يجعل من لبنان الجبل العالي صنواً للاستقلال ، ومن لبنان الجبل البحري انفتاحاً على التأثيرات الخارجية ، يفسر لنا كون لبنان دعامة لبناء سياسي من اقوى المنشآت السياسية في الشرق الادنى ، ومن اكثرها اصالة »[1].

١ – البلد اللبناني بفرديته الاقليمية وكيانه الجماعي والتاريخي

ان لبنان في ايامنا ، كتكوين سياسي وقومي ، انما هو وليد الجغرافيا والتاريخ . فهو « الحصيلة » الحالية لتطور الشعوب التي عاشت في هذه البلاد منذ زمن ما قبل التاريخ . وارضه ، التي تؤلف فردية جغرافية طبيعية ، عملت بــدون انقطاع ، خلال الوف السنين الماضية ، لجعله كياناً جماعياً واقليمياً متميزاً ،

(١) X. de Planhol, Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, p. 41-43

مؤلفاً من مجتمع قومي وطني متجانس الى حد ما ، تحققت وحدته السياسية ، غالباً ، بارادة الجماعات الطائفية او الاجتماعية المختلفة التي تؤلفه ، بصرف النظر عن فكرة العرق او الدين .

فالاوضاع الطبيعية والاقتصادية ، التي الزمت سكان لبنان بنوع معين من الحياة والنشاط ووسمتهم بطابع خاص ، قد ميّزت هذا البلد عن باقي بلدان الشرق المتوسطي ، التي يعتبر جزءاً مكملاً لها . ان الاسباب ذاتها تؤدي ، بوجه عام ، الى النتائج ذاتها . « ففي نفسية الشعوب يوجد اساس من الثبات يظهر دائماً » (A. Siegfried) ، وهذه النظرية يؤيدها المؤرخون وعلماء الاجتماع مبدئياً .

فلبنان دولة فتية انبعثت منذ زمن يسير الى حياة الاستقلال . ومع هذا ، فهي من اقدم البلدان في العالم ، اذ ولدت « في التاريخ » منذ نهاية الالف الرابع ، في الوقت ذاته الذي ولدت فيه مصر ما قبل الفراعنة ودولة ارض الرافدين السومرية ، اللتان تعتبران مركزي اول التجمعات الزراعية والمدينية ومهدي اولى الحضارات التاريخية ، الجدات القديمة لحضارات العالم الحديث .

ومنذ فجر التاريخ ، وطوال التطور المتوالي عبر الالوف الماضية ، تميز سكان لبنان (من كنعانيين ، وفينيقيين ، ومن هم قبل اللبنانيين ، واللبنانيين) بذاتية جماعية قوية ، ذات صفات نفسية خاصة ، وذات رسالة بجوهرها تجارية بحرية وثقافية ، تربطها جميعاً ، في خطوطها العامة ، قربى وثيقة بخصائص اللبنانيين الحاليين .

وكمعظم البلدان الاخرى ، عرف لبنان ، عبر تاريخه الطويل ، حقبات من التجزؤ والكسوف الكلي تقريباً ، حيث كانت تدوم حقباته هذه قروناً بكاملها كان السكان يكابدون خلالها الدمار ويعانون العوز والعبودية . ولكن ما ان تزول الظروف القاهرة هذه ، حتى كان سكان لبنان القديم ، كسكانه في الوقت الحاضر ، يعودون في وضح النهار لرسالتهم الموروثة عن الاجداد وللطبائع المتميزة التي اتسموا بها دائماً عبر تطورهم الطبيعي السابق .

ويلاحظ توينبي « ان اللبنانيين الحاليين ليسوا خلفاء الفينيقيين بالمعنى الحصري

للكلمة ... ومع هذا فان الفينيقيين واللبنانيين الحديثين يمتلكون معاً تقاليد ومؤهلات غاية في الاهمية . فكلاهما افاد من ملجأ طبيعي — البحر للاول ، والجبل للآخرين — ، لكي ينصرفوا للاعمال التجارية بكليتهم . وكلاهما انشأ امبراطورية اقتصادية في الغرب ، وكلاهما اقام مستعمرات للتجار في جميع انحاء العالم الغربي المعروف في ايامه » .

٢ — العناصر التي تتألف منها الامة اللبنانية الحالية

أ — التركيب العرقي

بالمعنى المعروف في علم اصل الجنس البشري وتطوره (انثروبولوجي) ، لا يوجد عرق لبناني ، كما انه لا يوجد عرق سوري او عراقي او اغريقي او فرنسي ، الخ . فاللبنانيون هم ، كجميع الامم الحديثة تقريباً ، حصيلة امتزاج عرقي كيفته الوراثة ورسخته اوضاع البيئة اللبنانية الطبيعية ، حيث انصهرت العروق المختلفة ، التي استوطنت لبنان عبر القرون والاجيال ، في تركيب حقيقي حي لم تصل الى تحقيق كمال مماثل له سوى شعوب قليلة .

ومنذ الازمنة الموغلة في القدم ، كانت تتسلل جماعات بشرية من مختلف العناصر الى الاراضي اللبنانية ، بارادتها احياناً ومرغمة احياناً اخرى . وقد كانت تستقر هذه ، ممتزجة او مختلطة بالسكان الاصليين . ففي عهد الاشوريين والبابليين والفرس والاغريق والرومان والبيزنطيين العرب والاتراك السلجوقيين ، والفرنجة والمماليك والعثمانيين ، توافدت عناصر عرقية غريبة كثيرة ، اما في ازمنة متتالية او معاً ، الى الارض اللبنانية واستوطنت فيها . ومع هذه الهجرات المتكررة الى لبنان عبر الاجيال ، وبالرغم من الخليط العنصري الناتج عنها ، بقيت الطبائع العرقية القومية للجماعات اللبنانية دائمة ، بوجه عام ، في خطوطها الكبرى وفي كل العهود . وهذا الوضع الذي شهد له التاريخ ، يعود في الواقع الى ان عدد الوافدين الجدد كان ، في كل مرة ، ضئيلاً بالنسبة لعدد ابناء البلد ، كما يعود

الى حالات البيئة الطبيعية التي تكيف الطبائع القومية وتثبتها وتستوعب الغرباء فيها خلال وقت ما ، فتمتصهم بيئتها الطبيعية لتحولهم الى مواطنين مكتملي الشروط والسمات ، ذوي صفات دائمة .

والخلاصة ، ان البشر الذين يسكنون لبنان يؤلفون مزيجاً عرقياً ونفسياً مركّباً ، وقد ترسخ ثباته مع الزمن والعوامل الجغرافية المحلية . وان « عناصر هذا المزيج تتكامل وتتعادل منذ اجيال ، بفضل تعايشها معاً وتبادلها التجارة وخلافاتها وتجاربها ومصائبها المشتركة » .

ب – الدين

ان الوحدة اللبنانية غير مبنية اذن على العنصرية ، وكذلك هي غير قائمة على الدين . فمنذ الازمنة القديمة ، وفي كل حقبة من تاريخه الطويل ، كان لبنان يقبل بدون انقطاع جماعات تتفرد كل منها بذاتية خاصة وتدين بعقائد مختلفة . لكن حب الحرية الذي يتميز به اللبناني ، كان يحمله دائماً على تبني العقائدالدينية والفلسفية والسياسية المختلفة ، وعلى احترام هذه العقائد لدى الآخرين .

ومن الخطأ ان يقال ، كما يحدث غالباً ، ان دور لبنان الحالي كملجأ أو ملاذ للاقليات الطائفية انما هو علة وجوده واستقلاله السياسي . ففي الواقع ، نجد ان العكس هو الصحيح . فعلى مر الوف السنين الماضية ، رأينا ان تعدد التجمعات الطائفية في هذه البلاد انما هو احدى ثوابت تاريخها ، وهو ليس سبباً بل نتيجة لوجودها . اما العلة الجوهرية لهذه الظاهرة فهي كامنة ، كما بينا اعلاه ، في تأثيرات العوامل الطبيعية الثابتة ، التي مهدت دوماً لتكوين جماعات طائفية متميزة ، متماسكة فيما يشبه الاتحاد . وضمن هذا الاتحاد ، تحافظ كل جماعة على شخصيتها الجماعية وعلى معتقداتها الخاصة وعلى استقلالها الداخلي ، ضمن اطار المجتمع القومي او السياسي العام .

ج – الارض اللبنانية ، هي العامل الاساسي للوحدة القومية

ان الوحدة القومية اللبنانية كوحدة معظم البلدان المتطورة في العالم الحديث ، وبنوع خاص كالوحدة السويسرية ، تتأتى عن تكيف مختلف التكتلات الاجتماعية والطائفية القديمة العهد مع الارض والمناخ ووضع البلاد الجغرافي ، هذه العوامل التي حركت وكيفت وثبتت ، بدون انقطاع في الماضي ، نمطاً موحداً تقريباً من الحياة والعمل والعقلية والثقافة والتقاليد المتشابهة .

فالعامل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي انما هو رباط الوحدة القومية اللبنانية ، اكثر بكثير من العامل العرقي والديني او السياسي . فقوة القومية اللبنانية لا تقوم على العنصر والدين والدولة والمشاعر الوطنية ، بقدر ما تقوم على العائلة ، وبنوع خاص على الافراد الذين ، عدا تعلقهم الخاص بفرديتهم وبجماعتهم الطائفية ، يرضون بالعيش معاً ، في اطار بلدهم الجغرافي ، وبالتعاون ، بملء حريتهم ، في الحقول الاقتصادية والثقافية والسياسية ، بالرغم من جميع الفوارق التي تميزهم .

ويمكننا القول ان الادراك الاساسي للوحدة القومية اللبنانية انما هو مفهوم «الوطن الارض» . فهذا المفهوم ، الذي بفضله يشعر جميع القوميين بانهم أبناء ارض واحدة ، هو كفيل وخليق بان يجمع ، في وحدة قومية ، جميع القوى والارادات لمختلف فئات الشعب ، مهما يكن اختلاف العنصر والدين بين هذه الفئات .

٣ – الطابع الاصيل للامة اللبنانية

لقد كان تاريخ شعوب لبنان يتطور ، في الالوف الخمسة التي استعرضناها ، تحت تأثيرات العوامل الطبيعية المركبة التي تتصف بها هذه البلاد : اي الجبل والبحر والمناخ والموقع الجغرافي . لكن هذه الاوضاع الطبيعية لا تكفي لشرح لبنان ودوره الخاص ، اذا نحن لم نراع بنوع اخص هذه الناحية ، وهي ان لبنان ، بفضل موقعه ، له ميدانان او واجهتان تجعلان منه ، في وقت واحد ،

بلداً برياً وبحرياً ، شرقياً ومتوسطياً . وقد نتج عن هذا الاتجاه المزدوج توازن خاص فريد من نوعه تقريباً ، كان ، في كل حين ، يترك اثراً في الشعوب اللبنانية ويكيف تطورها المتتابع عبر الاجيال .

فكون لبنان بلداً برياً قارياً ، ملتحماً جغرافياً بالشرق الآسيوي ، فهو مشدود الى هذا الشرق بروابط طبيعية لا يمكن تحطيمها . فمن هذه الناحية هو قاري شرقي وآسيوي . ولكونه ، من الناحية الجغرافية والاقتصادية والثقافية والتاريخية، قطعة اساسية من الخارطة السياسية والعسكرية للشرق العربي ، فهو ايضاً جزء مكمل من هذا الشرق . والتاريخ برمته، قديمه وحديثه ، يشهد بأن لبنان عنصر لا غنى عنه من عناصر كل خطة سياسية او عسكرية في الشرق العربي .

ومقابل هذا ، يتطلع لبنان الى الخارج ، الى الافق البعيد ، منفتحاً على البحر الازرق من خلال واجهته المتوسطية ، تجذبه جواذب غير قارية ، فينطلق بمغامراته البعيدة باتجاه ما وراء البحار . فلبنان الساحلي هذا ، المنفتح على البحر ، التوسعي والاستعماري ، الذي يتصل مباشرة بافريقيا واوروبا واميركا ، ينتمي الى مجموعة حضارات حوض البحر المتوسط . وهذه الحضارات هي اسلاف الحضارات الغربية الحديثة ، التي اسهم لبنان ، بطريقة مجدية ، بتطويرها عبر الآلاف الماضية من السنين .

ومن جهة أخرى ، نجد أن جوار لبنان للبحر ، قد نمّى بين أبنائه ، كما في جميع البلدان المماثلة ، طرازاً خاصاً من الحضارة والاقتصاد ، اي مجتمعاً بحرياً تجارياً يتجه نحو التبادل الاقتصادي ، وبالتالي يكون مفتوحاً للبضائع وللأفكار الواردة من الخارج . هذا المجتمع هو محب لجميع البلدان ، ديمقراطي ، متسامح ، متحرر ، معتدل ، ومولع بالتقدم وبالحياة الفكرية والفنية . وقد كانت الحضارة الهلنستية في العالم القديم تمثل أنضج تجربة لهذا النوع من المجتمعات .

ومقابل ذلك نجد أن الأقاليم القارية تعمل بين أبنائها لانماء طراز من الاقتصاد والحضارة يختلف عن الطراز السابق ، ولربما يعارضه . ويتمثل هذا الطراز

بمجتمع مغلق ، قومي محض ، يكره الأجانب الى حدّ ما ، ومنطو على ذاته . وما يوحّد أفراد هذا المجتمع إنما هو تضامن اثنيّ متين ، قومي ، ديني ، ثقافي وسياسي ، تفرضه الدولة أو القبيلة . ويكون هذا المجتمع اقطاعياً ، محباً للسلطة وللسيادة ، وهو توسعي عسكري ، محب للحروب والفتوحات . ثروته الوحيدة هي الأرض ، والوسيلة الوحيدة لانمائها انما هي الفتح . وفي الأزمنة القديمة ، نجد الحضارة الأشورية أشهر مثال لهذا المجتمع .

وخلاصة هذه الملاحظات هي أن لبنان ليس بلداً متوسطياً بحرياً بوجه تام ، كما ليس قارياً شرقياً كاملاً . وإنما هو مركب من العناصر المختلفة التي يتكون منها المجتمعان المذكوران معاً . وبهذه الميزة الخاصة ، يمتاز لبنان من كامل بلدان الشرق المتوسطي أو العربي ، التي هي بكليتها قارية تقريباً . وبفضل هذه الشخصية المزدوجة ، نجد للبنان مقدرة على مخالطة البلدان الغربية ، لا يوجد مثيل لها لدى جميع الشعوب الشرقية . وكذلك لنقل عن مقدرته على مخالطة الشعوب الشرقية ، وبخاصة العربية منها ، فهذه تفوق مقدرة جميع شعوب حوض البحر المتوسط والغرب . ولكون لبنان متصلاً جغرافياً وثقافياً بالعالم العربي ، نراه قريباً من الجو العربي بطبيعته ونفسيته . وهذا الجو لا يدهش لبنان ، حتى ولو ان يحمل له غالباً بعض المخاوف .

إن علاقات لبنان بالبلدان القارية ، كما علاقاته ببلدان ما وراء البحار ، هي إلزامية في الاتجاهين معاً ، لكونها مفروضة عليه من خلال حاجات وجوده الحيوية . فالتدهور الاقتصادي وعدم الاستقرار السياسي في البلدان القارية يؤثران على اقتصاد مدن لبنان الساحلية وعلى حركتها التجارية . كما أن اغلاق البحر ، من ناحية أخرى ، يؤدي ، بقضاء محتوم ، الى انهيار حركة المرافىء اللبنانية التجارية والساحلية والى خنق اقتصادياتها . واذا ما انحصرت موارد اللبناني بالمواسم الزراعية وحدها ، ولأن مساحة أرضه الصالحة للزراعة ضيقة نسبياً ، فعليه عندئذ أن يرضى بحياة اقتصادية متوسطة ، كتلك التي كان يهرب منها غالباً ، في الماضي كما في الحاضر ، بهجرته الى بلدان ما وراء البحار .

وينتج عما سبق أن الطابع الأصيل للنفسية اللبنانية يتأتى عن اختلاف العوامل الطبيعية لمحيطه الخارجي ، وعن نمط الحياة الذي تفرضه هذه العوامل .وقصارى القول إن الموضوع هو موضوع مجموع متناقض ، لكنه متماسك ، يتجه في الوقت ذاته نحو القارة ونحو البحر ، نحو الماضي كما نحو المستقبل . وبناء على ذلك ، وعندما نتكلم عن وجه لبنان الحالي المزدوج وعن طابعه الأصيل ودوره الخاص ، لا يكفي أن نفسّر هذه القضايا وكأنها عبارة عن الوحدة السياسية لطائفتيه الكبيرتين ، المسيحية والاسلامية . فواجهتا هذا البلد الصغير الجغرافيتان، اللتان تنفتح واحدة منهما على البحر والعالم الغربي والأخرى على القارة والعالم الشرقي ، بالاضافة الى المظاهر المعقدة التي يحدثها هذا الاتجاه المزدوج في الحقول الاقتصادية والنفسية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، باستقلال تام عن فكرة العنصر أو الدين ، هذه جميعاً تفرض على اللبنانيين وحدتهم الاجتماعية والقومية والسياسية .

وفي النهاية « ان قسمات لبنان الطبيعية هي في أصل ثرواته البشرية . فالجغرافيا إنما هي التي مكّنته من الولادة وأمنت بقاءه ... وفي هذا المجموع ، كلا الجبل والشاطىء له دوره الخاص . فالجبل يضفي على البلد سمة ذاتيته الأساسية ، فيكون الخلوة السياسية والعسكرية التي تولّد الاستقلال ... والشاطىء ومرافئه وسهوله انما هي اساس اقتصاده ... الوحدة في التنوع ... الجو النفسي يتفق والجو الجغرافي . وان في الاقتصاد أو في السياسة ، نجد في كل مكان هذا الانجذاب المزدوج : فهو كان محفوراً منذ البدء في الوضع الجغرافي ».

تم طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧٣
على مطابع ا. بدران وشركاه - بيروت - لبنان